كِتَابُ

الأَثَر الجلَيل
لقُدمَاء وَاديُ النُيل

تأليفُ

حَضْرةَ أحْمَد نجيبَ

مُفتشُ وأمين عُموم الآثار المصريَة

الكتاب: الأَثَر الجَليل .. لقُدمَاء وَاديُ النُيل

الكاتب: حَضْرَةَ أحْمَد نجيبَ

الطبعة: ٢٠٢١

صدرت الطبعة الأولى عام ١٨٩٠م

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

نجيبَ ، حَضْرَةَ أحْمَد

الأَثَر الجَليل .. لقُدمَاء وَاديُ النُيل / حَضْرَةَ أحْمَد نجيبَ

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣٤٦ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٩٣ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٧٦٧١ / ٢٠٢٠

الأَثَر الجَليل

لقُدمَاء وَاديُ النُيل





خطبة الكتاب

حمد الله أسنى المحامد وشكره أسمى المقاصد واسمه فاتحة كل مقال وثناؤه مقدمة كل أمر ذي بال سبحانه جل شأنه وتقدَس سلطانه .. أنزل صحف الآثار مقرة عن أخبار الأخبار.. قد دلتنا آثار صنعته على مآثر قدرته وأنبأتنا براهين حكمته بثبوت وحدانيته تعالى .

الله ماله ولد ولايشركه في حكمه أحد ولايجمعه عدد ولا يخصصه الزمان ولا يشمله المكان ولاتحيط به الظنون ولاتراه العيون ولا تدركه الأفهام ولاتصوّره الأوهام ولاتغيره الأحوال ولا تمثله الأشكال ونصلي ونسلم على جوهرة نور الأنبياء وواسطة عقد الأصفياء مُحَمَّد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه الطاهرين صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين ، ثم نرفع لك ياذا الجلال أكف الضراعة والإبتهال متوسلين إليك بحرمة نبيك المصطفى وحبيبك المرتضى أن تديم لنا ملك عزيز مصرنا ومليك عصرنا رب المحامد والمآثر من عقدت على محبته الخناصر ذو القدر العالي والكوكب المتلالي رب المعالي دوحة المجد وحليف السعد نادرة الدهر وتاج عر الفخر صاحب الهمة التي لاتجاري والحسنات التي لا تباري المحفوظ بالسبع المثاني أفندينا (عباس حلمي الثاني) دامت أيامه وإرتفعت أعلامه ولازال الدهر يخدمه والسعادة تلازمه وأيده اللهم برجال دولته الكرام ووزرائه الفخام ما يقسم الرياض للغيث المدرار وخطب الهزار على منابر الأشجار آمين.

(وبعد) فيقول راجي عفو ربه المجيب المفتقر إليه تعالى أحمد نجيب مفتش وأمين الأثار بعموم هذه الديار إليكم يا أولي الأبصار عجالة وطنية ، جادت بها يد الأقدار وغزالة أثرية قيدتها حبالة الأفكار بل غادة هيفاء أو دوحة فيحاء أغصانها أفنان وثمارها ألوان ضمنتها لطائف الأخبار ومحاسن الآثار وجعلتها منفعة عامة للخاصة والعامة وسميتها (الآثر الجليل لقدماء وادي النيل) فهي خدمة وطنية شريفة وفكرة علية منيفة لم يسبقني لها من أبناء جلدتي مصنف ولم يوم إليها بالتأليف منهم مؤلف ، ولم يرشدني مرشد إلى هذا الطريق ولم يدلني إليه صديق أو رفيق بل مجرد إشارة صدرت إليّ من حضرة العالم المحقق والتحرير المدقق المسيو (دي مرجان) مدير عموم الاثار المصرية الآن فقابلت أمره بالطاعة ، وبذلت في مرضاه كل الاستطاعة وعزمت على السير ولم أزجر الطير وقلت وبالله التوفيق والهداية لاقوم طريق ثم أخذت في التأليف وأشغالي تنازعني

وأسفاري تمانعني والغربة تثني عزمي والمشقة تثلم حد جزفي .

ومازلت أواصل الأسفار وأستطلع نصوص الأسفار وأراجع طوامير الآثار وأقتفي منها الأخبار حتى تم لى المرغوب وكانت حاجة في نفس يعقوب وسهلت فيها طريق الوصول بالأبواب والفصول ، حتى جاءت بحمد الله كدرّة أخرجت من الصدف أو بدر تمّ تجرّد عن الكاف ثم عرضتها على صاحب الهمة للطائف سعادة يعقوب باشا أرتين وكيل المعارف فوقعت لديه موقع القبول والإستحسان وأمرني بتدريسها لكل من يريد من الشبان سيما أبناء مدرسة دار العلوم وتلامذة المدارس العليا على العموم ..

وها هي كعروس تجلي وأنباؤها تتلى والأمل ممن يلافيها ويمعن النظر فيها أن يعفو عما كفى به الجواد في ميدان الإجتهاد ويحمله على التأويل أو يصفح الصفح الجميل لأنّ أوّل ناس كان أوّل الناس وها أنا معترف بكسوف شمسي وما أبرئ نفسي وإليكم يا ذوي الكرامات ما قاله صاحب المقامات.

سـامح أخـاك إذا خلـط   منـه الإصـابة بالغلـط

وتجـاف عـن تعنيفـه   إن زاغ يومـاً أو قسـط

وليس لي غير أن أقول العذر عند الكرام مقبول.

المؤلف

المقدمة

إن من البواعث التي حركت همتي وأيقظت عواطف حميتي إلى تأليف هذا الكتاب المختصر والسلوك في طريقه المبتكر هو أني لما تعينت في مصلحة حفظ الآثار التاريخية بعموم الديار المصرية ، توجهت نحو الصعيد لأداء وظيفتي والقيام بأعباء مأموريتي وجبت جميع الأطلال بالسهول والجبال ، وقاسيت الأخطار لإلتقاط الأخبار ألفيت بعض الجهلة والرعاع السفلة تعدّوا على الآثار بالتخريب والدمار لا يمنعهم مانع ولايدفعهم عنها دافع ولا يقبلون النصيحة ولا يخشون عار الفضيحة ، وقد بذلوا في ذلك الهمة ولم يرقبوا فيها إلا ولاذمة ونبشوا الأموات، ونشروا العالم الرفات وهدموا العمارات الشامخة وأتلفوا مبانيها الباذخة ونزعوا الفصوص وباعوها وشوّهوا النصوص ولم يراعوها ومدّوا أيديهم إلى الخانات الملوكية فصارت أصحابها مجهولة بالكلية كأنها لم تكن من بقايا أجدادهم أو بنيت في غير بلادهم ..

فبحثت عن الأسباب ودخلت البيت من الباب ولما اقتفيت الأثر واستطلعت الخبر علمت أن هؤلاء القوم كأنهم في سنة من النوم لا يفرقون بين الغث القبيح والثمين المليح ، ولا يعرفون فائدة العلوم ولا منفعة العموم وزعموا أن جميع مابقى من تلك الأزمان رجس من عمل الشيطان وقالوا ما فائدتها وقد بادت أربابها وذهبت أصحابها وتجردت عن الزينة والنقوش وصارت مأوى للوحوش وعربت عن الفوائد وسكنتها الأوابد وجهل الناس قدرها وأساسها قد وهى أو لبس الانتفاع بأنقاضها أنفع ومحو آثار الشرك أسمى وأرفع أما هذه النصب والأوثان ، فقد أحدث بينهما الظربان وبل على وجهها الثعلبان وقد أجمعت الآراء على نبذها بالعراء ومالها عندنا من الإكرام إلا إستئصالها والسلام ، فقل ما تشاء والحق معنا بلا هراء فأجبتهم إن هؤلاء المباني التي جهلتم مقدارها وأعفوتم آثارها وجعلتم وجودها عبثاً وإتخذتم طيب شميمها خبثاً وتحالفتم مع الدهر عليها وفوقتم سهام الشر إليها وأنزلتموها من أوج الفخار إلى حضيض الدمار ، ليست إلا زينة عصركم وبهجة مصركم وحلية وأدبكم وفخر ناديكم وآثار أجدادكم وأخبار بلادكم وعازم الأوائل العذبة المماهل وتاريخ من سلف وحجة من عرف إذا سئل أجاب وأبدى العجب العجاب فهي حسنة من حسنات الدهر ومأثرة من مآثر ذلك العصر هل في غير وادي النيل تجدون تلك التماثيل أم جادت يد الأجانب بمثل تلك المساطب وهل بني بتوسام غير هذه الأهرام ؟ أم هل شاهدت لهم الأوائل ما يضارع تلك الهياكل ؟ وهل سمحت لهم الأوقات فجاؤا

يمثل المسلات ؟ أم هل يعهد في سائر البلاد ما يضاهي هؤلاء العماد ؟ وهل قامت البراهين على أصح من أخبار المصريين ؟ وهل لدى من سوانا آثار تسنفرله عن حقيقة تلك الأعصار ؟ وعلى كل فما الحكم على من نبش القبور وباع جثث الإناث والذكور وأتى البيوت من غير أبوابها وأخذ متاع أصحابها أونشر الموتى فوق التراب وجعلها طعمة للوحوش والكلاب وعرض نفسه للنكال ومات مدفوناً تحت الرمال وأتلف بهجة المناظر وخالف الأوامر وتعدّى على حقوق الحكومة ، وهي لديه ثابتة معلومة وسعي في التدمير والخراب وباع زينة وطنه إلى الأغراب ورضي منهم بالثمن القليل وجعل الأخبار قابلًا للتأويل .

أما تعلمون أنها إشتملت على معارف وعلوم ما بين منطوق ومفهوم وأن أصابها كانوا غرة في جبهة الدهر ودرة في إكليل الفخر وهم الذين دوخوا البلاد وقهروا العباد وجابوا الآفاق وشدوا من عدوهم الوثاق وإنها لتاريخ مصر أعظم مصباح ولولاها لكان هشيماً تذروه الرياح وإنها مخبرة بالمصير وما إليه نصير وإن من أهلها من ذكر في القرآن على لسان سيد ولد عدنان ففي رؤيتها خير الخير وتصديق الأثر وإن الصحابة وهم أعلام الهدى وحجة كل من إهتدى لم يتعرضوا لدمار تلك الآثار ثم خلفهم السلف الصالح والعلما ولم يحكموا فيها بشئ ما وكانوا بها يتذكرون في المآب وفيما فعلته تلك الأحقاب ثم يبتهلون بالتوبه ويخلصون إليه الأوبه ومازالت تتلقفها أيدي القرون إلى أن باءت بينكم بصفقة المغبون آنبؤني بالله أما بقى عندكم من الباقيات الصالحات غير نش الأموات وإتلاف العمارات وبيع الأنتيكات وموالاة الأسفار لتعفية الآثار وطمس معالم الأخبار وتكسير الأحجار وتشويه محاسن الديار .

مهلًا يا أيها الوطنيون ثم مهلًا ولا تجعلونا لملامة أهلًا فإن عيون الأجانب ترمقنا من كل جانب وألسنة الأقلام تسلقتا بغليظ الكلدم وتنسبنا إلى فعل الرذائل وتجردنا عن الفضائل فقد قالوا أننا بعنا آثارنا وأبلينا محاسن ديارنا وأعرينا بلادنا من بقايا أجدادنا فإن جحدتم ما جرى وقلتم هذا حديث يفترى أقيموا لنا البرهان ودونكم والميدان وكأني بعدوّ جاهل أو حسود منغافل بخشن لي في الكلام ويلسعني بحمة الملام ويقعد لي بالمرصاد ويتغافل عن المراد ويقول ما فائدتنا في ذكر كيت وكيت .. وما لنا وهذا التبكيت ألم يأن لك أن تقلع عن هذا الحديث وتستبدل ذكر القديم بالحديث ، فإني أراك تأسف على الأحجار وأصحابها من الكفرة الفجار الذين هم صالوا النار هل حفظها يتعلق بالدين أم يحفظ لنا حسن اليقين أم إتلافها يورث سوء الخاتمة أو لا تقوم لمن يزدري بها قائمة تلك أمة قد مضت وأيامها إنقضت فإترك لنا سيرة هؤلاء القوم وأخبرنا

بأفعال أهل اليوم وما دري أن في المحافظة عليها فائدة كلية وخدمة شرفية وطنية ، وأن أخبار مصر القديمة تتعلق بها أعالي الهمم من أهالي جميع الأمم فإن علماء كتب الأسفار يختلفون إليها بالأسفار لتحقيق أخبار الآثار وآثار الأخبار.

فضلًا عن أن أكابر الدول ورؤساء المال يقطعون إليها المراحل الطويلة ويبذلون لمشاهدتها الأموال الجزيلة ويتنافسون في أحراز تلك الفصوص ومعرفة معاني النصوص ويعلمون تواريخ مصر لأطفالهم ويدرسون قلمها القديم لبعض شبابهم ورجالهم مع أنه منا غير بعيد وأقرب إلينا من حبل الوريد فنحن بذلك أحق وأحرى وصاحب الدار يلزم أن يكون بأحوالها أدرى وما علينا إلا أن ننهض لمعرفتها نهضة الشهم ونضرب لنا فيها بسهم لعلنا نشارك أهل المغرب ونكون في هذا العمر كعنقاء مغرب ونعرف المزية ونقوم بحق الوطنية وربما أصبح بذلك خامل الذكر نبيهاً وكان عند الله وجيهاً وها أنا بذلت لكم جهدي وسأقص عليكم من أخبارها ما يجدي وعلى الله الإعتماد والهداية إلى سبيل الرشاد أنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

تنبيه –لما كان أبناء وطننا لا يهتمون برؤية شيء من آثار بلادهم ولا فرق في ذلك بين غنيهم وفقيرهم وأن من رأى شيأ منها ما كان إلا من باب الصدفة التي تنوعت أسبابها وجب علينا خدمتهم بذكر رحلة من مصر إلى جزيرة أنس الوجود في جنوب أسوان يبين لهم فيها أهم ما وجد في بلادهم من مآثر أسلافهم نجعلها فصولًا في آخر أبواب هذا الكتاب تسهيلًا لمن أراد الوقوف على حقيقتها من الطلاب.



الفصل الأول

ملحوظات عامة على النيل ومصر وأصل سكانها

يا خليلـــــيّ ذكـــــراني بســـــعدي	وأســـعداني بـــذركر ســـكان ربعـــي
فـــــأتني أن أرى الـــــديار بعيـــــني	فلعلـــــي أرى الـــــديار بســـــمعي

إعلم أن مصر واد غريب الآثار عجيب الأخبار يحده شمالًا البحر الأبيض المتوسط وجنوباً بلاد السودان وشرقاً جبال العرب وغرباً جبال برقه أوليبيا اللذان يكونان متقاربين جداً من أسوان وإسنا حتى يكادا أن يتماسا ثم ينفرجان قليلًا قليلًا وكلما إمتدا إلى الشمال إنفرجا عن بعضهما إلى أن يحاذيا القاهرة فيتجه أحدهما إلى الشمال الشرقي حتى ينتهي بهضبات الشام وبجبال لبنان ويتجه الآخر إلى الشمال الغربي حتى ينتهي بجبال المغرب والنيل ينساب بينهما ويتشعب بأسافل الأرض فيروي جميع مصر ويصب في البحر الأبيض المتوسط.

وهو يتكون من فرعين عظيمين أحدهما البحر الأبيض وهو أطولهما فيأتي من الأمطار الدورية المنهمرة على الجبال الشامخة المحيطة بوسط أفريقيا من الجنوب والشرق فتنتج مياهه على هيئة سيول متدفقة تجتمع مع بعضها في بطن الوادي وتصير بحيرات متسلسلة متواصلة يعلو بعضها بعضاً ثم يتجه إلى الشمال وتمده الأنهار بمياهها من اليمين والشمال ومتى جاوز هذا الإقليم مرّ بوسط تلك الفدافد والبيداء وإخترق كثيراً من الأحراش والغابات وقطع البطحاء والمستنقعات ثم يخرج منها و يميل قليلًا إلى الشرق كأنه يقصد البحر الأحمر فتصده الجبال والصخور ويستقيم ثانياً حتى يجتمع بالفرع الثاني وهو البحر الأزرق عند قربة أم درمان بالقرب من الخرطوم ثم يتجه إلى الشمال فيلتقي مع نهر تكازا أو أتبرا بالقرب من قرية الدامر وهذان النهران يأتيان من بلاد الحبشة فيصير بهما نهراً عظيماً متلاطماً بالأمواج وإلى هنا يسمى بالنيل الأعلى ثم ينعطف إلى الغرب وينصدم في سهول البادية الكبرى ويميل إلى الجنوب ثم إلى الشمال ويعرج في سيره تارة إلى الشرق وأخرى إلى الغرب ويمر بجملة جنادل نعرف بالشلالات وآخرها شلال أسوان وإلى هنا يسمى بالنيل الأوسط ثم يمر بأرض مصر ويتفرع عند القناطر الخيرية إلى فرعين عظمين أحدهما يتجه إلى الشمال الشرقي ويصب في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من

ثغر دمياط ويسمى فرع دمياط والثاني يتجه إلى الشمال الغربي ويصب في البحر الأبيض المتوسط أيضاً بالقرب من ثغر رشيد ويسمى فرع رشيد. وكان له فيما سلف سبعة أفرع وسبعة مصبات وهي

أولها الفرع البوبسطي ويعرف الآن بترعة أبومنجا وكان يصب في البحر بالقرب من قرية الطينة أو الفرما ومكانه ظاهر إلى الآن.

ثانيها الفرع الطانيتيكي ويعرف الآن ببحر مويس.

ثالثها الفرع المنديسي ويعرف الآن ببحر أشمون الرمان ويصب في بحيرة المنزلة.

رابعها الفرع الفاطميتي وهو المعروف الآن بفرع دمياط.

خامسها فرع السبنيني ويعرف الآن بترعة مليج.

سادسها الفرع البلبيتيني وكان جزء من فرع رشيد يخرج من الفرع الكانوبي الآتي ذكره بالقرب من بلدة الرحمانية بمديرية البحيرة ويصب في البحر الأبيض المتوسط.

سابعها الفرع الكانوبي ويسمى أيضاً الهرقليوتيكي أو النقراتيكي وهو عبارة عن فرع رشيد ومبدؤه رأس مثلت الدلتا أو روضة البحرين فكان يجري حتى محاذي بلدة الرحمانية ويتفرع إلى فرعين أحدهما الفرع البلبيتيني وقد مر ذكره والثاني يتجه إلى الشمال الغربي حتى يدنو من جبال لبيا ويصب في البحر الأبيض المتوسط وبعض مجراه يعرف الآن باسم ترعة المحمودية وأما باقيه فقد ردم وصار أرضاً زراعية.

ولهذا النيل المبارك في كل سنة منظران متنوّعان جدّا.

أحدهم زمن التحريق فتراه في ذلك الوقت وقد إنحصر بين ساحليه وقل جريانه وتغير ماؤه وتعرج في سيره ورسب طميه وراق من الأكدار وظهرت به جزائر قحلاء شوتها حرارة الشمس مراراً بجمرتها أما الصعيد وما أدراك ما الصعيد فينضب ماؤه ويصير أرضاً جرزاً وصعيداً أقفر وتنش الترع وتشتدّ به حرارة القيظ ويجف العود الأخضر وتعصف الرياح الغربية الهابة من الصحراء وتعرف بريح السموم أو الخماسين فيقتم الغبار ويعلق التراب بورق الأشجار ووجوه المارة ويبقى الأمر على ذلك والناس تشرب من الآبار والسواقي حتى يسعفها النيل بفيضه العميم أو تهب ريح الشمال فتطفي لطي ذلك الجحيم.

ثانيهما زمن الزيادة أو الفيض ويبتدئ بتغير لون الماء إلى الخضرة فتصير غروية كابية اللون مائلة إلى الملوحة مغثية مضرة بالصحة بعدما كانت بالأمس صافية لذيذة سائغة للشاربين وسبب ذلك أن مياه الفيض تطرد أمامها ماء المستنقعات الراكدة المتخلفة من العام الماضي في جنوب بلاد السودان بعدما أذابت فيها الأعشاب والغثاء وبعض عظام الحيوانات فتؤثر على الصحة وتحدث ألماً شديداً في المثانة ولا يمكن الإنسان أن يتخلص من هذا الضرر إلا بغليها أو ترشيحها ثم يأخذ النيل بعد ثلاثة أو أربعة أيام في الزيادة والحمرة وكلما زاد ماؤه زادت حمرته حتى يتخيل للرائي أنه بحر من دم كدر مركز بالطمي فعند ذلك يحمد ترويقه وفي ذلك الوقت يكون منظره أبهج المناظر وأشرح للخواطر ثم تهجم جيوشه على السواحل لا يمنعها عنها مانع ولا يدفعها دافع فتسحلها سحلًا وتزحف جنوده الميمونة الطلعة على تلك الأراضي القحلة فتلقحها بالخيرات والبركات وتبيد منها الوحشة والحزن فما تسمع إلا دوي وقع الحروف وهدير القناطر وعجيج الأمواج وتصفيق المياه وخرير السدود وتغريد الطيور مبشرة بقدوم الهناء وهمس حركات الأسماك الفضية اللون وصرير الحشرات والزواحف وكأن الحياة دبت ثانية في كل ذي روح فتنشط الناس وتدرج السوائم وتدب الدواب وتأخذ الحكومة في التدبير لصد صولته ورد جماحه وإدخاله تحت عادل قانونها فيدوم على ذلك برهة وكأن أيامه من حسنها أعراس ثم يرجع القهقرى رويداً رويداً ويغادر الأرض بعدما ترك عليها من فيض إحسانه طبقة لطيفة من الطمي المخصب لها ويلازم ساحليه فتلبس أرض مصر حلتها السندسية ذات النفحة المسكية مطرزة بالأزهار ومزررة بالأزرار وغير ذلك مما هو معلوم لدينا ومنبوت أمر ما لينا ومما نسب للمرحوم رفاعه بك.

كلفت بوصل النيل مصر فأنتجت	من يانع الأثمار كل ربيح
لو واصل النيل الصحاري أنجبت	ولكنها ألفت وصال الريح

وبالجملة والتفصيل لولا هذا النيل وماؤه الفياض لكانت أرض مصر سجناً عميقاً لا تصلح للزرع ولا للسكن وعلى ذلك إتفق علماء الآثار الباحثون عن أحوال مصر وتواريخها أن هذا الوادي كان في مبدأ أمره خليجاً يغمره ماء البحر الملح فتسلطت عليه عوامل النيل ورفعت من قدره ما إنخفض وطمته بطميهما السنوي شيأ فشيأ حتى صار أرضاً زراعية طيبة مباركة وقال هيرودوت المؤرخ اليوناني الشهير أن مصر هدية من النيل عندما أخبرته الكهنة أنه في مدة إستيلاء الملك منا على منصة الحكم بديار مصر كانت أمواج البحر الملح تضرب في صخور

الجبل الشرقي والغربي حيث أهرام الجيزة الآن وأن باقي الوادي كان مستنقعاً وأراضي مستعجرة مضرة بالصحة.

وقد ظهر الآن بالحساب أن النيل يزيد في عرض أرض الدلتا أو روضة البحرين في كل سنة متراً واحداً حتى بلغ الآن ثلاثة وعشرين ألف كيلو متر مربع حدث من الطمي الذي جلب النيل معه حبه حبة من أقاصي بلاد السودان ووسط أفريقيا فينتج من ذلك أنه لابد أن يكون مكث سبعمائة وأربعين قرناً أو أربعة وسبعين ألف سنة حتى بلغ هذا المقدار.

ولما كانت هذه المدة بعيدة جداً عن التصور العقلي قال بعض المؤرخين أن مياه النيل كانت فيما سلف أغزر طمياً وأكدر منها الآن وأن أرض مصر تم تكوينها في مدة أقل بكثير من المدة المذكورة وأن ما أخبرت به كهنة مصر هيرودوت المؤرخ صحيح لا مراء فيه ولا فرية لأنهم أعلم بأخبار أرضهم ممن سواهم.

وقال بعضهم أن أرض الدلتا ثم تكوينها وصارت أرضاً صالحة للزراعة قبل حكم منا بمدة طويلة ولا عبرة بما قالته الكهنة لذلك المؤرخ لأن ذلك دعوى من غير دليل ومن أين أتى لهم أنها كانت لا تصلح للزرع والسكن قبل إستيلاء هذا الملك وعلى كل حال كان الواجب عليهم أن يقولوا له أن النيل يزيد كل سنة في أرض مصر والناس سكنتها بالتدريج.

أما أصل المصريين فقد وقع فيه إختلاف كبيراً أيضاً فزعم قدماء المؤرخين من الأفرنج أن سكان هذا الوادي أتوا إليه من أفريقيا من شاطئ النيل الأوسط أي من بلاد أتيوبيا فزحفوا إليه شيأ فشيأ تابعين مجرى هذا النهر إلى أن وصلوا البحر الأبيض المتوسط ثم إنتشروا في جميع بقاعه وجزم أهل أتيوبيا أن مصر هي أحد نزلاتهم ومستعمراتهم كما أن أرضها من أرضهم نقلها النيل بشدة جريانه وفيضه السنوي وسكانها قبيلة منهم وإحتجتوا بشدة المشابهة الكائنة بين العوائد والأخلاق والقوانين التي كانت عند كلتيهما وقالوا أنهم تعلموا الكتابة منا كما علمناهم كيفيه تحنيط الأموات التي كانت مستعملة عندنا وأن كهنتهم تعلمت العلوم وحفظ الأسرار من كهنتنا حتى أن ملابس ملوكهم ورنك تيجانهم هي عين ملابس ملوكنا وبالجملة فهم أولادنا فضلًا عن أنهم تلاميذنا ثم نابذونا في الحرف والصنائع وخاريونا ونادوا علينا بما تعلوه منا فهم كما قال الشاعر:

أعلمتـــــه الرمايـــــة كـــــل يـــــوم ... فلمـــــا إشـــــتد ســـــاعده رمـــــاني
وكـــــم علمتـــــه نظـــــم القـــــوافي ... فلمـــــا قـــــال قافيـــــة هجـــــاني

ومازالت هذه الروايات متداولة بين المؤرخين حتى ظهر الآن بطلان هذه الدعوى وعكس الموضوع لأنه ظهر للباحثين أن في مادة العائلة الثانية عشرة هاجر قوم من مصر إلى بلاد أثيوبيا وعمروها فصارت تابعة لمصر وأن التمدن المصري صعد من الشمال إلى الجنوب بدل أن ينحدر مع النيل من الجنوب إلى الشمال سيما وقد نصت التوراة أن مصرايم بن حام سكن بأولاده مصر ومن تأمل في التماثيل القديمة المصرية المحفوظة بدار التحف علم يقيناً أن هذه الأمة من الجنس الأبيض القوقازي القاطن بآسيا وأوربا لا من جنس الزنوج وأن لتركيب لغتهم مشابهة قوية بتركيب لغة أهل آسيا وأن كثيراً من أصل لغتهم مشتق من اللغة العبرانية الإيرامية كما أن الضمائر المتصلة والمنفصلة في كلتا اللغتين أصلهما واحد وخلاصة القول أن أصل المصريين من الجنس السامي أتوا إلى هذا الوادي من برزخ السويس وربما وجدوا به طائفة من الزنوج فرّت أمامهم صوب الجنوب ومن البديهي أن النيل كان في تلك الحقبة العصرية يمد ويجزر ويغير مجراه كل سنة بدون أن يروي شيأ من أرضه.

وكان بعض الوجه العرى مغموراً بمياه البحر الملح يتخلله جزائر تنبت البردي والأقحوان والقصب الفارسي فضرورة المعيشة أحوجت هؤلاء النازلين إلى ضبط مياهه بحفر الترع والخلجان وإقامة الجسور وحرث الأرض وزرعها وبتمادي الأزمان صاروا قبائل وعشائر كثيرة لكل واحد منها رئيس ربما مكثوا على ذلك نحو الثلاثة آلاف سنة أو أكثر فتكونت منهم إيالات أو ممالك صغيرة لكل واحدة منها قوانين وديانة ومعبودات خاصة ثم إنحازت تلك الممالك إلى بعضها فتكون منها مملكتان كبيرتان إحداهما بالصعيد والأخرى بالبحيرة ولما قامت الدولة الفرعونية الأولى وضمتهما إلى بعضهما بقيت تلك الإيالات الصغيرة ممتازة عن بعضها عبارة عن مديريات أو أقسام لكل واحدة مدن وقرى وأراض وجملة مراكز خاصة بها أما عاصمة كل قسم فكانت مركزاً للعبادة الخاصة به وللأحكام الملكية والحربية التي يباشرها الحاكم الوارث له المعتمد من لدن الملك وكان أهالي كل قسم تدفع من نفس نتاج الأرض خراجاً سنوياً إلى الملك كما أنهم كانوا خاضعين لمزاولة أشغال المصالح العامة بدون أجر ولا مقابل أما عدد المديريات أو الأقسام فكان يختلف بإختلاف الأحكام والأزمان فكان ستة وثلاثين أيام ديودور الصقلي المؤرخ وكان أيام غيره أربعة وأربعين نصفها بالصعيد ونصفها بالحيرة والله أعلم.

الفصل الثاني

في الرحلة ما بين الجيزة وقرية سقارة

ذكر ماربيت باشا في كتابه مرشد السياح أن من أراد السفر إلى الوجه القبلي والتمتع برؤية ما به من الآثار فعليه بركوب السفن المعروفة باسم الذهبات لأنها أوفق لذلك من غيرها بكثير وذلك أن الإنسان يكون بها على راحة تامة لأنها كالمنزل المستعد ويمكنه السير والإقلاع متى يشاء ويتيسر له الوقوف والنزول والصيد وزيارة القرى والمدن التي مر عليها في طريقه. وتمكن من رؤية الآثار بخلاف الوابورات البحرية التي تسير وتقف على أماكن مخصوصة في ساعات محدودة فضلًا عن وجوده مع رفقة أغراب من كل دولة لايعرف منهم واحداً ولا يتفرج إلا في زمن معين مع الترجمان الذي لا يستفيد الإنسان منه إلا مسائل إجمالية فكأنه والحالة هذه ما رأى شيأ من الآثار ولو أن بالوابورات كل ما يلزم للسفر من نحو مأ كل ومشرب وراحة في النوم والسفر بالذهبية رياضة عامة طويلة جليلة غالية القيمة والسفر بالوابور على النيل رياضة خاصة قصيرة قاصرة رخيصة فإختر منها لنفسك ما يحلو اه.

أما مشاهدة آثار الجيزة فمتيسرة لكل إنسان ولا تستدعي أكثر من خمسة عشر قرشاً للمقتصد الذي يرضى بركوب الحمير وسيأتي تفصيل ما إشتملت عليه فراجعه وأما مشاهدة آثار ميت رهينة وسقارة فلا يكاد مصرفها يبلغ هذه القيمة وهو متيسراً أيضاً لكل الناس بواسطة الوابورو نوفر الركائب وهي واقعة على بعد ٢٣ كيلو متر من الجيزة واسمها القديم (من نفر) وبها من الآثار تمثالان للملك رمسيس الأكبر يبلغ طول أحدهما نحو العشرة أمتار وذكر هيرودوت وديودور الصقلي أنهما نظرا بهذه المدينة جملة تماثيل عظيمة قائمة أمام معبد بتاح المضاعف الذي أسسه الملك (منا) رأس الدولة الفرعونية الأولى ولعل هذين التمثالين من تلك التماثيل وكان إستكشاف أكبرهما في سنة ١٨٢٠ مسيحية.

وفي سنة ١٨٨٦ جمع أحد الإنكليز نقوداً من أهل الخير وأخرجه من الحفرة التي كان بها وذلك في سنة ١٨٨٧ وليس بهذه القرية ما يستحق الفرجة غيرهما وفي هذه السنين الأخيرة عثرت مصلحة حفظ الآثار بهذه القرية على تمثالين جافيين للمعبود فتاح الذي كان يعبد بهذه

القرية فنقلتهما إلى المتحف المصري وهما باقيان به أما قرية سقارة فبعيدة عنها بنحو ٤٠ دقيقة والظاهر أن اسمها مشتق من لفظة (سكر) التي كانت علماً على أحد المعبودات المصرية وآثارها كثيرة وكلها مقابر بالجبل على نحو نصف ساعة منها الهرم المدرج وزعموا أنه أقدم جمع الأهرام حتى نسبوه إلى الملك (أتا) أحد ملوك العائلة الأولى وهو يتركب من ست درجات إرتفاع الأولى ٣٨ قدماً والثانية ٣٦ والثالثة ٣٤,٥ والرابعة ٣٢ والخامسة ٣١ والسادسة ٢٩,٥ فيكون مجموع ذلك ٢٠١ قدم إنكليزي وإرتفاعه الآن ١٩٧ قدماً وطول قاعدته من المشرق إلى المغرب ٣٩٦ قدماً ومن الشمال إلى الجنوب ٣٥٢ وأسطحه ليست متجهة بالتحرير إلى الأربع جهات الأصلية ثانيها هرم (أوناس) آخر ملوك العائلة الخامسة وكانت مدة حكمه ثلاثين سنة وهو الآن مهدوم وذكر المعلم والس أن هذا الهرم فتحه المعلم مسبرو سنة ١٨٨١ بعد الميلاد على نفقة الخواجه كوك ولما دخله رآه منقوباً من جهة الشمال نقباً نافذاً إلى داخله ويغلب على الظن أن أحمد النجار هو الذى فعل به ذلك سنة ٨٢٠ من الميلاد أعني قبل الآن بنحو ١٠٧٤سنة لأنه وجد به هذا الاسم مكتوباً بالمداد الأحمر وقال مسبرو لما فتحت هذا الهرم في ٢٨ فبراير سنة ١٨٨١ ودخلته ألقيت به دهليزاً منحدراً جداً مقعماً بالصخور الهائلة ورأيت اللصوص الذين سبقوني إليه أزالوا جزأ من كسوته وهدموا ما وراءها من البناء حتى إنتهوا إلى هذا الدهليز فأبقوا الصخور به على حالها ونقبوا طريقاً بجوارها بوصلهم إلى داخله اه.

وبهذا الهرم ثلاث قاعات ودهليز طويل يرى في بعض حيطانها نصوص بالقلم القديم غريبة المعاني جداً وهاك ترجمة بعضها (إذا ظهرت روح أو ناس في صورة المعبود أمطرت السماء وماجت الكواكب وسارت نجوم الجوزاء وغرتعدت عظام مردة الصباح والمساء وغير ذلك ومنها إنما هو أوناس الذي يأكل الرجال ويتغذى بهم ومنها أن أوناس يصطاد الآلهة ويفطر بكارهم ويتغذى بأواسطهم ويتعشى بصغارهم وغير ذلك من النصوص التي يتعذر الوقوف على حقيقة المراد منها وقد حاول العلامة مسبرو أن يحوم حول حي المعنى ولكن لا اخاله أصاب المرمى حيث قال يؤخذ من هذه العبارات المظلمة المعاني أن روحه ممتعة في الدار الآخرة بكل حريتها ومصرح لها أن تصطاد متى شاءت وهذا مطابق لما تراه مرسوماً على جدران المعابد من أن الملوك تذهب في حال حياتها إلى الصيد وتقنص الحيوانات ثم تذبحها وتقطعها أرباً وتطنجها ثم تأكلها اه).

ثالثها هرم (نتا) أحد ملواء العائلة السادسة وبه كثير من النقوش والنصوص وأروقته تشابه أروقة الهرم السالف ذكره وهذا الهرم يسمى عند أهل الناحية هرم السجن لأنه قريب من المكان

المعروف بسجن يوسف (راجع هذا الاسم في المقريزى) وقال مانيطون أن هذا الملك قتله أحد حراسه بعد ما حكم خمسين سنة.

رابعها هرم ماري بي الأول ويعرف باسم هرم الشيخ منصور وقد فتحه أيضاً مسبرو سنة ١٨٨٠ وهو الذي يقول فيه بعد فتحه قد تكلمت الأهرام الخرساء يعرض بذلك لماربيت باشا حيث كان يقول أن جميع الأهرام خرساء لا تحير جواباً يريد أنها خالية من جميع الكآبة وقال المعلم ولس في كتابه مرشد سياح الإنكليز (هذا الهرم يشبه هرم تتا وهرم أوناس غير أنه متخرب زيادة عن باقي الأهرام لأنه بني من أحجار المقابر القديمة والظاهر أنه فتح قديماً لأن تابوت الملك وجد مكسوراً وعظامه مطروحة حوله وقد وجد في قاع الهرم صندوق من الجرانيت ورداء صغير به كثير من الأواني المصنوعة من الرخام وجمع نقوشه دينية كهرم أوناس وتتا والظاهر أن هذا الهرم إختلسه ملك آخر يدعى بهذا الاسم لكن متأخر جداً عن زمن العائلة السادسة أما ماري بي وهو صاحبه فكان الثاني من ملوك هذه الدولة وقال مانيطون أنه حكم ثلاثاً وخمسين سنة وكان كثير الغزو والفتوحات وله أعمال كثيرة ويرى اسمه في جهة جبل الطور وهو الذي أسس معبد دندره) وفي سنة ١٨٩٢ رأيت اسمه مكتوباً في مغارة لطيفة بالجبل الغربي القريب من قرية مير بمديرية أسيوط وفي أحد مقاطع الأحجار الواقعة على مسافة ست ساعات في الجبل الشرقي من قرية الحاج قنديل ولا يمكن الوصول إليها إلا بالإبل لصعوبة الطريق وفي قرية الكاب وعلى الصخور بالجبال.

خامسها سرابيوم مدفن العجول وسيأتي الكلام على وصفه في الباب الخامس.

سادسها قبر (تي) وسيأتي الكلام على ما تشتمل عليه المقابر التامة الصنعة غير أننا لا نرى بأساً من تفسير بعض ما به من النقوش تتميماً للفائدة وهي أنه مرسوم على جدار الحائط الجنوبي من المجاز الضيق صورة الميت وهو في حياته وبجواره نساء راقصات وموسيقى تعزف ومغنون يصفقون مع الإيقاع وعلى جدار الرواق الكبير من جهة الشمال صورته وهو في الصيد والقنص قائماً في سفينة مصنوعة من أعواد نبات البردي تسبح في بطحاء ماء وهو قابض في إحدى يديه طيراً جلاباً أي يجلب غيره من الطيور ويقذف بيده الأخرى عصا عوجاء كي تدور في الهواء وتقع على الطيور المائية الجاثعة فوق غاب طويل ووسط البطحاء كثير من فرس البحر والتماسيح وبعض خدمة مجتهد في صيدها وكأن معركة وقعت بين هذين النوعين وإنجلت عن إنهزام التماسيح

وأحد خدمه يقبض على فرس البحر بواسطة كلاب (شنكل) وباقيهم يقنصون الطيور المائية وفي نفس الجدار صورة بقر يخوض نهر اليقطعه وعجول ترتع في مرج ورعاه ترعى قطيعاً من المعز وعلى الجدار الشرقي من هذا الرواق صورة الفلاحة والحصاد والتغمير والدراس وتحميل القش والتبن على الحمير وصاحب القبر حي واقف على رأس الشغالة والعمال وبيده عصا الحكم وعلى الحائط الجنوبي صورته وهو يباشر تنظيم الفرش وترتيبه بالمنزل وعلى الحائط الغربي من الدهليز صورة سفن عظمة ناشرة شراعها مقلعة ومحدرة تسيرها الرياح وسفن تسير بالمجاذيف ونحو ذلك وفي الرواق الكبير أقاربه حاملين له الصدقات التي شرط أداءها قبل وفاته منها الخبز والسوائل والنباتات وأعضاء الحيوانات التي ذبحت في الخارج وعلى جوانب القاعة الصغيرة التي على اليمين صورة الخدم حاملين على رؤسهم وأكتافهم وفي أيديهم الطيور والأزهار وأطباقاً بها أواني مملوءة بالصدقات وفي جهة أخرى صورة قتل الثيران لتجعل قرباناً وفي غيرها صورة صف من النساء الخادمات يحملن على رؤسهن قففاً أو يسقن حيوانات وهذا كله كناية عن الوفاء بما إشترطه الميت ويستفاد من نصوص الرواق أن صاحب القبر عاش زمناً طويلًا في عيشة راضية وراحة تامة وتقلب في رتب سامية وقس على ذلك باقي المقابر الآتي ذكرها وهي:

قبر (فتاح حوتب) وهو سابعها. وقبر (ميرا) وهو ثامنها. وقبر (قابين) وهو تاسعها.

الفصل الثالث

في فضائل مصر ونيلها المبارك

لا يخفى على ضمائر أولي البصائر أن لمصر فضائل كثيرة أعظمها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز بضعاً وعشرين مرة تارة بصريح الذكر وتارة بالإيماء منها قوله تعالى)(إهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم) ومنها (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي) ومنها (أخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) وغير ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن وروى ابن لهيعة من حديث عمرو بن العاص حدثني عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول أن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم منكم صهراً وذمة وقال عبدالله بن عمر من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها ومن فضائلها أنه ولديها من الأنبياء موسى وهرون ويوشع عليهم السلام ودخلها من الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن ويعقوب ويوسف والأسباط وعيسى بن مريم عليهم السلام وكان منها جلساء فرعون الذين أبان الله فضيله عقلهم بحسن مشورتهم في أمر موسى وهرون عليهما السلام قال تعالى (قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) ولم يقولوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) ولفظ المدائن مما يدل على عمارة أرض مصر في تلك الأيام.

ومن فضائلها أن محصولات أرضها تمير كثيراً من الممالك الأجنبية فثغر السويس والقصير يحمل منهما إلى الحرمين واليمن وعمان وثغر دمياط إلى بلاد الروم والشام وأسيا الصغرى وثغر الغسكندرية إلى بلاد المغرب والأفرنج أما الصعيد فيحمل منه إلى الواحات والنوبة والسودان وغير ذلك ويوجد بها في كل شهر من شهور السنة القبطية صنف من المأكول أو المشموم فيقال رطب توت ورمان بابه وموز هاتور وسمك كيهك وماء طوبه ورميس أمشير ولبن برمهات وورد بزموده ونبق بشنس وتبين بؤنه وعسل أبيب وعنب مسري وبها مقاطع الرخام والمرمر وحجر السماق الأخضر والجرانيت الأحمر والزمرد والعقيق وبعض المعادن القابلة للتطريق والمياه المعدنية

والعيون الكبريتية وقالوا أنه كان يرى في بئر أسوان قرص الشمس وهي في أول برج السرطان فنتج عن ذلك مسئلة علمية ونظرية فلكية [1] وكان منها أول من وضع علم الجغرافية والأحرف الهوائية.

ثم أن هذا التأخير السنوي ناشئ من الإنبعاج الحاصل في قطبي الأرض التي صارت به غير صادقة الكروية فإختلف بذلك تأثير قوة الجذب العام عليها حتى صار قطبها يرسم في كل ست وعشرين ألف سنة دائرة كاملة وقد شبهوا ذلك بنحلة من خشب أدارها غلام فوق الأرض بشدة فدارت بسرعة عظيمة وصار طرفها الأعلى يتمايل ويرسم دائرة وإلى هنا وقف القلم عن الخوض في علم الفلك اذليس هذا محله ومن أراد الإستيفاء فعليه به.

وما تنبه الفلكيون إلى هذه النظرية المهمة إلا من رواية مشاهدة قرص الشمس في آبار أسوان يوم المنقلب الصيفي ويستنتج من هذه النظرية أن حرارة المنطقة المعتدلة الشمالية كانت في غابر الأزمان أشد مما هي عليه الآن لأن الشمس كانت تسلمت رؤوس أهل هذه البلدة في يوم المنقلب الصيفي أي في ٢١ من شهر يونيه من كل سنة والإثبات على ذلك أن سكان شمال الصين يسافرون الآن في كل سنة وقت الصيف إلى بلاد سبيريا الشديدة البرد التابعة لبلاد المسكوف أو بني الأصفر ويحفرون الثلج فيجدون تحته رمم الأفيال المعروف نوعها باسم محمود فيخرجونها وهي تامة لم يصبها التلف لأنها محفوظة تحت الثلج فيأخذون عظامها ويبيعونها في

---

(١) قد إتفق علماء الجغرافية قديماً أنهم ما كانوا يرون ظلهم في بلدة أسوان وقت الظهر في يوم المنقلب الصيني أي متى حلت الشمس في برج السرطان أعني في يوم واحد وعشرين من شهر يونيه من كل سنة وقالوا أنهم كانوا يرون في هذا اليوم قرص الشمس في آبار هذه البلدة وقت الظهر ولكن بتداول القرون والأحقاب زالت هذه الحالة وانقطع خبرها فتنبه علماء الفلك بعد ذلك لهذا الأمر الغريب وقالوا أن بلدة أسوان لم تتزحزح عن مكانها إلى جهة الشمال وآبارها موجودة وقرص الشمس موجود وأن مثل هذا التغير لا يحصل إلا من حدوث إنحراف في محور الارض ولكن بشدة البحث ومراجعة كتب قدماء الفلكيين ظهر لهم أن نجم القطب الشمالي الواقع في نهاية ذيل الدب الأكبر كان مرتفعاً عن قطب الأرض بأكثر مما هو عليه الآن بحيث لو تصوروا الآن مد خط مستقيم على إستقامة محور الأرض من جهة الشمال حتى يلتقي السماء لوجدوا أن النجم المذكور يعلو عنه بقدر درجة واحدة وأربع وعشرين دقيقة فعلوا أن هذا النجم لابد أن يختفي تحت الأفق بعد مضي آلاف من السنين وتدنو من القطب نجوم غيره ثم تختفي ألى أن يحل مكانها المجموع النجمي المعروف عندهم باسم (النسر الواقع) الذي يشاهد الآن في كبد السماء ثم تعودا لحالة لما كانت عليه أولًا بعد مضي ست وعشرين ألف سنة ومن ذلك علوا أن محور الأرض ينحرف دائماً عن إتجاهه وتتأخر نقطة الإعتدال الربيعي في كل سنة من المشرق إلى المغرب شيأ يسيراً جداً غير محسوس وبناء على دلك تتأخر الشمس في كل ألفين ومائة سنة درجة واحدة أي ستين دقيقة (نقطة الإعتدال الربيعي هو مكان الشمس وقت الظهر في يوم ٢١ من شهر مارس من كل سنة).

المتجر باسم الحاج ومن المعلوم أن الفيلة لا تسكن إلا الأرض الحارة فيعلم من هذا جلياً أن هذه البقعة الشديدة البرد الآن كانت في قديم الزمان حارة جداً حتى كانت وطنا للأفيال وقال بعض العلماء أن سبب ذلك نقص حصل في حرارة الشمس والله أعلم.

ومنها أنها بقيت على حالها العجيب وبختها الغريب نحو السبعة آلاف سنة وهي حافظة لتربتها العلياء ولها اليد البيضاء صاحبة المآثر والتأثير الظاهر فتارة تراها كأنها جدة الأمم وأخرى كأنها أميرة سادت بقوة السيف والقلم شهرتها أكبر من أن تذكر وفي معيار العلوم لها الحظ الأوفر والبرهان على ذلك أن الحكيم سولون مشرع بلاد اسبارطه اليونانية لما أراد أن يتتلمذ بمدرسة عين شمس أي المطرية قال له أحد كهنة صا الحجر بعدما إختبره بالإمتحان وسبره في ميدان العرفان (لم نر فيكم شيخاً في العلوم والآداب وجميعكم أطفال يا معشر الأغراب) ومع ذلك كانت شوكتها قوية وهيبتها مرعية نافذة الأحكام وجارها لا يضام بدليل ما ترى على بعض آثارها من صورة الملك طوطوميس والملك أمونوفيس ورمسيس الأكبر المعروف باسم (سيزوستريس) كل واحد منهم جارّ خلف عربته الملوكية رؤساء الأمم الأجنبية وهم مكبلون في حديدهم ومغبرون في صعيدهم وكذا في مدة الحروب الصليبية أعني في آخر الدولة الأيوبية كان بها سنلويس ملك الفرنسيس مأسوراً بمدينة المنصورة يتجرع كأس الهوان في دار ابن لقمان.

ومنها أنها كانت ولم تزل مورد أعذباً لأولي المآرب من المشارق والمغارب وموطناً للعلماء وملجأ للحكماء فكانت هي ربة السيادة المطلقة ولم يكن لسنواها اسم يذكر ولاخبر يؤثر ولا قلم يكتب ولا بليغ يخطب ولا قانون يجمع ولا أحكام تسمع ولا ألفة مدنية ولا محبة وطنية وما إقتبس الناس معارفهم إلا من نور مصباحها وسناء صباحها كيف لا وفضلها ثابت في القرآن الحكيم في قوله تعالى (إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) فنيلها نيل المرام وبرها بر الأنام وأبليزها أبريز وموطنها عزيز ومازالت تتداولها الأيام وتقلبها السنون والأعوام حتى حكمتها بطالسة اليونان وأينع دوح مجدها بثمر العرفان فهرع إليها كل فاضل جليل ومن له في العلوم باع طويل فصارت دار كتبها بمدينة الإسكندرية كعبة تزورها علماء الدول كما كانت عاصمتها مركزاً لتجارة جميع الملل ثم إنحط بعد ذلك قدرها وكذب فجرها بإستيلاء من جردها عن مزاياها وبذل عنها قيمة لا ترضاها ولكن بمجرد ما أفل منها بدر التأليف والصناعة أشرقت فيها شموس الفلاحة والزراعة فكان يخرج من أرضها محاصيل مالها مثيل حتى كان اسمها في ديوان رومة شونة الغلال ومصدر الأموال ثم لم يمض عليها برهة زمنية إلا وإمتازت بالقوة العقلية فنالت بقوة

الأقلام مالم تنله بالأسلحة والأعلام أو ليست مذاهبا الفلسفية التي ظهرت بمدينة الإسكندرية في تلك الأحقاب القديمة والأعصر الوخيمة أمدت أفكار علماء القسطنطينية وأرشدتهم إلى المباحثات العلمية والمجادلات الدينية وأنتجت إختلاف المذاهب وتشعب المشاعب حتى أفض ذلك إلى المشاجرة وعقد مجالس المناظرة وإنحطاط قدر الامبراطرة وقيام الشقاق على قدم وساق وإنتهى الأمر بالتدوين والتأليف والترجمة والتصنيف وتلقفتها أيدي الأمم من عرب وعجم فكانت كتب ذلك الزمان هي السبب لما وصل إليه الإفرنج الآن من درجة الكمال وحسن الأحوال ومن ذا الذي ينكر قدرها أو يغمس برها وقد قامت في مدة دولة العرب لإجتناء يانع الرطب وغيرها يحتطب الحطب فجددت دوارس الفنون وأحرزت درها المكنون.

ومنها أن أهلها لينو العريكة دمثاء الاخلاق يبعدون عن الفتن والشقاق موصوفون بموالاة الجيل وإكرام النزيل فهم أسرع إلى الخيرات وعمل المبرات وأسهل للتعليم والتعلم وأقرب للحضارة والتقدم وأطوع لأولي الأمر منهم حتى أن قدماءهم عبدوا ملوكهم كعبادتهم الثور ونقلوهم من طور البشرية إلى أشرف طور قد وقاهم الله شر الجوع والبرد بما خص أرضهم من الخصوبة ودرجة الحرارة المطلوبة فإن هاتين العائلتين يجلبان أحياناً الفتن ويسببان العداوة والمحن فهي أمراض حقيقية في جسم الحضارة والمدنية وفي ذلك يقول العيزاوي رحمه الله

لعمــــرك مـــا مصـــر بمصـــر وإنمـــا هـــي الجنـــة الـــدنيا لمـــن يتبصـــر
فأولادهـــا الولـــدان والحـــور عينهـــا وروضـــتها المقيـــاس والنيـــل كـــوثر

ثم إن حلاوة مائها ولطافة هوائها وصحو سمائها وإعتدال إقليمها وإعتلال نسيمها التي بلغت حد الكمال وضربت بها الأمثال تجلب إليها دائماً طمع الأجانب من كل ناحية وجانب فيأتون إليها و يتخذونها سكناً أو يدعونها وطناً ومنها توسط بقعتها ما بين قارة أوروبا وآسيا وإفريقا وأحاطتها ببحرين عظيمين وهما البحر الأبيض المتوسط من جهة الشمال والبحر الأحمر أو بحر القلزم من جهة الشرق حتى صارت بذلك مركزاً للتجارة العامة ومطمح نظر الخاصة والعامة وحطاً للرجال ما بين وفود وترحال فلذا كان لا يكاد يحدث أمر ذو بال إلا ولمصرفيه يد بضرورة الأحوال فهي تمتاز بهذه الخاصية كما يمتاز تاريخها عن تواريخ الممالك الأجنبية وقال ابن اياس قد وصف بعض الحكماء أرض مصر فقال ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر كهربة صفراء وذلك أن أرض مصر يركبها النيل

وقت فيضه فتكون بيضاء من إفتراش الماء عليها ثم تصير مسكة سوداء متى نزل الماء عنها ثم تصير زمردة خضراء وقت الربيع ثم يصير زرعها أصفر كالذهب اه.

ومنها أن القدرة الإلهية التي أحرمتها من الأمطار والغيث المدرار عوضتها عنه بعادل سلطان نيلها العميم الذي هولها أعظم صديق وحميمز

أما النيل فماذا نقول فيه وهو سلطان الأنهار وحياة هذه الديار وروح جثمانها وإنسان عين إحسانها إذ لولا وجودم لما كان لها وجود ولولا جوده لما إخضر لها عود ولولا فضل الله عليها بهذا النهر الميمون لكانت مجردة عن جميع ما كان وما يكون ملحقة بالقاع كما جاورها من البقاع لأنها محاطة من الشرق بصحاري أسيا المقفرة ومن الجنوب بعطامير أفريقيا المنفرة ومن الغرب ببراري برقة الموحشة وسباسبها المدهشة فالنيل كله منافع في المزارع والصنائع مزاياه لا تحصى ولا تحصر وهو لجنات مصر نهرها الكوثر وللشيخ علاء الدين الوداعي رحمه الله.

رق بمصـــــــــــر وســـــــــــكانها   شـــوقي وجـــدد عهـــدي الخـــالي
وأرو لنـــا ياســـعد عـــن نيلهـــا   حـــديث صـــفوان بـــن عســـال

ومن عجائب أمره أنه يأتيها في أيام معدودة وأوقات محدودة فيتحفها بخيراته ويحفها ببركاته ويعمها بوابل مسراته ثم يعود إلى ما كان مع التؤدة والإطمئنان فهو جواد ودود وهي منتجة ولود خلافاً لباقي الأقطار التي فيها فيضان الأنهار مصيبة عامة وداهية طامة وقد أكثر الشعراء من أوصافه ومحاسن ألطافه منها قول بعضهم.

كـــأن النيـــل ذو عقـــل ولـــب   لمـــا يبـــدو لخـــير النـــاس منـــه
فيـــأتي حـــين حـــاجتهم إليـــه   ويمضـــي حـــين يســـتغنون عنـــه

وما أحسن قول أبي الحسن المعروف بابن الوزير

أرى أبـــداً كثـــيراً مـــن قليـــل   وبـــدرا في الحقيقـــة مـــن هـــلال
فـــلا تعجـــب فكـــل خلـــيج مـــاء   بمصـــر مســـبب لخلـــيج مـــال
زيادة أصـــــبع في كـــــل يـــــوم   زيادة أذرع في حســـــــن حـــــال

وقد إمتاز عن غيره من باقي الأنهار جملة مزايا

منها أنه أطول أنهار الدنيا القديمة وطوله يبلغ ٥٩٤٠ كيلومتر ومساحة حوضه[١] تبلغ ٢,٨١,٣٠٠ كيلومتر مربع (وأما أكبر أنهار الدنيا الجديدة أي أمريكا فهو نهر (مسيسبي مسوري) وطوله يبلغ ٦٥٣٠ كيلومتر ومساحة حوضه تبلغ ٣,٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع) ومنها أنه من أعذب الأنهار وأخفها ماء ومنها أنه يمر بمنطقتين من الكرة الأرضية وهما المنطقة المحترقة والمعتدلة الشمالية ويجرى بوسط منطقتين نباتيتين وهما منطقة الموز ومنطقة الأشجار الخالدة الخضرة [٢] ويقطع خطين متوازيين من العرض الشمالي وهما خط الإستواء وخط مدار السرطان ويسقي أرض أمتين متباينتين وهما أصحاب الظلين وأصحاب الظل المختلف [٣]، ويجرى وسط أمتين إحداهما تحصد مع أن الأخرى تزرع [٤] ويقطع أرض أهل ديانتين مختلفتين وهما الدين المسيحي والدين الإسلامي [٥] ويسقي أمتين من الناس متباينتين في اللون وهما الجنس الأسود والجنس الأبيض والقوقازي.

وينحصر من الجنوب والشمال ين مثلثين متقابلين بالرؤس وهما مثلث أرض سنار من الجنوب ومثلث روضة البحرين من الشمال ويتكون من فرعين عظمين وهما البحر الأبيض الآتي من وسط أفريقيا والبحر الأزرق الآتي من بلاد الحبشة ويتفرع إلى فرعين عظيمين وهما الفرع الشرق أو فرع دمياط والفرع الغربي أو فرع رشيد ويهب عليه في وقت واحد ريحان مختلفا الإتجاه وهما الريح الإستوائي أي الهاب من الشرق إلى الغرب في المنطقة المحترقة والهاب من الشمال إلى الجنوب في المنطقة المعتدلة الشمالية وله في كل سنة لونان متباينان وهما اللون الأحمر وقت الزيادة واللون الأسمر وقت التحريق وغير ذلك مما يطول ذكره ولله در القائل

---

(١) حوض النهر هو أرض ينابيعه التي يتكون منها ويقال لها فرش مجاربه ايضاً.

(٢) تنقسم الكرة الأرضية إلى خمس مناطق نباتية وهي منطقة الموز والخبز الثمرى ومنطقة الأشجار الخالدة الخضرة شمالًا ومثلها جنوباً ومنطقة الطحلب شمالًا ومثلها جنوباً وهذه المناطق غير متوازية مع بعضها.

(٣) أصحاب الظلين هم سكان خط الإستواء لأنهم يرون ظلهم جهة الجنوب إذا كانت الشمس في مدار السرطان ويرونه جهة الشمال متى كانت في مدار الجدي أما أصحاب الظل المختلف فهم سكان المنطقة المعتدلة الشمالية والجنوبية لأنهم يرون ظلهم في الشتاء أطول منه في الصيف.

(٤) فصل الحصاد في خط الإستواء هو فصل الزرع عندنا الآن النيل ينقطع جريانه عندهم قبلنا بنحو ٤ أشهر.

(٥) سكان الحبشة ومصر.

فــــــــــــرح الأنام بنــــــــــــيلهم إذ صــــــار أحمـــــر كالشـــــقيق
وتبركـــــــــوا بشـــــــــروقه فكأنــــــــــه وادي العقيــــــــق

ولما عرف قدماء المصريين جميع مزاياه وحققوا حسن صدقه ونواياه جعلوا له الخزانات في بعض الجهات وإهتموا بشأنه وبالغوا في مدحه حتى نظموه في سلك آلهتهم وذكروه في خرافاتهم وعملوا له المهرجان وقدموا له القربان وكانوا يصورونه على الآثار في صورة ملك متوج بالأزهار يعرف باسم (حابي) أي النيل السعيد صاحب الفعل السديد وقد ظهر بالحساب الآن أن النيل يقذف في البحر الملح كل سنة مائة وعشرين بليون متر مكعب من الماء الممزوج بالطمي منها تسعون بليوناً في ثلاثة أشهر الفيض والثلاثون الباقية يقذفها في التسعة أشهر الباقية من السنة (البليون ألف مليون والمليون ألف ألف) ومن تأمل في أرض مصر التي كانت فيما سلف صالحة للزراعة وهي الآن عقيمة وليس لها قيمة على أن أرضها وسكانها كانت أكبر وأكثر منها الآن بجملة مرات والله أعلم.

الفصل الرابع

رحلة علمية من سفارة إلى قرية بني حسن

هذه الرحلة لا تكاد مصاريفها تبلغ الخمسين قرشاً إذا توجهنا بطريق السكة الحديدية إلى هذه القرية بدون أن نرى شيأ غيرها مع الإقتصاد في النفقة.

كيلومتر

٢٣ من بولاق مصر إلى البدرشين.

٦٤ من البدرشين إلى محطة الوسطى.

٢٨ من محطة الوسطى إلى بني سويف.

٣٠ من بني سويف إلى القيس.

٤٧ من القيس إلى أبي جرجز

٢٠ من أبي جرج إلى قلوصنا.

٣٦ من قلوصنا إلى المنيا.

٢٣ من المنيا إلى بني حسن.

٢٧٧١

فإذا توجهنا من قرية سقارة إلى الجنوب قاصدين قرية بني حسن فإننا نرى أولًا أهرام دهشور الواقعة على بعد ثلاثة أميال ونصف من هرم أوناس وهي ستة أهرام أربعة منها مبنية بالأحجار واثنان باللبن (الطوب الني) وارتفاع أكبرها نحو ٣٢٦ قدماً وطول قاعدته عند الجلسة نحو ٧٠٠ قدم وقد اهتمت مصلحة الآثار الآن بكشف المقابر التي تلك الجهة.

وفي سنة ١٨٩٤ انكشف للمعلم (مرجان مدير المتحف المصري بئر يبلغ عمقه نحو تسعة أمتار وفي قاعه سرداب يتجه إلى الغرب يبلغ طوله نحو مائة متر به سرداب آخر وجملة درجات تفضي إلى دهاليز صغيرة بها مقاصير تشتمل على توابيت بعض نساء ملوك العائله الثانية عشرة

وكان معهن تلك اللقية العظية المصوغة من الذهب والأحجار الكريمة وهي بالمتحف المصري الأن وفي ٢٨ من شهر نوفمبر من السنة المذكورة انفتح الهرم الذي بجوار تلك البئر بواسطة سرداب صناعي يسلك من قاع البئر إلى الهرم ولما دخلته مع حضرته وحدت به سرداباً وجملة غرف تتصل ببعضها وفي ناحية منها رواق الملك وتابوته غير أن لصوص الفراعنة سرقوا جثة ملكهم وفتحوا بعض المقاصير ولم يتركوا شيأ يستدل منه على اسم الملك بانيه.

أما مغارات جبل طره والمعصرة الواقعة في الجبل الشرق فكانت مقاطع للأحجار التي بنيت بها الاأهرام قبل الآن بأكثر من ستة آلاف سنة وسبب عمقها بهذه الحالة هو أن مهندسي ذلك العصر كانوا يشقون فطوراً عميقة في الجبال حتى يصلوا إلى الاحجار الموافقة لهم وربما بلغ طول بعضها جملة مئات من الأمتار ويرى على كثير منها نقوش قديمة تدل على أن الملك (أحميس) و (أمونوفيس الثالث من العائلة الثامنة عشرة) وغيرهما أخذوا من مقاطعها أحجار البناء ما يلزم لمعابدهم والظاهر أن لفظة طره مشتقة من لفظة (تروا) اوهي مدينة عظيمة كانت بآسيا الصغرى وخربها اليونان في حروب المشهورة فجاء بعض من هاجر من أهلها إلى هذا المكان وقطن به وسماها بهذا الاسم والله أعلم بحقيقة الحال.

ثم نمر بهرم ميدوم الواقع في الجبل الغربي أمام محطة الوسطى بمديرية بني سويف ويعرف عند العامة بالهرم الكاذب وأظن أن هذه التسمية أتت له من أن السائح يراه من مسافة بعيدة جداً وكلما دنى منه أو نأى عنه رآه كأنه يسير معه أينما سار فكأنه والحالة هذه يكذب في عين الرائي كما أطلقوا اسم البحر الكاذب على السراب أو الآل الذي يظهر بالصحراء وقت القيلولة كالبحر وقال بعضهم أنه سمي بذلك لمخالفة بنائه لباقي الأهرام وليس ذلك بشيء أما ارتفاعه فيبلغ ١١٥قدماً ويتركب من ثلاث درجات ارتفاع الأولى ٧٠ قدماً والثانية ٢٠ والثالثة ٢٥ وهو مع تطرف الأيام إليه بالدمار لم يزل بحالة حسناء وكل من رآه من بعد جزم أنه مبني على ربوة عظيمة وهي الحجر الذي سقط من كسوته فكم بنيت منه عمارات لسكان تلك البلاد المجاورة له حتى صار الآن كنواة بلا فاكهة ولما فتحه العلامة مسبرو في شهر فبراير سنة ١٨٨٢ وجد بابه من جهة الشمال مرتفعاً عن سطح الأرض بنحو ١٥ متراً وسرداب المدخل مربع القاعدة والارتفاع أعني متراً في مثله يمر أولًا بوسط البناء نحو عشرين متراً ثم يدخل في الأرض الصخرية ويغوص فيها ثلاثة وخمسين متراً عمقاً ثم يسلك أفقياً واثنى عشر متراً ويستقيم رأسياً نحو ستة أمتار ونصف وينتهي بحجرة أو مغارة منحوتة في الصخر بلا هندام خالية من كل شئ

وقال المعلم المذكور لما فتحت هرم ميدوم ودخلته وجدت فوق الحجرة الملوكية أخشاباً وجمالًا عتيقة جداً علمت منها أن اللصوص سرقوا جثة الملك في مدة الفراعنة لأني وجدت على جانب السرداب بقرب باب الهرم كتابة بربائية بالمداد وبإستقرائها ظهر لي اسمان عجيبان فعلمت من تركيبهما ومن قاعدة الخط أن هذين اللصين دخلا الهرم وسرقا صاحبه في مدة العائلة العشرين ومن الأسف أنهما لم يتكرما علينا بذكر اسم من سرقوه وكأنهما لم يرونا نستحق أن نعرفه ولسنا أهلًا للوقوف على أخباره أما ما ذكره مارييت باشا من أنه الملك سنفرو (بالعائلة الثالثة) فلايعتديه لأنه اعتمد في ذلك على حجر عثر عليه في أحد المقابر القريبة من هذا الهرم منقوش عليه هذا الاسم ولايبعد أن يكون هذا القبر لأحد الكهنة الذين كانوا لهذا الملك كما أني وجدت هذا الاسم بكثرة في مقابر سقارة وغيرها أما صاحب الهرم فيغلب على ظني أنه الملك أمنما الثاني (من العائلة الثانية عشرة) اه لكن يظهر من الأسماء التي وجدت منقوشة على الحلي الذي وجد في سنة ١٨٩٤ بجبل دهشور أن أهرام هذه الجهة كانت معدة لدفن ملوك العائلة الثانية عشرة ولعل المستقبل يكشف لنا عن حقيقة أمره وفي سنة ١٨٧٢ وجد بجوار هرم ميدوم التمثالان العجيبان وسيأتي ذكرهما عند الكلام على الدور الأول في الباب الثامن.

أما قرية اهناس المدينة فهي من المدن القديمة التي بمديرية بني سويف وتعرف قديماً باسم هرقليوبوليس وهي واقعة على الشاطئ الغربي من النيل وكانت عاصمة الديار المصرية مدة العائلة التاسعة والعاشرة كما أسلفنا وكان أهلها يعبدون النمس وليس بها الآن سوى أطلال قديمة متهدمة وآثار معبد أتت عليه الايام وعلى نحو الساعتين منها هرم اللاهون وبجواره مقبرة التماسيح المحنطة وهو للملك أمنما الثالث من العائلة الثانية عشرة ثم هرم هوارة المقطع وهرم سيلا وكلها بالفيوم التي اشتق اسمه من لفظة بابوما ومعناها الماء الواسع وهي مركبة من أداة التعريف (با) ومن (يوما) ومعناها البحر ولعل لفظة اليم محرفة عنها وفي هذا الإقليم أطلال مدينة فارس وتعرف عند اليونان باسم كروكوديلوبوليس (**crocodilololis**) أي مدينة التمساح لأن أهلها كانوا يعبدونه وكان به بحيرة موريس وسراي التيه أو البربة (راجع تاريخ مصر مدة العائلة الثانية عشرة) فإذا غادرنا هذه الجهة وتوجهنا إلى مديرية المنيا رأينا جبل الطير الواقع في جنوب قلوصنا وبه الدير المعروف بدير البكرة سمي بذلك لأنه على قمة الجبل وليس له طريق يسلكه الإنسان وأهله يستعملون الحبل والبكرة في صعودهم وهبوطهم وبه طائفة من رهبان القبط يشتغلون بعمل الأحذية والمداسات وكان من عادتهم أنهم متى رأوا سفينة شراعية أو بخارية انقضوا

في الماء وسبحوا في اللجة إليها ولهم أصوات مزعجة وصراخ هائل مصدع ومتى دنوا منها تكففوا الصدقات بالحاح والحاف وربما صمدوا فيها وهم عراة الأجسام مكشوفو العورة غير أنهم أقلعوا الآن قليلًا عن هذه العادة القبيحة ثم نصل إلى قرية الشيخ حسن والمطاهرة وطهنة وبها من الآثار ومقاطع الأحجار ما يدهش العقول سيما قرية الشيخ حسن ثم نمر بقرية زاوية الميتين القريبة من المنيا ومغاراتها من عمل العائلة السادسة ونقوشها في غاية الأحكام تخبرنا بأحوال الفلاحة والملاحة والمواسم الدينية وغير ذلك ثم نصل إلى قرية بني حسن الواقعة في جنوب هذه المديرية وقد اشتهرت بمقابرها المنحوتة في الجبل شمال القرية المذكورة بنحو ثلاث كيلومترات تقريباً وكلها في نحو ثلثي الجبل وعتب أبوابها في مستوى واحد تقريباً متجهة إلى الغرب ويبلغ عددها خمسة عشر أعظمها اثنان جهة الشمال وتاريخ صنعها يصعد إلى نحو ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح عليه السلام ولهذه المقابر مشابهة بمقابر سقارة المعروفة باسم المساطب أعني أنها تشتمل على رواق كبير وبئر محفورة بوسطه أو في ناحية منه تصل بحجرة أو مغارة للحد أما تفصيلها فغريب جداً يكبر في عين مهرة المهندسين المعماريين وسقفها ليس مستوياً بل مقبي قليلًا ومخلق به ما يشبه الكمرات التي تكون في السقف عادة لتحمل حائطاً من فوقها وهي والسقف والعمد قطعة واحدة من الحمل ورأيت بعض العمد مكسورة ونصفها الأعلى مدلي في الفراغ لأنها قطعة من السقف وشكلها غريب جداً ولبعضها ستة عشر سطحاً وبعضها عبارة عن جملة عمد رفيعة ملتصة ببعضها غليظة من أسفلها دقيقة من أعلاها بها جملة أحزمة كالمحابس تجمعها ببعضها ثم تأخذ في الغلظ ثانياً وتنتهي بتيجان متنوعة منها ما هو على شكل باقات الأزهار وما هو على شكل البشنين أو النواقيس المنعكسة وما هو مستدير وله أفاريز مخلقه منه وغير ذلك وللقبر الشمالي مشابهة قوية بعمارة اليونان القديمة وما أشك في أنهم يعلموها من المسربين كباقي علومهم القديمة وارتفاع أساطينه ١٧ قدماً وحيطان بعض المنابر كانت شات مغشاة بالجبس مصقولة وعليها لون يميل للحمرة يشبه حجر الجرانيت والظاهر أنها كانت جميعها مكتوبة ومحيت لتقادم العهد وكان القبر الشمالي لرجل يدعى (أمني أمنمحا) وتاريخه منقوش على وجهتي الباب قبالة الداخل يعلم منه أنه كان قائد الجنود المشاة أيام الملك أوزرتسن الأول (من العائلة الثانية عشرة) وأنه توجه مع ابن هذا الملك لغزو بلاد (أبو) وبلاد (أثيوبيا) وكان حاكماً على إقليم (مح) الكائن بجوار المنيا وقد بذل جهده في حسن إدارة بلاده حتى نال رعاية الملك سيده كما أنه كان رئيساً على الكهنة وهناك بعض عباراته (قد أتممت كل ما عزمت عليه وما نطقت به وأني حاكم

شفوق محب لوطني أدير أشغال المعبد بنفسي إلى أن قال وما أحزنت طفلًا ولا نهبت الأرامل وما جبرت الشغالة على الشغل بالقهر وما قفلت بيت راع ولا كان مسكين ولاجائع في زمني ولما حل القحط بمصر بادرت بحرث الأرض في جميع إقليم (مح) حتى أخصبت بمهارتي واقتات الناس وكنت أمدهم بالميرة والطعام وأعطى الأرملة مثل المتزوجة ولا كنت أفضل الجليل على الحقير ولما عم الفيض وكثر الخير صار الفلاح في نعمة تامة لأني لم أثقل كاهله بالخراج انتهى بإختصار) ويرى بالرواق صورة الفلاحة والقتال وأشغال النساء المنزلية على إختلافها وكلها مرسومة بغاية الدقة والإتقان الدالة على سمو الصناعة في ذلك العهد.

القبر الثاني لرجل يدعى (خنوم حوتب) كان معاصر الملك (أمنمحا الثاني من العائلة الثانية عشرة أيضاً) ونقوش هذا القبر عجيبة جداً غير أن يد الدهر والزائرين تحالفا على إتلافها وتاريخه منقوش على أسفل الحائط يستفاد منه أن أباه وأمه وأجداده كانوا من مدينة منعت خفو (منية ابن خصيب) وكان هو أيضاحا كما على اإقليم (مح) مثل سالفه وكان أبوه حاكماً على الأرض الشرقية التابعة لهذه المدينة ويقال أنه من ذرية (أمني أمنمحا) السالف الذكر ويرى بالرواق صورة الألعاب الجمبازية وهي المصارعة وغير ذلك وعلى الحائط الشمالية صورة نادرة من أعجب ما يرى غير أن يد التلف أخذت تعبث بها في كل يوم وهي وفود جماعة من الأجانب في الأنوف جداً ولهم لحاء سود مرسلة دقيقة من أسفلها ومعهم نساؤهم وأولادهم يقودون حميراً وتيوساً وغزلاناً وبعضهم يحمل نشاباً وحراباً ومساوق أو محاجن ومعهم رجل يضرب على آلة كالعود وأمام الجميع كاتب الملك المدعو (تفرحوتب) واقف وبإزائه كتابة يستفاد منها أن في السنة السادسة من حكم الملاك أوزرتسن الثاني وفد سبعة وثلاثون شخصاً من قبائل (عامو) وأحضروا معهم حقاً من الأثمد (الكحل) وقدموه إلى (خنوم حوتب) ولهذا الوفد ملابس ملونة والظاهر أنهم أتوا من شرق أرض فلسطين وظن بعض المؤرخين أن هذه الجماعة هي أولاد يعقوب عليه السلام حينما أتوا يشترون البر من مصر ولكن لا برهان لهم على ذلك وقال بعضهم أنهم جماعة من العمالقة أتت إلى مصر لتستوطن بها وعلى كل حال فهم أول من نزل مصر من الأجانب ولم يهتد أحد لسبب مجيئهم لداعي سكوت الآثار عنهم وقال ماربيت باشا هذا الوفد كان عله اغارة العمالقة على أرض مصر وها هي ذريتهم قاطنة إلى الآن على شواطئ المنزلة وصنعتهم صيد السمك وقنص الطيور وهم الذين هزموا جيش مروان الجعدي (آخر دولة بني أمية) وجيش المأمون (السابع من خلفاء بني العباس).

وفي جنوب هذه المقابر على مسافة ٤٠ دقيقه مقبرة واسعة جداً كانت معدة لدفن القطاط المقدسة المحنطة الباقية بها إلى الآن وأخبرني عمدة الناحية أن أحد الشركات أخذ منها آلاف مؤلفة شحن بها جملة سفن ليحولها إلى سماد (سباخ) ويوجد على نحو الخسة عشر دقيقة إلى الشرق مغارة تعرف عندهم بإسطبل عنتر واسمها باليونانية (سيبوزارتميدوس) منحوتة في الجبل وهي من عمل الملك (طوطوميس الثالث من العائلة الثامنة عشرة) ووسعها الملك (سيتى) الأول أبو رمسيس الثاني من (العائلة التاسعة عشرة) بعدما مضي عليها ٢٥٠ سنة وأرصدها للمعبودة (سخت) وكان بها صفان من العمد في كل واحد أربعة وإتساعها ٢١ قدماً في مثلها ويظهر أن المحراب الذي بها كان معداً لوضع هذة المعبودة به وبهذه المغارة كثير من النقوش والكتابة والمعبودات وبجوارها كثير من المقابر المتخذة في الجبل ولا فائدة في رؤينها إنتهى بإختصار.

الفصل الخامس

ملحوظات عامة على تاريخ مصر القديم والحديث

لما كان الغرض من هذا الباب هو الإلماع بذكر بعض ملحوظات جمالية لتاريخ مصر العام وجب علينا أن نبين الأسانيد والمواد التي إعتمد عليها المؤرخون لإحياء تاريخ الدولة الفرعونية المصرية وهذه الأسانيد هي:

(المادة الأولى)

هي نفس الآثار القديمة الموجودة إلى الآن بأطلال المدن المندرسة مثل المعابد والهياكل والمنازل والاهرام والمسلات والمساطب والتماثيل والأصنام والأحجار والتقييدات المسطورة عليها بالقلم البربائي والورق البردي وغير ذلك وجميعها سند قوي ليس فيه مطعن ولا مغمز بل حجة يركن إليها ويعول في الصحة عليها لأن أصحابها كتبوها بأيديهم مدة حياتهم وأصبوها على ملأ الإشهاد لتخليد ذكرهم على ممر الدهور وكر العصور فهي جمادات ناطقة بالأخبار الصادقة وصحف السالفين ونبأ الأوّلين.

(المادة الثانية)

تاريخ القسيس مانيطون المصري الذي ألفه بالغة اليونانية سنة ٢٥٠ قبل الميلاد مدة حكم الملك بطليموس الثاني المدعو فيلودلنيس أي محب أخيه وكان جمعه بإذن هذا الملك من الدفاتر الرسمية المحفوظة بالمعابد المصرية والتحريرات السلطانية والقيودات العلمية غير أن هذا الكتاب النفيس إغتالته الغوائل وصالت عليه يد الدهر الصائل ولم يبق منه إلا بعض وريقات وصلت إلينا في ضمن كتب مؤرخي اليونان بعدما حرفتها أقلام النسخ وألبستها أشنع ثياب التحريف والمسخ وهي على ما صارت إليه من سوء الحال ودرجة الإختلال لم تزل يعتمد عليها ويرجع في حل المشكلات إليها لأن هذا الكاهن المصري لم يقتصر فضل معرفته على الإحتياط بأسرار دينه بل كان له دراية تامة بأحوال باقي الأمم من يونان وعجم فلو كان هذا الكتاب بقي لدينا لكان كنزاً لا يفنى وثقة به عن غيره يستغنى.

(المادة الثالثة)

كتاب المؤرخ ديودور الصقلي وهو سائح يوناني وفد إلى مصر قبل ميلاد المسيح بنحو ثمان سنين وعقد فيه باباً مخصوصاً تكلم فيه على تاريخ مصر القديم إلا أنه غير شاف للمراد.

(المادة الرابعة)

كتاب إسترابون اليوناني وهو أحد علماء الجغرافيا تكلم فيه على جغرافية مصر التخطيطية القديمة وذكر أماكنها وبلادها الشهيرة.

(المادة الخامسة)

كتاب المؤرخ بلوتاركه الذي تكلم فيه على ديانة المصريين ومعبوداتهم وهو باللغة اليونانية أيضاً.

(المادة السادسة)

جدول ورقة تورينو وسيأتي الكلام عليها أما تاريخ مصر القديم فيبتدئ بإستيلاء (منا) أو مصرايم رأس الدولة الفرعونية على منصة الحكم وينتهي بصدور أوامر الملك (نيودوسيس) أحد إمبراطرة رومة الشرقية بالتحريح على الديانة الونية أعني سنة ٣٨١ بعد ظهور المسيح عليه السلام.

وينقسم تاريخها الديني إلى ثلاثة أدوار كلية

أولها دور الجاهلية والصابئة وقدره ٥٣٨٥ سنة ومبدؤه قيام الدولة الملوكية الأولى سنة ٥٠٠٤ قبل الميلاد وغايته صدور أوامر الملك تيودوز أو تيودوسيس بالتحريج على الديانة الوثنية سنة ٣٨١ بعد الميلاد وفي جميع هذه المدة الطويلة كان المصريون يستمعلون في كتابتهم القلم البربائي أو الهيروجليفي بكل أنواعه.

ثانيها الدور المسيحي ومدته ٢٥٩ سنة ومبدؤه سنة ٣٨١ وغايته الفتح الإسلامي سنة ١٨ من الهجرة أعني سنة ٦٣٨ بعد المسيح وفي جميع هذه المدة كان القلم القبطي هو المتداول بها بعدما إشتق من القم اليوناني.

ثالثهما الدور الإسلامي ومدته ١٢٥٥ سنة ومبدؤه سنة ٦٣٨ بعد الميلاد لغاية آخر سنة ١٨٩٣ والخط المتداول في جميع هذه المدة هو الخط العربي بكل أنواعه.

أما مدة الجاهلية أو الصابئة فتنقسم إلى أربعة وثلاثين عائلة أو دولة ملوكية يتكون منها أربع طبقات أصلية بالنسبة لقوة مصر أو إضمحلالها.

(الطبقة الأولى) مدتها ١٩٤٠سنة وتبتدئ بحكم الملك (منا) أو (مصرايم) سنة ٥٠٠٤ قبل الميلاد وتنتهي بإنقراض العائلة العاشرة التي كانت قبل ميلاد إبراهيم الخليل عليه السلام أما ما قبل ذلك فلا يعلم منه شيء ألبتة كما أن تاريخ هذه المدة مظلم جداً ولا يعلم منه إلا بعض روايات قليلة رواها لنا المؤرخ هيرودوت اليوناني نقلًا عن كهنة مصر أو بعض إكتشافات يسيرة برزت من كساء الظلام عن مدة زمن الأهرام الذي هو عبارة عن العائلة الرابعة والخامسة وجزء من السادسة فقط وفي هذا العصر إرتقى فن الخط وعمل التماثيل إلى رتبة سامية جداً بدليل ما وجد من النقوش البربائية والصور الفريدة في بابها المحفوظة الآن بدار التحف المصرية أما علم الهندسة وأحكام البناء فقد بلغا إلى الدرجة القصوى لأن المتأمل في هيئة هؤلاء الأهرام التي صبرت على كيد الزمان يعلم أنها أغرب من كل شيء بعد قدرة الله عز وجل وسيأتي الكلام عليها فيما يأتي إن شاء الله تعالى أما العائلة السابعة وما بعدها إلى نهاية العاشرة فتاريخها مبهم بل ضال في غياهب الأحقاب ومتوار بالحجاب ولا يعلم منه شيء ما وكأن الديار خلت من أهلها ومن نظر إلى الآثار القليلة الباقية من العائله الثانية والثالثة التي وجدت حديثاً رأى عليها من الغلظ والخشونة ما يدله على أن مصر كانت في حالة البداوة أو الطفولية وأن هذا العهد هو زمن التفريخ الذي لابد لكل دولة أن تمر به قبل بلوغها إلى درجة الرفاهية.

(الطبقة الثانية) مدتها ١٣٦١ سنة وتبتدئ بقيام العائلة الحادية عشرة وتنتهي بإنقراض العائلة السابعة عشرة وفي مدتها ولد الخليل إبراهيم عليه السلام ببلاد (أور) أو (أورفا) أي الرها وجاء الى مصر يوسف ويعقوب والأسباط غير أن تاريخ هذه الطبقة مبهم أيضاً ولا يعلم منه إلا العائلة الثانية عشرة التي فيها هبت مصر من نومتها الطويلة وإستيقظت من غفلتها الوبيلة أو نشطت من عقال وإنطلقت من سلاسل وأغلال فتغيرت بظهورها طريقة الكتابة وشعائر الدين والألقاب الرسمية للملوك والسلاطين وأسست بالصعيد مدينة طيبا وإتخذتها مقر دولتها وقاعدة سلطنتها وشيدت العمارات ونصبت المسلات وعملت الخزانات النيلية فتقدمت الفلاحة المصرية ويرى لهذه العائلة بعض مباني جهة السودان والشلال الثاني بيد أن هذه المدة لم تكن إلا كطيف سري في سنة الكرى حيث هوى بدر مجدها وأفل كوكب سعدها وهجم عليها العمالقة هجوم السيل وأذاقوها من العذاب أشد الويل وجلسوا خلال الديار وهي بين ذلك تستجير ولا

تجار ومكنت خمسمائة وإحدى عشرة سنة وهي تقاسي الذل والمسكنة ثم خرجوا منها بعد المحاربات الشديدة والمطاردات العديدة.

(الطبقة الثالثة) مدتها ١٣٧١ سنة وتبتدئ بظهور العائلة الثامنة عشرة وتنتهي بإنقضاء دولة الفراعنة المصرية المتممة للثلاثين أعني بإنهزام الملك نقطنبو الثاني وإستيلاء العجم عليها ثاني مرة وفي مبدأ هذه الطبقة ظهرت مصر بأقوى مظهر وبرزت بأبهج منظر ونبغ فيها كبار الملوك الفاتحين فأخذوا يوالون الحروب في الشمال والجنوب حتى إستولوا على الحجاز واليمن والشام وبلاد العراق وجميع بلاد النوبة والسودان وملؤا حافتي النيل بعماراتهم كما أرهبوا مشارق الأرض ومغاربها بقوة بأسهم وغزواتهم ودانت لهم البلاد وحكموا العباد وفتتوا طرق التجارة وأعادوا لمصر رونق المدنية والحضارة وبذلوا في ذلك أقصى همتهم وطاروا في سماء التقدم بكل أجنحتهم وفي هذه المدة ولد موسى وهارون وخرج بنو إسرائيل وغرق فرعون ثم بعد ذلك تداولت أيامها وإنخفضت أعلامها وإنحط قدرها وإحتجب بدرها وإرتبكت الأحوال في الأوحال وتغير حلو الماضي بمر الحال وإختلفت الأمور ولبس تاج الملك الكاهن حرحور فإنقسمت مصر إلى قسمين وإشتعلت نار الحرب بين الحزبين وانهزمت القدس وقصدت السودان وخلت منهم الأوطان ثم إستفحل الشقاق بعد حكم الملك شيشاق وأغارت العبيد على أرض الصعيد وجاء الأشوريون أو السريان وقاتلوا أمة السودان ومكث الحرب عامين وإستولوا على مدينة طيبا مرتين وأسلموها إلى السلب والنهب وأوقعوا بها الويل والكرب وبعد ذلك إنقسمت مصر إلى إيالات صغيرة وتداولتها الملوك الكثيرة وما زالت تتجرع غصص الأيام حتى وقعت في قبضة الأعجام وسقوا أهلها كأس الحِمام فإنظر إلى الحال كيف إنقلب وإلى المغلوب كيف غلب وأين ذهبت تلك الفتوحات هيهات هيهات لتلك الأوقات أين زمن الجزية التي كانت مصر تكلفهم بها مع الإحتقار وتنابذهم الألقاب مع الذل والصغار فتدعوهم بالأسافل وتسميهم برعاع القبائل وما زالت مصر تعاني الهوان إلى أن إستولى عليها اليونان.

(الطبقة الرابعة) أو الأخيرة وتسمى بالدور الأسفل ومدتها ٧١٣ سنة وأولها إسكندر المقدوني وآخرها صدور أوامر الإمبراطور تيودوز الأكبر سنة ٣٨١ بعد الميلاد وهذه الطبقة تنقسم الى دولتين إحداهما دولة اليونان وثانيهما دولة الرومان.

أما دولة اليونان أو البطالة فقد إرتقت مصر في أول حكمها إلى درجة عظيمة بما جلبه

بطليموس الأول والثاني من الكتب والعلماء غير أن مصر نزلت بعد هذين الملكين عن مرتبتها التي كانت لها مدة التحوتميسيين والرمسيسيين وبرزت في منظرآخر حقير ووجه صغير وصار تاريخها يردف بعد تاريخ اليونان كالذيل المسحوب وحوادثها السياسية كانت عبارة عن مخاصمات نسوانية لأغراض شهوانية غير أنها تركت مآثر جليلة من المباني والعمارات.

أما دولة رومة فإقتصرت مصر في أيامها على مزاولة الفلاحة وإنكفت عن التداخل في السياسة الخارجية وكانت كل نصراتها في الحروب تعود بالفخر على مملكة رومة ولم يعد عليها من تتبعها لها أدنى فائدة إلا إرشادها في آخر أيامها إلى دين عيسى بن مريم عليه السلام ومن ذا الذي يجهل ما حصل من التعذيب لمن تنصر حينما دعى القديس ماري مرقص أهل مصر لإتباع هذا الدين وإلى هنا إقضى زمن الجاهلية والعبادة الوثنية.

أما الدور المسيحي أو زمن النصرانية الذي مدته ٢٥٩ سنة كما تقدم فكان فيه لعلماء الإسكندرية مزيد الشهرة وبعد الصيت حتى صار لهم على مملكة رومة الشرقية السلطة الروحانية حيث ظهرت أنوار شموسهم الساطعة ولمعت بروق علومهم اللامعة فإفترق أهل مصر إلى حزبين أحدهما تدين بالدين المسيحي بعدما شابه بعقائده الوثنية القديمة فحكم عليه بالهرطقة في جمعية القسس التي إنعقدت في مدينة كلسدوان (وهي مدينة قاضي كوي الآن) على بوغاز القسطنطينية أما الفرقة الثانية وهي الملكية فإتبعت مذهب اليونان ولا يخفى ما ترتب على ذلك من الخصومات الشديدة والمشاحنات العنيدة والمجادلات العديدة وقيام القيامات في الأزقة والحارات وكثرة إشتعال النيران الحسية والمعنوية في كثير من الجهات وظهور مناسر اللصوص المستعدة وكانت الإسكندرية مشحونة بالمشاجرات بين اليهود والنصارى أو بين النصارى مع بعضهم لأجل مسئلة دينية فهمها كل قوم على حسب إعتقادهم وأولها كل جماعة على مقتضى إجتهادهم وفي ذلك الوقت داس العرب بلاد الشام وقصد المغاربة ديار مصر فدفعهم نائب القيصر عنها بالجنود الرومانية ولكن صاروا يتوعدونها بالقدوم ويتهددونها بالهجوم ولعل هذا الإنحطاط سهل لدين الإسلام سبيل النجاح.

أما دور الإسلام الذي مبدؤه سنة ٦٣٨ بعد المسيح فينقسم إلى جملة دول إسلامية وهي دولة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجعين ثم دولة بني أمية ودولة بني العباس ودولة أحمد بن طولون والدولة الأخشدية والفاطمية والدولة الأيوبية أو الكردية ودولة المماليك ودولة آل

عثمان وهي الحاكمة الآن خلد الله ملكها ما تعاقب الملوان وفي هذه المدة الطويلة كم تقلب عليها عمال وتغيرت فيها أحوال وحكها سلاطين أجانب من المشارق والمغارب وتنازعتها عوامل الخفض والرفع وتجاذبتها أيادي الوصل والقطع وكم من مقسط أمام رفع لذروة مجدها الأعلام وكم من عامل جار وسلطان كساها ثوب عار وما زالت صاعدة نازله ونجومها طالعة آفله حتى أتاح الله لها من أبعد عنها كوارث الكواسر وأنشأ فيها محاسن المفاخر درة جيد الزمان مُحَمَّد الاسم على الشان عليه سحائب الرحمة والرضوان فإستولى عليها وأهلها نحو المليونين ونصف وكسر وأطيانها تقرب من هذا القدر والباقي فساد وبور مجرد عن الترع والجسور ولو كان دام حكم إبراهيم بك ومراد بك نحو العشرة أعوام لقلنا على مصر وأهلها السلام راجع أيام المماليك وغيرها وبناء جامع السلطان قلاوون وغير ذلك في المقريزى وراجع الجبرتي والخطط الجديدة تأليف المرحوم علي باشا مبارك إن شئت وليعلم القارئ أن مصر لم يقم لها تخت أهلي من بعد إنهزام نقطنبو الثاني سنة ٣٤٠ قبل الميلاد لغاية الآن.

الفصل السادس

في الرحلة العلمية ما بين بني حسن وأسيوط

كيلومتر

١٧ من بني حسن إلى الروضة.

١٠ من الروضة إلى ملوي.

١١ من ملوي إلى الحاح قنديل.

٢٧ من الحاج قنديل إلى جبل أبي فوده.

١٨ من جبل أبي فوده إلى منفلوط.

٤٢ من منفلوط إلى أسيوط.

٣٩٦ من بولاق مصر إلى أسيوط.

ثم خرج من قرية بني حسن ونتجه إلى الجنوب فنصل إلى بندر الروضة التابعة للدائرة السنية بمديرية أسيوط وهي واقعة على الشاطئ الغربي للنيل وبها فوريقة جليلة لعمل السكر يزورها السائحون في إيابهم ويخرجون منها وهم في دهشة مما رأوه بها من كثرة الآلات والدواليب وسرعة الحركة ونشاط العمال وغير ذلك.

وعلى نحو الساعة ونصف إلى الغرب منها أطلال مدينة الأشمونين المذكورة في تواريخ القدماء ومساحة خرابها نحو الألف فدان وليس بها الآن ما يستحق الذكر وكانت سابقاً رأس إقليم وفي سنة ١٨٠٠ مسيحية رأى بها الفرنسيس مدة إقامتهم بمصر آثار معبد قديم من أحسن ما يرى وبابه متجه إلى الجنوب على خلاف العادة القديمة المتبعة ومحوره ينطبق على محور المدينة إنطباقاً تاماً وهو محرر على محور القطب المغناطيسي ولو كان هذا المعبد باقياً لكان محوره نافعاً في معرفة التغيرات التي تحصل للمحور المغناطيسي في جميع الأزمان لكن سبحان من لا يزول ملكه.

وفي الجانب الشرقي من النيل قرية الشيخ عبادة الشهيرة بمغارتها الواقعة على نحو ٤٥

دقيقة منه وكان تحصن بها من نحو عشرة أعوام عصبة من المفسدين وتعذر على الحكومة إخراجهم منها لولا فراغ الماء من عندهم ولما توجهت إليها رأيت له ثلاثة أبواب متفرقة وأخبرني عمدة الناحية أنه لغاية الآن ما وصل أحد إلى قرارها فدخلتها بالشمع والرجال والسلاح ولما سرت فيها رأيتها متشعبة الدروب متشابهة الأعلام كثيرة المسالك الوعرة شديدة الظلام وبعد أن سرنا بها نحو الثلث ساعة قال لي الدليل إلى هنا ينتهي علمنا وإمتنع عن السير فكلفت واحداً ممن كان معنا أن يقف بالنور وإستمرينا نحن في السير بها حتى إحتجب النور عن أبصارنا فأوقفت غيره بالنور مثله ومشينا حتى إحتجب فأوقفت ثالثاً ثم رابعاً وخامساً وسادساً وسابعاً وكلهم بالنور ولم يبق معنا غير ثلاث شمعات لا تكفي لإستصباحنا وكنا قطعنا نحو التسعمائة متر وما وصلنا إلى آخرها وكثرت دروبها وشعوبها في أعيننا وكنا دائماً في صعود وهبوط ما بين أنجاد وأغوار وحجر ومدر وأخاديد وإنعطافات حتى تخيلت أنها طريق العفاريت أوتيه أهل النار وخشيت أن أضل الطريق أو يخونني الرفيق فأسرعنا الكرة بالرجوع نؤم النور الذي تركناه خلفنا ونهتدي بسناه من بعيد إلى أن خرجنا منها والحمد لله ولم نقف على آخرها وفي عصر ذلك اليوم ركبت مع بعض العربان وسرنا على شاطئ النيل إلى جهة الشمال بجوار الجبل نحو الساعة وربع وإذا بمغارة مثلها فدخلتها ومشيت بها نحو دقيتين فوجدت سقفها قد خر وسد الطريق فخرجت منها وصعدت فوق الجبل فرأيته متهد ما فيها حتى صارت كأنها واد بين جبلين وسيرها متجه نحو المغارة التي كنا فيها صباحاً فعلمت أنها أحد شعوبها وأيقنت أنها كانت مقاطع الأحجار في الأزمان السالفة.

ثم نسافر من هذا المكان إلى الجنوب حتى نصل قرية بني عامر المعروفة في كتب المؤرخين باسم تل العمارنة الواقعة على الشاطئ الشرقي من النيل وعلى بعد خمسين دقيقة منه نرى مقابر لطيفة منحوتة في الجبل بعيدة عن بعضها وبها نقوش وأشكال بديعة تروق في عين الناظر ويلزم لزيارتها كلها نحو الأربع ساعات واكتشف أحد الإنكليز من نحو الست سنين بالقرب من القرية المذكورة بناء مهدوماً وعلى أرضه كسوة من الجبس منقسة بالرسم إلى حيضان وفي كل حوض رسوم عجيبة وأشكال غريبة تحدث عن تقدم فن الرسم في ذلك العهد منها صورة البحر وبه المراكب مقلعة ومحدرة وأنواع السمك والزرع والأشجار تكنفه سيما تدريج الألوان الذي لا يمكن وصفه حسناً وإتقاناً وجميع ذلك من عمل الملك أمونوفيس الرابع الذي سمى نفسه (خون أتن) أي سناء الشمس وهذه المقابر لعائلته وإكتشفت مصلحة حفظ الآثار من نحو ست سنين قبره وهو على مسافة ساعة ونصف من قرية الحاج قنديل القريبة من تل العمارة ولما توجهت لمعاينته

سلكت في واد بين جبلين شامخين ثم إنتهيت بعد المشقة إليه فألقيته بمائل قبور بابا الملوك منحوت في الجبل كأنه قصر عظيم غير أن أهل عصره محوا اسمه من حيطانه ودمروها بعد موته بغضاً له وكراهة فيه لإنعكافه على عبادة الشمس ورفضه معبوداتهم (راجع سيرته في تاريخ مصر) ورأيت صورته على حيطان كثيرة منحوتة بالجبال وله هيئة خاصة تشابه الخصيان غليظ الشفتين ضخم الجثة مكتنز اللحم وصورة قرص الشمس فوق رأسه وهو يعبدها مع عائلته نساء ورجالًا وأشعتها ساقطة على رأسه على هيئة أبد قايضة على ما يعرف عند أهل الآثار بإسم مفتاح النيل وهي علامة بربائية معناها الحياة كأن الشمس تقدّمها له وقال مسبرو علمنا من الآثار أن هذا الملك تزوج وهو صغير ورزق بسبع بنات ولا نعلم كيف صار خصياً بعد ذلك إلا إذا كان حصل له هذا الأمر في حرب أهل السودان الذين يجبون كل من يقع أسيراً في قبضتهم.

وكان بلغني أنه يوجد في الجبل على بعد ست ساعات مغارة بها نقوش بربائية فاكتربت هجيناً وتوجهت قبيل الفجر مع عرب تلك الناحية لرؤيتها فسرنا في جبل قفر وأودية مهلكة ليس بها نيات غير الشيح والخزامي وكنا نمر على طرق ودروب قديمة من ذلك العهد تتقاطع مع بعضها ميمنة وميسرة في تلك السسباسب والقيعان ثم وصلنا قبيل الظهر وقرأت بها اسم الملك بيي وأظنها كانت مقطعاً للأحجار ورأيت على نحو النصف ساعة منها مغارة عليها اسم من يدعي (ننا) وفيها صورة أحواله المنزلية ولما عدت إكتشفت في طريقي فوق قمة جيل منفرد في ناحية حائطاً منحوتاً ما رآه أحد قبلي طوله خمسة أمتار وربع وإرتفاعه متران وخمسة سنتي عليه تاريخ الملك (خون أتن) السالف ذكره وفوق رأسه قرص الشمس بارزة في صورة غريبة وأياديها ممدودة إليه بالحياة وجميع نقوشه سليمة كأنها كتبت ليومها ثم عدت إلى السفينة بعد العشاء وأنا في حالة يرثى لها من التعب لأني مكنت ست عشرة ساعة ما بين سفر وإكتشاف بالجبال.

ثم نصعد إلى الجنوب فنمر بجبل أبي فودة وبه كثير من المغارات المنحوتة أهمها مغارة المعابدة التي كانت معدة لدفن التماسيح المحنطة وسيأتي ذكرها وقال ماربيت باشا أنه يوجد بها رمم من بني آدم وعليها قشرة من الذهب غير أني لما دخلتها ما تفطنت لقوله.

ثم نقصد مدينة أسيوط وتعرف في كتب اليونان باسم (ليكوبوليس) (**Lyopolis**) أي مدينة الذئب لأنهم كانوا يعبدونه بها كما أنهم كانوا يعبدون ابن آوي المعروف عندهم باسم (أنوبيس) ورأيت في جبل قرية المشايعة الواقع على بعد نحو ثلاث ساعات في جنوب أسيوط كثيراً من رمم

هذين النوعين محنطة ومدفونة في مقابر مخصوصة مع الطيور المقدسة من كل نوع.

أما مغارات أسيوط فكثيرة جداً ومتركبة فوق بعضها في جوانب الجبل وفوقه وتمتد إلى أمد بعيد شمالًا وجنوباً وجميعها خالية من الكتابة والنقوش ماعدا ثلاثة أو أربعة منها وكتابتها على شرف الزوال بعضها من عمل العائلة الثامنة المصرية وفي شهر سبتمبر سنة **٩٤** ظهر بئر لبعض تجار الأنتيكة بالقرب من تلك المغارات به سفينة (ذهبية) من الخشب تماثل ذهبيات أيامنا سواء بسواء وملاحوها من خشب وصاحب القبر أو رئيس السفينة بالس في رحبة مقعدها وهو ملتحف بردائه وحوله الملاحون جلوس وبازائه وأحد منهم يظهر من حالته أنه يقص عليه حكاية عجيبة بدليل هيئة جلوسه وإشارات ذراعية وهو صاغ لقوله وفي مقدم السفينة رجل ضخم قائم ظن بعضهم أنه هو صاحبها ووجد في القبر بجوارها لوحة من الخشب عليها أربعون جندياً من جنود مصر وكلهم من الخشب وهم في حالة السير أو الهرولة يمشون أربعة أربعة وبيدهم الحراب والدرق ثم لوحة أخرى مثلها عليها أربعون جندياً من العبيد مصنوعون من الخشب أيضاً كأنهم في حالة السير أو الهرولة يمشون أربعة أربعة كذلك وبيدهم القوس والنشاب والدرق وكأن جميع هؤلاء العسكر متهيؤن للهجوم على عدوهم وجميع ما ذكر نقل إلى المتحف المصري وباق به إلى الآن.

وعلى نحو ساعة منها جهة الشمال قرية (منقباد) وكانت مدينة يونانية ويرى في بعض حيطانها المبنية باللبن (الطوب النيء) بعض نقوش يونانية من مدة الدولة العيسوية.

الفصل السابع

في تخت مصر أيام كل دولة ومدة حكمها إلى الآن

إصطلح المؤرخون على أن جميع الملوك الذين تناوبوا الجلوس على منصة الحكم بمصر من إبتداء إستيلاء الملك (منا) أو مصرايم على زمام الملك ينقسمون إلى عدة أحزاب أو طوائف تسمى بالعائلات والدول الملوكية فإن كانت الدولة وطنية سميت باسم المدينة التي إتخذتها قاعدة لها وإن كانت أجنبية سميت باسم جنسها فلذا يقال العائلة المنفيسية نسبة إلى مدينة منفيس والعائلة الصاوية نسبة إلى مدينة صا الحجر والعائلة أو الدولة الفارسية نسبة إلى بلاد فارس أو العجم وهكذا وبلغ عدد جميع العائلات لغاية الآن خمسة وأربعين عائلة منها أربعة وثلاثون جاهلية أو وثنية وواحدة مسيحية وعشرة إسلامية.

ولما كان قدماء المصريين لم يتخذوا مدة ثابتة لمبدأ تاريخ أيامهم بل أرخوا بموت أو بإستيلاء

كل ملك قبض على زمام الملك سيما وحوادث زمن الجاهلية غير معلومة لنا جميعها جرينا على ما قرره المؤرخ مانيطون المصري في جدول تاريخه ولو أن به بعض فروقات قليلة مغايرة لنص الآثار وهاك بيان أسماء العائلات على الترتيب.

أسماء العائلات	مدة الحكم	قبل الميلاد
١ العائلة الأولى منفيسية وأصلها من مدينة طان ولعل مكانها قريب من العرابة أو الخرابات المدفونة وجعلها بعضهم قرية المشايخ بأولاد يحيى بقرب بندر جريا وفي أيام هذه الدولة تحول مجرى النيل وإنقسم ملك مصر إلى أربعة وأربعين مديرية وبنيت مدينة منفيس ولا يعلم لها بعد ذلك شيء من التاريخ.	سنة ٢٥٣	من سنة ٥٠٠٤
٢ العائلة الثانية منفيسية أيضاً ولا يعلم لها شيء ولم يعثر لها على آثار إلا القليل جداً.	٣٠٢	٤٧٥١
٣ العائلة الثالثة منفيسية أيضاً ولايعلم لها شيء غير أبي الهول الذي بالجيزة وذكر بعضهم أنه ينسب إليها الهرم المدرج الذي بالجبل الغربي	٢١٤	٤٤٤٩

بجوار سقارة وقيل أنه من عمل العائلة الثانية.		
٤ العائلة الرابعة منفيسية أيضاً وفي مدتها بنيت أهرام الجيزة الثلاثة المشهورة وتحسنت الصناعة وتقدمت الهندسة.		
٥ العائلة الخامسة منفيسية أيضاً وفيه بنيت مساطب سقارة العظيمة كمسطبة تي وغيره.	٢٨٤	٤٢٣٥
٦ العائلة السادسة الفنتينية (نسبة إلى جزيرة الفنتينية المعروفة بجزيرة أصوان أو البربه) ولها بعض آثار بقرية زاوية الميتين وقصر	٢٤٨	٣٩٥١
الصياد وقرية الكاب وجمعها بالصعيد.	٢٠٣	٣٧٠٣
٧ العائلة السابعة منفيسية أيضاً............................		
٨ العائلة الثامنة منفيسية أيضاً..................................		
٩ العائلة التاسعة أهناسية نسبة إلى اهناس المدينة		
	٧٠ يوماً	
	١٤٣	٣٥٠٠
	١٠٩	٣٣٥٨

تابع العائلات

أسماء العائلات	مدة الحكم	قبل الميلاد
	سنة	من سنة
١٠ العائلة العاشرة اهناسية أيضاً...............................	١٨٥	٣٢٤٩
لا يعلم لهؤلاء العائلات الأربع شيء قط من التاريخ حتى ظن بعضهم أن مصر كانت محكومة في هذه المدة بدولة أجنبية.		
١١ العائلة الحادية عشرة ينسب لها مقابر ذراع أبي النجا التي بقرية القرنة ولا يعلم من أخبارها إلا القليل.		
١٢ العائلة الثانية عشرة طيبية ينسب إليها مقابر بني حسن اللطيفة		
ومسلة فرعون الموجودة الآن بالمطرية ومسلة أخرى بالفيوم ولها بعض تماثيل بالكرنك وهي التي أسست مدينة طيبة ووضعت مقياس النيل بوادي حلفه وری اسم بعض ملوكها على أحجار بجهة الشلال الثاني وهذه العائلة والتي قبلها ليس لهما فاصل يعين مدة حكم كل واحدة	٢١٣	٣٠٦٤

منهما على حدتها. ١٣ العائلة الثالثة عشرة طيبية أيضاً ولا يعلم لها شيء من الآثار		
١٤ العائلة الرابعة عشرة طيبية أيضاً وتاريخها مجهول مثل التي قبلها.	٤٥٣	٢٨٥١
١٥ العائلة الخامسة عشرة طيبية أيضاً وفيها أغارت العمالقة على مصر ومكثوا مدة العائلة السادسة عشرة والسابعة عشرة وكان تختهم مدينة تنيس وتعرف باسم صان بمديرية الشرقية وفي ذات الوقت إنقسم ملك مصر إلى قسمين أحدهما بيد الوطنيين والثاني بيد العمالقة وكانت مدة هذا الإشتراك نحو خمسمائة واحدى عشرة سنة ولم يعد على ملك مصر من إغارة هؤلاء الأجانب غير الدمار.	١٨٤	٢٣٩٨
١٦ العائلة السادسة عشرة طيبية وتنيسية معاً.	٥١١	٢٢١٤

تابع العائلات

أسماء العائلات	مدة الحكم	قبل الميلاد
	سنة	من سنة
١٧ العائلة السابعة عشرة شرح ما قبله.		
١٨ العائلة الثامنة عشرة طيبية فقط وهي التي أخرجت العمالقة أو أمة الهكسوس من الديار المصرية ثم ظهرت بأعظم مظهر ونبغ منها كبار الملوك الفاتحين ولها اليد الطولي في بناء الآثار العديدة منها تحسين مدينة طيبة وبناء أو ترميم جملة معابدها ومما ينسب إليها عمل مقابر العصاصيف أو العساسيف وبناء مدينة (أبو) والدير البحري وصنمي ممنون المعروفين باسم شامة وطامة وكانا أعجوبتين في تلك الأعصار القديمة.	٢٤١	١٧٠٣
١٩ العائلة التاسعة عشرة طيبية أيضاً ولها ما لسالفتها من الفخار وشدة البأس كما إشتهرت بالعمارات والمباني حتى لا يكاد يرى عصر مكان أثري إلا ولها به عمل منها معبد الأقصر ومعبد الكرنك والقرنة والعراية المدفونة والسودان وآسيا الغربية وبلاد الشام والحجاز وغير ذلك مما لا يحصى ولايحصر وفي أيامها خرج بنو إسرائيل من مصر على	١٧٤	١٤٦٢

أشهر الأقوال. ٢٠ العائلة المتممة للعشرين طيبية أيضاً ولها بعض مآثر حسناء منها ما هو بمدينة طيبة وما هو بمدينة (أبو) وغير ذلك وفي مدتها دخل الفنيقيون أو الكنعانيون أرض مصر وفها إبتدأ إضمحلال دولة الفراعنة ونازعت الكهنة الملوك في تاج الملك. ٢١ العائلة الحادية والعشرون طيبية وتنيسية معاً لأن الملك كان منقسماً إلى قسمين أحدهما بيد الكهنة بالصعيد والآخر بالبحيرة وقد عاشت وماتت هذه الدولة ولم تفعل شيأ ما يدل على فخر أيامها	١٧٨ ١٣٠	١٢٨٨ ١١١٠

تابع العائلات

أسماء العائلات	مدة الحكم	قبل الميلاد
	سنة	من سنة
كانت مختلفة الكلمة ولها ينسب بناء معبد تنيس. ٢٢ العائلة الثانية والعشرون بوبسطية (نسبة إلى تل بسطة بجوار الزقازيق بإقليم الشرقية) وكانت أيامها فتناً ومحناً ولها مآثر قليلة وفي مدتها سار فرعون شيشاق إلى بيت القدس وغلب رحبعام ابن سيدنا سليمان عليه السلام وإستولى على المقدس الشريف وأخذ منه الدروع السليمانية والأواني المقدسة وكر راجعاً.	١٧٠	٩٨٠
٢٣ العائلة الثالثة والعشرون تنيسية وكانت أيامها زمن مشاغبات داخلية ومزقت الديار المصرية كل ممزق لتعدد أرباب الحل والعقد فكان يحكمها عشرة من ملوك الطوائف وأغلبهم من المشواشيين الذين إغتصبوا الملك بطريق التعدي أما ملحقات مصر ومضافاتها فجميعها رفعت لواء العصيان وخرجت عن الطاعة. ٢٤ العائلة الرابعة والعشرون صاوية (نسبة إلى مدينة صا الحجر) ولا يعلم لها أمر ولا نهي لأنها عبارة عن ملك واحد فقط.	٨٩	٨١٠

٢٥ العائلة الخامسة والعشرون أثيوبية ولها مبان قليلة منها حائط بالكرنك ومعبد صغير به وفي سنة ٩٤ أظهرالحفر في تلك الجهة بعض أحجار أثرية يظهر من حالتها أنها كانت في معبد هناك وهدم.	٦	٧٢١
	٥٠	٧١٥
٢٦ العائلة السادسة والعشرون صاوية وفي أيامها إهتمت بتحسين الوجه البحري وتوحدت الكلمة وإنتظم حال الحكومة ودخل اليونان حتى كانت عساكر مصر مركبة من يونانيين ووطنيين وفي مبدأ حكمها رحل كثير من عساكرها إلى بلاد السودان وقطنوا بها	١٣٨	٦٦٥

تابع العائلات

أسماء العائلات	مدة الحكم	قبل الميلاد
	سنة	من سنة
لما رأوا مزاحمة اليونان لهم في المراتب.		
٢٧ العائلة السابعة والعشرون فارسية ولها بعض نقوشات بوادي الحمامات بقرب قنا وعلى أسوار مدينة (أبو) بالصعيد غير أنها دمرت كثيراً من آثار مصر وفتحت قبور الموتى ونبشت الأموات.	١٢١	٥٢٧
٢٨ العائلة الثامنة والعشرون صاوية وكانت في إضطراب من تهديد الأعجام لها وهي عبارة عن مالك واحد فقط.	٧	٤٠٦
٢٩ العائلة التاسعة والعشرون أشمونية ويقال لها منديسية وقضت زمانها في التجهيزات الحربية لمصادمة الأعجام الذين كانوا يزعجونها بإرسال الجنود الكثيرة.	٢١	٣٩٩
٣٠ العائلة المتممة للثلاثين سمنودية وهي آخر دولة الفراعنة لأن من بعد فرار آخر ملوكها إلى بلاد النوبة لم يعد لمصر تختها الأهلي إلى الآن		

وكانت جميع مدة هذه العائلة كالتي قبلها.	٣٨	٣٧٨
٣١ العائلة الحادية والثلاثون، فارسية ولم تفعل شيأ سوى الدمار وبإستيلائها إنتهت الدولة الفرعونية كما أسلفنا.		
٣٢ العائلة الثانية والثلاثون مقدونية (نسبة إلى مدينة مقدونية) وفي أيامها بنيت مدينة الإسكندرية وصارت تختاً لمصر ولهذه الدولة بعض عمارات بجزيرة الفنتينة (جزيرة البربه أوجزيرة أسوان).	٨	٣٤٠
٣٣ العائلة الثالثة والثلاثون يونانية وتعرف بدولة البطالسة وتختها الإسكندرية أيضاً ولها أعمال كثيرة بأرض مصر منها ما هو بجزيرة	٢٧	٣٣٢
	٢٧٥	٣٠٥

تابع العائلات

أسماء العائلات	مدة الحكم	بعد الميلاد
البربه وما هو بمدينة طيبة ودير المدينة ومدينة (أبو) وإدفو وكوم امبو والكاب ودندره وغير ذلك.	سنة	من سنة بعد الميلاد
٣٤ العائلة الرابعة والثلاثون رومانية وقاعدة مصر الإسكندرية أيضاً		ــــــ
ولها بعض تحسينات بالمعابد والعمارات المصرية القديمة وكثير من النقوش والنصوص البربائية منها ما هو جزيرة أسوان وإسنا و كوم امبو ومنها ما هو بمعبد دندره الصغير وكان القيصر دسيوس الروماني هو آخر من أجرى تحسينات بالمباني المصرية وذلك سنة ٢٤٩ بعد المسيح وبقيت مصر تحت أيدي قياصرة رومه إلى أن إستولى القيصر تيودوز أوتودوسيس الأكبر على مملكة رومه الشرقية وتختها مدينة القسطنطينية وذلك سنة ٣٧٩ بعد المسيح وفي سنة ٣٨١ صدرت أوامره بالتحريج على الديانة الوثنية حتى قيل أنهم كسروا في يوم واحد	٤١١	من سنة ٣٠ لغاية ٣٨١

بمصر أكثر من أربعين ألف صنم وهذا هو آخر زمن الجاهلية. ٣٥ الدولة العيسوية وتخت مصر الإسكندرية وأولها صدور أوامر هذا القيصر وآخرها الفتح الإسلامي سنة ١٨ بعد الهجرة أو سنة ٦٣٨ بعد المسيح وفي أيامها إفترقت النصارى إلى جملة مذاهب وقامت الحروب الدينية على قدم وساق وسيأتي ذلك.	٢٥٧	٣٨١
٣٦ دولة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين وفي مدتهم بنيت مدينة الفسطاط (مصر القديمة) وصارت تختاً لمصر وحفر خليج من النيل إلى البحر الأحمر أو بحر القلزم لسهولة المواصلة وجلب الميرة من وإلى بلاد العرب وإنسحبت عساكر هرقل قيصر رومه الشرقية وخرجوا من مدينة الإسكندرية وكان خروج بلا رجعة.	٢٣	٦٣٨

تابع العائلات

أسماء العائلات	مدة الحكم	بعد الميلاد
	سنة	من سنة
٣٧ الدولة الأموية وتخت مصر الفسطاط وفي أيامها وضع عبدالعزيز ابن مروان مقياساً للنيل بحلوان وكان صغيراً ووضع أسامة بن زيد التنوخي في خلافة الوليد مقياساً بالجزيرة وكان كبيراص وفيها هدم الجزء الأعلى من منارة الإسكندرية بناء على مكيدة فعلها ملك الروم للوليد عبدالملك بن مروان وفيها أيضا كان إبتداء ضرب النقود الإسلامية.	٨٩	٦٦١
٣٨ الدولة العباسية الأولى وتخت مصر الفسطاط أيضاً وفي أيامها بنيت العسكر (ومكانها الآن الكيمان التي خلف جامع أحمد بن طولون) فصارت مدينة عظية وفتح الهرم الكبير الذي بالجيزة على يد المأمون ابن هرون الرشيد بعدما صرف عليه مبالغ جسيمة وإتسع نطاق المعارف وظهرت الدولة الطولونية.	١١٨	٧٥٠

٣٩ الدولة الطولونية وتخت مصر القطائع التي بناها ابن طولون وكانت تمتد من المقام الزينبي إلى مقام زين العابدين إلى الجامع الطولوني إلى المنشية التي أسفل القلعة وبإنقضاء هذه الدولة إبتدأ خرابها.	٣٧	٨٦٨
٤٠ الدولة العباسية الثانية وتخت مصر الفسطاط وكانت جميع أيامها زمن فتن ومحن ولم يعد على مصر منها أدنى فائدة.	٢٨	٩٠٥
٤١ الدولة الأخشدية وتخت مصر الفسطاط ولم تفعل شيأ يستحق الذكر.	٣٤	٩٣٣
٤٢ الدولة الفاطمية وتخت مصر القاهرة وفي أيامها بنيت القاهرة والجامع الأزهر والجامع الحاكمي وفيها خربت الفسطاط الخراب الأول في زمن المحنة أيام المستنصر بالله حتى أكل الناس بعضهم وفيها أيضاً كان إبتداء قيام الحروب الصليبية لأخذ بيت المقدس الشريف وفي	٢٠٥	٩٦٧

تابع العائلات

أسماء العائلات	مدة الحكم	بعد الميلاد
	سنة	من سنة
آخرها أحرقت الفسطاط وتم خرابها أيام العاضد بالله الفاطمي آخر خلفائها.		
٤٣ الدولة الأيوبية الكردية وتخت مصر القاهرة أيضاً وفيها بنيت قلعة الجبل وسور القاهرة الباقية آثاره إلى الآن وحفر بئر الحلزون وهدمت جملة أهرام كانت بالجيزة على يد بهاء الدين قراقوش وبنيت مدينة المنصورة وفيها أيضاً وقع عصر القحط الذي لم يعهد مثله حتى أكل الناس أولادهم وفتحوا المقابر وأكلوا رمم الموتى وفيها أخذ الإفرنج مدينة دمياط وأسر ملك الفرنسيس وعقل بدار ابن لقمان ولها جملة ما مآثر حسناء.	٧٨	١١٧٢

٤٤ دولة المماليك وتخت مصر القاهرة وهي تنقسم إلى مماليك تركمانية وإلى مماليك شراكسة وفيها بنيت أغلب مساجد القاهرة وقد إشتهر بعض ملوكها بالظلم وأخذ أموال الناس بالباطل وإنتهت بقتل الغوري وتغلب السلطان سليم على مصر (راجع الخطط التوفيقية جزء سابع صحيفة ١٥ وما بعدها).	**٢٦٧**	**١٢٥٠**
٤٥ الدولة العلية وهي الحاكمة الآن وتخت مصر القاهرة وفيها دخلت الفرنسيس وإستولت عليها نحو الثلاثة أعوام ثم صارت مصر ولاية ممتازة وراثية للعائلة المحمدية العلوية وفي أيامها زادت أرض مصر الزراعية نحو الثلاثة ملايين من الأفدنة ومن حوادثها حريق القلعة وقتل الغز وفتوح السودان إلى خط الإستواء جنوباً ودارفور غرباً والبحر الهندي شرقاً وإمتدت بمصر السكك الحديدية وكذا الأسلاك التلغرافية	**٣٧٦**	**١٥١٧**

تابع العائلات

أسماء العائلات	مدة الحكم	بعد الميلاد
حتى وصلت إلى بلاد السودان وحفر خليج السويس فإتصلت مياه البحر الأبيض المتوسط ببحر القلزم وسهلت الملاحة ما بين أوربا والهند وبذلك إنفصلت قارة آسيا عن قارة غفريقا التي صارت أكبر جزائر الدنيا ودخلت الإنكليز بمساعدة أو بإغراء الألفي وإستولوا على ثغر رشيد وطردوا منه ثم كانت الفتنة العرابية ودخول الغنكيز المرة الثانية وغنفصال السودان بعد ظهور المتمهدى به والله الموفق للصواب		

الفصل الثامن

في الرجلة من أسيوط إلى العربية المدفونة

كيلو متر

٢٠ من أسيوط إلى أبي تيج.

٤٣ من أبي تيج إلى طهطا.

٤٢ من طهطا إلى سوهاج.

١٨ من سوهاج إلى المنشية.

٢١ من المنشية إلى جرجا.

١٣ من جرجا إلى البلينا.

٥٥٦ من بولاق مصر إلى البلينا.

فإذا خرجنا من أسيوط وقصدنا الجنوب فإننا نرى بندر أبي تيتج وهناك قرية البنداري وقرية الخوالد الواقعتان في شرق النيل وبهما كثير من المغارات المنحوتة في الجبل وأغلبها خال من النقوش مثل مغارات قرية الغنايم الواقعة في الجبل الغربي غير أن بعضها يشابه بعض مقابر باب الملوك لكنها صغيرة جداً ثم نقصد قرية فاو الكبير الواقعة في شرق النيل ومقابرها مهمة لأنها قديمة جداً من عمل العائلة الخامسة والسادسة وخطها بارز وقد سلط الله عليها المقاتلين والحجارة فأتلفوا جانباً منها في العام الماضي والذي قبله مع أنها مهمة جداً للتاريخ وبجوارها من جهة الجنوب عمارة من اللبن الجافي المختوم عليه باسم أحد الملوك تشبه الهرم يبلغ إرتفاعها نحو الخمسين متراً وهي مركوزة على الجبل وعلى نحو ثلث ساعة منها مقابر منحوتة في جوانبه كأنها منازل بها أروقة يعلو بعضها بعضاً وأغلبها خال من النقوش وقد سلط الله عليها تجار الأنتيكة فنبشوا جميع قبورها.

ولما وصلت إلى بندر سوهاج أخبرني حضرة مديرها أن بالجبل الغربي مقابر بها آثار كثيرة فتوجهت لرؤيتها مع طلوع الشمس وصحبتي الخبير وبعض العرب وأحد العمد والخفراء فما

صعدنا الجبل إلا وقوي علينا سلطان الحر وبسط بساط الجمر وعصفت ربع الدبور كالتنور المسحور وإنفجرت ينابيع العرق وركبناط طبقاً عن طبق وكنا كلما نسير يشتد علينا الخطب الخطير فما حان الظهر إلا وكانت الهاجرة تنضج الجلود وتذيب الجلمود

وكنا تارة نجوب الصحصح الأفقر وأخرى تخترق القاع الأعفر ونمر على سمول وقفار بها رمال كموج البحار و نري كثباناً من الأحجار لها سناء يأخذ الأبصار كأنها قطع البلور أو الثلج المنثور وكنا نرقي بالجمال قلل الجمال ونمط في الأودية ونصلي شواظ الهاوية ومازلنا نجول ونجوب حتى مالت الشمس إلى الغروب وقدم مسنا اللغوب وما وصلنا تلك المقابر إلا بعد ما بلغت القلوب الحناجر من مكابدة الهواجر ثم نزلنا لنستريح وقد لفحت وجوهنا الريح أما المقابر فكانت معونة كالآبار في صميم الأحجار ومردومة بالزلط والحراسات المجهول عمل الآن وبامتحانها علمت أن المعول لا يعمل فيها ولا نوى على فتم فيها ثم تركناها وركبنا الجمال وقصدنا جهة الشمال ومازلنا في سير وتعب وعناء ونصب إلى أن ليس الليل جلبابه وأفرغ علينا إهابه فاضطجعنا والوحوش تدانينا والذئاب تنادينا ولما أنبلج النهار قصدنا مكان الآثار وحشتنا الركاب حتى وافينا جبلا قد عانق السحاب فعلمنا من الخبير أنه لاسبيل الى المسير فهنا لك ترجلنا عن الدواب وتركناها مع بعض الأعراب ثم سرنا على الأقدام ثلاث ساعات بالتمام وفاجأتنا الهاجرة بالهجوم تجرذيل السموم واشتعلت البسيطة من وقدة الحر حتى خلناها واديا من الجر والتهب الجو واشتد زفيرا لنو وصارت الرمضاء كالنيران حتى ركب النمل العيدان وغلبت حمارّة القيظ وكدنا نتميز من الغيظ وإنجبست عيون العرق واستولى عليها القلق ثم تهنا في تلك الوهاد وما كان معنا ماء ولازاد فنزلنا في واد تضل فيه الجان ولا تهتدى إليه مردة الأعوان كثيراً لشعوب متشابه الدروب وكان اعترانا التعب وأوقد العطش في جوفنا جمرة اللهب فبقينا أحير من ضب وأذهل من صب لايقر لنا قرار ولايطاوعنا اصطبار وأخذ الدليل يبحث على السبيل ولم يجد اليه من سيل فغشينا من الهم ماغشى آل فرعون من اليم ووقعت على الأرض فاقد الحواس موقنا بحلول الباس وصارت الجماعة تجرى منها الى هنا وتضرع إلى الله الهنا وكانت ألسنتهم التوت وأجسامهم انضوت ووجوههم تغيرت وعقولهم تحيرت وأنا لم أزل مطروحاً على الحجارة الملتهبة بنار الحرارة ثم أتي الخبير وأوعز إلينا بالمسير وزعم أنه عرف المكان وأنفقات عين الشيطان فقمت وأنا غير قادر على الكلام وصارت الدنيا في وجهي كالظلام مع أن الحر يحكي نار الهجر ويذيب قلب الصخر ثم أدركنا وادياً تحفه الكهوف المرتبة الصفوف لايحصيها حاسب ولايحصرها

كاتب مملوءة بمونة تميل إلى الحمرة كأن عليها خاتم القدرة لايؤثر فيها الحديد إلا في الزمن المديد ثم تركناها ونحن في أسوأ حال من الظمأ أو حر الجبال ومازلنا نقاسي الشدائد في تلك الفدافد إلى أن رأينا البلاد كالخيال فأرسلنا خلف الركائب والرجال ولما أتت شربنا وطربنا وعدنا إلى ما كنا ثم ارتحلنا الرواجل حتى أتينا السواحل وإني أحمد الله على السلامة في السفر والإقامة

(رجع) ثم نصل إلى قرية البلينا الواقعة في جنوب بندر جرجا ومنها إلى قرية العرابة المدفونة نحو الساعتين وليس بها الآن غيراً كام مكومة وأطلال متهدمة أما آثارها فأربعة أشياء أولها معبد سيتي الأول ثانيها معبد ابنه رمسيس الاكبر (وهما من العائلة التاسعة عشرة).

ثالثها مدفن أوزي ريس (ومكانه مجهول الآن) رابعها المقابر التي بجواره أما معبد سيتي فجميعه مزين بالرسم البديع المحكم الصنعة لكنه لايخرج عن حد لوحات معبد دندره وسيأتي الكلام عليه وكل رسم وجد به اسم الملك أو صورته كان من حسنه أعجوبة للناظرين وانا قارنا زينته بما في معبد رمسيس إلا كبر وجدنا هما على طرفي نقيض وبينهما بون بعيد لأن الثاني به عيوب ظاهرة نشأت من الاهمال في الصنعة كما أن بالأول رموزاً كثيرة خفية عسرة الفهم تفوق صعوبتها جميع ما بالمعابد المصرية الباقية من ذلك مخالفة وضع جناح المعبد من جهة الجنوب حتى صار كأنه لغز لا يمكن فك معماه ومنها اجتماع صورتي الأب والأبن مع بعضهما بكيفية خاصة وغاية ما قالوه في ذلك هو إما ترد رمسيس اشترك مع أبيه في الحكم وهو يافع واما أن المعبد بني مدة اشتراكهما معاً .

أما وصفه فهو أنه مبنى بالحجر الجيري الأبيض النقي وأرضه منحدرة قليلا إلى الغرب وبه أيوانان عظيمان يفصلهما عن بعضهما جدار من الحجر وبهما أساطين (عمد) عليها نقوش جميلة لكنها دينية وعلى الحائط الجنوبي كتابة يعلم منها جميع ما صنعه رمسيس الأكبر من الأصنام والتماثيل التي نصبها بمدينتى طيبة ومنفيس لقصد تخليد ذكر أبيه وأنه شيد أبواب المعبد وختم عباراته بوصف نفسه حينما كان صغيرا و ما ناله من الرتب السامية حالة شبيبته وفي رحبة المعبد صفان من العمد بهما ٢٤ عمودا وعلى حيطانها صورة الآلهة وهو يقدم لهم القرابين ويلي ذلك أسماء الجهات ا لتي كان حاكماً عليها وبفنائه ثلاثة صفوف من العمد بها ستة وثلاثون عموداً سبعة منها خاصة بكل من (هوروس) و(إيزيس) و(أوزير يس) و (أمون) و (هر ماخيس) د (فتاح) وسابعها خاص بالملك سيتي ولها سبع محاريب أو غرف معقودة ستة منها للمعبودات

المذكورة والسابعة للملك المذكور وهو مصور بها كأنه جالس على قضبان تحمله المعبودات وأمامه صورته خاضعة له كأنها تعبده فهو يعبد نفسه بنفسه وهذا من أغرب خرافاتهم وربما كان تخيل أن روحه تطهرت من جمع الدنس والأرجاس حتى صارت في أعلى عليين والتحقت بالآلهة في عالم الملكوت فهو يعبدها في هذه الحياة الدنيا والله أعلم بما وسوس له شيطانه وكأنه ما كفاه عبادة رعيته له حتي عبد نفسه وجميع نقوش هذه الغرف عبارة عن صورته تعبد صور الآلهة وفي نهاية المعبد من جهة الجنوب قاة بها أسماء الملوك التي حكمت مصر قبله مفتتحة باسم منا رأس الفراعنة وختمته باسم سيتي الأول وعدد الجميع ٧٦ ملكاً وبها صورته وصورة ابنه قائمات أحدهما يبخر والآخر يرتل القصائد الدينية أما معبد رمسيس الأكبر فواقع في شمال معبد سيتي المذكور وقد اعتراه الخراب التام حتى صارت أركانه قياما وقعوداً وحيطانه ركعاً وسجوداً لا تبلغ أعلى نقطة فيه أكثر من متر ونصف ومن هذا المعبد أخذ الأنكليز رواق أسماء الملك الموجود الآن في دار تحفهم ولذلك ضمر بناعن وصفه صفحا أما قبر (أوزيريس) فهو إلى الشمال من معبد رمسيس الأكبر وهناك ترى سورا واسعا مبنيا باللبن ظن بعض المؤرخين أنه مكان مدينة (طانس) القديمة التي هي وطن الملك منا وذكر قدماء المؤرخين أن قبر(أوزيريس) موجود في هذه الجهة ولذا كانت قرية العرابة كقبلة يؤممها جميع المصرين ويدفنون بها موتاهم تبركاً بقبر معبودهم المذكور راجع كيفية قتل هذا المعبود في آخر الكتاب عند ذكر المعبودات وقال(بلوتاركه) أن مياسير المصريين وأغنيائهم كانوا يأتون من كل فج عميق ومكان سحيق ليدفنون أموتاهم بجوار قبر هذا المعبود وذكر ما رييت باشا أن هذا القبر ليس له أثر معروف الآن في هذه الجهة ولكن ربما يكون تحت الكون السلطاني أو بجواره وهو قل عظيم نشأ من بناء المقابر فوق بعضها مع تعاقب الأزمان وأن الحفر فيه له فائدتان أحداهما أننا كلما نتعمق في الحفر نجد المقابر أقدم من التي فوقها حتى نصل إلى مقابر العائلة الأولي وثانيتهما يوشك أننا نعثر ذات يوم على قبر المعبود المذكور أقول لما توجهت إلى قرية العرابة المدفونة سنة ١٨٩٢ مسيحية

وجدت الفلاحين نقلوا أغلب هذا الكوم إلى غيطانهم ولم يبق منه إلا القليل ولعلهم أخذوا القبر وسمدوا به أرضهم فتحول إلى زرع أكلته البهائم ولما توجهت في شهر سبتمبر سنة ٩٤ إلى جهة العرابة لم أجد للتل المذكور إلا بعض أكمات صغيرة أما المقابر فتمتد ما بين الجبل وأطلال هذه القرية وأولها مسيرة ساعة وأكثر وقد نبشت مصلحة حفظ الآثار أغلبها واستخرجت منها أحجارا كثيرة مكتوبة تعرف عندنا باسم الشاهد وجميعها موجود الآن بالمتحف المصري ومنها

علمنا أنها كانت للعائلة السادسة والثانية عشرة والثالثة عشرة وأغلب قبور هذه الأخيرة مبني على هيئة أهرام صغيرة جوفاء مقببه وفي بعضها بروز كالأشرطة تمر بزواياها المتقابلة وتتقاطع في المركز تعرف في ن ال عمارة باسم العقود المتصلبة وبالجملة قد يوجد إلى الآن بقرية العرابة المدفونة آثار ومعابد مطمورة بسافى الأتربة قد بنت الأهالي فوقها دورهم ومنازلهم انتهى ما أردنا تلخيصه

الفصل التاسع

في أهم آثار مصر الوسطى والصعيد

ينحصر أهم آثار مصر الوسطى في أربع مواضع وهي مدينتان ومقبرتان اما المدينتان فهما عين شمس بقرب المطرية ومنفيس أو ميت رهينة والمقبرتان هما أهرام الجيزة ومقابر سقاره.

أما عين شمس واسمها القديم (أن) فكانت مدينة قديمة جدا مقدسة عندهم لأنها كانت مرصدة على معبودهم (رع) أي الشمس وكان بها مدرسة كلية جامعة ولشهرتها سعي إليها كل من سولون مشروع اليونان وأفلاطون الحكيم وفيثاغورس لتلقي العلوم بها وفي مدة رمسيس الثالث (أحد ملوك العائلة العشرين) بلغ عدد طلبة العلم بأحدهيا كلها اثنى عشر ألف طالب ويري به الآن ما يعرف باسم مسلة فرعون وهي أقدم المسلات المصرية لأنها من عمل أوزتن (من العائلة الثانية عشرة) وعليها اسمه وطولها ٢٠ مترا و ٢٧ سنتيا وقد رأي عبداللطيف البغدادي في سياحته بمصر سنة ١٩٩٠ ميلاديه جملة آثار بالمطرية منها مسلتان متوجتان بتاجين من نحاس كالقمع تزنجرا وسالا على بسطهما وقال مُحَّد بن إبراهيم الجزري في تاريخه(وفي رابع شهور رمضان سنة ٦٥٦

هجرية وقعت احدى مسلتي فرعون التي بارض المطرية فوجدوا داخلها مائتي قنطار من نحاس وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار)[1]وفي سنة ١٨٥٨ مسيحية ظهر بها أحجار كان أعدادها طوطوميس الثالث (أحد ملوك العائلة الثامنة عشرة) لتوسيع أحدها كلها وقال استرابون الجغرافي أن ابتداء خراب هذه المدينة كان على يد قبيز ملك العجم أما الآن فلم ير بها غير سور المعبد والمسلة السالفة الذكر وسبب خرابها بهذه الحالة هو عين سبب خراب مدينة (أبو) ومدينة) (دندره) (والعرابة المدفونة) وغيرها وهو دخول الديانة المسيحية التي هدمت الآثار الجليلة أو جعلتها مساكن أما الأطلال التي حول المسلة فهي آثار المدينة القبطية لا آثار شمس الحقيقية وقال المقريزي قال جامع السيرة الطولونية كان بعين شمس صنم بمقدار الرجل المعدل الخلق من كدان أبيض محكم الصنعة يتخيل من استعرضه أنه ناطق فوصف لأحمد بن طولون فاشتاق إلى

(1) هذه عبارة فيها نظر لأن معاملتهم كانت بالعروس وهذا الذهب بالعمل بالمضروبة.

تأمله فنها ندوسه عنه وقال ما رآه وال قط الأعزل فركب إليه وكان هذا في سنة ثمان وخمسين ومائتين وتأهله ثم دعا بالقطاعين وأمرهم باجتثاثه من الأرض ولم يترك منه شيئاً ثم قال لندوسه خازنه يا ندوسه من صرف منا صاحبة فقال أنت أيها الأمير

اه أما مدينة منفيس المعروفة الآن باسم ميت رهينة فهي أكبر المدن القديمة وربما وجد بها بقايا من بناء العائلة الأولى والثانية والثالثة لأنها أقدم العواصم المصرية ومن إنشاء الملك (منا) أول فراعنة مصر وذكر استرابون آن مدسنة منفيس تمتد إلى سهول جبال لبيا وذكر عبداللطيف البغدادي أن طولها نصف يوم وعرضها كذلك غير أن عمليات الحفر التي أجرتها الحكومة المصرية في تلك الجهة لم تحقق جميع هذه الأقوال والظاهر أنها كانت مستطيلة جداً بحيث تصال إلى مدينة الجيزة شمالاً وقرية الشمباب جنوباً والدليل على ذلك أنه يوجد الآن بأرض المزارع أحجار قديمة وجدر مدفونه تحتها وأغلبها بقرية ميت رهينة التي كان بها معبد فتاح المعروف عند اليونان باسم فلكان أو آلة النار وينسب إلى هذه المدينة كثير من الأهرام كهرم أبي صير وأهرام سقارة ودهشور وفي مدة العائلة الرابعة والخامسة والسادسة اتسع نطاق عمارتها ثم أهمل شأنها بالكلية مدة العائلة الحادية عشر والثانية عشرة والثالثة عشرة ثم استولى عليها العمالقة فوقعت في الاضمحلال إلى أن تمكن ملوك العائلة الثامنة عشرة من طردهم فعاد إليها مجدها الأول ثم دارت عليها الدوائر ثانياً بتغلب الأشوريين والزنوج والعجم عليها وكان بها بعض محاسن من رونقها القديم مدة حكم اليونان وأخبر استرابون الجغرافي أنه لما زارها وجدها عبارة عن أنقاض مكومة وأطلال متهدّمة.

وإليك طرفاً مما رواه عبد اللطيف البغدادي في كتاب الإفادة والاعتبار صحيفة ٢٩ قال ومن ذلك الآثار التي بمصر القديمة وهي منف التي كان يسكنها الفراعنة وكانت مستقر ملوكها فهذه المدينة مع سعتها وتقادم عهدها وتداول الملل عليها واستئصال الأمم إياها من تعفيه آثارها ومحو رسومها ونقل حجارتها وإفساداً بنيتها وتشويه صورها مضافاً ذلك إلى ما فعلته فيها مدة أربعة آلاف سنة فصاعدا تجد فيها من العجائب ما يفوت فهم المتأمل ويحصر دونه البليغ اللسن وكلما زدته تأملاً زادك عجباً وكلما زدته نظراً زادك طرباً ومهما استنبطت منه معنى أنباك بما هو أغرب ومهما استأثرت منه علماً ذلك على أن وراءه ما هو أعظم فمن ذلك البيت المسمى بالبيت الأخضر وهو حجر واحد تسعه أذرع ارتفاعاً في ثمانية طولاً في سبعه عرضاً إلى أن قال وعلى ظاهرة صورة الشمس مما يلي مطلعها وصور كثير من الكواكب والأفلاك وصور الناس

والحيوانات على اختلاف من النصبات والهيآت فمن بين قائم وماد رجليه وصافهما ومشمر للخدمة وحامل آلات ينبئ ظاهر الأمر أنه قصد بذلك محاكاة أمور جليلة وأعمال شريفة وهيئات فاضلة وأشارت إلى أسرار غامضة وأنها لم تتخذ عبثاً ولم يستفرغ في صنعتها الواسع المجرد الزينة وقد كان هذا البيت ممكناً على قواعد من جارة الصوان العظيمة الوثيقة فحفر تحتها الجهلة والحمقي طمعاً في المطالب فتغير وضعه واختلف مركز ثقله وثقل بعضه على بضعه فتصدع صدوعاً لطيفة إلى أن قال وحجارة الهدم متواصفه في جميع أقطار هذا الخراب وتجد هذه الحجارة مع الهندام المحكم والوضع المتقن قد حفر بين الحجرين منها نحو شبر في ارتفاع أصبعين وفيه صد النحاس وزجرته فعلمت أن ذلك قيوداً لحجارة ورباطات بينها ثم يصب عليه الرصاص وقد تتبعها الأنذال المحدودون ففلعوا منها ما شاء الله تعالى وكسروا كثيراً من الحجارة ليصلوا إليها ولعمر الله لقد بذلوا الجهد في استخلاصها وأبانوا عن تمكن في اللؤم وتوغل في الخساسة إلى أن قال وإذا رأي اللبيب هذه الآثار عذراً لقوم في اعتقادهم في الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة.

وجثتهم عظيمة أو أنه كان لهم عصا إذا اضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم إلى أن قال وأما الأصنام وكثرة عددها وعظم صورها فأمر يفوق الوصف ويتحاور التقدير وأما اتقان أشكالها وأحكام هيأتها والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فوضع التعجب في الحقيقة فمن ذلك صنم ذرعناه سوى قاعدته فكان ينفا وثلاثين ذراعاً وهو حجر واحد من الصوان الأحمر وعليه من الدهان الأحمر ما لم يزده تقادم الأيام إلا جدّة وقال ولقد شاهدت كبيراً منها وقد نحت من ضلعه رحي قطرها ذراعان ولم يظهر في صوريته كبير تشويه ولا تغير بين أه أما الآن فليس بها غير نخيل مغروس في تلال تلك الأطلال وبعض جدر بقيت من تلك المباني الفخيمة وعمد مكسورة وتماثيل مهشومة منها ما هو مركوز في التراب ومنها ما هو ملقي في الطين الوحل شذر مدر وآل أمر هذه العاصمة إلى ما ترى بعد ما لمعت دوراً مهماً في تاريخ العالم القديم أما الأهرام فسوف يأتي ذكرها في الباب الآتي وأما مقابر سقارة فهي أهم وأكبر مقابر الدولة المنفيسية لأنها تمتد في سهور الرمال الغربية نحو سبعة كيلو مترات طولا ويختلف عرضها ما بين ٥٠٠ متر و ١٥٠٠ متر ومن المحقق أنه لا يوجد فيها بقعة إلا وقبلتها أيدى الناس جملة مرارا قديما وحديثاً حتى صار الآن عبارة أنقاض ورمال مكومة فوق بعضها ومهام سار الإنسان فيها لا يطأ غير آبار مهدومه ومطمورة باقي التراب وأسوار من الأجر واللبن أخنت عليها الأيام و كثبان ومدر وأحجار تعيق سيره ولا يقع نظره الأعلى عظام نخرة وأكفان بالية تخبره أنه في مملكة الأموات وكفات الرفات.

وفي الجبهة الغربية يري الانسان مكانا يعرف باسم سرا بيوم وقد تكلم عليه استرابون وذكره سياحيو اليونان في رسائلهم غير مرة وقد استكشفه حديثا ما ريت باشا سنة ١٨٥٠ مسيحية وهو مدفن العجل أبيس معبودهم وكان من عادتهم أنه متى نفق بالموت حنطوه وواروه في هذا المدفن وهو عمارة جسيمة لم تبق منها الأيام غير المقابر المنحوتة تحت الأرض وجميع هذا المدفن ينقسم إلى ثلاثة أقسام أحدها وهو أقدمها نيسب إلى العائلة الثامنة عشرة ومقابر منفصلة عن بعضها ومستورة الآن بالرمال ثانيا ينسب إلى الملك سينثاق أحد فراعنة العائلة الثانية والعشرين وإلى طرقه أحد ملوك العائلة الخامسة والعشرين السودانية وهذا القسم عبارة عن سرادب تحت الأرض به جملة قاعات كل واحدة منها مدفن لعجل على حدته بيد أنه لا يتيسر رؤيته لسقوط سقف بعض جهاته وتصدع باقيه أما القسم الثالث فينسب إلى أيام الملك أبسا ميطيق الأول رأس العائلة السادسة والعشرين وإلى آخر ملوك البطالسة وهذا القسم يشابه ما قبله بل أكبر وأعظم منه ومحيطة ٣٥٠ متر وطول أكبر أضلاعه ١٩٥ متر وبه أربعة وعشرون ناووساً من الجرانيت يزن كل واحده منها ٦٥.٠٠٠ كيلوا جرام وكان من عادة أهل منفيس أن تأتي في أعيادهم لزيارة موتى هؤلاء العجول ويضعون حجراً مكتوباً عليه تاريخ اليوم والشهر والسنة من حكم ملك عصرهم وحدت هؤلاء الجارة الآن

وعلى نحو ربع ساعة من الشمال يرى الإنسان أربعة قبور أحدها لمن يدعى(تي) وثانيها لمن يدعى(فتاح حوتب) وثالثاً إلى (ميرا) ورابعها إلى (قابين).

وفي الجنوب الشرقي من الهرم الأكبر يرى الإنسان ما يسميه العوام باسم أبي الهول وهو عبارة عن صخرة هائلة نحتت على شكل حيوان برأس آدمي وجثة سبع وكانت رأسه مكتوبة ومحيت بتقادم الإعصار ويبلغ طول هذا التمثال نحو ١٩,٨٠ متراً واتساع الفهم ٢,٣٢ متر وعرض الوجه من نتو الخد إلى مثله ٤,١٥ متر ولم يزل تاريخ هذا التمثال مجهولاً إلى الآن رغماً عن شدة البحث والتنقيب فهجس بخاطر المؤرخين أولاً أنه من عمل طوطوميس الرابع أحد فراعنة العائلة الثامنة عشرة ثم علم بعد ذلك من حجر موجود الآن بالمتحف المصري أن هذا التمثال كان موجوداً حينما صدرت أوامر الملك(خفو) أحد فراعنة العائلة الرابعة بتجديد ما يلزم من المباني وعلى ذلك فهو من أقدم المعبودات المصرية ويسمى عندهم (أرماخيس) وتمسية الافرنج الآن(اسفنكس) وكان هذا الاسم علماً في بلاد اليونان حيوان خرافي.

وبجوا رأي الهول بناء أغرب منه كأنه لغزير ادفك معماه من علماء الآثار وقد عجزوا عنه ولاشك أنه من عهد بناء الأهرام ولا يعلم الغرض منه أن كان معبداً أو قبراً أو هرماً مهدوماً فإن قلنا أنه معبد رأينا به سنة مخادع تعلو به بعضها بعضاً كالموجود بتداخل الهرم الأصغر فإذا قطعنا النظر عنها وجزء منها بهذا القول متعللين بدعوى أن القدماء لما اتخذوا أبا الهول معبوداً لهم اضطروا أن يجعلوا له معبداً بجانبه قالوا لنا هذه دعوة من غير دليل لأنه لم يوجد

الى الان معبدا باق من تلك الأيام حتى يمكن المقارنة بينهما. وإذا سلمنا هذا القول لكم جدلاً هل أرصدوه على أبي الهول أم أرصدوا أبا الهول عليه ولماذا جعلوا فيه هذه المخادع على هذا النمط إذ لا فائدة فيها كما أن شكل مخالف الجميع المعابد لمعوذة الآن .وإن قلنا انه مسطبة أعدوها لدفن موتاهم بجوار معبودهم تبركا به كباقي المساطب التي حوله قالوا لنا وأين بئرها التي لابد منه الكل مسطبة سيما وهيئة وضعه تخالف هيئة جميع المساطب.

وان قلنا أنه هرماً هدمته الأيام كباقي الأهرام التي كانت هناك ووجود مخادعه أعظم شاهد عدل لذلك قالوا لنا لو صح ذلك لترتب عليه أن يكون أكبر جميع الأهرام التي بأرض مصر لاتساعه مع أننا لم نجد لهذا الآن أدنى أثر يجعل هذا القول في الكفة الراجحة وعلى كل فهذا البناء عقدة لم تسمح لنا الأيام بحلها ولعل المستقبل يسمح بذلك أما أهم آثار الصعيد فكثيرة جداً ومنتشرة على شاطئ النيل وفي الجبال والمدن والقرى كاليها كل أو المعابد والمقابر القديمة ومقاطع الأحجار والصخور الأثرية وغير ذلك أما المعابد فأعظمها معبد دندره لأنه باق بحالة جيدة إلى الآن وسيأتي بيان ما اشتمل عليه ثم معبد العرابة المدفونة بمديرية جرجا ومعبد الأقصر ومعبد الكرنك وهو أكبرها وأعجبها ودير المدينة والدير البحري ومعبد رمسيس ومعابد مدينة(أبو) وكلها بمدينة طيبة القديمة بميرية قنا ومعبدانا وادفو ومعبد كوم امبو ومعبد جزيرة (فليا) المعروفة بجزيرة أنس الوجود وكلها بمحافظة الحدود.

أما المقابر القديمة فهنا مقابر بني حسن الجميلة بمديرية المنيا ومقابر(خون آتن) بجهة الحاج قنديل وتعرف بمقابر تل العمارنة ثم مقابر أسيوط واسطبل عنتر المحفورة في الحجر ومقابر وادي سرحة والغنائم ومقابر فاو والنواميس والباري والمعابد وكلها بمديرية أسيوط ومقابر العصاصيف أو العاسيف وذراع أبي النجا وقرنة مرعي والشيخ عبد القرنة ومقابر بيان الملاك وهي أجل الجميع لأنها كانت مقابر للملوك وكلها بجوار القرنة ثم مقابر اسوان العجيبة لوضع وسوف يأتي

الكلام عليها في مواضعها بالرحلة العلمية أما المغارات والكهوف ومقاطع الأحجار فشيء يخرج عن حدا الحصر أعظمها مغارة الشيخ عبادة ولا يتيسر للإنسان أن يأتي على آخرها لتشعب دروبها وشدة ظلامها.

ثم مغادرة دير أبي حنس ومغار دير ريفه وكلها بمديرة أسيوط ثم مغار جبل السلسلة وغير ذلك مما يطول شرحه ويمل القارئ من ذكره.

أما لتماثيل والأصنام فكثيرة جداً وأعظمها بالأقصر وأجفاها صنم الرسميسوم ثم صنماً ممون بالقرب من مدينة (أبو).

أما الصخور الأثرية والنفوش التي على الجبال وفوق سطحها فشيء يكل عنه الوصف ويقف القلم حائر عند بيانه وإذا أردنا استيفاء الكلام على وصف كل واحدة مما ذكرناه لاحتجنا إلى كتابة كراسة بل كرار به وليس الخبر كالعيان وجميع ما قللناه يسير بالنسبة لما لم نذكره وهو قليل بالنسبة لما هو موجود ولم نعلم مكانه وأين هذا مما هو مردوم تحت التراب ولم نهتد لمكانة وكله شيء قليل بالنسبة لما اتلفته الأيام وهو شيء يسير في جانب ما دمرته الأجانب وهو لاشيء بالنسبة لما دمرته الديانة المسيحية وهو شيء لا يذكر بالنسبة لجميع ما صنعته يد القدماء ولله در ا لقاتل.

وبادوا فـــــلا مخـــــبر عــــــنهم	ومـــــاتوا جميعـــــاً وهــــــذا الخـــــبر
فمــــن كـــــان ذا عـــبرة فلـــيكن	فطينـــا ففـــي مـــن مضـــى معتـــبر
وكـــــان لهـــــم أثـــــر صـــــالح	فـــــإين هـــــم ثم أيـــــن الأثـــــر

وقال سعيد بن كثير بن عقير كنا بقية الهواء عند المأمون لما قدم مصر فقال لنا ما أدرى ما أعجب فرعون من مصر حيث يقول أليس لي ملك مصر فقلت أقول يا أمير المؤمنين فقال قل يا سعيد فقلت أن الذي ترى هو بقية مدمر لأن الله عز وجل يقول ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كان يعرشون قال صدقت ثم أمسك

الفصل العاشر

في الرحلة العملية ما بين البلينا وقنا

كيلو متر

٣٠ من البلينا إلى فرشوط

١٣من فرشوط إلى قصر الصياد

٤٧ من قصر الصياد إلى قنا

٦٤٦ من بولاق مصر إلى قنا

ثم تتوجه إلى الجنوب حتى نصل إلى بندر فرشوط الواقع على الشاطئ الغربي للنيل ولي به ما يستحق الذكر غير بعض مقابر قديمة من مدة العائلة السادسة وفي بعض مغارتها كتابة قبطية من أيام دولة اروم العيسوية بمصر.

أما مدينة قنا الواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل فهي بندر المديرية وليس بها شيء من الآثار لكنها مشهورة بعمل الفاخورة التي تؤخذ طينتها من مكان معين من أرض مرصدة على العارف بالله سيدي عبد الرحيم القناوي تبلغ مساحته نحو القيراطين وكسر من فدان وكلما نفدت طينته يغمره السيل في كل سنة بطمي جديد يأتي به إليه من الجبل الشرقي فيمتزج بطمي النيل ويصير صالحاً لعمل القلة والزير وغيرهما وفي سنة ١٨٩٢ حصل نزاع بين الفاخور بين وواحد من الأولاد الشيخ رضي الله تعالى عنه فمنهم من أخذ الطين منه وبلغني من أحد أهالي البندر أنهم دفعوا له مبلغاً وأفراد في إيجار الفدان الذي به هذه الطينة فلم يقبل لاستحكام العداوة التي بينه وبينهم مع أنهم كانوا قبل هذه المشاجرة يأخذون الطين من ذلك المكان بلا عوض وللافرنج شغف كبير في الاطلاع على عمل الفاخورة بهذا البندر.

أما بلدة دندرة واقعة على الشاطئ الغربي للنيل وبينها وبينه نحو ٤٥ دقيقة وهي أمام بندر قنا ومن أعجب ما اتفق لي في شهر أكتوبر سنة ١٨٩٢ إني كنت واقفاً خلف المعبد من الجهة الغربية أمام صورة الملكة كيلو بأطره وصحبتي مفتش آثار دندره وبعض خفراء المعبد فسمعت

ساعة دقت مرة واحدة فسألت المفتش عن ذلك فقال لي أنها ساعة دقاقه فاستبعدت هذا القول منه لكني أخرجت ساعتي لأنظرها فوجدتها واحدة وسبع دقائق بعد الظهر ونظرت إليه فوجدته يضحك فسألته عن السبب فقال لي أن الذي سمعته ليس صوت ساعة ولا أدري ماهو وإني أسمعه في أغلب الساعات ما بين الضحى والعصر في أمكنة مختلفة من المعبد عندما تكون الشمس مقابله له فأسمع رنينا ولا أعرف مكانه فتارة يأتي من الجنوب وتارة من الغرب على حسب سير الشمس وقد بحثت كثيراً ولم أهتد للسبب ولم سمعت ذلك منه هالني هذا الخبر وأخذت استطلع مكان الصوت ولكن بلا فائدة ثم سألته عما إذا كان حدوثه منتظماً مع الساعة الزمانية فأجابني انه يتأخر من خمس دقائق إلى خمس عشرة وقال لي أحد الخفراء أن الصوت يكون أشد كلما كان الحر أقوى فسألته عما إذا كان يسمعه على التوالي في كل ساعة مضت بلا انقطاع فأجابني أنه لم يلتفت لذلك فذهب بي العجب كل مذهب ولو كان أحداً أخبرني به لما صدقت لكني سمعت بأذني وأنا في اليقظة قائم على قدمي تخفني الناس وكلما مرت هذه الحادثة الغريبة بخلدي أتذكر صوت الصنم ممنون المذكور في تواريخ قدماء المؤرخين وسوف يأتي بيانه في الرحلة العلمية بمدينة طيبة والذي عملته أنه حدث من بين الحجارة الواقعة على ارتفاع خمسة أو سبعة امتار عن يسار صورة الملكة كليو باطره وله مشابهة قوية برنة الساعة الدقاقة المتوسطة الصوت ولعل السبب في ذلك هو عين ما قاله علماء الطبيعية في حدوث صوت الصنم ممنون والله أعلم بحقيقة الحال.

ثم نرى في الجهة الشمالية على بعد نحو دقيقتين من هذا المعبد هيكلاً آخر صغيراً مشوّهاً مردوما بسافي التراب وبه كثير من الصور الشنعية المنظر القبيحة الشكل والهيئة كأنها صور الشياطين مرسومة على بعض الجدر وتيجان العمد وهذا المكان يعرف عند علماء الآثار باسم(تيفونيوم) أي مكان إله النمر وسماه شمبليون(مميزي) وذكر علماء الآثار أن البطالة كانت تبني بنجوار كل معبد شيدوه معبداً آخر ينقشون عليه هذه الصور القبيحة رمز على إله الشر وقال مارتيت باشا قد أخطأ علماء الآثار في هذا الوهم لأنها ليست رمزاً على ما قالوه بل رمز على الفرح والسرور والرقص وهذا النقوش والصور توجد بعينها على أدوات الزينة التي كانت مستعملة عند القدماء ولاشك أنهم رسموها على حيطان هذه المعابد دلالة على ماذكر لأعلى ما زعموا أما(تيوفن) دندره الذي ذكره استرابون ربما كان هو بعض الصحراء التي كانت معدة لدفن الأموات بالجهة الغربية من دندره أه وليس لهذا المعبد الصغير كبير أهمية عند السائحين من الأفرنج بالنسبة للمعبد الأصلي ارجع اسم تيفون في أسماء المعبودات أما المقابر التي هناك فجميعها يونانية ورمانية وليس في رؤيتها فائدة للزائرين.

الفصل الحادي عشر

في الغرض من بناء الأهرام واختلاف وضع المقابر القديمة

قال المرحوم على باشا مبارك طاب ثراه الأهرام بفتح الهمزة جمع هرم مثل سبب وأسباب وأصل الهرم أقصى الكبر كما في القاموس ومنه اشتق الهرم الذي هو الطاعن في السن إلى آخر ماذا قال راجع الخطط الجديدة وقد استخدم الصفدي رحمه الله لفظه هرم بالفتح وهرم بالكسر في قوله

قـالوا اعـلا نيـل مصـر في زيادتـه   حـتى لقـد بلـغ الأهـرام حـين طمـا

فقلـت هـذا عجيـب في بلادكـم   إن ابـن سـت وعشـر يبلـغ الهرمـا

وإذا أطلق لفظ الأهرام فلا ينصرف إلا لأهرام الجيزة الثلاثة لأنها مطمح نظراً لمتفرجين والسياحين والناثرين والناظمين وقد انفردت مصر بهذه الأشكال فليس لها في غيرها مثال وقد سلك القدماء في بنائها طريقاً غريباً من الشكل والاتقان ولذلك صبرت على ممر الزمان بل على ممرها صبر الزمان وقال ديودورا الصقلي انتفت الناس على أن هذه المباني من أعجب ما يرى بمصر وليس ذلك من حيث عظم أجسامها وكثر مصر فيها فقط بل أيضاً من حيث اتقان الصنعة وبديع الأحكام حتى أن العملة والمهندسين الذين بنوها أحق بالثناء عليهم من الملوك الذين صرفوا عليها الأموال وجلبوا لها الشاغلة لأن العملة والمباشرين أبقوا لساعة لومهم ومهاراتهم في صنعتم تحدثنا عن فضائلهم وتنبؤنا باقتدارهم بخلاف الملوك فإنهم أما جلبوا الأهالي بالقهر والظلم وإما بالأجرة من أموال وربوها أو سلبوها من الناس.

وقال ماريت باشا في كتابه مرشد السياح أما الأهرام فتبعد عن النيل بقدر ثمانية كيلو مترات وثلاثمائة متر وبناؤها من أغرب الأشياء حتى إن قدماء اليونان وغيرهم جعلوها أول العجائب السبعة[1] المشهورة قديماً واختلف المؤرخون في عمرها فذهب فريق منهم إلى أنه يبلغ سبعة آلاف

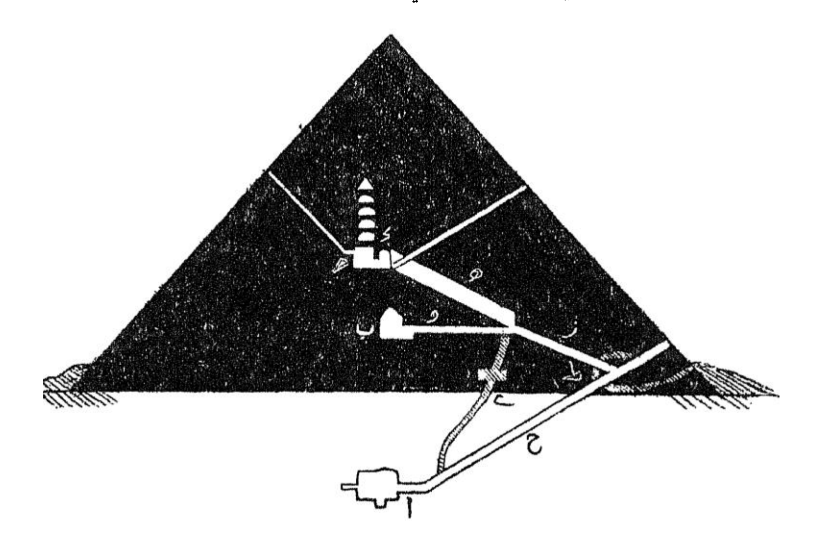
([1]) عجائب الديب التي كان الناس تمعت منها في قديم الرمال حصر به في سبعة أشياء، وهي أهرام مصر ويضم رودس ومنار الإسكندرية والتربه أو البرية فهو مصر وجنائن بابل المعلقة وسوربابيل وهيكل بال المعروف وبرج المرو:

سنة وقال فريق آخر أنه يبلغ أقل من ذلك والله أعلم بحقيقة الحال وارتفاع الهرم الأكبر ١٤٦ متراً وبه ٢٥٦٢٥٧٦ متر مكعباً من الحجارة بعد طرح فارغه وقال المرحوم على باشا مبارك ومساحة قاعدة الهرم الأكبر فوق الجلسة ٥٣٣١٤ متر مربعاً يعي سبعة عشرة فدانا مصرياً من أفدنة هذا الوقت فلو فرضنا أن هذا الهرم موضوع في وسط جنينه الأزبكية لشغل ثلثيها بالتمام وأن ما به من الأحجار كاف لبناء سور يحيط بارض مصر ارتفاعه ثمانية أمتار وعرضه متران ويبتدئ من قبلي باب العرب بالإسكندرية إلى أسوان إلى البحر الأحمر ومن السويس إلى قرية العريش وقال ماريت باشا أن جميع الأهرام التي بمصر صارت الآن كنواة جردت من فاكهتها لأنه كان عليها طبقة من الحجر الأملس وزالت بالكلية والدليل على ذلك أن المأمون لما أراد أن يفتح الهرم الأكبر ما وجد له حيلة الأنقبه من جهة الشمال فوق خط تقاطع مستوى المركز مع أسطحة الهرم بشيء قليل فعثر صدفة بالسرداب وكانت كسوة الهرم الملساء باقية ولولا وجودها لكان ظهر له بابه وأن جميع الأهرام مهما كان نوع بنائها ليست إلا مقابر ملوكية عظيمة الحكم مغلقة من كل جوانبها حتى دهليزها ليس لها طاقة ولا باب ولا فتحة وقد آثر أصحابها أن يتمزوا بهم بعد موتهم عن سائر الناس كما تميزوا عنهم مدة حياتهم وترخو أن يبقي ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور.

وذكر هيرو دوت وعبد اللطيف البغدادي أنه ما رأيا الأهرام مكتوبة جمعيها من الخارج وعدم وجود الكتابة الآن مما ينبت أنها جردت من جميع كسوتها وقد أجمع مؤرخو هذا العصر على أن الهرم الأكبر قبر للملك(خفو) والثاني للملك(خفرع) والثالث للملك (منقرع) وجميعهم من العائلة الرابعة المنفيسية.

وذكر المقريزي نقلاً عن أبي الحسن المسعودي أن المأمون لما قدم مصر وأتى على الأهرام أحب أن يهدم أحدها ليعلم ما فيها فقيل له أنك لا تقدر على ذلك فقال لابد من فتح شيء منها ففتحت له الثملة المفتوحة الآن بنار توقد وحل يرئس ومعاول وحدادين يعملون فيها حتى انفق عليها أمواله عظيمه فوجدوا عرض الحائط قريباً من عشرين ذراعاً وقال أبو مُحَّد عبد الله بن عبد الرحيم في كتابة تحفه الألباب فتح المأمون الهرم الكبير الذي تجاه الفسطاط وقد دخلت في داخله فرأيت مربعة الأسفل مدورة الأعلى كبيرة في وسطها بئر وهي مربعة ينزل الإنسان فيها فيجد في كل وجه من تربيع البئر بابا يفضي إلى دار كبير فيها موتى من بني آدم عليهم أكفان كثيرة أكثر من مائة ثوب على كل واحد قد بليت لطول الزمان واسودت وأجسامهم مثلنا

ليسواطوا لا ولم يسقط من أجسامهم ولا من شعرهم شيء وليس فيهم شيخ ولا من شعره أبيض وأجسامهم قوية لا يقدر الإنسان أن يزيل عضواً من أعضائهم البتة ولكنهم خفوا حتى صاروا كالغثاء لطول الزمان أه وقال غيره لما فتح المأمون الهرم الكبير بعد جهد شديد وعناء طويل وجدوا في داخله مهاوي ومراقي يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ووجدوا في أعلاها بيتا مكعباً وفي وسطه حوض من رخام مطبق فلما كشفوا غطاءه لم يجدو فيه غير رمه بالية قد أتت عليها العصور الخالية فعند ذلك كف المأمون عن نقب ما سواه فيؤخذ من جميع ما ذكر أن الأهرام كانت مقابر لبعض ملوك مصر ولا عبرة بقول من رغم أنها معابد جعلت للمعبود (أوزيريس) أو مراصد للكواكب أو مدرسة للمعارف الكهنوتية أو غير ذلك لأن الإنسان إذا دخل فيه يجد به جملة دهاليز وأروقه كما تراها في شكله مبيناً وهي



صورة الهرم الأكبر بالجيزة

أولها نقطة (أ) التي هي رواق تحت الأرض لايمكن الوصول إليه لأن طريقه الان مسدود . "ثانيها نقطة (ب) وهي الرواق المعروف الآن باسم رواق الملكة وهذه التسمية في غير محلها لعدم قيام دليل على صحتها. ثالثها نقطة (ج) وتعرف باسم رواق الملك. رابعها نقطة (د) وهي بسطة يخرج منها مجريان للهواء انزلق منهما حجران كبيران فاغلق منفذي رواق الملك غلقاً حكماً بعد وضع جثته فيه داخل تابوته. خامسها نقطه كل من (هـ و ن ح) وهي سراديب أو

مجازات معدة لتوصيل الأماكن لبعضها.

سادسها نقط(ط) وهي بسطة يخرج منها السرداب الذي فتحه المأمون. سابعها نقطة(ج) وهي البئر التي تحير فيها عقل أولى النهى كما تحير في غرابة هؤلاء السراديب وهؤلاء الأروقة ومن تأمل في هذا الوضع الغريب ظهر له بداهة أن القوم ما اقترحوا عمل هؤلاء الأماكن المتشابهة الإعلام الكثيرة الأنجاد والأغوار ألا لتعميمه المسالك وحيرة من قصد التعدي على فتح هذا القبر الملوكي وإضلال كل من حاول خرق ناموس الأموات وهتك حرمة الملك بالدخول عليه في مرقده.

وبيان ذلك أنا إذا فرضنا أن الهرم لم يزل مغلوقاً على حالته الأصلية وأتي اللص المتعدى وحاول فتحه فإنه لا يهتدي أولاً إلى بابه لأنه مستور تحت كسوة الهرم فإذا تيسر ليه فتحه بأي حيلة كانت واهتدي إلى دهليزه الأصلي وهو المرموز له بحرف(ح) قابلته صعوبة شديدة لأنه مطمور بالصخور الهائلة فإذا نجح وكسرها وأخرجها منه فإنه يصل إلى الرواق(أ) الذي ليس هو رواق الملك فيضطر للبحث والتفتيش في جميع الدهليزا المذكور على دهليز آخر بتوصل به إلى المكان المطلوب وهو رواق الملك ومتى عثر على دهليز نقطة(ط) علل النفس ببلوغ الآمال وتيقن نيل المرام لكنه لم تمض عليه برهه يسيره إلا ويعلم أنه وقع في حيص بيص لما يراه مفعماً بالصخور الصلبة وحجارة الجرايت فإذا ساعدته المقادير وكسرها وجد نفسه في الدهليزا الصاعد إلى أعلى وهو المرموز له بحرف(ز) فإذا انتهى إلى غايته رأي بسطه(ك) ولها وضع خاص بها وهي وفوهة البئر محكمتاً السد ومتى أزال هذه الصعوبة الثالثة صار في دهليز(و) وانتهى إلى الرواق(ب) فيظن أنه نال جميع ما كان يتمناه ولكن بمجرد ما يعلم أن هذا ليس هو الرواق المطلوب يحتار في أمره ولم ينهجس بخاطره أن فوق رأسه دهليزاً آخر فيضطر إلى البحث والتنقيب ثانياً على باب مجاز آخر ومتى عثر عليه التزم بفتحه، ولا يتم له ذلك إلا بعد اللتيا والتي فيرى دهليزا بارزاً صاعداً بجوار الحائط ويرى تلك المراقي المهلكة المرموز لها بحرف(هـ) ويصل أخيراً إلى الرواق المطلوب أما المجريان فيسهل فتحهما بقلب الصخرتين المعترضتين فيهما ومتى تم له ذلك رأي تابوت الملك والظاهر أنهم في مدة البناء وضعوا في الدهليز البارز المشار إليه بحرف(هـ) صخوراً من الجرانيت على قدر فراغ الدهليز(ز) ولم تم ال عمل ووضعت جثة الملك في رواقها تركو الصخور تنزلق بواسطة ثقلها من دهليز(هـ) إلى دهليز(ز) وأغلقوا البسطة(ك) ونزل العمال في البئر(ب) ووصلوا إلى الدهليز(ح) وخرجوا منه ثم ملؤه بالصخور

التي أتوا بها من الخارج وأغلقوا بعد ذلك باب الهرم وتركوه معضلة لمن أتي بعهدهم ومن المستغرب أن الإنسان إذا أطلق طبنجة او نحوها وهو أمام رواق الملك سمع صدى الصوت يتكرر نحو العشر مرات حتى يتخيل أنه رعد قاصف يتردد في جميع الأماكن ثم يأخذ في الانخفاض شيئاً فشيئاص ويكل اللسان عن وصفه.

وقد ظهر بالحساب أن ارتفاع هذا الهرم الناقص يبلغ ١٣٨,٣٠ متراً فلو أضفنا إليه ٨,٢٠ أمتار التي هي عبارة عن قيمته الناقصة لبلغ ١٤٦,٥٠ ولو زادنا عليه ٤٢ متر وهى قيمة ما بين أرض المزارع وقاعدته لبلغ ١٨٨,٥٠ متر

أما زاوية الميل في جمعي الأهرام فواحدة وقدرها ٤٥ ْ ١ واحد وخمسين درجة وخمسة وأربعين دقيقة ومن ذلك استنتج المرحوم محمود باشا الفليك أن بناء الأهرام كان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠٣ سنة معتمداً في ذلك على أن القدماء لما بنوها جعلوا هذا الميل ثابتاً في جميعها حتي يكون متعامداً مع أشعة كوكب (سيتس) المعروف باسم(الشعري اليمانية أو كلب الجبار) الذي كانوا يعبدونه باسم (توت) بحيث أن أشعته النورانية كانت تقع عمودية عليه من جهة الجنوب ليتبرك بها الأموات من داخل الأهرام كما اننا نجعل رؤس أمواتنا متجهة دائماً نحو القبلة تبركاً بالكعبة المطهرة إلى ان قال وقد علم من رصد هذا الكوكب أنه ينحرف في كل سنة عن ميل وجه الأهرام بقدر ثانية واحده وثلثاي[1].

وقد وحد كثير من الأحجار المنحوته على هيئة الأهرام والمسلات موضوعة في المقابر بجوار الأموات أو أحجار مرسوم عليها صورة الأهرام وبازائها علامة الكوكب وجمعها للسيرك فعلم من ذلك أن الأهرام كانت عندهم رمزاً على هذا المعبود الذي كانوا يصورونه في معابدهم في هيئة جسم إنسان رأس الطائر أبيس (المعروف باسم أو خنجر وكانوا يعبدونه أيضاً) أو رأس كلب و هذا الشكل يعرف في لغة اليونان باسم(سينوسيفال) راجع شكله في المعبودات.

وكان هذا الكوكب يظهر مدة الفيض ويختفي في آخره وعلى ذلك جعلوا أول ظهوره مبدأ لسنتهم وسموا أول شهرها باسمه وقالوا شهر توت أي الشهر الذي يظهر فيه المعبود توت وهو عندهم خفير السماء وملك الكواكب ويق الشمس من الوقوع في الهاوية المهلكة وأنه موكل

[1] تنقسم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة وكل واحدة إلى ٦٠ دقيقة كل واحدة منهم إلى ٦٠ ثانية وكل واحدة منها إلى ٦٠ ثالثة وكل واحدة إلى ٦٠ رابعة

بكابه أعمال الأموات يوم الحساب وبيده الميزان وكانوا يصورونه قابضاً على رقعه يكتب فيها موازين الناس وأنه كان حاكماً في الأرض ووضع بها كثيراً من العلوم وكانوا يسمونه أيضاً هرمس وهل هو هرمس الهرامة أي هرمس المثلث أو أخنوخ المعروف عندنا باسم إدريس عليه السلام أم هرمس آخر غيره وسيأتي بيانه في الباب السابع عشر وبالجملة قد نسبوا إليه جميع ما ننسبه إلى إدريس عليه السلام وذكر المقريزي نقلاً عن مؤرخي العرب أن هرمس بنا الأهرام المصرية وأن الهرم يسمى أبو هرمس إلى آخر ما قال ويرى الآن كثير من الأهرام بأرض مصر الوسطي وقد اكثر الناس من وصفها ومساحتها وكلها في برا الجيزة وتمتد في نحو مسافة يومين أو أكثر وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس وذكر بروكش باشا أنه يوجد الآن منها نحو الاثنين وسبعين أولها بكفر أبي رواش وأخرها بالفيوم فتارة تكون مجتمعة بعضها وتارة متباعدة وارتفاع أصغرها نحو السبعة أمتار وارتفاع اكبرها نحو مائة وستة وأربعين متراً وهو غاية ما أمكن بناؤه إلى الآن.

أما كيفية بنائها فهو أن كل واحد من فراعنة العائلة الرابعة والخامسة استولى على أريكة الملك كان يشرع من ابتداء حكمه في حفر الأرض وتذهب كبراء دولته تبحث له في جميع أرجاء المملكة على صخرة من المرمر أو الجرانيت الذي يصلح أن يكون تابوتاً وتشرع أهل البلاد والأقاليم في قطع الأحجار من مقالعها بالجبال واحضارها إلى المكان الذي يعينه الملك لهم ومتى فرغوا من ذلك أخذوا في بناء الهرم حتى إذا تم شيدوا بجواره معبد لتقدم الرعية فيه قرابينهم بعد موته وتقدم فيه الكهنة عبادة خاصةً له ثم يقوم من بعده ملك آخر فيستأنف العمل وهكذا ومن ذلك يعمل أن الرعية كانت في غاية الظلم والجور من ملوكهم واستنتج بعض الافرنج أن للمصرين قدرة على مزاولة الأشغال الجسيمة وأنهم متى وجدو من يرشدهم لما فيه الخير قاموا بذلك أحسن قيام.

أما المقابر القديمة فكثير جداً بأرض مصر وأغلبها في سفح الجبال وفوقها وفي الكهوف والمغارات والأودية وتحت الرمال والصخور في الآبار العميقة وهاك وصف أحسنها قال العلامة مسيور في تاريخه المسمي تاريخ قدماء الأمم المشرقية ما ملخصه تتركب المقابر الفروعونية التامة الصناعة من ثلاثة أقسام كلية وهي رواق وبئر ثم حجرة أو مغارة

أما الرواق فيكون مربع الأضلاع من رآه من بعد ظن أنه هرم ناقص وجدرانه المبنية من

الحجر والطوب مائلة على بعضها وبابه المتجه عادة إلى الشرق يلعبوه اسطوانة أفقيه تشتمل على أدعية وإن شئت قلت أوامر أصدرتها الكهنة إلى معبودهم لصالح الميت قبل وفاته تقديمها ولم ير بالرواق القاعة تتغير بها حجر مربع يعرف عندنا الآن باسم الشاهد يتضمن اسم الميت ولقبه وبجانبه مائدة من المرمر أو الحجر الجيري أو الجرانيتي وأحياناً يرى مسلتان صغيرتان مجوفتان من أعلاهما وهما والمائدة يوضع عليها الخبز المقدس والمشروبات والمأكولات والصدقات المشترط أداؤها وتارة تكون جدر الرواق والقاعة مستورة بالنقوش والنصوص البربائية ومصور بها حالة الميت وهو في الحياة الدنيا فترى في إحدى الجهات صورة حالنا المنزلية وحوله طباخين يضرمون النار ويروجون الطعام ورجالاً مشمرين للخدمة ونساء راقصات يغنين على نغمة الرباب والمزمار والأوتار وترى في الجهة الأخرى صورة صيد البر والبحر ومصارعة الوحوش ومقارعة الأبطال أو بساتين ومروج خضرة نضرة تسرح بها السوائم من كل نوع أو هجوم النيل وتدفق مياهه على الأرض وصورة الحراثة والبذر والحصاد وتخزين الغلال وترى في غيرها صورة العمال من كل نوع وكل واحد يباشر صنعته ويزاول مهنته منهم النجار والزجاج والسباك والخشاب يقطع الأشجار ويرميها على الأرض أو يبني سفينة ونساء ينسجن الأقمشة تحت خفارة أحد الطواشية وهو قائم على رؤوسهن مقطب لوجه عابس الخلقة كأنه سئم من كثرة لغطهن وترى صاحب القبر كأنه حيّ واقف خلف سفينة عظيمة يأمر ملاحيها بالسير والإقلاع وهي راسية على الشاطئ الشرقي من بحيرة كي تسير به إلى الشاطئ الغربي منها والمراد بهذا الشاطئ هو القبر ليدفن فيه لأنه رمز له أما الشاطئ الشرقي فرمز للحياة كأنه يقول لاتغرنكم الحياة الدنيا لأني ملكت كل ما ثرون ثم انظروا أخيراً ماذا جرى أو كأنه يقول شعراً.

كـل ابـن انثـى وإن طالـت سـلامته   يومـاً علـى آلـة حـدباء محمـول

أو يقول

انظـر لمـن ملـك الـدنيا بأجمعهـا   هـل راح منهـا بغـير القطـن والكفـن

وتراه أحياناً جالساً يأخذ العطايا من صفوف من الناس يتلو بعضهم بعضاً وهذه الصفوف عبارة عن أجداده والعطايا عبارة عن التراث الذي ورثة منهم ومانا له من الهدايا الملوكية وما يقدم له من الصدقات بعد الموت وبازاء بعض الرسوم عبارات تناسب للمقام منها رجلان مصوران يذبحان قربانا إلى الميت فيقول أحدهما لصاحبه(اقبض جيداً وامسك بقوة) فيجيبه الآخر(قد

فعلت أسرع بالعمل) ومنها ملامح في سفينة راسية على الشاطئ الشرقي من البحيرة يصبح بشيخ هرم يمشى الهوينا وقد أبطأ في السير نحوها فيقول له(أقرب من السفينة واركب فيها بلا توان) فيجيبه الشيخ وهو يقصدها(ها أنا آت فلا تعجل عليّ ولا تكثر اللغط) والمعني أن الموت يطلبه.

أما الرواق فكان يجتمع به أولاد الميت وحفدته وذووه والكهنة المكلفون بأداء العبادة فيأتون في أيام معلومة من السنة كالأعياد والمواسم فيرون المقبور مصوراً بينهم محاطاً بخدمه وحشمه غارقاً في لذات دنياه فيتذكرون ما كن له من الخيرات والنعم ثم ما آل إليه أمره بعد ذلك وجميعها نصائح وأدبيات يغني قليها عن مطالعة المجلدات الضخمة.

وأما البئر فتكون في إحدى زوايا الرواق أو من خلفه وهي مربعة الشكل مبنية بالحجر حتى تصل إلى الطبقة الأرضية الجحرية ويختلف عمقها من اثنى عشر إلى خمسة عشر متراً وربما بلغ نيفا وثلاثين متراً وفي قاعها مما يلي الجنوب سرداب أو مجاز يمشى فيه الإنسان منحنياً حتى يصل إلى الحجرة أو اللحد ويوسطه تابوت من الجحر الجيري أو البزلت الأسود المصقول أو الرخام أو غيره كالخشب ونحوه منقوش عليه اسم الميت ولقبه وبجوار ذلك ربع الثور الذي كانوا ذبحوه له قرباناً عند دفنه وقدور كبيرة من الفخار مملوءة بالرماد وأوان مملوءة بأحشاء الميت التي كانوا أخرجوها منه وقت التحنيط وهذه القدور تعرف عند علماء الآثار باسم كانوب وكانت عادتهم أنهم متى جهزوا الميت بجميع ما ذكر ووضعوا معه الفصوص وغيرها وبجواره الوكاك (سيأتي الكلام عليها) يسدون عليه باب السرداب سداً محكماً ثم يردمون البئر بفتات الحجر وغباره الممزوج بالرمل والطين ويبلونه بماء غزير ويدقون عليه حتى يتلبد ويصير في صلابة الأحجار أو المونة القوية التي يعسر فكها ويتركونه بهذه الحالة.

وتكون المقابر بجهة الجيزة صفوفاً مرتبة النظير لنظيره كأنها شوارع منتظمة وتكون في الجبل الغربي من قرية سقارة وأبي صير مختلطة في بعضها بلا ترتيب ولا قانون لهيئتها وتكون في غير هذين المحلين إما متقاربة أو متباعدة عن بعضها وآبارها إما عميقة جداً أوقريبة ورأيت ما بلغ منها نحو الخمسين متراً بل أكثر من ذلك محفورة في الحجر فوق الجبال وفي سفحها وفي الأودية وغير ذلك وبها من النقوش والكتابة ما لا تخفي فائدته العملية حتى قال العلامة مسبرو كأننا نشاهد الآن خروج العائلات المنفيسية من قبورها رويداً رويداً لإفادة التاريخ المصري القديم ولما إتبعنا

آثارهم وقفنا على أحوال وسير الملوك الذين مضوا وتلك الأمم التي إنقضت وعلمنا جميع ما كان من أمر كهنتها وعساكرها ورئيسها ومرؤسها وضباط الحرس السلطاني وما يكتسبه الصانع الحقير وبدت لنا أخلاقهم وعوائدهم حتى ملابسهم وكأننا نشاهد الآن حركة بناء الأهرام لكن من الأسف أننالم نجدد ذكراً في الآثار لملوك العائلة الثالثة والتي قبلها اه.

ورأيت بالصعيد قبوراً كثيرة كأنها منازل منحوتة بالجبال تشتمل على فسحة ورواقين متقابلين مملوأين إلى السقف بالرمم الرطبة التي كان أصحابها ماتوا لوقتهم وما ذلك إلا لكونهم حنطوها بالملح الجبلي وكفنوها بأقمشة من الكتان وأدرجوا كل واحدة في حصير إتخذوه من جريد النخل فعلمت أن هؤلاء القبور كانت لفقرائهم وكثيراً ما كنت أجد في مغاراتهم المنحوتة بالجبال توابيت مصنوعة في الجدار الحجري يعلو بعضها بعضاً كأنها رفارف منعكسة أو أخاديد أفقية داخلة في الجدار ورأيت بمديرية أسيوط مغارة بالجبل الشرقي تبعد عن قرية المعابدة نحو الأربع كيلومترات وطريقها وعر جداً وكان بلغني من عمدة الناحية أن المرحوم سعيد باشا وإلى مصر سابقاً قصدها ليتفرج عليها ومكث بجوارها نحو الثلاثة أيام بعساكره وما قدر أحد ممن كان بمعيته أن يدخلها الضيق دهليزها وإمتداد طوله وكراهة ريحه وظلامه فلما سمعت ذلك تجردت مما أخاف عليه من ثيابي ودخلتها وصحبتي مفتشش آثار المديرية المذكورة والدليل والشموع الموقودة فكنا تارة نمر فيه حبواً وتارة زحفاً على البطون وأذقانها تكنس الأرض وقاسينا هول يوم القيامة وضاقت نفسي وإنقبض صدري مما به من الرائحة الكريمة النفاذة المخنقة فتارة كنا نتسحب في طريق مستقيم وتارة نزحف كالثعابين متبعين تعاريج الدهليز ميمنة وميسرة حتى علق بوجوهنا وثيابنا مادة لزجة كأنها العثان (الهباب) المعجون بالماء ولضيق الطريق وتعرجه كان جسم الدليل يحجب نور الشمع عن أبصارنا مع أنه يزحف على بطنه أمامنا عاري الجسد وكم انصدم رأسي في السقف والجدار وسال دمي وانجرح بطني وأتلفت الرطوبة جميع ثيابي واعتراني سعال حاد وبقيت على هذا الحال أكثر من نصف ساعة حتى وصلت بكل جهد إلى حجرة واسعة مملوءة برمم الآدميين والتماسيح المحنطة وأكفانها من الكتان وكان قدمي بصوخ كل خطوة في تلك الرمم الرطبة المطروحة فوق بعضها بلا ترتيب ثم مكثنا بها نحو الربع ساعة وخرجنا منها وقاسينا ما قاسيناه وتخلصنا بعد شق الأنفس ثم أخذت راحتي وتفكرت في أمرها وتيقنت أن لها باباً آخر لأن السرداب غير كاف أن تفوت منه جثة الميت فأخذت أبحث طويلًا عنه ولم أجد ثمرة لكن عثرت على مناور للدهليز محكمة الغلق ثم مكثت نحو الأسبوعين وأنا أشكو برأسي مما أصابني

وكانت رائحة المكان تتردد في أنفي ثم أرسلت له من قاسة بالخيط ويغلب الآن على ظني أنه بلغ ٨١ متراً وفي مقابلة هذه الصعوبة حققت مسئلة لطيفة سوف يأتي بيانها إن شاء الله تعالى وليست هذه المشقة شيأ يذكر بالنسبة لجميع ما قاسيته بأرض الصعيد فإني اقتحمت أهوالًا عظيمة وتكبدت الشدائد وعاينت المهالك والأخطار وجبت المخاوف بالجبال وقاسيت العطش واصطليت لظي الحر وتكلفت التعب الزائد حتى أشرفت جملة مرات على الهلاك غير أني إكتشفت آثاراً جليلة كانت مجهولة لمصلحة الآثار وكتبت عنها التقارير فصارت الآن معروفة عندها والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

الفصل الثاني عشر

في الرحلة العلمية من قنا إلى الأقصر أبي الحاج

كيلو متر

٣٥ من قنا إلى نجاده (نقاده).

٢٥ من نجاده إلى الأقصر أبي الحجاج.

٧٠٦ من بولاق مصر إلى الأقصر.

ليس بين مدينة قنا وقرية الأقصر آثار تستحق الذكر لأن جميع ما بالقرى المحصورة بينهما قد محتها الدهور وكرت عليها العصور ولم تبق منها إلا بعض أحجار غفل مطروحة شذر مذر بين المزارع أو مبنية في منازل الفلاحين.

أما قرية الأقصر التي هي والكرنك والقرنة ومدينة أبو أوهبو فكانت عبارة عن مدينة طيبة القديمة عاصمة المملكة المصرية وتخت الدولة الفرعونية مدة أجيال طويلة.

فما لي أراك أيها القلم وقفت بين أناملي حائراً منبهتاً كأنك عجزت عن وصف آثار أم القرى

أو خلته حديثاً يفترى أما سبق لك وصف مثلها في هذا الكتاب أما أفرغت فيه ما كان بالوطاب أما أجليت في سطوره عرائس الأفكار وتطمت في جيده درر الأخبار أما إسترسلت في سيرة المصريين وأثبت فيه ما كان لهم من غث وثمين هيا أيها اليراع هيا صف لنا الآثار وتهيا ولا تخجل من تقصيرك فإن الله نصيرك وأقصص علينا من بعض الأنباء وما كان الغرض من تشييد هذا البناء وإقتطف لنا من ملح المؤلفات وذكرنا بأعمال من قدفات وقل لنا بحق من براك وهو في كل يوم يصلحك ويراك ما أصل هذه العمارات وما فائدة تلك المغارات ومن الذي أقام هذه المسلات التي صبرت على كيد الزمان بعدما خان أهله ومان وما أصل هذه الكيمان وما هذه النقوش والألوان ولماذا هذه التماثيل العديمة المثيل وما هؤلاء الكباش الحجرية والأصنام الصخرية وما كان الغرض من هؤلاء الأبراج والأبواب التي سمت إلى السحاب وإندهشت من رؤيتها أولو

الألباب وأبدت لنا نقوشها العجب العجاب فأخبرني بالصريح وأعلمني بكل قول صحيح ولا تخض إلا في أصدق الحديث من القديم والحديث وإنتقل بي على الترتيب يا ذا النبيء الغريب.

إعلم أن هذه العاصمة القديمة قد اشتغل بها أقلام جميع أرباب السير والتواريخ ولم يذكر أحد منهم زمن بنائها ولا اسم بانيها حتى أن كهنتها الذين كان لهم أعظم باع في العلوم والسير لم يذكروا عنها شيأ من هذا القبيل وقال ديودور الصقلي أنها أقدم مدينة بمصر وقال غيره أنها من تأسيس الملك (منا) رأس الفراعنة ويؤخذ من قول هيرودوت أنها بنيت قبل الميلاد بنحو اثنى عشر ألف سنة ولا يخفي ما في ذلك من المبالغة الخارجة عن حد الصدق ولم يذكر لنا من وصفها شيأ يعتد به والظاهر أنه ما دخلها عند سياحته بمصر ومساحة خرابها قدر مساحة مدينة باريس تقريباً وذكر ديودور أن آثار هذه المدينة تمتد على شاطئ النيل نحو ثمان غلوات (الغاوة نحو مائة متر) وفي الخطط الجديدة أن مساحة الأرض نحو سبعة عشر مليوناً ومائتين وستين ألف متر مربع ومساحة أرض القاهرة نحو سبعة ملايين من الأمتار المربعة أي أقل من نصفها والآثار الباقية بها الآن تدل على أنها كانت شاغلة بمبانيها الفاخرة شاطئ النيل وممتدة على كل جهة إلى الجبل وكان من بيوتها ما هو مركب من خمس طبقات أو أقل أه ولكن أغلب ذلك تحول إلى أرض زراعية وصار غيطاناً وقال ديودوران ملوك مصر صيروا هذه المدينة من أبهج وأغنى مدينة في مصر بل ما طلعت الشمس على أحسن منها في جميع الدنيا ومعابدها ومبانيها من أغرب ما يرى وما يك شيء يشابه تماثيلها الجسيمة وكثير من آثارها كان مصفحاً بالذهب والفضة أو مطعماً بالعاج وجميعها مشحونة بالمسلات والأعمدة والبواكي التي من حجر واحد يتخللها الشوارع والطرق المنتظمة وبها أربع هياكل تدهش الناظرين ويبلغ ارتفاع سورها **٤٥** قدماً وعرضه **٢٤** ولما استولى قمبيز ملك العجم على مصر نهب جميع ما بها من الذهب والفضة والعاج وحرق هيا كلها وقال استرابون أنه كان لها مائة باب واسمها عند اليونان **llevatompylos** (هيكاتو ميبلوس) (وفي القاموس الفرنساوي أن هذا الاسم علم على مدينة طيبة بمصر لأنه كان له مائة باب) يخرج من كل واحد منها ألفان من العساكر الخيالة ولا ريب أن في هذه العبارة شيأ من الكذب أو المبالغة لأن هذا الجيش العرمرم لا يمكن وجوده في أي مدينة مهما كان اتساعها وقال المعلم والس في كتابه مرشد السياح من الإنكليز من المحقق أنه كان بمصر عشرون ألف عربة حربية لأنه كان موجوداً بها مائة إسطبل على الشاطئ الغربي للنيل متوزعة ما بين مدينة منفيس ومدينة طيبة يسع كل واحد منها مائتي فرس وآثارهالم تزل باقية إلى الآن في سفح جبال لبيا وفي

الخطط الجديدة قال بعض شراح (أوميروس) الشاعر اليوناني أنه كان بمدينة طيبة ثلاثة وثلاثون ألف حارة وكان بها مائة باب وعدد أهلها سبعة ملايين من الناس وكان الباب يخرج منه عشرة آلاف راجل وألف فارس ومائة عربة حربية متسلحة للقتال ولا يخفي ما في هذه العبارة من المبالغة التي بلعت أوج سماء الكذب فإن مدينة باريس كانت في سنة ١٨٠٠ ميلادية لا تشتمل على أكثر من ألفي طريق ما بين شارع وحارة ومدينة لوندره ليس فيها إلا عشرة آلاف حارة مع أنه لايوجد مدينة الآن أكبر منها سطحاً بل لا يتصور وجود مليون من العسكر داخل مدينة واحدة فضلًا عن وجود سبعة ملايين من الأهالي والذي يظهر أن هذا الشارح لم يمعن النظر في عبارة المؤلف بل أخذها بدون تأمل فأخطأ أو أن عبارة المؤلف المذكور فيها تحريف والظاهر أن إقليم مصر كله كان يسمى باسم طيبة كما يؤخذ من قول هيرودوت وأرسططاليس فيحتمل أن تكون السبعة ملايين عدد أهالي القطر ويحتمل أن الشارح ترجم لفظة بلدة أوقرية بحارة فإن في مؤلفات تيوكريت أن عدد المدن والقرى بمصر ثلاثة وثلاثون ألفاً وفي وقت الفرنساوية صار حصر عدد البلاد والقرى في جميع القطر المصري فوجد ألفين وخمسمائة وحصرت أهالي القطر فوجدت مليونين وثلثمائة ألف نفس ومسحوا أرضها فوجدوا القابل للزراعة منها ألفاً وثمانمائة فرسخ فرنساوي مربع والفرسخ قريب من مائتين وخمسة وأربعين فداناً مصرياً إلى آخر ما قال (راجع ذلك في الجزء الثالث عشر نمرة ٧٢).

وقال تاسيت المؤرخ أن هذه المدينة كانت مركزاً تجتمع فيه التجارة الواردة من بلاد الهند ثم توزع على البلاد والأقاليم المجاورة كبلاد كنعان وغيرها وكانت الفراعنة تجعل فيها جميع ما تغنمه من الجهات وما تجبيه من الممالك الخاضعة لها ويؤيد ذاك ما هو مسطور الآن على أغلب هياكلها والذي زادها بسطة في المال والثروة وقوعها على جانبي النيل كمدينة باريس ولندرة وكثرة المعابد لأن الناس كانت تؤمها أيام الأعياد والمواسم للزيارة والتبرك بها وتقدم لكهنتها الهدايا والتحف حتى صارت هذه الطائفة في درجة من الغنى لم يشاركهم غيرهم فيها فبنوا القصور وزخرفوها بأنواع الزينة من أموال القرابين والهدايا التي كانت ترد إليهم من جميع الأقاليم وبذلك كانت تزداد مدينة طيبة في كل سنق رونقاً وبهجة وسعة ومن هذا يعلم أنها كانت مركزاً للديانة كما كانت مركزاً للتجارة والإمارة فكم تخرج من مدارسها أرباب أقلام وجهابذة أعلام وقضاة أحكام وكم ظهر منها فاتحون وعلماء راسخون وكم تدون في ربوعها علوم وفنون.

قد ذكرت لنا أيها القلم أن هذه العاصمة كانت في الشهرة والغني أشهر من نار على علم

مع أننا لم نر بها الآن غير أطلال وكيمان أنبئنا بالله كيف امتدت إليها يد الخراب وكيف تقطعت بها الأسباب ومتى زالت محاسنها ودرست مساكنها حتى صارت أدبر من أمس وأفلت من أوج حضارتها تلك الشمس هل نزل عليها آفة سماوية أهلكتها أو زلزلت بها الأرض فدكتها.

إعلم وفقك الله أن جميع ما ذكرت ممكن الحصول ولا يدري المتأمل ماذا يقول لكن إذا دقق الإنسان نظره في هذا الخراب عرف الجواب وهو أن مصر واد صغير خصب محصور بين ثلاثة جبال وثروته هي آفنه ولاشك أن البدو القاطنين حوله هجموا عليه وفوقوا مهام الدمار إليه فخربوا البلاد وأكثروا فيها الفساد ولما إستولت دولة فارس على هذا القطر النفيس وحرقوا مدينة منفيس تحولوا إلى عاصمة الديار وأوقعوا بها الدمار وبذلوا في خرابها الهمة ولم يرقبوا فيها إلا ولاذمة وبعد خروجهم من مصر قويت فيها الأحزاب وعم الحرب والخراب وفي مدة اليونان تحسنت أحوالها بقدر الإمكان فجاء بطليموس الملقب لاطيروس وعزل أخاه وشد عليها الحصار وأوقع بها الدمار عقاباً لأهلها الذين كانوا من حزب خصمه ثم انضموا مع أمه ثم دخلت الديانة العيسوية وقامت لها الفتن الأهلية واشتدت الحمية المذهبية فخربت البلاد وعم الفساد وكانت عمال القياصرة على أقل سبب تأخذ أموالهم وتقتل رجالهم وفي أيام القيصر تيودوز تخرب ما بقي من معابد هذه المدينة عندما أمر بالتحريج على دين الصابئة.

وقال المؤرخ طيلون أن القيصرالمذكور لم يقتصر على هدم معبد سيرابيس بالإسكندرية بل أمر أن تلق جميع المعابد على الأرض وكذا التماثيل الموجودة بجميع مدن مصر وما بالقصور والسرايات والأرياف وعلى شاطئ النهر ومن ذلك الوقت إنقطع ذكرهذه العاصمة وصارت عبارة عن كفور صغيرة لا يسكنها إلا الفقراء من الفلاحين وإستمرت هكذا إلى يومنا هذا.

الفصل الثالث عشر

في تدميرالآثارعلى يد أهل مصر وما ينجم عن ذلك من المضار مادياً وأدبياً

حدّ الآثار عرفا كل ما يؤثر عن الغير وإصطلاحاً هي أعمال القدماء ومصنوعاتهم الباقية بعدهم الحافظة لتواريخهم وأيامهم أما سبب تدميرها على يد بعض الوطنيين فمتنوع جداً منها الإنتفاع بإنقاض ما بها من المباني وتحويل أحجارها العلمية إلى جير لبناء مساكنهم وسواقيم وآبارهم ورأيت بالصعيد داراً لأحد الفلاحين مبنية بالأحجار القديمة المكتوبة وياليتها كانت مرتبة حتى كان يمكن الإستدلال على تاريخ صاحبها أو بعض الفوائد بل متوزعة في البناء وبعضها مقلوب بمعنى أن الكتابة أسفل ومنها أنهم أعداء لأصحابها كما ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب ومنها أخذ ما يمكن بيعه إلى الأجانب ومنها تسميد الزرع بما فيها من السباخ بدعوى أن السباخ منفعة عامة ومنها الحصول على شيء من مدخرات القدماء ومنها الوقوف على حقيقة ما تحتها من المطالب والكنوز على زعمهم ولم يروا بأساً عليهم في جميع ما أتلفوه منها ومنها النفور من رؤية المعبودات القديمة ومنها الإنتفاع بمحلها للزرع والسكن ومنها الجهل بحقيقتها والإزدراء بها ومنها إغراء أولى الكلمة من بعض الوطنيين والأجانب لقضاء أغراضهم الذاتية بدل المحافظة عليها حتى أن كثيراً من الوطنيين ينكرون منفعة وجود الآثار والمتحف المصري زاعمين أنهما بمعزل عن الأهمية والفائدة ومنها سطو جيوش الماء في كل سنة مع عدم الذب عنها أووقايتها من تعديها عليها كما حصل لمعبد كوم إمبو الذي بذلت الحكومة على تصليحه الآن النفس والنفيس ومنها زحف التراب وسافي الرمال عليها حتى أبلت محاسن كتابتها وأتلفت رونقها وبهعجتها ومنها تعاقب الأيام وتتابع السنين والأعوام ولم تجد من يجدد لها دوارس تلك النفائس ومنها إتخاذها دوراً وسكناً لزعانف الناس وأسافلهم فإن دخان التنانير أوعثان النيران أزالا الكتابة والصور بالطريقة القطعية ومنها زحف الأتربة من جهة دون أخرى حتى تغير مركز ثقلها وإختل بناؤها ومنها فعل رطوبة الأرض بها ومنها إغواء الدجالين على إتلافها لإستخراج ما تحتها من المطالب الوهمية وما كفاهم ذلك حتى تسببوا في فقر عائلات كانت مستورة ومنها المبالغة في قيمة الأشياء الحقيرة التي توجد بالصدفة في بعض الأماكن الأثرية من ذلك ما ذكره العلامة مسبرو في

إحدى نشراته العلمية المطبوعة بمصر سنة ١٨٨٦ وملخصه جاء أحد الدجالين من المغاربة إلى اثنين من الأروام وأخبرهما أنه يعرف مكان كنز بقربه درونكه القريبة من بندر أسيوط فما كان منهما إلأ أن طلبا من مصلحة حفظ الآثارالتصريح بالحفر في ذلك المكان وبعد ما أجيب طلبهما تعين معهما مندوب من طرفها ثم حفروه نحوالعشرة أمتار وإنتهوا إلى مكان وجدوا به مائتي آنيسة مصنوعة من الحجر والصفر (التوج أوالبرونز) وملفاً به بعض صفائح من الذهب المتوسط الجودة يبلغ سمك كل واحدة منها ربع ملليمتر فهرع الناس إليها من كل فج عميق ومكان سحيق وحضر أهل درونكه بالنبابيت والمساوق وجيعهم أقباط فأرادوا النزول في هذه الحفرة العميقة ولم يبالوا بمندوب المصلحة ولا بالأروام والخفراء وبينما هم يستعدون لذلك وإذا بأهل قرية أخرى هجمت عليهم ومنعتهم قهراً وأرادت أن تستخلصه لنفسها فوقعت مشاحنة عنيفة بين الفريقين كادت أن تفضي إلى الملاكمة وإرتفعت الأصوات حتى قال القبط لهم تخلوا عن الكنزيا معشر المسلمين لأنه وجد في أرض مقابر أجدادنا وليس لكم فيها حق ألبتة فإذهبوا لمقابر أجدادكم بأرض الحجاز فإنبشوها كيف شئتم وخذوا منها كيف شئتم وخذوا منها ما تركه لكم أجدادكم وكان كل فريق منهم يزعم أن مصلحة حفظ الآثار مالها حق بأي وجه من الوجوه أن تتداخل ولو بالكلام في أمر هذه المسئلة ثم جنحوا بعد المشاجرة الطويلة إلى الصلح وشق عصا الشقاق على أن يأخذوه ويقتسموه منا صفة ولاعبرة للمصلحة ولا لمندوبها وبينما هم على وشك النزول وإذا بفرقة من العساكرالخيالة الشاكية السلاح

حضرت وحالت بينهم وبين ما يشتهون وإستولت المصلحة على ذلك وأعطت نصفه إلى الروميين حسب أصولها ولما قوم جميعه بلغت قيمته ألف وثمانمائة فرنك أعني ستة آلاف وتسعمائة وثلاثة وأربعين غرشاً مصرياً لاغير وفي ذلك اليوم نفسه شاع الخبر في البندر أن الذهب الذي وجد كان كثيراً وأنه بلغ جملة أرطال وبعد أن مضى بعض أيام قليلة قالوا أنه بلغ قناطيرمقنطرة ثم دوت الأخبار في البلاد المجاورة بأن الذهب الذي أخذته المصلحة كان ستة عشر أردباً من الذهب العين إلا بريز النقي الخالص إلى أن قال في معرض التنديد على بعض الجهلة من الفلاحين ورأيت في بعض منازلهم وأكواخهم كثيراً من الأشياء القديمة العديمة المنال وقد إستعملوها في غير ما وضعت له منها طاسات ظريفة صنعت من المرمر كانت معدة لإهراق الخمرأمام الأصنام تقرباً لهم به جعلت الآن أوعية وعلباً يضعون فيها التبغ (الدخان) ومنها آنية من الصفر (التوج أوالبرونز) كأجمل ما يرى بالمتحف المصري رأيتها على النار ملوءة بالفول اه.

وفي اليوم الثالث من شهر فبراير سنة ٩٥ تعرفت بأحد الإسرائيليين وجلست معه نتجاذب أطراف الكلام حتى جلنا في أخبارالآثار وجرى ذكر قرية درونكه وصفائح الذهب التي وجدت بها ثم سألته هل يعرف شيأ من أخبارها وهل سمع باسم ذلك المغربي الدجال الذي أرشد الأروام على الحفر في تلك الجهة فعند ذلك تبسم وقال إني أنا ذلك المغربي ووطني ولاية الجزائر التابعة لدولة فرنسا لكني لست دجالًا وشركائي كانوا إسرائيليين مثلي لا أروام وهم فلان وفلان ثم أخرج لي دفتراً صغيراً من جيبه وأطلعني عليه فرأيته مكتوباً بالعبرية ثم قال لي أنه يشتمل على جميع النقود التي صرفت من يدي فى ذلك الحفر الذي كان إبتداؤه في شهر يوليه سنة ٨٤ لا في سنة ٨٦ وأن اسمي اسحق وسكني مدينة حلوان وأن الأهالى التي قامت على أهل درونكه وتشاجرت معها هم أهل قرية الزاوية أما باقي الحكاية فصحيح.

أستطراد لابأس به لما وصلت إلى بندر سوهاج في ١٧ سبتمبر سنة ٩٢ سمعت من حضرة مديرها ومن غيره أن أحد الدجالين من المغاربة خدع أحد المياسير بالبندر وموه له بوجود

كنز نفيس في الجبل ماكان من هذا الرجل السليم القلب إلا أن قام وباع جانباً من أطيانه طمعاً في ذلك وتحصل على رخصة من الحكومة لإستخراجه بعدما دفع الرسوم المقررة لذلك وأخذ في الحفر وكلما إنتهى أجل الرخصة جدده وذلك اللئيم يوسوس له كالشيطان وكلما نفدت النقود باع من الأطيان حتى فرغت وإنتهت الرخصة الأخيرة فعند ذلك زعم الخبيث أن الكنز تحت الجبل ولايمكن نواله إلا بضرب اللغم في تلك الأرض الصخرية وطلب منه تجديد الرخصة ودفع الرسوم ثم سافرت ولم أدر ما تم لهذا الرجل المنكود الحظ الذي أصبح فقيراً مجرداً عن وسائل المعيشة وقس على ذلك مما يطول شرحه.

رجع) وبالجملة فالآثار المصرية مهددة من كل ناحية وسهام الدمار مفوقة نحوها ويد الطمع ممدودة إليها وعيون الجهل محدقة بها من قديم الزمان أعني من إبتداء دخول الدين المسيحي بمصر ولذلك لما أتى عبد اللطيف البغدادي وزار بعض أطلال المدن القديمة وتأمل دوارس ربوعها تأمل الألمعي الحاذق ونظر إليها بالنظر الصادق ورأى ما حل بالآثار من التلف والعوار حط على الوالاة الجميلة والرعاع السفلة وأغلط في الكلام حتى ألحقهم بالأنعام مع أنه ماكان يعلم شيأ من فائدتها ولم يقف عل فحوى حقيقتها بل بمجرد ما عرف أنها من بعض بقايا القدماء وإليك شيأ مما قاله في ذلك (ومازالت الملوك تراعي بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث بها وإن كانوا

أعداء لأربابها وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها أن تبقى تاريخاً يتنبه بها على الأحقاب ومنها أن تكون شاهدة للكتب المنزلة فإن القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها ففي رؤيتها خير الخبر وتصديق الآثر ومنها أنها مذكرة بالمصير ومنبهة على المال ومنها أنها تدل على شيء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوفرعلومهم وصفاء فكرتهم وغير ذلك وهذا كله ما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الإطلاع عليه وأما في زماننا هذا فترك الناس سدى وسرحوا همًلا وفوضت إليهم شؤونهم فتحركوا بحسب أهوائهم وجروا نحو ظنونهم وأطماعهم وعمل كل امرئ منهم على شاكلته وبموجب سجيته وبحسب ما تسول له نفسه ويدعو إليه هواه فلما رأوا آثاراً هائلة راعهم منظرها وظنوا ظن السوء بمخبرها وكان جل إنصراف ظنونهم إلى معشوقهم وأجل الأشياء في قلوبهم وهوالديناروالدرهم فهم كما قيل.

وكـــل شـــيء رآه ظنـــه قـــدحاً وإن رأي ظـل شـخص ظنـه السـاقي

فهم يحسبون كل علم يلوح لهم أنه علم على مطلب وكل شق مقطور في جبل أنه يفضى إلى كنز وكل صنم عظيم أنه حاصل لمال تحت قدميه وهومهلك عليه فصاروا يعملون الحيلة في تخريبه ويبالغون فتهديمه ويفسدون صور الأصنام إفساد من يرجو عندها المال ويخاف منها الناف وينقبون الأحجار نقب من لا يتمارى في أنها صناديق مقفلة على زخائر ويسربون في فطور الجبال سروب متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها وإنتهز فرصة لم يشعر غيره بها وهذه الفطور منها ما يدخل حبوا ومنها ما يدخل زحفاً ومنها ما يدخل سحباً على الوجوه ومنه مضايق لا ينسحب فيها إلا الضرب الضئيل وأكثر ذلك إنما هو فطور طبيعية في الجبال ومن كان من هؤلاء له مال أضاعه في ذلك ومن كان فقيراً قصد بعض المياسير وقوي طمعه وقرب أمله بإيمان يحلفها له وعلوم يزعم أنه إستأثر بها دون غيره وعلامات يدعي أنه شاهدها حتى يخسر ذلك عقله وماله وما أقيم بعد ذلك ما له وما يقوي أطماعهم ويديم أسرارهم أنهم يجدون نواويس تحت الأرض فسيحة الأرجاء محكمة البناء وفيها من موتى القدماء الجم الغفير والعدد الكثير قد لفوا بأكفان من ثياب القنب ربما كان على الميت منها زهاء ألف ذراع وقد كفن كل عضو على إنفراده في قط دقاق ثم بعد ذلك تلف جثة الميت جملة حتى ترجع كالحمل العظيم ومن كان يتبع هذه النواويس من الإعراب وأهل الريف وغيرهم يأخذ هذه الأكفان فأوجد فيه تماسكًا إتخذه ثيابا أو باعه للوراقين يعملون منه ورق العطارين اهـ) ولولا الإطالة لسقت كلامه لآخر الفصل ولعمري لقد أكثر الشيخ رحمه الله من الوقيعة في حق هؤلاء المفسدين وشد عليهم النكير مع أنه غريب

عن هذه الديار جاهل بحقيقة ما تدل عليه الآثار فيا ليت شعري ماذا كان يقول لو كان وطنيًا أو في عصرنا هذا أو علم من فائدتها ما علم الآن وشاهد شغف الأجانب برؤيتها وتزاحم بالمناكب على أبوابها ورأى الكتب قد شحنت بما ترجم منها فأسفرت عن مخدرات عرائس الأفكار القديمة أو كان إنكشف له معمي القلم البربائي أو رأى أسماء ملوك مقابر بني حسن قد نزعت من مكانها وبيعت بدريهمات قليلة وصارت التواريخ المسطورة بحذائها عاطلة مجردة عن أسماء ملوكها مشوهة التنسيق أو نظر ما تفعله أهل القرية الآن الذين ليس لهم شغل ولا تكسب إلا تدمير المقابر المكتوبة ليأخذوا كتابتها ورسومها ويبيعوها إلى السائحين من الإفرنج أو نظرهم وهم يبيعون جثث الموتى إليهم أو وهم ينبشون مقابر تبلغ مساحة أرضها مائتي فدان أو أكثر وقد كسوا سطح الأرض والجبال بالرمم والعظام والأكفان أو رأى كثيرًا من أماكن الأثار قد جردت مما كان بها وصارت قاعًا صفصفًا أو غيطانًا ومساكن وأحجارها المشحونة بالمعارف صارت جذاذا أو تحولت إلى جير لبناء دار العمدة الفلاني أو لشيخ البلدة أو لغيرهما أو تطريد الجهلة وهي تكتب أسماءها حفرًا بالخط الكبير على تيجان الملوك والنصوص العلمية أو المقاولين وهم يدمرون الكهوف والمغارات المكتوبة بالجبال ويضربونها بالألغام أو رأى تماثيل الملوك أخذت من أماكنها وصارت أعتابا لمنازل رعاع الناس وتواريخ نصرتها المنقوشة على ظهرها وعلامات غلبتها على أعدائها محت من كثرة وطء الأقدام عليها أو رأى كثيرًا مما يضيق به صدري ولا ينطلق به لساني وقد أحببت أن أضع في كتابي هذا صورة أحد مشاهير الملوك المصرية وهو رمسيس الأكبر المعروف عند اليونان بإسم سيروستريس لشهرته بالفتوح وإستيلائه على ما جاور مصر من البلاد وقمعه الجبابرة المتمردين وهو يطأ بقدميه رئيس بعض قبائل آسيا الصغرى ويطعن برمحه رئيسا آخر كما تراه في شكله

فيا أيها الوطنيون حسبكم مافعلتم بمحاسن المباني المصرية المخلفة عن أسلافكم ويا أيها الحكام والأمراء أما كفاكم هذا السكوت والاغضاء وأنتم ترون أو تسمعون في كل يوم تلفًا جديدًا ثم أنتم يا أيها الأذكياء ألم يأن لكم أن تقولوا لإخوانكم وجيرانكم الذين جبلوا على الفساد أن في بقاء الآثار منفعة كلية للعموم وأنتم يا أولي المعارف قد حان وقت النهضة لإرشاد من اتبع هواه وباع عظيم الآجل بقليل العاجل وفرط في حق الوطنية التي لا أخالكم تجهلون مقدارها ثم أنتم أيها الأعيان والعمد ومن عليه في ذلك المعتمد كيف رضيتم بتدمير طوامير علوم القدماء التي تركها في بلادكم مع علكم أن في بقائها رواجا للتجارة وزيادة في ميسرة البلاد

وثروتها وشهرة لمصركم وحجة قوية على تقدم أجدادكم أو أسلافكم وليتكم تقولون

فــــإن المـــــاء مــــاء أبي وجــــــدي   وبئـــــري ذو حفــــرت وذو طويــــت

ثم أنتم يا أهل الصعيد وأخص من بينكم شناترة العرب وأهل القرنة أما علمتم أنكم متى جردتم الصعيد من آثاره قل من عندكم وفود الزائرين والمتفرجين ولا يخفى عليكم وخامة العاقبة لأنكم أدرى بذلك من غيركم وها أنتم لقلة حضورهم في بعض السنين تقومون وتقعدون وتبرقون وترعدون وتصخبون وتندبون وتدعون الكساد وظهور الفساد وتحطون على الدهر وتوقنون بحلول الفقر فتحن الجرائد الوطنية لا بينكم وتدوي بصداء طنينكم ومتى كثر وفود الأجانب عندكم أتلفتم الآثار وبعتهموها لهم فأنتم كمن يقطع الأشجار ليجني منها الثمار وحسبنا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ولذلك صرنا هدفًا لسهام الملامة كما أن الشقي الذي أتلف صور مسطبة (قايين) بسقارة فتح علينا للتنديد بابًا كافي غنًا عنه حتى بقينا مضغة للماضغين من الإفرنج وتخلدنا إسم لا نرضاه في بطون تواريخهم فإذا نمر بنا عن ذلك صفحا وتركناهم يقولون كيف شاؤا أما يجمل بنا نحن معشر المصريين أن نبقى لوطننا رمقا من آثاره التي غفلت عنه عين الأيام وإلا فما حجتنا ونحن نشاهد يد الجهلة في كل يوم تعبث بها ونحن سكوت ويا ليت شعري ماذا كان يجري عليها لو كانت في مملكة مثل فرنسا أو الإنكليز أو ألمانيا أو غيرها وأنظروا ما كتبه أحد الأجانب وهو المعلم (أمبير) الذي كان زار الإسكندرية سنة١٨٤٤ مسيحية ورأى أسماء بعض السائحين مكتوبة على عمود السواري بالحفر حيث قال ولما دنوت من عمود السواري بالإسكندرية راعتني الخطوط المكتوبة عليه لبعض السياحين الذين يأتون بوقاحة زائدة ويكتبون بخط غليظ حفرًا كي يثبتوا إسمهم الخامل الذكر ويشوهوا عمود تلك القرون الخالية فيالها من عادة قبيحة وأغلب من يفعل ذلك هم الأروام فإن الواحد منهم يمكث ساعات عديدة وهو ينقش تلك الفكرة المبهمة على صميم حجر الجرانيت ليدنس به ويا عجبًا له كيف يرضى لنفسه أن يحملها تلك المشاق ليبين للناس أنه عريق في باب النكرة مجهول النسبة وشوه أثرا نفيسًا له

يبكـــي عليــــه غريـــب لـــيس يعرفـــه   وذو قرابتـــــه في الحـــــي مســــــرور

وإليكم بعض ما قاله ماريت باشا في هذا الباب من كتاب دليل المتفرج بعد كلام طويل وإذا دنى الإنسان من مقبرة (تي) التي بسقارة يعلم أن يد الزائرين أتلفت في مدة عشر سنين ما لم تتلفه ستة آلاف سنة مضت إلى أن قال وأخص بالذكر من بين المفسدين الشاب الأجنبي الامريكي

الذي زار آثار الصعيد سنة ١٨٧٠ مسيحية وكان يجري من معبد إلى آخر كأنه يسارع لفعل الخيرات حاملًا في يده اليسرى وعاء من القطران وفي اليمنى قلم الرسم (الفرشه) وأنبت إسمه في كثير من المعابد بطمس كثير من النقوش والنصوص القديمة بحيث لا يرجى إصلاحها بعد ثم ذهب وترك الآثار ملوثة بإسمه اه أقول وفي سنة ١٨٩٢ رأيت إسمه المقطرن في جملة معابد مكتوبًا بالخط الكبير وباقيًا على حالته وأخبرني الخفراء أنهم بذلوا الجهد في إزالته ولم ينجحوا لأن الجدر امتصته وصارت

كأنما أصابها نار فإحترقت وتفحمت وأسودت وأتلفت كثيرًا من الرسوم والنقوش ورأيت في جبل السلسلة وفي برية أنس الوجود وغيرها خطوطًا من كل نوع والعربي أقبحها محفورة بين أسماء الملوك وعلى عناوينها وتيجانها تدل على جماعة من حرافيش الناس وهمجهم وبعض أهل الخلاعة وتاريخ مجيئهم وقد أتلفت بهجة الألوان وشوهت الرسوم ومما يزيد الأسف ويطيل الحسرة أن كل فلاح وجد شيئا من الآثار مهما كان نوعه يقدمه إلى أحد الصاغة أو الأروام البقالين فيشتريه منه بثمن بخسو جدًا ولجهل الفلاح بقيمته يفرح و يسلمه له ولجهل المشتري بحقيقته أيضًا يبيعه بدون القيمة وهكذا حتى يبلغ مبلغًا عظيمًا غير أن الفلاح حرم من ذلك وإنتفع الأجنبي بهذا الثمن العظيم وكثيرا ما سمعت أن الأشياء التي بيعت بنحو المائة قرش بلغت إلى الستة آلاف قرش أو أكثر فمن ذلك صورة لطيفة وجدها أحد الفلاحين بقرية المطمر بمركز أبى قيج بمديرية أسيوط وباعها إلى أحد الصاغة وقبض ثمنها مائتي قرش وهذا باعها إلى أحد الأروام بالف قرش وهو باعها إلى أحد السائحين بخمسة آلاف قرش وربما بيعت بعد ذلك بضعف هذا الثمن ومنها أن فلاحًا وجد كتابًا من ورق البردى وباعه بمائة فرنك ثم باعه المشتري إلى غيره و ربح فيه وهو باعه إلى آخر فما وصل بلاد الافرنج إلا وكانت قيمته خمسمائة جنيه وقس على ذلك ما جرى بقرية صالحجر منها ما أخبرني به أحد السوريين وملخصه أنه كان صائغًا فقيرًا جدًا وأتى الى ثغر الاسكندرية فلم يصف عيش بها فتركها وتوجه ماشيًا إلى قرية (محلة أبي علي) بالقرب من بندر دسوق وفتح حانوتًا صغيرًا ليزاول صنعته به فجاء اليه في بعض الايام رجل من قرية صاالحجر يدعى الحاج خطاب وبا ع له بالنسيئة جملة ثعابين من ذهب كان وجودها في التل بالقرية المذكورة قيمة كل واحد سبعمائة وسبعون قرشا فأخذها وتوجه إلى الاسكندرية وباعها إلى أحد البنوكة بمبالغ جسيمة تخرج عن حد التصديق ولما بلغ أهل القرية ذلك سرقوا باقي الثعابين من منزله ليلًا ووشوا به إلى الحكومة ولا تسل عما حصل بعد ذلك ومات الرجل فقيرًا لا يمتلك نقيرًا ولا

قطميرًا وها هي ذريته بائسة فقيرة مالها قوت يومها ورأيت البعض منها يشتغل باليومية أما الصائغ فصار من أغنى الناس وها هو يمتلك الأطيان والقصور وآلات الطحن وله تجارة واسعة بكفر الشيخ وأصل جميع ذلك من ثمن تلك الثعابين كما أخبرني به وقد سمعت هذه الحكاية بعينها من أهل صا الحجر وهي مشهورة عندهم وأظن أن ذلك الغبي لو كان قدم هذا الكنز إلى الحكومة لعاش عيشة طيبة وكانت ذريته الآن من مياسير الناس ترفل في حلل السعادة ولكن الشقاء غلب عليه وفي ٢٤ من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٣ قال لي أحد تجار الفلاحين المقيمين بقرية (فوة) (بلاد الأرز غربا) أن رجلًا من الفلاحين وجد في تل الوحالى بمركز كفر الشيخ غربية تمثال سبع لطيف من المرمر رابضًا على قاعدة مكتوبة بالقلم القديم فإشتراه منه بنحو ثمانين فرنكا ولما أراد أخذه حصل شقاق بين الأهالي لأن كل واحد كان يزعم أن له حقًا في الثمن ولما إرتفعت الأصوات بينهم خشي التاجر من الحكومة ووسوس له الشيطان وإن شئت قلت دفعته الحماقة فكسر رأس هذا التمثال اللطيف وتركه لهم لا ينفع بشيء وكان يفتخر ويقول لي إنه بعد ما فصلها عنه هشمها وجعلها جذاذًا وأفلاذًا ولما سفهت رأيه فيما فعله وأعلمته بالضرر والفائدة قدم لي الجهل معذرة ثم ندم ندامة الفرزدق وقد زاد أسفي على فعله لأنه ربما كان من عمل ملوك العمالقة أوالعائلة الخامسة والعشرين أوالثامنة والعشرين ومابعدها وكلها كانت بتلك الجهة أو من عمل بعض العائلات المجهولة التي لم يتيسر إلى الآن وجود شيء من أعمالها البتة فأنظر أيها الوطني ما نفعله بما نجده من الآثار الثمينة مع أن مصلحة الآثار مفتحة الأبواب لشراء كل ما يرد عليها بدون بخس ولا مماطلة في الثمن أو ليس كان الأحرى أن الفلاح ينتفع بالثمن الحر والحكومة تنتفع بالعين والعلوم تنتفع بالفوائد الجديدة والوطن ينتفع بالفخر غير أن الجهل كما قيل عماء لكن إلى متى وإلى متى

الفصل الرابع عشر

في الرحلة العلمية وتاريخ مدينة طيبة

رعاك الله أيتها اليراعة ولازال غيث مدادك يسقي البراعة وما عليك الآن إلا أن تخبرينا بتاريخ بنائها وتقص علينا طرنا من أحسن أبنائها ثم إعطف على وصف الأطلال وتوخ الصدق في المقال

أما تاريخها فقد ذكر ماريبت باشا في بعض مؤلفاته أن إسم هذه المدينة لم يظهر للوجود إلا بعض إنقراض العائلة العاشرة ومن المستحيل أن نعرف شيئًا من أخبارها قبل ذلك العهد لأن الفترة التي وقعت بين العائلة السادسة والحادية عشرة جعلتنا نجزم بأن مصر كانت تحت يد دولة أجنبية أو كانت غارقة في بحر الفتن الداخلية ولما طهرت مدينة طيبة أخذت سلسلة التاريخ ترتبط ببعضها مرة ثانية وإذا سألنا سائل وقال هل كان تمدنها وقت نشأتها هو نفس تمدن ذلك العهد القديم الذي شاهدناه منقوشا في مقابر سقارة وصيدوم وزاوية الميتين وقصر الصياد مدة العائلة السادسة المنفيسية أجبناه بأننا نرى ؟؟ بعيدًا لأن هيئة الأموات والنصوص البربائية والقواعد الكتابية جميعها مغاير لما كان مستعملًا عند تلك الدول القديمة ومن المستغرب أن الأموات التي وجدت مدفونة في ذراع أبي النجا (بطيبة) أغلبها عبيد وتوابيتها عبارة عن كتلة من خشب مفرغة على قدر جسم المقبور فيها وهذا النوع لا يوجد الآن إلا في المقابر القديمة ببلاد السودان وهذا هو ما حملنا على القول بأن أحياء التمدن القديم وظهور مدينة طيبة نشأ عن حدثة سياسية تعزي لإغارة أهل الجنوب على مصر

أما أقدم آثارها فهي الأروقة المنحوتة في الصخور ثم الآبار التي كانت مستعملة للدفن مدة العائلة الحادية عشرة وكلها بذراع أبي النجا وقد يرى به للعائلة الثانية عشر بعض مقابر كما يرى لها جهة الكرنك بعض آثار مهمة باقية إلى الآن وفي هذه المدة أخذت مدينة طيبة ترقى في مراقي التقدم وتسمو في سماء الحضارة وتشيد أركان الرفاهية إلى أن أغارت عرب الرعاة أو العمالقة على مصر فإرتعدت له فرائص الأمة ووجلت منها الملوك وتشوشت الأحوال وإضطرب الناس وخمدت جمرة همتهم وإنعدمت روح الرفاهية من بينهم فحصل خلو في التاريخ المصري مدة قرون

متوالية وإنحاز الوطنيون إلى الصعيد وإشتغلوا بما هو الأهم وهي مكافحة عدوهم الألد وعدلوا عما كانوا بصدده من تشييد معابدهم وقصورهم ومازالوا يعانون الويل ويقاسون الأهوال إلى ظهور العائلة الثامنة عشرة التي أجلتهم عن مصر وكان منها الملوك الامنوفيسيين والطوطوميسيين وقد سبق ذكر ذلك ولهذا العهد كانت طيبة عبارة عن الجهة المعروفة بإسم الكرنك فقط ثم أخذت في الظهور دفعة واحدة وإتسع نطاقها ورفلت في حلة المدنية حتى انفردت من بين جميع المدن المصرية

وإذا نظـــــرت الى الـــــبلاد رأيتهـــــا   تشـــقى كمـــا تشـــقى الرجـــال وتســـعد

وشيد بها الملك أمونوفيس الأول جزأ من معبد الكرنك وهو الآن مهدوم وأقام على بابه مما يلي الجنوب الغربي لبرج المعبد تمثالًا هائلًا يدل على ما كان له من علو الهمة في مزاولة الأشغال الجسيمة وبنى به الملك طوطوميس الأول جملة إيوائات وأبراج وأقام به مسلات حتى جعل منظره من أحسن المناظر وأبهجها وشرعت الملكة (حتزو) مدة وصايتها على أخيها في تشييد البرج الثالث من جهة الجنوب وبنت الأروقة الجانبية التي بالمعبد وشيدت معبد الدير البحري الغريب الوضع تذكارًا لنصرتها على أعدائها ببلاد (بون) (بلاد اليمن أو الحجاز) أما مدة طوطوميس الثالث وأمونوفيس الثالث فأخذت مدينة طيبة في العظم وسمت إلى أوج الرفاهية أما الأول فقد أدخل في معبد الكرنك الزيادة التي تمت هيئته بها وشيد على الجانب الغربي للنيل معبدًا جليلًا وهو الآن مهدوم وأسس معبد مدينة (أبو) وغير ذلك من المعابد وأما الثاني فلم تكن همته دون همة أسلافه لأنه شيد جمع القسم الجنوبي من معبد الأقصر كما شيد هيكل المعبودة (موت) والمعبود (أمون) ووضع صفين من أصنام أبي الهول على حافتي الطريق أمام هيكل المعبودة (خنسو) بالكرنك وبنى العمارة الضخمة التي خلف صنمي (ممنون) بالشاطئ الغربي للنيل ثم ظهر أمونوفنيس الرابع الزنديق ولم يفعل شيئًا بمدينة طيبة غير محو إسم المعبود أمون من أغلب هياكلها ولما تبوأ الملاك هوروس تخت الملك بمدينة طيبة أعاد الديانة إلى ما كانت عليه وأخذ في إعلاء شأن المدينة بما صنعه من المباني النفيسة والعمائر الحسنة فأنه بنى في معبد الكرنك البرجين العظيمين جهة الجنوب ووضع صفين من الأصنام على جانب الطريق الموصل من البرج الأول إلى معبد

(موت) ونصب بعض الأعمدة التي في معبد الأقصر ولما إستولت العائلة التاسعة عشرة

أخذت الأشغال تدور على محورها القديم فشرع رمسيس الأول في عمل قبره المشهور الذي في باب الملوك وشيد في معبد الكرنك البرج الذي أمام رحبة الأعمدة وفي أيام سيتي الأول إرتقت درجة الرسم إلى غايتها القصوى وقد سبق ذكر ذلك عند الكلام على معبد العرابة المدفونة وهو الذي ابتدأ بعمل رحبة الأعمدة بالكرنك وأقام به ثمانية وسبعين عمودًا موجودة به الآن ضمن مائة وأربعة وثلاثين وهي لضخامتها وإحكام صنعتها وعلو شأنها تدل على ما كان لمهندسي تلك الإعصار من القدرة والإقدام والدقة في تشييد المباني وقد أسس هذا الملك جهة القرنة معبدا تذكارًا لإسم أبيه رمسيس الأول وحفر بسيف الجبل في باب الملوك تلك المقبرة الغريبة الشكل التي ينشرح من رؤيتها جميع علماء الآثار لم يجدونه بها من كثرة النصوص والرسوم لكنهم لا يخرجون منها إلا وهم ساخطون على السائحين من الأفرنج الذين تطرفت أيديهم إلى هذا الأثر الجليل فأتلفوا بعض محاسنه وفي سنة ١٨٩٢ كنت توجهت إلى تلك الجهة فأخبرني حسن أفندى حسني مفتش القرنة أن أحد سائحي الإنكليز دخل في هذا القبر مع رفقائه وبعد أن تفرج وابتهج وإنشرح صدره وتنعم باله بال على وجه أحد الصور ثم خرج وترك الأثر منجسًا بأثره فقلت له ربما كان هذا من بعض خصاله عند رؤيته الأشياء المستحسنة أو لعله كان مريضًا بسلس البول أو كان ذلك علامة عنده على الإستحسان أما رمسيس الثاني فلم يتفرغ لتقدم هذه المدينة كأسلافه لأنه بذل عنايته في نشر آثاره الكثيرة بوادى النيل ومع ذلك فقد أتم بناء رحبة الأعمدة التي بهيكل الكرنك وأحاطه بسور عظيم وشيد رحبة معبد الأقصر ومن المستغرب أن هذا الملك الذي خفق ذكره في الخافقتين وسارت بسيرته الركبان وملأ حافتي النيل بآثاره لم يهتم بعمل قبر فاخر كأبيه وها هو قبره في باب الملوك مجرد عن اللطائف عاطل عن المحاسن ليس به ما يروق في عين الناظر ولا ما يستحق الوصف لكن جبر هذا الخلل بتشييد معبد الرمسيوم المشهور جهة القرنة ولم يشيد من قام من بعده من الملوك أثرًا جديدًا جديرًا بالذكر ماعدا الملك رمسيس الثالث فإنه أسس معبد (خنسو) ومعبد الحوش الأصلي بالكرنك وشيد مدينة (أبو) وصنع في باب الملوك القبر المعروف الآن بقبر الآلاتية لوجود صورتهم به وبهذا الملك إنتهى دور مجد طيبة وفي أيام العمالة الثانية والعشرين البوبسطية صنع بعض ملوكها حوشًا عظيمًا أمام معبد الكرنك ويرى إسم الملك طهراقة (الحبشي) منقوشا في أحد جوانب هذا المعبد الكبير وفي معبد مدينة (أبو) وبنى بعض ملوك البطالسة معبد دير المدينة وهو لا شيء ثم البابين الجليلين اللذين بالكرنك وبذلك إنقضت أيام هذه المدينة وأدبرت أوقاتها ولما مات (أسورادون) أحد مول

الاشوريين أعاد (سردنابال) الأشوري على مدينة طيبة ودمرها فجاء طهراقة وأصلح بعض ما أفسده ثم أغار عليها ثانيا وأسلمها إلى السلب والنهب وأوقع بها غاية الكرب وقد أجمع المؤرخون على أن قمبيز ملك العجم إستولى على مصر وأنزل بها الدمار وخرب مدينة طيبة ولكن لم يقم دليل قطعي على صحة ذلك ومن المحتمل أنه نبش بعض مقابر باب الملوك وغيره ثم إنتهى أمر هذه العاصمة بحصارها وخرابها على يد (بطليموس لاطيروس) وقد سبق ذكر خرابها في الفصل السادس وسيأتي أيضًا أما هذه التلال التي تراها الآن في تلك الأطلال سيما جهة الأقصر فهو أن من عادة أهل تلك البلاد أن يبنوا منازلهم باللبن ومتى آلت إلى السقوط هدموها وأصلوا أرضها بما فيها من الأنقاض وبنوا فوقها مساكن أخرى غيرها وهكذا وبهذه الحالة صار جانب عظيم من معبد الأقصر تلدكبيرًا يبلغ ارتفاعه نحو الستة أمتار وستر كثيرا من المباني الأثرية و بنى الناس فوقه المنازل والمباني منها مسجد العارف بالله سيدي أبي الحجاج وهو الصعوبة التي كانت في طريق مصلحة الآثار المانعة من إكتشاف جميع باقي المعبد المذكور واليك طرفًا مما قاله سپرو في أحد نشراته العلمية (إذا دنى السائح من قرية الاقصر رأى معبدها في حالة يرثى لها ونظر أكواخ فقراء الناس وعششهم حول برجيه الشامخين فحجبت أكثر من نصفهما عن عين الرائي وكانا يزينان باب المعبد وحوشه ورحبته من جهة الشمال وإذا دخله الانسان يرى به نحو ثلاثين منزلًا وثمانين طاولة مواشي مرتكزة على أعمدته وملتصقة بجدره ورفارفها مثقلة بالطوب النيء الذي بنوا به تلك المنازل ومأذنتي سيدي أبي الحجاج قائمتين بوسط هذا المجموع الغير مرئى ويرى تحت رحبة الأعمدة الواصلة من الحوش الشمالى إلى المعبد فقس منزلين أحدهما لقاضي إسنا والآخر لمصطفي أغا عياد وكيل أشغال دولة الإنكليز والبلجيقه والروسيا أم وجهة المعبد من جهة الغرب المطلة على النيل فكانت محجوبة بجملة مباني منها قشلاق العسكر والسجن والبوسطة ومخازن الحكومة ومباني جسيمة متخربة لدولة فرانسا ملكتها من نحو الخمسين سنة وخلف هذا الخراب قطعة أرض براح بها كثير من الأنقاض والجدر المنقضة والبويتات الصغيرة المجتمعة مع بعضها ثلاثًا ثلاثًا أو أربعة أربعة ويرى بين قواعد العمد بالمعبد مراحات للغنم وزرائب للمعز وأبراج للحمام مصنوعة من الفخار ومشيدة على ما بقى من أرض المعبد تعلو عليها بأكثر من خمسة عشر مترًا وكل قطع الأعمدة وأحجار الجدر والأسوار التي لم يدعها أحد ملقاة هناك كأنها مقاطع الأحجار مباحة للعامة يقصدها كل من أراد البناء ويأخذ منها ما يشاء ولم يمنعه أحد وفي سنة ١٨٧٩ ميلادية أشهرت مديرية قنا هذا المعبد للبيع ولم تخبر مصلحة الآثار بذلك

فإنتهز أحد الأفرنج هذه الفرصة وإشتراه لكي يعمل به فندقا (لوكنده) و صمم على أن يوقع من المعبد إثني عشر عمودًا ليبني بأحجارها دورين بها ولما شرع في العمل أخبر أحد السائحين ماريبت باشا فبادر وأجرى ما يلزم لفسخ البيع وعتقت مصر من وصمة هذا العار إلى آخر ما قال)

الفصل الخامس عشر

في الأدوار الأثرية واتقان الصناعة المصرية

من تأمل في هذه الآثار الهائلة المنتشرة في هذا الوادي وعلى جباله علم أن القوم ما سلكوا هذا الطريق الوعر إلا لغايات كانت عندهم من أهم الأمور ذوات البال وهي إما دينية أردنيوية أو كلتاهما معًا فقال فريق من الناس أن الملوك لما خافوا من رعايتهم أن تنبذ طاعتهم ظهريًا قصدوا كسر شوكتهم وإماتة قلوبهم بتشغيلهم في هذه الأشغال الشاقة كي لا يجول بخلدهم رفع لواء العصيان عليهم وقال فريق آخر أن هذا القول مردود بداهة لأنه لو كان هذا هو الغرض لكانت المنافع العامة أخرى لأنها أنفع من إقامة المسلات وبناء الأهرام وعمل التماثيل الهائلة ولا يخفى كثرة تلك المنافع وتنوعها وقال آخرون أن الغرض منها هو تخليد ذكر أصحابها على توالي الأيام والسنين مادامت باقية في الدنيا وقال غيرهم ليس ذلك من الحقيقة في شيء لأنه لو كان صحيحًا لكانوا إكتفوا بكتابة أسمائهم وتواريخهم على الصخور والجبال بدون أن يذكروا أسماء معبوداتهم معهم بل ما كانوا يصورونها فوق أسمائهم على جميع آثارهم والظاهر أنهم كانوا يرون أن أحسن المصنوعات وأكبر المباني تقربهم إليهم زلفى فلذا كانوا يميلون إلى تشييد العمارات الفخيمة ولما كان هذا هو مطمح نظر قدماء المصريين برعوا في كافة الصنائع على إختلافها سيما ما يختص بالديانة كالبناء ونحت الأحجار وصقلها وتفصيلها وأحكام هندستها التي أدهشت المتأخرين وأخرست ألسن الفصحاء وقد قسمها بعضهم إلى خميسة أدوار كلية.

(الدورالأول) يشتمل على صنائع العائله الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة وفي هذا الدور بنيت أعظم المباني البالغة في الضخامة والإتقان إلى حد يحصراللبيب عن وصفه كالأهرام التي رتبوها من الشمال إلى الجنوب بحسب ترتيب العائلات فجعلوا أهرام العائلة الرابعة بالجيزة وأهرام الخامسة بأبي صير وأهرام السادسة بسقارة وأهرام العائلات الصغيرة التي قامت بين الحادية عشرة والثانية عشرة بدهشور وأبي رواش وميدوم على قول بعضهم وأهرام الثانية عشرة بالفيوم لكن دلت لقايا جبل دهشور أن أهرامه كانت للعائلة الثانية عشر إذ وجد على بعض الحلى اسم الملك أوزَرْتَسِنْ والملك أمِنِمْحَعَتْ وربما كان بعض أهرام هذا المكان للملك (سَنَفَرُو) أحد ملوك

العائلة الثالثة على قول بروكش باشا أو الرابعة على قول غيره حيث أظهر الحفر في بعض المساطب التي هناك اسم هذا الملك الأخير وهذه المساطب قريبة من هرم مهدوم لعله له ولما فتحته مصلحة حفظ الآثار في أوائل شهر فبراير سنة ١٨٩٥ وجدته أخرساً والظاهر أن أهرام الفيوم للعائلة الثانية عشر أيضاً ويلي الأهرام أبوالهول ومعبده وقد سبق تفصيل ذلك كما إشتهرت بعمل التماثيل ودقة الصنعة كتمثال الملك خفرع أوكفرم البانى للهرم الثاني بالجيزة (كما تراه في شكله).

وليست شهرة هذا التمثال فقط من حيثية الأقدمية وأن له ستين قرناً لما إشتمل عليه من حسن الصنعة وإفراغه في قالب بديع جداً مع سبعة مجسمة وجمال هيئتة الدالة على سمو الفنون المصرية وأن المصريين كانوا في درجة عالية من إتقان الصناعة وكالتمثال المتخذ من خشب الجميز المعروف باسم شيخ البلد الموجود الآن بالمتحف المصري وما أظن أن الصناعة خشب الميز المعروف باسم شيخ البلد الموجود الان بالمتحف المصرى وما أظن أن الصناعة المصرية سمحت بإيجاد أعلى منه حيث ترى الشخص الذي صنع على شكله كأنه على قيد الحياة خصوصاً هيئة الرأس ودقة الأعضاء وإستدارة الجسم وهو يكذب النظر بما عليه من طبقة الطلاء الخفيفة التي أكمل بها المصور بديع صنعته ومنها تمالان وجدا بجوار هرم ميدوم بمديرية بني سويف وهما رجل وإمرأة جالسان على نصابين من الحجر يتخيل كل من إستعرضهما أنهما ينطقان ويظن من مر أمامهما أن مقلتي عينيهما يتحولان معه إذا تحول عن يمينهما أو يسارهما وعليهما من الطلاوة والدقة ما يدل على تمهر أهل ذلك الوقت في محاكاة الأمور الطبيعية فإنهم جعلوهما في الحسن غاية وفي الإتقان آية وكان تقادم الأيام لم يزدهما إلا جدّة وليس الخبر كالعيان.

(الدورالثانى) عبارة عن العائلة الثانية عشرة فقط وفيه عاد لمصر شبابها فأخذت تدأب في العمل وتعانيه وكأنها إنصبت في قالب ثان ومازالت تستسهل الصعب وتقتحم الخطب وتجدد الصنائع وتقترح المنافع حتى رقت أوج الكمال بعدما هوى نجمها ومال ومما ينسب إليها مقابر بني حسن المنحوتة هي وعمادها دفعة واحدة ولله درّ الصانع الذي جعل هؤلاء الإسطوانات على شكل باقات الأزهار تحمل سقفاً من الجبل متصلًا بها وقد مر ذكرها في الرحلة العلمية بها ومنها مسلة فرعون الموجودة الآن بقرية عين شمس، ومسلة أخرى بقرية بجيج بالفيوم ومنها بعض المغارات بجبل أسيوط وقد برهنت لنا هذه الصناعة على أن ذلك العصر كان من أشرف أعصار التواريخ المصرية كما أنه كان من التفنن في كل شيء غير أن مدته كانت قصيرة حتى صدق عليها

قول من قال ما سلم حتى ودع وما أفاق إلا وتصدع.

(الدور الثالث) يبتدئ بإجلاء عرب الرعاة عن مصر وهو عبارة عن العائلة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وجزء من العشرين وفيه ظهرت مصر بأعظم مظهر وبرزت بأسمى منظر وإنحصرت أعمالها في أمرين عظيمين وهما فتوح البلاد البعيدة وإضافتها إلى ملك مصر وتشييد العمارات العديدة كمعبد جبل البركل القريب من أبي حمد وقلعتي سمنة وقمة فيما فوق وادي حلفه بشيء يسير ومعبد أبسمبل بتلك الجهة وبناحية عمادة من بلاد النوبة ومنها المعبد العظيم الذي كان بجزيرة أسوان وكان من أجمل المعابد المصرية القديمة ومنها الباب المتخذ من حجر الصوان المعشق بساحة هيكل امبو والتصاوير البارزة الموجودة بجبل السلسلة مما يحدث عن سيرة الوقائع الحربية أما مدينة طيبة فلم تزل مشرقة الأنوار بجمال آثار هذه الأيام وبهجة عماراتها الفاخرة حيث ترى هناك على الجانب الأيسر من النيل هيكل الدير البحري ومعبد القرنة ومعبد الرمسيوم المشتمل على أكبر التماثيل المصرية المصنوع من الصوان الأزرق البالغ طوله سبعة عشر متراً وخسين سنتياً من المتر وثقله واحد مليون ومائتان وسبعة عشر ألف وثمانمائة واثنان وسبعون كيلوجراماً وهو أحد الآثار المجسمة التي أخرجتها يد الصناعة المصرية لكنه الآن مكسور ملقى على الأرض مشوه الوجه ومنها صنما ممنون البالغ إرتفاع كل واحد منهما مع قاعدته نحو تسعة عشر متراً وسوف يأتي بيان ذلك في الرحلة العلمية ومنها معبد مدينة (أبو) ومقابر ذراع أبي النجا والعصاصيف وقرنة مرعي ومقابر باب الملوك ومعبد الأقصر وتماثيله الجافية ومعبد الكرنك ومسلاته وأساطينه الشامخة وإن لم يكن لهذا الدور إلا ما بقى من رسم كنيسة تل العمارنه الكائنة بجوار قرية الحاج قنديل لكناه فخراً وبرهاناً على تقدم الحرف والصنائع في ذلك العهد الذي هو عصر الرمسيسيين والتحوتميسيين.

(الدور الرابع) عبارة عن العائلة السادسة والعشرين فقط وفيه أخذت الصنائع والعمارة تعود لحالتها الأصلية بعدما كانت إندرجت في خبر كان ونسجت عليها عناكب النسيان بل تميزعما سواها بما فيها من السعة وحسن إفراغ التصاوير المحلاة بها وذكر المؤرخ هيرودوت أن قاعدة هذه الدولة كانت مدينة صا الحجر (التابعة لمركز بسيون غربية) وصارت بهمة ملوكها من أبهج مدن الديارالمصرية فقد شيد فيها الملك (أبرياس) هيكلًا لم يكن دون أفحر العمارات المصرية بوجه من الوجوه وشيد له الملك (أماسيس) باباً كبيراً من أغرب الأبنية وأعجب العمارات يفوق بكثير على سائر الأبواب التي من نوعه من حيث الإرتفاع وزيادة الإتساع

والعناية بإنتخاب أحجاره من أجود الأحجار وأكبرها ووضع عليه من الصور والتماثيل الهائلة ما يفوق الحدود في العظم وكبر الحجم إلى أن قال ومما يوجد بمدينة صا الحجر من الآثار العظمية تمثال هائل إرتفاعه خمسة وسبعون قدماً ولم يقتصر الملك (أماسيس) على تشييد الأبواب فقط بل أحضرإليها معبداً صغيراً متخذاً من قطعة حجر واحد نقله من جبال أسوان وقام بنقله من تلك الجهة ألفان من العمال في السفن على النيل مدة ثلاثة أشهر وطوله من الخارج اثنا عشر متراً وعرضه سبعة أمتار وإرتفاعه أربعة أمتار وزنته بعد طرح فارغة نحو أربعمائة وثمانين ألف كيلوجرام (الكيلوجرام ٣٢٠ درهماً) اه.

وجميع ماذكر صارالآن هباء وتفرقت أحجاره أيدي سبأ ولم يبق منه أثر ولا عين ولهذا الدور آثار كثيرة بالمتحف المصري وغيره وجميعها في أعلى طبقات الصناعة ومن تأمل فيما ذكره هيرودوت علم أن هذه الدولة حاولت تقليد أعمال الدولة الخامسة والسادسة بعدما مر عليها ثلاثون قرناً.

(الدور الخامس) وهو الأخير كان مدة البطالسة بمصر ومن نطر لكثرة عماراتهم علم أنه لم يل الديار المصرية من بعد العائلة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة دولة ملوكية أكثر منها آثاراً على شواطئ النيل فإن هؤلاء الملوك البطالسة لم يكتفوا بإصلاح ماكان قد تخرب من الهياكل وإتمام ما كان ناقصاً بل أحدثوا معابد جديدة مثل هيكل الداكة وكلباشن ودبود ودندور ببلاد النوبة خصوصاً هيكل جزيرة البربا (جزيرة أسوان) وجزيرة فليا (أنس الوجود) وفي يوم ١٩ من شهر فبراير سنة ٩٥ وجدت لهم آثار جملة معابد في جزيرة الهيسا القريبة من هذه الجزيرة الأخيرة وبالجملة فقد صيروا هذه البقعة من العجب العجاب الذي يسحر العقول ويبهرالألباب حتى صح أن توصف بالإنفراد بين جميع المناظر الجليلة الموجودة بسائر البلاد ومن جملة آثارهم بالديار المصرية هيكل مدينة أمبو وعمارته من أحسن أنموذجات في العمارة القوية وهيكل مدينة إسنا القديمة الذي لولا ما طرأ عليه من الإحتجاب ببناء منازل المدينة المستجدة لكان يظهر في أحسن مظهر ويبدو لعين الناظرين بأعظم منظر وهيكل ارمنت الذي لحقه الآن من الإنهدام ما بلغ به نهاية التمام ومع كون الملوك البطالسة قلدوا مدينة الإسكندرية من حلية العمارات الجسيمة والآثار الفخيمة بما لم نقف على حقيقة حاله الآن فلم يتركوا مدينة طيبة في زوايا النسيان فإنهم هم الذين أنشؤا بالجانب الأيسر من النيل الهيكل المعروف بدير المدينة والمعبد الصغير الموجود بمدينة (أبو) وعلى الجانب الأيمن شادوا الباب الكبير الموجود وحده في الجهة

الشمالية من الكرنك وغيرذلك أما مدينة دندره وما أدراك ما دندره فإن بها الهيكل العظيم الذي هو عارة أثرية فريدة في بابها وسوف يأتي بيانه في الباب الحادي عشر عند الكلام على تفصيل المعابد المصرية والغرض منها.

وكذللك يشاهد أسماء البطالسة مكتوبة على الآثار بجهة قرية الكاب بإقليم إسنا وفي أخميم وناحية بهبت الحجارة بقرب المحلة الكبرى (بمديرية الغربية) وفي غير ذلك من النواحي ويجب أن يعزي إليهم إنشاء أجمل ما يوجد في سرابيوم وهو مقبرة العجل أبيس بناحية سقارة والتوابيت الكبيرة الحجم التي به ولهذه الدولة جملة تماثيل وآثار كثيرة بالمتحف المصري ومتى ذكر ما يؤثر عن دولة البطالسة فلا ينبغي أن ننس حجر رشيد الذي كان مفتاح سر الكتابة المصرية القديمة بعد أن مكثت المدة المديدة والأعصار العديدة وهي من الأسرار المقفلة والمشكلات المعضلة.

الفصل السادس عشر

في الرحلة العملية وبيان ما إشتمل عليه معبد الأقصر

إعلم وفقك الله أن الحكومة السنية نظرت إلى معبد الأقصر بعين الأهمية في سنة ١٨٨١ حررت نظارة الأشغال العمومية كشفاً شاملًا لبيان المنازل والأملاك الموجودة به وقيمة كل واحد منها ولكن عدم الإقرار على طريقة حسناء مناسبة للعمل بمقتضاها بقي الحال على ما كان وفي سنة ١٨٨٣ وسنة ١٨٨٤فتح كل من جرنال الديبا بفرانسا والتميس بإنكلترا إكتتاباً عاماً فجمعا نحو ١٩٠٠٠ فرنك عبارة عن ٧٣٢٩٢ قرش وتخصص جزء منه لشراء بعض هذه المنازل وهدمها وإزالتها وجرى العمل على ذلك من إبتداء ٥ يناير سنة ١٨٨٥ ثم فرغت النقود ووقفت الحركة فإضطرت مصلحة الآثار إلى أن تدفع في سنة ١٨٨٦جانباً من ميزانيتها الخاصة لإتمام ما كانت شرعت فيه من العمل وأباحت للفلاحين أن يأخذوا سبخ غيطانهم من هذا المكان فكان في ذلك بعض المساعدة على نجاز الأعمال ولكن كل ذلك ما كان يشفي غليلًا وصارت الحركة بطيئة والشغل يمشي الهوينا وكلما تنكشف ناحية يظهر أنها مختلة البناء منزعزعة الأركان فإرتبكت الأحوال وخابت الآمال فارسات نظارة الأشغال مندوبها ليبدي رأيه فيما يراه فحرر تقريراً ببيان ما يلزم إجراؤه فكان ذلك باعثاً على صدور أمر خديوى يقضي بفرض جعالة قدرها مائة قرش على كل سائح يريد التفرج على آثارالصعيد وأن هذا المبلغ يدخل في يد مصلحة الآثار لتنفقه بمعرفتها على إصلاح ما يلزم بالآثار من نحو تنظيف وترميم وغيره وبذلك دارت الأعمال على محور الإستقامة وإشترت المصلحة سكة حديد صغيرة نقا لي لطرح الأتربة المتخلفة من الهدم في نهر النيل فكان في ذلك مساعدة عظيمة ثم أصلحت بعض العمد التي كانت أذابتها أملاح الأرض الناشئة من رشح فيض النيل وبنت سوراً حاجزاً لمنع الأهالي من إلقاء القاذورات والقمامات في المعبد ورفعت سوره وجعلت فيه برابخ لدخول ماء الفيض إليه وخروجه منه متحملًا بالأملاح المضرة بالبناء ولم يبق به الآن غير منزلين ومسجد سيدي أبي الحجاج وضريحه ولا يخفي ما في ذلك من المشاكل أما قشلاق البوليس والبوسطة وغيرهما من الأماكن التي كانت هناك فلم يبق لها الآن أثر وبذلك راق الحي وخلا الجو للمعبد.

وذكر علماء الآثار أن معبد الأقصر والكرنك بنيا الثلاثة معبودات وهي (أمون رع) وزوجته (موت) وابنهما (خنسو) وظن بعضهم أن معبد الأقصر تأسس على أطلال معبد قديم كان من بناء ملوك الطبقة الثانية وأيد دعواه بالأدلة الآتية وهي أن في سنة ٨٧ وجدت مصلحة الآثار حينما كانت تنظف هذا المعبد مائدة من الحجر الأسود الجرانيتي كان صنعها الملك (أوزرتسن) الثالث من العائلة الإثنى عشر ليقرب عليها القربان لمعبود مدينة اهناس المدينة ومنها وجود أحجار أثرية عليها اسم الملك (سبك حوتب) من العائلة الثالثة عشرة ومنها أنه كان من عادة القوم أن يبنوا هياكلهم على أطلال الهياكل القديمة المندرسة غير أن جميع ذلك ظن وتخمين وأن الظن لا يغني من الحق شيأ.

أما المعبد الموجود الآن فهو من عمل الملك أمونوفيس الثالث المعروف على الآثار باسم (أمنحتب الثالث) من العائله الثامنة عشرة وقطع أحجاره من جبل السلسلة وشيد جميع أماكنه المهمة ثم مات ولم يتم جميع نقوشه فاتمها هوروس (هورمحب) آخر ملوك هذه الدولة وبه للملك سيتي الأول من العائلة التاسعة عشرة بعض مباني وقد سبق ذكر ذلك وهذا الهيكل يشتمل على المعبد من حيث هو وعلى بعض أروقة صغيرة ثم رحبة الإيوان أوالبواكي وكان جميعها معروشاً بالحجر الجافي ثم الحوش العظيم الذي كان محفوفاً بالإيوانات المعروشة ثم دهليز الإيوان المحمول عرشه على أربع عشرة إسطوانة ويقال أنها كانت أكبر وأعظم جميع أساطين مصر وهذاهو جميع ما شيده الملك أمونوفيس الثالث وطوله لغاية الدهليز مائة وتسعون متراً وأعظم عرضه خمسة وخمسون متراً وكان به نحو مائة وخمسة وخمسين إسطوانة وهو الذي أحاط الطريق الموصل منه إلى معبد الكرنك بصفين من الأصنام التي على هيئة الكباش الرابضة وأرصدها على معبوده (أمون).

أما رمسيس الأكبر فقد زاد به الحوش الثاني العظيم وأقام في دائرته صفين من الأساطين المعروشة وشيد برجيه ونصب ملستين أمامهما وهو الذي صنع التماثيل الحافية التي به ولما دخلت الديانة المسيحية مصر سنة ٣٨٩ ميلادية أحدث النصارى به كنيسة برحبة الإيوان أوالبواكي المتصلة برحبة الحوش وسدوا أبواب الأروقة التي جهة الجنوب وجعلوها ثلاثة أماكن مستقلة بنفسها.

وفي مدة حكم العزيز مُحَمَّد علي باشا أنعم بإحدى مسلتي الإسكندرية على دولة فرنسا فإلتمست منه أن تستبدل هذه الهدية بمسلتي الأقصراللتين على باب هذا المعبد ففعل وأجاب

طلبها وفي سنة ١٨٣١ ميلادية بعثت حكومة فرنسا إرسالية فنقلت إحداهما إلى مدينة باريس وأقامتها في ميدان (الكونكوردو) أما مسلتا الإسكندرية فقد أنعم بإحداهما إسماعيل باشا خديوي مصر الأسبق على دولة أمريكا وبالأخرى على دولة الإنكليز فأخذوهما في سنة ١٨٧٧ إلى بلادهما.

وقد إهتمت علماء الآثار بنسخ وترجمة جميع نقوش هذا المعبد ولم يبق منه إلا المكان الذي به مسجد سيدي أبي الحجاج وقد صدر الأمر من مدة قريبة بهدمه وبنائه في مكان آخر.

أما المسلة الثانية الباقية الآن هناك على باب المعبد فيبلغ إرتفاعها ٣ سنتي و ٢٥ متراً من ذلك ٥٦ سنتي و٢ متر قيمة تاجها وهو كالقمع وعرض قاعدتها نحو ٥٠ سنتي و٢ متر ويبلغ ثقلها ٢٥٧٠٠٠ كيلوغرام ويرى على كل سطح من أسطحها أسفل القمة صورة رمسيس الأكبر جاث يقدم قرابينه إلى المعبود (أمون رع) وهاك ترجمة بعض ما هو مكتوب عليها.

النهر الأول من السطح الغربي (هوروس الشمس الثور محبوب رع الملك) المحبوب مثل أمون ابن رع البكري الجالس على كرسيه ملك الصعيد والبحيرة (رَعْ أو سَرْمَعَتْ سِتَبُ أنُ رَعْ) ابن الشمس (أمنْ مَرْرَعْ مَسُّو) مسكن أمون صار مزيناً مثل أفق السماء وقد إبتهج الناس مما فعله في هذه العاصمة ملك الصعيد والبحيرة (رع أوسر معت ستب أن رع) ابن الشمس (أمن مررع مسو) (ملحوظة) الأول لقب رمسيس الأكبر والثاني إسمه.

النهر الثاني من السطح نفسه (هوروس الشمس الشجاح صاحب اليقظة رب التاجين المهاب الحامي مصر هوروس الظافر قامع الأمم الطارد للأشقياء ملك الصعيد والبحيرة (رع أوسر معت ستب ان رع) الذي يشتغل لفخر أبيه أمون في مسكن الحق حتى صارت أرباب طيبه في غاية السرور وإبتهجت بما خلده ابن الشمس (أمن مررع مسو).

النهر الثالث من السطح نفسه «هوروس الشمس محبوب معت ملك الآثار العظيمة مسكن أمون» الملك القوي النبيه رب السيف القاهر ملك الصعيد والبحيرة «رع أوسر معت ستب أن رع» ابن الشمس «أمن مررع مسو» الذي أبهج أرباب طيبه إلخ.

النهر الأول من السطح الشمالي «هوروس الشمس محبوب معت» ملك الصعيد والبحيرة «رع أوسر معت ستب أن رع» ابن الشمس «أمن مررع مسو» رب المدح مثل «تاتن» صاحب الأرضين «رع أوسر معت ستب أن رع» صانع الآثار العظيمة بمدينة طيبة المختصة بأبيه أمون رع

الذي أجلسه على كرسيه إبن الشمس «أمن مررع مسو» وهكذا باقي أوجه المسلة وفي كل وجه أو سطح ثلاثة أنهار من الكتابة غير أن جميع معانيها تدور على هذه المعنى وكان بقاعدتها صورة أربعة قرود من الحجر اللطيف تعرف عند علماء الآثار باسم «سينوسيفال»[1] نقل بعضها الفرنسيس إلى بلادهم عندما أخذوا المسلة السابق ذكرها ولهذا الآن لا يعلم ما كان الغرض من عمل هؤلاء المسلات وزعم العلماء أن الغرض هو تخليد اسم الملوك أصحابها وشهرة المعبد الذي تكون أمامه كالمئذنة وبرج الكنيسة إذ ليس لهما مدخل في قواعد الديانة أما باب المعبد فكان مزينًا بستة تماثيل جسيمة جدًا وكلها من عمل هذا الملك وهو رمسيس الأكبر المعروف باسم رمسيس ميامون أو سيزوستريس أو رمسيس الثاني أما التمثالان اللذان عن يمين الداخل ويساره فهما صورة هذا الملك وهو جالس على تخت ملكه وهما باقيان إلى الآن والأربعة الأخيرة على صورته وهو قائم ولم يبق منها غير واحد سليمًا تطرق إليه يد التلف إلا شيئًا قليلًا وهو تسوية وجهه وإزالة راحتي يديه و كل واحد منها متخذ من حجر واحد من الجرانيت الأسود وفي التمثال الغربي وهو السليم عرق أجر يمتد على العصابة أما عرض جلسته فتبلغ ٥٠ سنتي و ٢ متر وطولها ٧ متر وارتفاعها ٥ سنتي و ١ متر وارتفاع التخت أو الكرسي الجالس عليه هذا التمثال يبلغ ٩٠ سنتي و٢ متر و ارتفاع التمثال ٦٥ سنتي و ١١ متر منها ٦٥ سنتي و ٦ متر من القدم إلى الكتف ومنها ٢ متر ارتفاع الرقبة والرأس والباقي وهو ٣ متر قيمة العصابة والتاج وهو مركب من تاجي الصعيد والبحيرة داخلان في بعضهما فوق العصابة المصنوعة على شكل قماش به خطوط يحيط بالرأس ويرى في عنقه قلادة جميلة المنظر أو أسماط منضدة وعلى بدنه صورة ثوب متجعد بلطف به ثنيات يصل إلى ركبتيه وبوسطه منطقة معقودة فوق الخصر وعلى أحد جوانب التخت صورة زوجته الملكة «موت مَرْ نفَرَتْ أرى» وعلى قاعدته صورة الأم التي خضعت له من الزنوج وأهل آسيا واسمهم مكتوب في خانات سلوكية على صدرهم.

أما باب المعبد فهو محصور بين البرجين السالف ذكرهما ويبلغ عرض كل واحد منهما ٤٠ سنتي و ٨ متر وطوله ٣٠ مترًا وسعة الباب بينهما ٤ متر فعلي ذلك يكون عرض وجهة المعبد ٦٤ مترًا وحالتهما الآن غير جيدة وتؤذن بالسقوط ما لم تتداركهما عين الحكومة بالترميم والتقوية ويغلب على الظن أن الشرقي منهما يسرع له الدمار إذا أزالت المصلحة الأتربة التي تسند

[1] السينوسيفال حيوان خرافي يكون على هيئة إنسان برأس قرد وهو رمز على كوكب الشعري اليمانية أو هرمس.

جدرانه وكان في الجهة الشرقية من الباب سلم يصعد إلى عرشه ومنه يصعدان إلى أعلاهما وارتفاعهما ٢٤ مترًا ويرى فيهما بعض أحجار مأخوذة من المعبد الصغير الذي كان بناه هناك «خون أتن» لمعبوده قرص الشمس وجميع وجهة الباب منقوشة وعليها اسم رمسيس الثاني ونصوص بربائية تدل على وقائع هذا الفاتح مع أمة الخيتاس «في بر الشام وقد تحزب فيه على أهل مصر أغلب سكان آسيا الصغرى» وصورة المعسكر وعساكر الرماة بملابسهم وأسلحتهم والدرق في أيديهم وعلى الجهة اليسرى صورة الملك اثنين من الجواسيس وبجوار ذلك صورة مشورة حزبية معقودة ثم الخفر السلطاني مركب من العساكر المصرية وعساكر «الشردنه» ويعرفون بخودهم الكروية الشكل ذات القرون والأكرة الصغيرة وعلى الجناح الشرقي صورة المصاف أي الواقعة الهائلة التي كانت بين هذا الملك وأمة الخيتاس وعلى اليمين صورة الملك راكبًا عربته يرمي سهامًا على أعدائه وقد احتاطوا به من كل ناحية ثم تراهم قد انهزموا وولوا مدبرين ووقعوا في النهر وترى العربات المصرية أعلى وأسفل تسير صفوفًا مع الترتيب والإنتظام وعلى كل واحدة ثلاثة رجال أحدهم يقاتل الأعداء وثانيهم قائم بسياسة الخيل وثالثهم يقودها.

وفي نهاية الجهة اليسرى جيش العدوّ مصطفًا أمام جيش مصر وكل منهما زحف على عدوه وأسفل ذلك كتابة صورتها «عاد الوغد اللئيم ملك الخيتاس وهو يرجف فوق عربته الحربية» وعلى عربته كتابة بربائية ونصها «خلفه عشرة آلاف وتسعمائة مقاتل وهم جيش العربات أتى بهم من بلاد خيتاس الحقيرة» ثم ترى جيوش المتحالفين من الأعداء دخلوا بإزدحام في مدينة محصنة بالأسوار يحيط بها الماء وإلتجؤا إليها فرارًا من جيش المصريين وترى لهم صورًا متنوعة ظاهرة منهم أمة الخيتاس ولهم وجوه ضخمة متقبضة «متكرمشة» ورؤوسهم مستورة بقماش معقود بشريط على جبهتهم ومنهم أمة الشكلاش وعلى رؤوسهم قلنسوة نازلة من خلفهم ومنهم أمة الطورشا ولهم خودة دقيقة من قمتها ثم أمة الجكاري ولهم عصابة تشبه قلنسوة العجم وأسفل ذلك تفصيل الواقعة منقوش بالقلم القديم وهذا النصّ يعرف عند علماء الآثار باسم قصيدة «بنتاؤر» ولم نتعرض لذكرها إذ ليس هذا محله فراجعها في كتاب توفيق الجليل للمرحوم رفاعه بك نمرة ٨٣ .

وكان ظاهر الحوش الذي بناه هذا الملك بهذا المعبد مستورًا بالنقوش والنصوص البربائية وتواريخ وقعاته غير أن يد الدهر تسلطت عليها فأزالتها بالكلية ومحتها بالطريقة القطعية لكن لحسن الحظ نجد صورتها في كثير من المعابد الباقية من أيامه.

أما نقوش داخل هذا الحوش فنصوص دينية ولا فائدة في ذكرها هنا ويرى به أسماء رؤساء بلاد وهي عبارة عن الأقاليم التي كانت خاضعة لمصر مدة حكم هذا الملك باقي نقوش هذه الجهة فمستورة بمسجد سيدي أبي الحجاج وإذا كشف هذا المكان لابد وأن نجديه بعض أشياء تاريخية أو جغرافية وترى بجوار حلية الباب الذي شيده أمونوفيس الثالث ما بقى من التصاوير التي كانت تدل على العبادة وعلى حائط رميس صورة الأبراج والمسلتين والستة تماثيل ثم صورة سبعة عشر من أولاده وفي كل واحد منهم باقة أزهار كأنهم أتوا ليحضروا حفلة عامة وخلفهم فوج من الخدم والحشم ومعهم نيران ليقدموها قربانًا وبين قرونها علامات مختلفة .

الفصل السابع عشر

في فائدة الآثار والحرص على المنع من العبث بها

قد ذكرنا في الأبواب السالفة طرفًا من الأسباب التي بعثت على تدمير هذه الآثار وما آل إليه أمرها الآن على يد بعض الوطنيين وغيرهم ما فيه الكفاية «راجع المقدمة والباب السابع» ولنذكر لك بعد ذلك شطرًا من فائدة بقائها مما لم تره في غير هذا الكتاب فنقول تنحصر فائدة حفظ الآثار في أمرين جليلين أحدهما مادي والآخر أدبي.

أما المادي فهو الشهرة التي جعلت لمصر اسمًا كبيرًا في جميع المسكونة جلبت به سراة الناس ومياسيرهم من الآفاق حتى صارت كأنها كعبة تشد لزيارتها الرحال وتنفق لأجلها الأموال وتختلف إلى ساحتها الأغراب العجم والأعراب وتهوى إليها الأجانب من كل ناحية وجانب ويبذلون النفس والنفيس لرؤية طيبة ومنفيس فتروج التجارة بهذه الزيارة وتنصلح الأحوال بإنتعاش الآمال وتزيد الأشغال وتكثر الأعمال و يهش وجه الدهر إلى الفقير بعد ما كان عبوسًا قطريرًا فتصير أيامه مواسم بثغور بواسم وبيان ذلك أننا إذا فرضنا أن عدد الوافدين في كل سنة لا يزيد عن الستة آلاف نفس ما بين رجال ونساء وأنفق بها كل امرئ منهم مائة وخمسة وعشرين جنيهًا انكليزيًا لبلغ ذلك سبعمائة وخمسين ألف جنيه وإذا فرضنا أن الذي يدخل في جيب شركات وابورات النيل وأصحاب الفنادق والخانات «اللوكندات» والتياترات والملاهي وثمن بضائع أفرنكية وأشربة روحيه ومكيفات وغير ذلك هو مبلغ مائة وخمسين ألف جنيه نظير الربح الصافي بعد كل المصاريف لكان الباقي ستمائة ألف جنيه تدخل في جيب مصر خاصة منها عشرة آلاف إلى السكة الحديد ما بين مصر وإسكندرية وما بين إسكندرية والرمل وأربعة آلاف لمصلحة حفظ الآثار نظير رسم الفرجة على المتحف المصري والسياحة بالصعيد والباقي وهو خمسمائة وستة وثمانون ألف جنيه يدخل في جيب أهل مصر ما بين خدم ومترجمين بفنادق مصر والإسكندرية وخدم ومترجمين وملاحين بوابورات الشركات على النيل وعمال بورشها وخفراء وحامل الإشارات ومتعهدين بلوازم الزائرين بالصعيد وخفراء بالمحطات وملاحين بالزوارق «المعادي» وحمارين وسائقي العربات بالصعيد ومصر والإسكندرية وأجرت السفن المعروفة بالذهبيات وتلغرافات و بريد ومأكل ومشرب بالصعيد ومصاريف مستشفى خيرية للفقراء بقرية الأقصر على طرف

الخواجا كوك وثمن منسوجات و مصنوعات وطنية ومشرقية وتبرعات وهبات ومسامحات فضلًا عن الحركة العمومية ونمو الصادر والوارد وأرباح الجمرك وهذه الحسبة تقريبية وإلا فالحقيقية بمعزل عن ذلك بمراحل لأنها أقل ما يمكن ولما استفهمت من أحد شركات الوابورات علمت أن عدد الزائرين لا يقل في كل سنة عن الستة آلاف نفس وأن ما ينفقه كل واحد مدة إقامته بمصر يبلغ مائة وخمسين جنيهًا وعلمت أن بطرف هذه الشركة أربعين مترجمًا تختلف مرتباتهم ما بين ستة جنيهات إلى خمسة عشر جنيهًا شهريًا وبالإستفهام من حضرة مدير الآثار عن عدد السائحين في كل سنة قال إنه يبلغ لغاية السبعة آلاف نفس بفرض أن كل واحد ينفق مائة وعشرين جنيهًا وبالإستفهام من قبودان أحد الوابورات علمت أن مستخدميه خمسون نفسًا ما بين سواري وقبودان ورئيس وملاحين ومهندس وسواق وكومساري ومتعهد بالمأكولات وطباخين ووكيل بوسطه وفراشين ومترجمين وغير ذلك.

ومن البديهي أن سبب ذلك كله هو الإشتياق لرؤية تلك المباني القديمة التي إذا أتلفناها لم نر من هؤلاء الزائرين ديارًا ولا نافخ نار ولم ننتفع بدرهم ولا دينار فضلًا عن كساد البضائع والسلع الوطنية بدل رواجها مدة أربعة أشهر في كل سنة ولا يخفى أن رواج حال الحكومة مرتبط برواج حال الأمة وثروتها لأن الفلاح والتاجر والصانع إذا عجزوا عن دفع ما عليهم من الأموال كيف يكون حالها «راجع تاريخ مصر قبل حكم الدولة المحمدية العلوية بالجبرتي والخطط الجديدة» ولذا شبه أهل الصعيد موسم وقود الأجانب بمصر بموسم الحج الشريف عند عرب الحجاز أما ما تأخذه مصلحة حفظ الآثار من السياحين برسم الفرجة فتنفقه على إصلاح ما يلزم إصلاحه بالآثار فيحوّل هذا المبلغ إلى يد الوطني أيضًا لآن المقاولين والفعلة والعمال جميعهم وطنيون فكأن هذه النقود ما خرجت من يد الأجنبي إلا لتدخل في جيب الوطني إما مباشرة أو بواسطة فعلى ذلك لم يكن الحرص على بقاء الآثار قاصرًا على مجرد العبرة والتذكار أوضنا بما لم يوجد عند غيرنا بل صونا لأخبار الأولين ومنفعة للمصريين وتخليدًا لمجد الأوائل ولم أعن قحطان ووائل.

أما الأمر الأدبي فهو أن الآثار فخر مصر وحليتها ولا يجوز بأي وجه من الوجوه تجريدها من حليتها فضلًا عن كونها كطامور إشتمل على علوم ومعارف وفكاهات ولطائف وتواريخ الأولين وأسماء ملوك وسلاطين ودول تغلبت وأمم تقلبت وإنشاء ومحاضرات وقصص وحكايات وأسماء مدن وبلاد ورؤساء وقوّاد وأسفار حربية وأساطيل بحرية وقوانين وأحكام وحرب وسلام

ودفاع وهجوم وحاكم ومحكوم وغزوات بعيدة ونصرات عديدة وإختراعات مفيدة وعوائد وشيم ونصائح وحكم وجميع ذلك تراه على صميم الأحجار كأنه الأسفار فهي المرشد الأمين لعلوم الأولين وترجمان الأزمان التي توارت بالنسيان وها هي علماء الإفرنج تراوحنا وتغادينا ومؤلفاتهم تنبهنا وتنادينا وتقول قد إمتلأ الوطاب وعاد البلح إلى الأرطاب وانكشف المعمي وبان الاسم والمسمى وتقيدت الأوابد وإنجلت حقيقة ما بالمعابد وما كفى الإفرنج تقل أخبارها حتى نقلوا أحجارها من ذلك رواق صغير يعرف باسم إيوان الأسلاف كان صنعه الملك طوطوميس الثالث «من ملوك العائلة الثامنة عشرة» في معبد الكرنك بالصعيد ونقل إلى بلاد فرنسا وهو الآن في كتخانة باريس مرسوم عليه صورة هذا الملك واقفًا أمام ستين ملكًا من أسلافه يقدم لهم خالص عبوديته غير أنهم ليسوا على حسب تربيتهم في الحكم وكأنه اصطفاهم من بين باقي الملوك المصرية لحاجة لا نعلمها . ومنها رواق آخر نقل من معبد العرابة المدفونة إلى بلاد الإنكليز وموجود الآن بدار تحفها وهو للملك رمسيس الثاني «من العائلة التاسعة عشرة» ومطابق في ترتيب أسماء الملوك التي به للرواق الآتي وهو رواق بالمعبد نفسه من عمل الملك سيتي أبي رمسيس الأكبر وبه أسماء ستة وسبعين ملكًا مرتبين بحسب الحكم وهو قائم بعبدهم ومنها لوحة بسقارة لأحد أعيان القدماء بها ثمانية وخمسون ملكًا وكانوا يزعمون أن كل من خدم الوطن بصفاء نية وحسن طوية تذهب روحه بعد موته إلى أعلى عليين وتكون مع أرواح الملوك والسلاطين الذين أسعدوا الرعية وقاموا بفرائض الوطنية وهذا هو الباعث على كتابة أسماء الملوك وجعلها في قبره معه.

وبمقارنة أسماء ملوك معبد العرابة بجدول مانيطون المصري إتضح صحة الجميع ولو أن بالجدول بعض تحريف ظاهر وجميع ما ذكر كان مجهولًا قبل إكتشاف هذا القلم حتى كان المعلوم من تاريخ مصر مشكوكًا في صحته ولولا بقاء تلك الآثار لما علم شيء من الأخبار ولو كانت مجردة عن الفائدة كما زعم بعضنا لما كانت الدول الأجنبية تزاحمنا على إقتنائها وتأخذ أروقة برمتها تحلي بها دار تحفها وكتبخاناتها وتنقل مسلتي الإسكندرية إلى ديارها وتقلع منطقة فلك البروج من معبد دندره وتتحايل بكل ما يمكنها على إرسال كل ما تجده إلى بلادها ولا يخفى ما في ذلك من تكبد المشاق المادية والأدبية فضلًا عن كثرة الصرف وبذل النقود وها هي رعية كل دولة تترقب سنوح كل فرصة لذلك حتى زينوا ديارهم وبلادهم بما كان عندنا بعد ما جردونا منه ولو كنا جاريناهم في ميادين الفضل لقلنا نحن أحق بها وأهلها لكن غفلنا وسهروا وأهملنا فأخذوا

ورضينا باليسير وفرطنا في كثير وهاك حادثة تاريخية صغيرة وجدت مكتوبة على بعض الآثار قصها الملك «أمنما» الأول على ابنه الملك «أوزرتسن الأول» وهما من العائلة الثانية عشرة الطيبية أتينا بها لنعلم أن الآثار في سجل الأخبار وإليك صورتها «لما أتى الظلام تعشيت وسرحت في ميادين اللهو هنيهة ثم رقدت على فراش وطيء فوق سريري وغرقت في بحر الراحة في قصري وكادت تأخذني سنة من النوم وإذا بهم تجمعوا زمرًا وأحدقوا بالقصر وجاهروا بالعصيان وشق عصا الطاعة وكان اعترى جسمي فتور من النوم حتى صرت كثعبان الغيط فقمت وتأهبت وحملت السلاح في جنح الليل عالمًا أنه لا محيص عن القتال والمكافحة ولم يك معي من أشدد به أزري غير أعضائي فحملت عليهم حملة صادقة أوقعت بها الرعب في قلوبهم وكنت كلما أحمل على فئة منهم ترتد على أعقابها جبنا ومازلت بهم إلى أن فترت قوتهم وخار عزمهم وانكسرت قلوبهم فلم يجرؤا على قتالي حتى في الظلام فتشتتوا ولم يحصل لي أدنى حادث مفزع إلى أن قال ولو أن الجراد أكل الزرع وأهلك الحرث والنسل ولو أنهم تحالفوا على إلقاء الدسائس في قصري ولو أن النيل ماروي الأرض حتى جفت الصهاريج ونضب ماؤها ولو أنهم علموا بطفوليتك وصغر سنك وعدم إمكانك أن تمد يد المساعدة إليّ لم آل جهدًا في عمل ما يلزم منذ ما عرفت نفسي» فيؤخذ من هذه العبارة أربع فوائد إحداها أنه كان له منازع في الملك وربما كان استيلاؤه بعد إراقة الدماء في الحروب الطويلة ثانيتها كثرة المحن والمصائب التي توالت في عمره ثالثتها نشاطه في الأعمال وقوته في الحروب وهيبته في عين رعيته رابعتها نصيحته لولده ولكل ملك أتى بعده كأنه يقول خذ بالحزم وكن على بصيرة من الوقوع في مثل ما وقعت فيه وادأب في العمل وتبصر بالحكمة وقال له في موضع آخر ينصحه «اسمع يا بني ما ألقيه عليك وهو أنك صرت ملكًا على قسمي مصر وتحكم على الثلاثة أقاليم فأسلك في حكمك أحسن ما سلكه سلفك من الملوك وفق علائق المودّة بينك وبين رعيتك وإلا يتخلون عنك عند الخوف منك ولا تستوحش منهم ولا تنفرد عنهم ولا تقتصر على مواخاة الأغنياء والأشراف ولا تقبل في مجلسك كل من أتاك ممن لا تتحقق من خالص محبته وصافي مودّته» وهي نصيحة جليلة تكتب بماء العيون وفوائدها جمة لأنها حسنة من حسنات الآثار المشحونة بأمثالها من الآداب والعلوم وإليك مقالة أخرى أدبية لطيفة وجدت مكتوبة على الأحجار الآثرية وهي من إنشاء أحد الكتاب من العائلة الثانية عشرة أيضًا يفهمها ابنه ويستفزه لإكتساب المعارف وبإستقرائها تعلم حالة الضنك الزائد والإستبداد اللذين كانا بالديار المصرية في تلك الحقبة الدهرية وهناك نصها «قد نظرت يا

بني إلى الحدّاد وهو يزاول مهنته وواقف على فوهة التنور حتى صارت أصابع يديه مثل جلد التمساح وله رائحة كريهة أشد من رائحة بيض السمك وهل تظن يا بني أن باقي صانعي المعادن في راحة أحسن من الفلاح الذي نبت الحطب في غيطه ومتى جنّ عليه الليل وحقت له الراحة عاد للشغل ثانيًا بعد ما كلّ ساعداه من عمل يومه فيضطر أن يشتغل بالليل في ضوء المصباح أما النحات فرأيته وهو يشتغل في كل نوع من الأحجار الصلدة ومتى فرغ من شغل يومه وكلت يداه يستريح برهة وصنعته تقضي عليه أن يعود ثانيًا للشغل فهو يعمل من شروق الشمس لغروبها مع أنه قاعد القرفصاء إلى أن يختل تركيب ركبتيه وتتلف فقرات ظهره أما الحلاق فيشتغل أيضًا إلى المساء ومتى وجد عنده فرصة ليأكل فيها اتكأ على إحدى ذراعيه ليستريح ويطوف على المنازل ليبحث على شغل له فهو يتلف ذراعيه ليملأ بطنه كالنحل يأكل مما إدّخره أما الملاح فإنه ينزل بسفينته إلى إقليم «ناتو» ليكتسب أجرته فتتراكم عليه الأشغال و بمجرد ما يعود إلى حديقته أو يرجع إلى داره يصبح يوالى السفر ثانيًا أما البناء فأقول لك عليه إنه عرضة لداء النقرس ولشدة الرياح فإذا بنى وهو فوق الحائط تجشم المشاق والتعب حتى يلتصق بكرانيشها فيصير كالبشنين ويكل ساعداه من العمل ويختل هندام ثيابه ويأكل نفسه بنفسه كأن أصابعه خبزة ولا يغتسل إلا مرة واحدة في اليوم[1] ويتواضع للناس ليقبلوه في أشغالهم كأنه حجر الضامة ينتقل من خانة إلى أخرى وينتقل من بناء عشرة أذرع إلى مثلها ومتى أنهى عمله وتحصل على قوته يعود إلى داره ويضرب أولاده وإن شئت قلت لك على الحائك فإن حالته بالمنازل أسوأ من حالة النساء لأن ركبتيه تكونان موازيتين لصدره ولا يستنشق الهواء النقي فإذا قصر يومًا عن حياكة ما فرض عليه من الأقمشة ربطوه حتى يصير كالبشنين الذي ينبت في المستنقعات ولا يمكنه الخروج لرؤية النور مالم يرش الخفراء الموكلين بحفظه ويواسيهم أما صانع الأسلحة فالويل له لأنه إذا سافر إلى البلاد الأجنبية يدفع مغارم كثيرة لأجرة الحمير ولمبيتهم ومتى صار في الطريق فبمجرد ما يصل إلى حديقته أو يرجع إلى داره مساء يصبح على جناح السفر ثانيًا أما الساعي فواحزنا له لأنه متى عزم على السفر يقدم ماله بين أولاده خشية أن يغتاله وحش أو يقتله أحد أهالي آسيا وهل تعلم ماذا يجري عليه حينما يكون بمصر فإنه بمجرد ما يصل إلى حديقته أو يرجع إلى داره يصبح راكبًا متن الطريق فإذا سافر ركبته الهموم وإحتاط به الفقر أما الدباغ فواها

[1] هذه العبارة تفيد شدة الحرص على النظافة حتى رثى لحال من يغتسل مرة واحدة في كل يوم.

له لأنك ترى أصبعه كأنها السمك العفن وعينيه مكسورتين من التعب ويديه في حركة مستمرة وتمضي عليه الأوقات وهو يمزق في الجلد وثيابه رثة شنيعة المنظر أما صانع الأحذية فهو أسوأ حالًا من الجميع لأنه دائمًا يتكفف الصدقات لفقره وصحته كسمكة مفقوعة و يقرض الجلد بأسنانه وإني رأيت الشدائد وقاسيت الأهوال وإمتطيت غارب التعب وشربت الحلو والمر وانتقدت الأمور نقد بصير فلم أر أجمل من التحلي بالمعارف وإني ناصح لك يا بني أن تجعلها نصب عينيك فإغطس فيها كما يغوص الغائص في الماء فإذا فعلت ذلك رأيت صحة قولي وما إخترتها لك إلا لأنها روح كل عالم «فانت بالروح لا بالجسم إنسان» وما رغبتك فيها إلا لأنها أفضل جميع ما تراه فمن تحلى بها كبر في عين الناس واختاروه لقضاء مصالحهم وإعلم أن المعارف أمان من الفقر ومن عرف شيئًا منها ساد على غيره وليس الأمر كذلك عند أرباب الصنائع فإن كل رفيق من أهلها يبغض رفيقه وما رأيت كاتبًا متجملًا بها قالوا له أو ألزموه أن يشتغل لأجل فلان وكل يوم يمضي عليك وأنت بالمدرسة يخلد لك ذكرًا جميلًا ما بقيت الجبال فإنهض وبادر لتحصيل ما اخترته لك فإنه يبعد الأعداء عنك».

وقد أكثرنا من سرد النصوص الأثرية ليعرف القارئ ما لها من الفوائد ويقدرها حق قدرها ولا ينسبنا إلى الغلوّ والمبالغة أو الإطراء في مدحها.

الفصل الثامن عشر

في الرحلة العلمية بالأقصر

«صورة معبد الأقصر مأخوذ من كتاب المعلم داريسي»

أما رحبة المعبد المرموز لها بحرف «أ» فهي من عمل رمسيس الأكبر وقد سبق الكلام عليه بما فيه الكفاية.

حوش «ب» هذا الحوش بعرف باسم حوش الأعمدة أو الأساطين وهو من عمل أمنحتب الثالث كما تقدم وقد بنى به في الجهة الشمالية برجين يبلغ عرضهما ٢٦ مترًا ليكونا وجهة المعبد وذلك قبل أن يبني رمسيس الأكبر رحبة «أ» وفي أيام الدولة المقدونية بنى «فلبش أرّيدا أخو الإسكندر الأكبر وابن فلبش من السفاح» دعامتين بين هذين البرجين وتماثيل رمسيس الأكبر ليصغر بهما الباب الموصل من الرحبة إليه ولم يبق منهما الآن إلا الدعامة الشرقية التي عليها اسمه.

وبقياس الجدار الشرقي والغربي من هذا الحوش ظهر عدم تساويهما فإن طول الأول يبلغ

٥١.٢٨ مترًا وطول الثاني ٥٢.١٨ مترًا وهذا الفرق أتى من الإنحراف الذي جعله أمنحتب في أحد برجيه لتلطيف الميل الذي ظهر في محور المعبد بعدم إنطباقه على محور الطريق الواصل من هذا المكان الي معبد الكرنك وفي أيام الدولة السفلى أعني أيام دخول الدين المسيحي بمصر فتح النصارى في الحائط الشرقي منه ثلمة أي فتحة فأتلفت كثيرًا من مناظره اللطيفة وقد أسلفنا أن الملك «هورمحب» أتم ما كان ناقصًا من زينة هذا المعبد فلذا ترى اسمه مكررًا على جدران هذا الحوش وتراه على الحائط الشمالي الشرقي كأنه بالمعبد خلف باب مصنوع من قضبان الحديد يتقرب بالبخور إلى المعبود أمون والمعبودة موت وتراه على الحائط الشرقي يدخن بالبخور ويريق الأشربة أمام سفينة أمون أما الثلاث سفن التي هي أسفل هذه الصور فواحدة منها للملك نفسه وثانيها للمعبودة موت وثالثها للمعبود خنسو ثم ترى هناك قربًا موضوعًا فوق الموائد وعلى الأطباق.

وظن بعضهم أن هذه الهيئة كانت مقدمة للمهرجان أو الزفاف الذي كان يعمل بمدينة طيبة سنويًا للمعبود أمون ويخرج من معبد الكرنك فيسير في النيل حتى يصل معبد الأقصر ويدخل فيه ثم يعود من حيث أتى.

وكان المهرجان يتركب من أربع حجرات أو صناديق يحملها ثمانون كاهنًا على أكتافهم وتسير طائفة أمامهم وطائفة خلفهم ولكل واحد مذبة «منشة» بيد طويلة ثم أربعة منهم تسير بجوار تلك الحجرات وهم متشحون بجلد النمر وفي مقدمة الجميع كاهن بيده المجمرة «المبخرة» أما الملك فيتبع سفينة المعبود أمون ويسير الموكب أو الزفاف على هذا النسق يتقدمه النفير والطبل وجميع ذلك منقوش على الأبراج ومتى وصل الزفاف لنهر النيل وضعوا الأربع حجرات في سفن كبار تجري بالمجاذيف أو تسحب بالأحبال والأقلاس أو تجنب خلف سفن أخرى تسير بالأشرعة أما الموكب فيمشي على البر تابعًا للسفن وهو مركب من كاهن يترنم بالمديح والثناء على المعبود أمون وعلى الملك ويتلوه فرقة من العساكر المصرية تحمل درقًا وحرابًا و بلطًا ثم عربتا الملك تجرهما الخيل ثم رجال تجر السفينة الحاملة لحجرة المعبود في البحر وبعضهم يلتفت ويصيح بالتمجيد والتقديس أو يجثو على ركبتيه ويعلن بالثناء والحمد ثم ثلاثة من العبيد ترقص وهي تتلوى بعنف أما الرابع فيضرب على الطنبور ثم يتلوهم عساكر على رأس كل واحد منهم ريشتان و بيدهم قضبان من الخشب يتقارعون بها بدل الساجات ثم ثمانية من الكاهنات مع كل واحدة منهن عقد و يضربن بالكوسات ثم أربعة من الكهنة ثم رجال تجر سفينة المعبودة موت في النيل وضباط تحمل الرايات العسكرية وجماعة تضرب بالساجات أو الكوسات ورجل ضرب على طنبور ذي يد طويلة وآخرون يصفقون.

ومتى وصل الزفاف أو الموكب قبالة معبد الأقصر أخرجت القسس تلك الحجرات المقدسة إلى البر وحملتها على أكتافها فيسير الموكب يتقدمه الطبل والنفير وتضرب الكاهنات بالكوسات يتلوهن نساء راقصات وهن وقوف يملن على ظهرهن حتى تصل أيديهن إلى الأرض ثم تدخل الحجرات المقدسة في المعبد وتقدم لها القرابين وجميع ذلك مرسوم على الحائط جهة الجنوب الغربي وعلى الباب ترى جماعة من كبار رجال الحكومة وقوفًا بإنحناء ينتظرون خروج الملك.

وبعدما تتم رسوم الإحتفال داخل المعبد وتقدم القرابين تحمل الكهنة الحجرات المقدسة ثانيًا على أكتافها فترى صورة سفينة أمون مرسومة أعلى وترى أسفلها سفائن كل من المعبودة موت

والملك وصورة ثيران تجعل قربانًا حالة سير الزفاف فتنزل الحجرات أو الصناديق في السفن ثانيًا وتجري على النيل مثل ما أتت ويسير الزفاف في البر على النسق الآتي أولًا ضباط من العساكر تحمل الرايات وتمشي الهرولة يتبعها فرقة من الجند ويتلوها طائفة من العبيد تنط وتصرخ ثم فرقة من الجند بالبيارق أو الأعلام ثم عربتا الملك تجرهما الخيل ثم فرقة من العساكر المشاة ثم كاهنات يضربن بالكوسات يتلوهن أربعة من الكهنة ثم فرقة من العساكر ثم جماعة تضرب بالطنبور وجماعة تدق بالساجات ثم المغنون أو المرتلون يصفقون بأيديهم على الإيقاع والنغمة ثم قسيس يبخر الطريق ثم تخرج الحجرات من النيل و يتوجه الزفاف من حيث أتى إلى معبد الكرنك بالهيئة المتقدمة وصورة ذلك مرسوم على الباب.

وعليه صورة ثمانية صواري بها بيارق وهناك ترى صورة ثيران بين قرونها أكاليل من الريش والزهر ومتى دخلت الحجرات ووضعت في أماكنها ذبحوا القرابين ووضعوها بالقرب منها وقد دلت النصوص المكتوبة هناك على أن زفاف أمون أو المهرجان الأكبر يكون في رأس كل سنة جديدة وإلى هنا انتهى وصف الزفاف بالإختصار.

فكان يجتمع في هذا المهرجان خلق لا يحصيهم إلا الله يأتون من كل فج عميق ومكان سحيق وتهرع له الناس من كل مكان حتى تصير هذه العاصمة خاصة بهم كأنهم في يوم الحشر وناهيك بعيد المعبود الأكبر يقام في أعظم العواصم ولا يخفى ما كان يترتب على ذلك من الحركة والمكاسب ورواج سوق التجارة أو ليس كان هذا عبارة عن المعرض المستعمل الآن ببلاد الإفرنج لرواج البضائع والسلع والحركة التجارية.

«**استطراد لا بأس به**»

«كان للقبط في دولة الإسلام بمصر أعياد كثيرة منها ما ذكره المقريزي في الجزء الأول بصحيفة ٦٨ ونصه ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد وكان من أنزه فرح مصر وهو اليوم الثامن من بشنس أحد شهور القبط و يزعمون أن النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يلقى النصارى فيه تابوتًا من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى ويكون ذلك اليوم عيدًا ترحل إليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على إختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغيّ ولا مخنث ولا ماجر وخليع ولا فاتك ولا فاسق إلا ويخرج

لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم وتصرف أموال لا تنحصر ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصي والفسوق وتثور فتن وتقتل أناس ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهبًا و باع نصراني في يوم واحد اثني عشر ألف درهم فضة من الخمر وكان إجتماع الناس لعيد الشهيد دائمًا بناحية شبرى من ضواحي القاهرة وكان اعتماد فلاحي شبرى دائمًا في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في عيد الشهيد ولم يزل الحال على ما ذكر من الإجتماع كذلك إلى أن كانت سنة اثنتين وسبعمائة والسلطان يومئذ بديار مصر الملك الناصر مُحَمَّد بن قلاوون والقائم بتدبير الدولة الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وهو يومئذ

إستادار السلطان والأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة بديار مصر فقام الأمير بيبرس في إبطال ذلك قيامًا عظيمًا وكان إليه أمور ديار مصر هو والأمير سلار والناصر تحت حجرهما لا يقدر على شبع بطنه إلا من تحت أيديهما فتقدم أمر الأمير بيبرس أن لا يرمي إصبع في النيل ولا يعمل له عيد وندب الحجاب ووالى القاهرة لمنع الناس من الإجتماع بشبرى على عادتهم وخرج البريد إلى سائر أعمال مصر ومعهم الكتب إلى الولاة بإجهار النداء وإعلانه في الأقاليم بأن لا يخرج أحد من النصارى ولا يحضر لعمل عيد الشهيد فشق ذلك على أقباط مصر كلهم ومشى بعضهم إلى بعض وكان منهم رجل يعرف بالتاج بن سعيد الدولة يعاني الكآبة وهو يومئذ في خدمة الأمير بيبرس وقد إحتوى على عقله إلى آخر ما قال فراجعه إن شئت».

الفصل التاسع عشر

في العلوم المصرية والقوانين المدنية

لم يختلف اثنان من مؤرخي اليونان في أن مصر كانت مهدًا للقوانين الإدارية والأحكام المدنية والترتيبات العسكرية ولها المآثر والتأثير الظاهر بيد أنهم لم يعينوا لنا أيام تلك الأحكام ولم يفصحوا عن أوقات هذه الترتيبات وكأنهم إعتبروها أذيالًا فذكروها إجمالًا منها ما ذكره ديودور الصقلي من أنهم كانوا يقطعون يدي ضارب النقود الزيوف والنبهرجة غير أن التواريخ صرحت بأن النقود لم تدخل في مصر إلا في زمن دولة فارس «العائلة السابعة والعشرين» ويؤيد ذلك ما رواه هيرودوت من أن «دارا بن هستاسب» هو أول من ضرب نقود الذهب وبالغ في تصفيتها وأنه حكم بالقتل على «أرياندیس» عامله مصر لما علم أنه ضرب نقودًا من الفضة بدون إذنه اهـ وكانت النقود المتداولة بمصر قبله إصطلاحية على شكل حلقات وضفادع وثيران وعجول صغيرة متخذة من الذهب والفضة وباقي المعادن مرقوم عليها عيارها وقيمتها مع وزنها وكانوا يقوّمون بها البضائع والسلع ويقولون هذا يعادل حلقتين من الذهب والفضة وهذا بثلاثة ثيران أو ضفادع مثلًا أما الجزية التي كانت تقبضها مصر من الأمم الخاضعة لها فكانت حلقات من الذهب والفضة تؤخذ بالوزن «انظر ما هو منقوش بالدير البحري القريب من القرنه».

وكانوا يحكمون بالقتل في جملة مواد إحداها على الحالف بالباطل لدى المحاكم لأنه ارتكب إثمين عظيمين أحدهما في جانب الخالق والثاني في جانب المخلوق ثانيها على قاتل النفس عمدًا ثالثها على من رأى إنسانًا في الهلاك ولم يغثه مع قدرته على ذلك لأنه والحالة هذه يكون كالقاتل عمدًا فإذا لم يمكنه إغاثته تحتم عليه إخبار الحكومة على الفور والمرافعة مع الجاني عن المقتول لأنه وطني مثله ويجب عليه الأخذ بحقوقه.

ويحكم بالجلد مع المنع من الأكل ثلاثة أيام على كل من كتم عن الحكومة جناية وقعت أمامه ويصرح لكل إنسان أن يترافع معه ويحكم على المدعي بالباطل على غيره بنفس ما كان يحكم به على المدعي عليه إذا ثبتت جنايته وكانوا يقولون إن عقاب الجاني والمدافعة عن المظلوم هما أكبر ضامن لتوطيد دعائم الأمن والسعادة العامة أقول وقد أتى القرآن مطابقًا لذلك قال

تعالى «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب» وكانت الحدود تقام على الأموات كما تقام على الأحياء فيمنع المجرم من الدفن مع الإحترام إذا ثبت عليه بعد موته أنه إقترف ما كان يوجب عقابه في الحياة الدنيا. وكانوا يحكمون بالفضيحة على الجندي الفار من العدو يوم الزحف وعلى من يرتكب مخالفة قانونية عمدًا مالم يأت بأعمال سديدة تمحو عنه وصمة تلك المعرّة.

ويحكم بالجب «أي قطع المذاكير » على من يأتي النساء غصبًا و بقطع أنف الزانية وجلد الزاني وسل لسان من يطلع العدوّ على عورات الوطن وقطع يمين مطفف الكيل والميزان ومقلد خاتم السلطان أو الأهالي ومزور الخطوط ومغير صورة موضوع الدعاوي الرسمية ويحكم بالعذاب ثم بالحرق حيًا على كل من يقتل أحد أبويه عمدًا أما من يقتل ابنه أو بنته فيحكم عليه أن يعانق الجثة ثلاثة أيام بلياليها ولا فرق بين الرجال والنساء في العقوبة أما الحبلى فكانوا يؤخرون تنفيذ الحكم عليها إلى ما بعد الوضع لكي لا يشترك معها الطفل في القصاص وهو بريء.

ويقال إن فرعون بوخوريس «في العائلة الرابعة والعشرين» سنّ قانونًا عادلًا للتجارة والمعاملة منه أن الدين يصير لاغيًا إذا حلف المديون قانونيًا بالنفي وعجز الدائن عن إثباته ومنه أن الفائدة لا تتجاوز رأس المال مهما كان نوعها ومنه أن مال المديون ضامن لدينه لا شخصه.

وقال هيرودوت أن أحد الفراعنة ولم يذكر إسمه ولا زمنه سنّ قانونًا للمعاملة منه أن المديون له أن يرهن جثة أبيه المحنطة تحت يد المداين بمعنى أنه يضع يده على قبر عائلة المديون لكن لا يسوغ له أن ينقل الجثة المرهونة من مكانها فإذا مات المديون قبل وفاء دينه فللمدين أن يحرمه من الدفن في قبر عائلته ويحرم كل أولاده من ذلك ما دام الدين قائمًا بذمتهم بعد أبيهم وقال المؤرخ المذكور إن الملك سباكون الحبشي «من العائلة الخامسة والعشرين السودانية» أبطل من مصر العقوبة بالقتل وإستبدلها بالأشغال الشاقة في المنافع العامة وأن الملك أماسيس «من العائلة السادسة والعشرين» حتم على كل مصري أن يثبت إسمه بالكتابة في آخر كل سنة بمحكمة الجهة القاطن بها ويبين صنعته وأسباب معيشته ومن لم يفعل ذلك أو ظهر أنه يأكل بالحرام والسحت حكم عليه بالقتل.

وذكر ديودور الصقلي كثيرًا من هذه الأحكام ولكن من الأسف أنه لم يبين أوقاتها ومن المعلوم أن البطالمة هم أول من أباح بمصر زواج الأخت وطلاقها أخذوا ذلك من العجم والمجوس الذين كانوا بمصر قبلهم فصار ذلك قانونًا في دولة البطالمة وربما تزوج الرجل منهم ابنته المرزوقة

له من أخته فيكون لها أبًا وزوجًا وخالًا وزوج أم وتكون أخته أمّا وضرة وعمة وإمرأة أب وتكون هي زوجة وضرة وبنت أخ وبنت أخت وغير ذلك.

أما قضاة المحاكم في زمن الفراعنة فكانوا من القسس المتخرجين من مدارس طيبة ومنفيس والمطرية وكانت تتشكل المحكمة الكبرى بمدينة طيبة من ثلاثين قاضيًا من كبار الكهنة عشرة من كل مدينة من هؤلاء المدن أما المحاكم الثانوية فكان يختلف عدد قضاتها كما تختلف درجاتهم تبعًا لأهمية مراكزهم وإذا تساوت درجات القضاة وأهليتهم جعلوا أكبرهم سنًا رئيسًا لهم وكان من عادتهم أن يجعلوا في عنقه سلسلة من الذهب بها صورة المعبودة ساتا المتخذة من الأحجار الكريمة وعلى رأسها نحو ريشة كانت عندهم رمزًا على الحق ولا يترشح لهذا المنصب إلا من كان له دراية بكثير من العلوم الدينية والدنيوية منها إتقان قواعد القلم البربائي والقسموغرافيا والجغرافيا ورصد حركات الأجرام السماوية ورسم خرطة مصر والنيل وممارسة علم الرياضة وأخذ مساحة الأراضي والطب وغير ذلك فلذا كانت هذه العلوم نصب عين الكهنة وكانوا يلبسون الثياب البيضاء النظيفة المتخذة من الكتان الأبيض اليقق وكانت مرتباتهم من خزينة الملك خاصة ومتى تعينوا لهذه الوظيفة حلفوا بين يديه أنهم لا يطيعون له أمرًا ينافي طريق العدل فلذا كبروا في عين المصريين وإحترموا مجالسهم.

أما المرافعة بين الأخصام فكانت بالكتابة فقط وبعدما تعرض عليهم ويحيطون علمًا بما فيها يتداولون مع بعضهم ويراجعون القوانين التي أمامهم ثم يوقعون عليها بما يتراآى لهم من الحكم ويقبض الرئيس على صورة الحق المعلقة في عنقه ويصوبها إلى صاحب الحق دون أن يتكلم ولم يعهد أنه كان في زمانهم محامون ولا مرافعة متناهية إلا فيما لابد منه لأنهم كانوا يخافون أن فصاحة اللسان وشقائق الكلام تحجبا الحق أو تخدع أرباب الحكم ولاشك أن أرباب الأقلام والمشرعين من الكتاب كانت تقوم بتحرير الدعاوي بين الناس وتقدّمها لهم في المحاكم.

ومن المعلوم أن هذا الدستور دخله بعض تعديلات أيام دولة البطالمة تلائم حالة الوقت منها أن كل عقد أو شريط لا يسجل بالمحاكم العامة يصير لاغيًا كما أن كل تعهد خال من الأمانة يصير كذلك وكل عقد ثبت تزويره يمزق فورًا وكل شرط إنعقد بين متعاقدين مختلفين في الجنسية بأن كان بين مصري ويوناني يكتب على نسختين إحداهما باللغة اليونانية والأخرى باللغة المصرية فإذا إختلفت الترجمة فالقول بما في النسخة المصرية ويلغي مفعول الشرط إذا كان مكتوبًا

باليونانية فقط لا بالعكس لأنها لغة الأمة كما أن المواعيد المحددة كانت معتبرة قانونًا ولا يسقط الحق في الملك إلا بمضي ثلاث سنين على الأكثر وكان إثبات المواريث مرعيًا شرعًا وكل ميراث لم يسجل رسميًا يعاقب الوارث له بالغرامة.

وهاك ملخص دعوى نظرت بالمحكمة الكبرى بمدينة طيبة في شهر دسمبر سنة ١١٧ قبل الميلاد وكانت بين مصري ويوناني مدة البطالمة وجدت مكتوبة باللغة اليونانية على شقة من البردي وهي الآن بمتحف تورينو «بإيطاليا» وما لها.

تقدمت هذه الدعوى إلى محكمة طيبة عاصمة المملكة المشمولة برياسة «هيركليد» حكمدار الخفر السلطاني وحاكم قسم الضواحي ورئيس جباة الأموال بالقسم المذكور ومعه كل من «پوليمون هركليد» الجمباز و «أپولينوس هرموجين» صديق الملك «بمعيته» و «پانسكرات» ضابط من الدرجة الثانية و «پانكوس» من أهالي مصر إلخ الجميع قضاة بالمحكمة المذكورة.

الموضوع

إنه في يوم ٢٢ من شهر أتير «هاتور» سنة ٣٤ من حكم بطليموس أورجيطة «الرحيم» طلب «هرمياس» بن بطليموس قومندان نقطة امبو الحربية خصمه المدعو «هوروس» بن «أرسيازي» المصري ومعه فلان وفلان إلخ الجميع صنعتهم مباشرة تحنيط الأموات للحضور أمام هذه المحكمة لأن المذكور اغتصب منزله الكائن بمدينة طيبة المحدود من الشمال إلخ وبعدما سكنه في غيبته وأخذ يباشر صنعته به أبى عن الخروج منه وأن هرمياس المدعي طلب المدعي عليه وهو هوروس جملة مرات للحضور أمام المحاكم الأخرى لأجل حصوله على حقه ولم يفد ذلك شيئًا وأن المدعي عليه كان يستعمل المراوغة والحيل كما أن المدعي كان مجبورًا على عدم مباشرة الدعوى لإقامته بمحل وظيفته إلى أن نظرت أخيرًا بهذه المحكمة للحكم فيها نهائيًا أما وجه التمليك للمنزل فهو «مذكور في عمودين ونصف من الورقة المذكورة وذكر بعد ذلك أقوال المحامين عن الخصمين وهما «فيلوكليس» النائب عن المدعي و «دينون» النائب عن المدعي عليه» وملخص ذلك أن كل واحد منهما.

كان يبرهن بالأوراق والحجج والعقود والتواريخ المثبتة لصحة تمليكه المنزل متمسكًا بنصوص بنود القانون العامي والمدني وأخذ «فيلوكليس» يزدري بجمعية المحنطين للأموات مستظهرًا بالقوانين والأوامر السلطانية الصريحة المانعة لإباحة مباشرة هذه الصنعة بقرب المعابد

أما «دينون» فكان يدافع عن هذه الجمعية ويذكر حالتها الطبيعية وشدة لزومها بين الناس وإنها بمكان عظيم في الهيئة العامة وذكر نصوصًا قانونية تفند أقوال خصمه وشد النكير على «هرمياس» اليوناني لعدم مراعاته القواعد المقدسة المرعية عند جميع المحاكم على إختلاف درجاتها وكان يذكر في خلال ذلك أن موكله يمتلك المنزل من عدة أعوام مضت وأخذ يسردها ثم عطف في أثناء المرافعة على بعض مواضيع أثنى فيها على حسن إدارة الهيئة العامة وعلى كثير من القضاة وما لهم من شرف الوظيفة وعلى الترتيبات النظامية التي بالقطر المصري وأحوالًا أخرى لا تخلو من الفائدة التاريخية ثم صدر الحكم في العمود التاسع من الورقة المذكورة برفض دعوى المدعي اليوناني وأحقية هوروس المصري بالمنزل نظير وضع اليد ومن تأمل في كيفية إقامة الدعاوي بالمحاكم أيام دولة البطالمة علم أنها لا تكاد تختلف عما هو جار الآن بيننا.

أما علم الطب فكان لهم فيه اليد الطولى مع أنهم كانوا محافظين على الأصول الصحية منها ما ذكره هيرودوت من أنه لاحظ أن المصريين أحسن بكثير من صحة باقي الناس متعللًا بأنهم كانوا يستعملون المقيئ والحقن في كل شهر ثلاثة أيام متوالية لأنهم كانوا يقولون إن الأكل والشرب سببان لكل مرض وكانت الأطبة عندهم منقسمة إلى طوائف لكل طائفة فرع من الطب لا تشتغل بغيره كالرمد والجراحة والأمراض الباطنة وأمراض الرأس والجلد وهكذا فلذا برعوا فيها وفاقوا غيرهم في سائر البلاد.

وقال العلامة مسپرو «يظهر أن الطب النظري لم يبلغ عند المصريين درجة سامية لأنهم كانوا يخافون ديانة من تشريح الأموات لإعتقادهم أنهم يحيوا ثانيًا بعد موتهم فلذا ما كان يمكنهم الكشف على أحشائهم حتى عند التحنيط لأن المحنطين نفسهم كانوا مبغوضين لدى العامة مع أن أشغالهم كانت قانونية ولشدة كراهتهم فيهم كانوا يرجمونهم بالحجار عندما يرونهم يباشرون صنعتهم بشق بطن الميت وإخراج أحشائه وكانت الأطبة لا تخرج في معالجتها عن الكتب المؤلفة لهم فيه ومن خرج عنها عرض نفسه للخطر وقد وجد الآن كثير من المؤلفات الطبية لكنها عسرة الفهم جدًا وكثير من أسماء عقاقيرها مجهول لعدم معرفة حقيقة مسمياتها و كيفية تركيبها وأسماء الأمراض التي تستعمل فيها وغاية ما علم منها بعض نظريات غير تامة الفائدة وهاك تشخيصًا لإلتهاب لم نقف على حقيقته «يشعر المصاب بإلتهاب كذا بثقل في البطن ومرض في عنق القلب وإلتهاب في القلب وسرعة في النبض وثقل في ثيابه مع أن كثرة الملابس لا تدفئه وظمأ ليلي وتغير في الفم حتى يصير طعمه كأنه أكل جميزًا ومتى خرج إلى بيت الأدب يرى بطن منتفخة ويتعذر

عليه البراز» وغاية ما علم من هذه المؤلفات أن العلاج عندهم ينحصر في أربعة أسماء وهي الدهان أو المروخ والجرعة للصقة والحقنة وكل نوع من هؤلاء يتركب من جملة عقاقير حيوانية ونباتية ومعدنية حتى أن بعض الأدوية كان يتركب من نحو الخمسين نوعًا منها الأعشاب والأخشاب الملطفة والجميز وخشب أرز لبان وسلفات النحاس وملح البارود والحجر المنفيسي «لا يعلم نوعه» وكانوا يزعمون أنه متى وضع على موضع المرض أو الجلد المخدوش أبرأه لوقته وكان ماء الشعير ومنقوعه ولبن البقر والمعز وزيت الزيتون والتمر والجميز يدخل في كثير من الأدوية كما أن شعر الإبل وقرونه تدخل في كثير من المروخ وعسل النحل يدخل في جملة من الجرع والمنقوعات وغير ذلك.

وكانوا يقولون بمس الشياطين ولمس الجن وهي الأرواح الخبيثة ولذا كانوا يستعملون للمريض الرقية والتعاويذ والتمائم فإن لم تنجح أتوا بالطبيب وإليك صورة رقية وجدت مكتوبة على إحدى الأوراق البردية «أيها الشيطان الساكن في جوف فلان إبن فلان ويذكرون إسمه وإسم أبيه أنت الذي أبوك يدعى ضارب الرؤس الملعون الإسم إلى يوم الدين» يكررها عددًا معلومًا لكل مرض ولا شك أن هذا الإعتقاد سرى إلينا من هؤلاء القوم فجاريناهم فيه وزدنا عليه طبل الزار وغيره من الأمور التي تأباها الديانة والإنسانية معًا.

أما علم الهندسة والرياضة وأخذ المسايح فشهوتهم فيه أكبر من أن تذكر بدليل ما شيدوه من المباني التي ما جعلت لألدّ أعدائهم مطعنًا ولا مغمزًا في إحكام هندستها وليس بعدها شهادة ولا تزكية. أما معرفتهم في علم الفلك فما كانت دون معرفتهم في باقي العلوم إذ هم أول من رصد الكواكب السيارة والثابتة فمن السيارة كوكب المشترى «هور» وزحل أو القاهر «هرقاهر» والمريخ «هرماخيس» ولا شك أنهم لاحظوا تأخيره السنوي وضبطوا حسابه وعطارد «سويك» والزهرة «بانو» و يؤخذ من النصوص القديمة جدًا أنهم عرفوا حركة الأرض لأنهم قارنوها ببعض الكواكب السيارة مثل المشترى والمريخ وكانوا يزعمون كباقي الأمم أن للشمس حركة عامة وأنها تقطع السماء كل يوم مع كثير من الكواكب الضالة وسيأتي الكلام على ذلك ولم يقتصروا على معرفة الكواكب الظاهرة بل عرفوا كثيرًا مما لا يمكن مشاهدته الآن بالعين المجردة لكن لا يمكن مطابقة أسمائها القديمة بالأسماء المتعارفة عند الفلكيين في هذا العصر ولا شك أنهم رصدوا جميع الكواكب التي قدروا على رؤيتها وحرروا بها الجداول بعد ما عينوا سيرها وحركاتها وأوجهها و مطالعها ومغاربها وكانوا يقدمون في آخر كل سنة كشفًا شاملًا لجميع ما ذكر مع البيان التام

وكان لهم جملة مراصد بالصعيد والبحيرة مثل مرصد دندره والعربة المدفونة ومنفيس والمطرية وغيرها وقد وجد الآن بعض هذه الجداول الفلكية وهم الذين قسموا السنة إلى إثني عشر شهرًا والشهر إلى ثلاثين يومًا واليوم إلى ساعات ودقائق وثواني وعرفوا أيام النسيء والسنة البسيطة والكبيسة وقالوا بهما ولا يخفى أن ذلك يحتاج لرصد الأجرام السماوية في مدة جملة مئات من السنين لكن لا يمكننا تحديد الزمن الذي عرفوا فيه مقدار السنة الحقيقية حتى قالت الكهنة إن مقدارها كان معروفًا بمصر قبل قيام الدولة الملوكية الأولى وزعموا أن الأشهر الشمسية و القمرية كانت في مبدأ الأمر متساوية ومقدار كل واحد منها ثلاثون يومًا وأن المعبود «نوت» السماء إختلى بالمعبودة «ساب » زحل فحملت منه فاء ذلك المعبود الأكبر «رع» الشمس وإحتد لفعلهما فحكم على المعبودة «ساب» أنها لا تلد في أشهره ولا في سنته «أي الأشهر والسنة الشمسية» فأشفق عليها المعبود «توت» كوكب الشعرى اليمانية أو هرمس ورثى لحالها وترجى القمر في أن يدعها تلد في أشهره فأبى هو أيضًا وامتنع فأسرّها «توت» في نفسه ولعب معه النرد «الطاولة» فغلبه وأخذ منه نظير ذلك جرأ من ستين جزأ من كل يوم من أيامه أي من كل يوم قمري فكان ذلك عبارة عن ستة أيام وهبها إلى المعبودة «ساب» لتلد فيها اهـ و بإجراء الحساب إتضح أن الذي أخذه توت من القمر يعادل ٢٤ دقيقة في كل يوم أو ١٢ ساعة في كل شهر أو ستة أيام في كل سنة وهي الفرق ما بين السنة القمرية ومقدارها ٣٥٤ بومًا والسنة القبطية ومقدارها ٣٦٠ يومًا وبضم هذا الفرق على السنة القبطية نتجت السنه الكبيسة التي عددها ٣٦٦ يومًا ولا شك في أنهم إسترسلوا في علم الفلك حتى عرفوا مقدار السنة الحقيقية وهي ٣٦٥ يومًا و ٥ ساعات و٤٩ دقيقة و السنة النجمية وهي 366.25 ومقدار ما يتأخره القمر في كل يوم عن الشمس وهو ٥٦ دقيقة ومقدار سيره الحقيقي حول الأرض و هو ٢٧ يومًا و ٨ ساعات تقريبًا ومقدار سيرها لظاهر حولها وهو ٢٩ يومًا و ١٢ ساعة راجع القسموغرافيا إذ ليس هذا محله ولعل هذه الخرافة القديمة كانت عندهم ضابطًا فلكيًا للسنة الكبيسة كقولهم في علم النحو سرق عمرو واو داود فسلط الله عليه زيدًا يضربه أعني أن داود يكتب بواو واحدة وعمرو يكتب بواو في حالة الرفع والجر لعدم الإلتباس بعمر وهذه الخرافة لا تخلو من الفائدة التاريخية وهي إننا علمنا أنهم كانوا يعرفون لعب النرد قديمًا والمقامرة وقد رأيت زهر نرد في أطلال مدينة «أبو» بالصعيد وزعم المؤرخون أنه من إختراع «أردشير» ملك فارس فإن صح ذلك كان دخوله مصر أيام دولة العجم أو يقال إن العجم يعلموه من مصر أو أن إختراعه تعدد أو كان

نردًا آخر والله أعلم.

أما باقي العلوم فكانت مستوطنة عندهم من قديم الزمان راسخة في صدورهم وسطورهم يتوارثها جيل عن جيل و يتلقفها حقير وجليل ولما علم مسپرو أن لبسيوس الألماني وجد في مقبرة بالجيزة إسم رجل كان من وجوه أعيان الدولة السادسة وعنوانه آمين دار كتب الملك قال هذا العنوان يكفينا برهانًا على إنتشار التمدن بهذا الوادي في تلك الأعصار الغابرة وما كان للعلوم من الكثرة والرفعة والإعتناء بها حتى جعلوا لها دورًا وأناطوا بحفظها رجالًا من كبارًا الحاشية الملوكية ولا جرم أن هذا الرجل كان حافظًا لأسفار الأزمان السابقة على عصره التي ربما صعد تاريخ بعضها إلى عصر الملك منا رأس الفراعنة أو إلى عصر من كان قبله ولابد أنها كانت كافلة لجملة علوم كالديانة وخبر الدار الآخرة وكالطب والرياضيات والقوانين والفلك والتواريخ والروايات والمحاضرات والآداب والفلسفة وأفعال الملوك السالفة وأيامهم ومدة حكمهم ولو بقيت لنا هذه الكتب لكانت أنفس من كالإسكندرية التي إحترقت بنار الجهل قديمًا.

الفصل العشرون

باقي الرحلة العلمية في معبد الأقصر

ومتى دنى الإنسان من الأقصر ها له ضخامة وعظم هذه الأساطين ذات التيجان التي تعلو على جميع العمارات وعددها أربعة عشر وإرتفاع كل واحدة منها ١٥.٨٠ مترًا ومحيطها ٩.٨٠ أمتار مع أنها أقل من أعمدة رحبة إيوان الكرنك البالغ ضخامة كل واحد منها ١١ مترًا غير أن وضع عمد هذا الحوش بجوار النيل له منظر مبهج جدًا وتيجانها على صورة زهر البشنين الذابل عليها نقوش بديعة وقتها العليا مركبة من حجرين لا يقل ثقل كل حجر منهما عن عشرين طونولانه «الطونولانه ألف كيلو جرام أو نحو إثنين وعشرين قنطارًا وكسر» ولغاية الآن لم يهتد علماء الآثار على الطريقة التي كانت مستعملة عند القوم لرفع هذه الأثقال العظيمة ووضعها فوق تلك العمد الشاهقة أما الذي نصب هذه الأساطين فهو الملك أمنحتب الثالث «أمونوفيس» وزينها بالنقوش إلى نصفها ومات ولم يتمها فأتمها الملك هورمحب «هورروس» كما تقدم ثم كتب عليها بعض الملوك إسمهم بدون حق ونصب الملك رمسيس الثاني في الجهة الشمالية من هذا الحوش تماثيل من الحجر الجيري جعلها بين العمود الأول من كل صف وحائط الأبراج وهي على صورة معبوده أمون وزوجته موت وهي مستورة بجناحيها مغشاة بريشها وجالسة بجوار زوجها ولهذا الملك تمثال آخر منفرد عنهما وعلى تلك التماثيل كتابة وترجمتها «ليخلد إسمه ما دامت السموات ولتبق عمارته ما بقيت السموات» ومن نظر إلى هذا الحوش وما به من الأساطين حكم بأنه كان معروشًا لكن لم يقم دليل على صحة ذلك وفي الجهة الجنوبية دعامتان من مدة اليونان أو الرومان يدلان على حدوث ترميمات في تلك الأيام.

رحبة (ح) هذه الرحبة العظيمة من بناء أمنحتب الثالث وكانت محاطة من ثلاث جهاتها بصفين من العمد تحمل العرش أو الإيوان أما الجهة الجنوبية منها فتفضي إلى الإيوان (د) الآتي بيانه بعد وجميع جدرها متهدمة ولم يبق بها شيء يفيد العلم وفي الحائط الشمالي الشرقي صورة الملك أمنتحتب وهو جالس في سفينة وقابض على قضيب الملك ومسوقة أما العمد التي بها حول المحيط فيبلغ عددها أربعة وستين وهيأتها ليست على وتيرة واحدة وفيها ما شكله على هيئة

سيقان من البشنين مجتمعة مع بعضها كأنها محزومة بخمسة أربطة أو شرائط تحت أكمام الأزهار.

والجزء الأصلي من هذا المكان مشيد على قاعدة يبلغ طولها نحو ٨٤ مترًا وعرضها نحو ٣٩ مترًا وسمك جدارها نحو مترين وعلى الجلسة كتابة صورتها «الملك أمنحتب بنى مسكن أمون من الحجر وجعل أبوابه من خشب السنط المطعم بالذهب ومفصلاته من الصفر «أي التوج أو البرونز» وكتب إسم أمون عليه بالأحجار الكريمة وصب أعتابه من الفضة ووضع البخور مع الرمل في أساسها ونصب به صواري خشب السنط المطعم بالصفر وغير ذلك».

رحبة (ذ) هذه الرحبة ليست متساوية الأضلاع لأن الحائط الشرقي منها منحرف جهة الغرب وكانت تتصل من جهة الجنوب بخمسة أروقة وبها من الشرق والغرب بابان إلى الخارج وعلى جدرها سطر به إسم رمسيس الثالث مكررًا وعلى جميع جدرها مديريات أو أقسام مصر مرموزه في صورة النيل ملونة تارة باللون الأزرق وتارة باللون الأحمر وبها ثمانية صفوف من العمد لكل صف أربعة وكلها من جنس العمد التي بالرحبة الكبيرة وعلى جزئها الجنوبي إسم رمسيس الرابع وقد اختلسه رمسيس السادس ونسبه لنفسه وقد بنى بها الرومانيون محرابًا بين العمودين الأخيرين على يسار الطرقة الأصلية وعليه كتابة رومانية رحبه «هـ» أو الكنيسة القبطية لما دخل دين المسيح بن مريم بأرض مصر تحولت هذه الرحبة إلى كنيسة وتشوهت صور جميع معبوداتها ومحيت كتابتها بوضع طبقة من الجبس عليها وتكسرت أساطينها وأزيلت وكانت ثمانية وإستعوضت بعمودين من الجرانيت أمام المحراب وتقدم الكلام على ذلك.

أروقة «و ز ح ط» جميع نقوشها دينية ويظهر أنه كان في نقطة «ط» سلم يصعد إلى أعلى المعبد بدليل أثر الصعود والنزول الموجود على الجدارين.

فسحة «ب» يبلغ كل ضلع من أضلاعها ١٠.٧٥ أمتار وبها أربع أساطين ارتفاع كل واحدة منها تسعة أمتار وجميع نقوشها دينية.

فسحة «ك» كان لها سبع حجرات وثلاثة عمد وأزيلت ولم يبق بها شيء يذكر.

فسحة «ل» وتعرف بإسم «فسحة إسكندر المقدوني» كان بهذه الفسحة أعمدة وبنى في مكانها بيت للعبادة وجميع نقوشها دينية وفي نهايتها على الجدار الشرقي والغربي صورة السفينة المقدسة للمعبود أمون ومقدم هذه السفينة ومؤخرها مزينان بصورة رأس كبش وبها عقد أو قلادة منضدة الأسماط وفي الحائط الشرقي صورة الملك قابض على صولجان الملك مع مسوقة ويقرب

إلى معبوده الفخذ الأيمن قربانًا قدّه من جملة حيوانات منها الثيران والعجول والمعز والغزلان ثم نصوص بربائية تفيد المدح والتعظيم له.

أما رواق الإسكندر فزي من داخله وخارجه بنقوش يستفاد منها أن هذا الملك أي الإسكندر يقدم القرابين إلى المعبود أمون ويرافقه أحد المعبودات مثل موت أو أمنت وعلى حائط الرواق من الخارج صورة سيقان نبات البردي وفوقها أشخاص وهي رمز على مديريات مصر تأتي بمحصولاتها.

وعلى سمك جدار الباب إسم الإسكندر وبأعلى الحائط من الداخل نقوش تعريبها «إسكندر بنى لأبيه أمون رع مسكنًا كبيرًا من الحجر وجعل بابه من خشب السنط المطعم بالذهب كما كان أيام جلالة الملك أمنحتب».

وكان سقف هذا الرواق ملونًا باللون الأزرق على هيئة السماء ومزينًا بالكواكب المرسومة باللون الأصفر وبعض هذه الألوان باق إلى الآن وفي الوسط صورة نسور كثيرة ناشرة أجنحتها وبمخالبها ريشة طويلة وعلامة الحياة الأبدية.

فسحة «م» «أو قاعة ميلاد الملك أمنحتب» يوجد بوسط هذه الفسحة ثلاثة أعمدة وفي الجهة الشرقية وجهة أربع حجرات أو خزانات ولبس في كتابتها فائدة أما النقوش التي على باقي الجهات فتدل على أن هذا المكان يماثل الهياكل الصغيرة التي توجد عادة بجوار معابد البطالمة وتسمى معابد الولادة وتعرف بإسم «مميزي» «أوتيفونيوم» وكتابة الحائط البحري صارت في حالة رديئة وكادت أن تزول بيد أنه يرى عليها صورة أمنحتب يقود عجولًا إلى المعبودة موت ورجال تقدم سفينة محمولة على عربة بدون عجل وبوسطها صورة قرص الشمس والملك يذبح غزالًا وهو قابض على قرنيه أما الحائط الغربي فعليه من النصوص الغريبة ما يذهل العقل وقد شاهدها شمبليون الشاب في سياحته بمصر وتكلم عليها وهي منقسمة إلى ثلاثة لوحات بها جملة مناظر و يلزم للمتأمل أن يبتدىء باللوحة السفلى ويمر من اليسار إلى اليمين فيرى بها خمسة مناظر.

«المنظر الأول» به المعبود خنوم «رأس الكبش» جالسًا أمام المعبودة إيزس وهو يصنع صورة إنسان وصورة طيفه معًا «وقد سبق الكلام على الطيف» ويقول له إنك ستصير ملكًا على مصر وأميرًا على الصحراء وتكون جميع الأراضي في قبضتك وتطأ بقدميك التسعة أقوام «الأمم المتبربرة أصحاب القوس والنشاب».

«المنظر الثاني» به المعبود أمون والمعبود خنوم جالسين أمام بعضهما وقد محت الأيام الكتابة التي بجوارهما.

«المنظر الثالث» به المعبود أمون والملكة «موت إم وا» زوجه طوطوميس الرابع كأنهما جالسان في السماء مربعين أمام بعضهما ومعهما ريشتان طويلتان وأسفلهما كل من المعبودة سلك والمعبودة نيت جالستين على سريرهما وقابضتين على رجلي الملكة والمعبود أمون وبجوار ذلك كتابة تفيد أن أمون تشبه الملك طوطوميس ودخل على الملكة ثم أعلن أن المولود الآتي يسمى أمن حوتب ملك طيبة.

«المنظر الرابع» به الملك أمام أمون والمعبود توت أمامهما يخاطبهما بكلام لم يبق له أثر بالحائط.

«المنظر الخامس» به المعبودة إيزس تعانق الملكة «موت إم وا» أمام المعبود أمون.

«اللوحة الثانية بها خمسة مناظر أيضًا»

«المنظر الأول» به المعبود توت يخبر الملكة أن أمون وهب لها غلامًا.

«المنظر الثاني» به الملكة «موت ام وا» قد ظهر عليها الحمل ويسندها كل من المعبودة إيزس والمعبود خنوم ويقدمان لها علامة الحياة.

«المنظر الثالث» به الجني «پا» والجني «نخن» المتشبهان بإلهي الشمال والجنوب قائمان ومعهما «تويرس» المحامي عن الأطفال و «باس» الطارد للشياطين.

«المنظر الرابع» به المعبودة إيزيس تقدم إلى أمون طفلًا وهو يقول له أنت بسلام يا إبن الشمس ويا سلالة الشمس «رع معت نب».

«المنظر الخامس» به الغلام جالس في حجر أمون وهو يرتب طالع بخته ويصلح إقبال سعده والمعبودة إيزيس قائمة والمعبودة «موت» قابضة على جذع نخلة به علامة الأعياد وكل عقدة تدل على سنة والمعبود أمون يقول أنت بسلام يا نسل سلالتي قد وهبتك أن ترى آلافًا من السنين كالشمس.

«اللوحة الثالثة بها سبعة مناظر»

«المنظر الأول» به الملكة وضعت غلامًا وقد جلست على سرير مزين برؤوس سباع حوله

نحو درابزين وبأسفله جملة عقد والطفل فوق السرير قد لبس ملابس الملوك وله صورتان يرضع ثدي المعبودة هاتور المصورة كبقرة واقفة.

«المنظر الثاني» به المعبودة هاتور متكررة تسع مرات وهي متوجة بسهمين متصالبين على بعضهما كالمعبودة نيت كأنها أتت لتحضر ما تقدم ذكره في المنظر الأول.

«المنظر الثالث» به النيل في هيئة إلهين أحدهما أزرق والآخر أحمر يحملان المولود وطيفه ليطهرانهما.

«المنظر الرابع» به المعبود هوروس يقدم الطفل وطيفه إلى أمون فيقول له أعطيتك كل حياة وكل راحة وإنك تبلغ الأشد وتصير ملك الشمال والجنوب وتجلس على تخت هوروس وكل سرور يلازم طيفك كالشمس.

«المنظر الخامس» به تلف لا يمكن معرفة شيء منه غير خنوم وأنوبيس.

«المنظر السادس» به صورة أمون حوتب «أي الغلام» جالس مع طيفه أمام المعبود أمون.

«المنظر السابع» به أمون حوتب استولى على تخت مصر ثم صورته وهو قائم وبجواره كتابة ترجمتها «هوروس الأحياء والفرح يلازم طيفه وهو يحكم على منطقة القرص ويدير حركة الأرضين كما أمر المعبود رع» وغير ذلك.

ومن أراد الإطلاع على بقية ما هو مدون على باقي جدر هذا الزواق فعليه بكتاب المعلم داريسي مساعد وأمين مصلحة حفظ الآثار المصرية الذي ألفه باللغة الفرنساوية في وصف معبد الأقصر صحيفة ٦٩.

فسحة «ن» تشابه هذه الفسحة التي قبلها وكأنها متممة لها ونصوصها على وشك الزوال وكل معانيها ترجع إلى جلوس الملك على سرير الملك كما أن التي قبلها ترجع معانيها إلى خلقته وولادته ونشأته وشبيبته وبها ثلاثة أبواب أحدها يفضي إلى فسحة «ل» وثانيها إلى فسحة «م» وثالثها إلى دهليز «ع» الآتي بيانه ووصف هذه الأماكن لا يهمنا بل يهم علماء الآثار ولذلك ضربنا عن ذكرها صفحًا.

نقطة «س ع ف ص» أما نقطة «س» فكانت فسحة عرشها محمول على صفين من الأساطين بكل صف ستة أعمدة بينهما دهليز يفضي إلى فسحة «د» التي هي المحل الأقدس

الواقع في نهاية المعبد ونقوشها دينية عادية وأما نقطة كل من «ع ف ص» فدهاليز وكل واحد ثلاث حجرات وقد انهدم بعضها كلية.

غرفة «ق» كان لهذه الغرفة بابان وسد أحدهما مدة الرومان ونقوش الحائط الشرقي يوهم أن هذا المكان كان معدًا لحفظ الأدوات والمهمات اللازمة للمعبد وعلى الحائط الشمالي صورة الإحتفال المتقدم ذكره في فسحة «م» والملك يقدم أربعة عجول لها ألوان مختلفة ثم يهز هراوة «عصا» أمام الأربعة صناديق السرية المزينة بريش النعام وألوان هذه النقوش لم تزل ظاهرة.

فسيحة «ر» هذا المكان هو المحل الأقدس للمعبد وكانوا يضعون فيه صورة الإله الأعظم داخل حجرة لا يسوغ لأحد غير الملك أن يدخلها وكانت مصنوعة من حجر واحد ومبنية في هذا المكان ومحلها الآن ظاهر به لأنهم لم يهتموا بإصلاح الحائط والعمد التي كانت مثبتة فيها بعد نزعها منها والنقوش التي هناك جميعها دينية أما الأربعة عمد التي بها فلوّنه بالأزرق ومزينة إلى نصفها بالنقوش وعليها إسم الملك أمنحتب صاحب المعبد مكتوب باللون الأصفر.

غرفتا «ش ت» أما غرفة «ش» فهي على شكل غرفة «ق» ولا يعلم حقيقة الغرض من بنائهما لأن العلوم لم تزل مضنة بكشف سر جميع هذه الأماكن و يوجد على يمين نهاية المعبد ويساره سبع وعشرون حجرة مهدومة وجميعها مجهول الغرض منها لأننا لم نطلع لغاية الآن على سبب وجود أمثالها ولا ندارس معالمها لم نعثر لها على كتابة أما عدد الحجرات التي كانت جهة الغرب فثلاث عشرة وأما التي كانت جهة الشرق فأربع عشرة ويمكن أن كل واحدة منها كانت مخصصة لمعبود بعينه والكتابة التي على بعض أبوابها الباقية إلى الآن لا تفيد إلا بعض مسائل دينية متعلقة بالملك صاحب المعبد والله أعلم.

انتهى بإختصار من كتاب المعلم داريسي

الفصل الحادي والعشرون

في دين قدماء المصريين وما إشتملت عليه المعابد من مباني ورسومات

إختلف المؤرخون في دين المصريين فجرى أكثرهم على أنهم كانوا أمة موحدة تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وهو قول المؤرخ «يورفير» وغيره وقال هيرودوت إن أهل طيبة كانوا يعبدون الله وحده ويقولون هو الأول والآخر الحي الأبدي السرمدي وروى «جامبليك» أنه سمع من كهنة المصريين نفسهم أنهم يعبدون الله وحده ويقولون إنه فاطر السموات والأرض رب كل شيء وهو المالك لكل شيء الخالق لكل شيء الذي لم يخلق ولم يتجزأ ولا تراه العيون يعلم ما تكنه الضمائر وما تخفيه الصدور وهو الفاعل المختار لكل شيء وفي كل شيء إلى أن قال أما ما نراه من كثرة المعبودات فجميعها رمز يرجع إليه وحده بمعنى أنها تدل على ذاته العلية وصفاته الأزلية وهذا هو إعتقاد كهنة المصريين المدوّن في كتبهم المقدسة اهـ وقال المؤرخ «شميليون فيجاك » قد إستنبطنا من جميع ما هو مدوّن على الآثار صحة ما قاله المؤرخ «جامبليك» وغيره من أن المصريين كانوا أمة موحدة لا تعبد إلا الله ولا تشرك به شيئًا غير أنهم أظهروا صفاته العلية إلى العيان مشخصة في بعض المحسوسات وأنهم لما غرقوا في بحر التوحيد علموا أبدية الروح وأيقنوا بالحساب والعقاب ولا عبرة بما قاله بعض مؤرخي الأجانب الذين حضروا محافل المصريين الدينية وشاهدوا بها كثرة تماثيلهم الرمزية وأنهم لجهلهم بلغتهم وبحقيقة عبادتهم حملوا الأمور على ظاهرها وحكموا عليهم بالكفر والإلحاد مع أنهم لم يفهموا منهم المراد فكأنهم دخلوا في قول الشاعر

وكـــم مـــن عائـــب قـــولًا صـــحيحًا وآفتـــــه مـــــن الفهـــــم الســـــقيم

وكيف يتصور أن المصريين مع غزارة علمهم وتوقد مدركاتهم وصحة أفهامهم وصدق فراستهم ومهارتهم في عمل كل شيء يتخذون المنحوتات أربابًا ويميلون إلى نزغات الشيطان وفي بعض التواريخ المعتبرة أن موسى عليه السلام دخل منذ شبيبته في مدارس الكهنة وتعلم منهم اسم الله المكنون الذي كانوا يصونونه عن غيرهم من العامة.

وقال بعضهم إن لفظة «أدوناي» العبرانية التي معناها الله مشتقة من لفظة «أدن» أو «أتن»

المصرية ومعناها الشمس عند العامة وأما عند الخواص فمعناها الله القادر وقد وجد في بعض الأوراق ما يدل على وحدانيتهم منها «الله واحد لا شريك له وهو خالق كل شيء» ومنها «الله فرد أزلي كان قبل كل شيء ويبقى بعد كل شيء لا بداية لأوّله ولا نهاية لآخره» وغير ذلك.

وقال مسبيرو نقلًا عن كبار مؤرخي هذا العصر ما ملخصه من تأمل في الآثار الباقية إلى الآن بالديار المصرية واللوحات الدينية المنقوشة بالهياكل وما على الورق البردي هالته كثرة هؤلاء الآلهة المصورة عليها لأن الإنسان لا يقع نظره الأعلى صور وتماثيل مختلفة الهيآت والأشكال خضعت لها جباه جبابرة ملوكهم وأحبار كهنتهم حتى يظن أن مصر كانت مسكونة بهؤلاء الآلهة وأن أهلها ما خلقوا إلا لعبادتها وسبب ذلك أن المصريين كانوا أمة مخلصة في العبادة أما بالطبيعة أو بالتلقين والتعليم فكانوا يرون أن الله في كل مكان فهامت قلوبهم في محبته وإنجذبت أفئدتهم إليه وإشتغلت أفكارهم به ولازم لسانهم ذكره وشحنت كتبهم بمحاسن أفعاله حتى صار أغلبها صحفًا دينية وكانوا يقولون إنه واحد لا شريك له كامل في ذاته وصفاته وأفعاله موصوف بالعلم والفهم لا تحيط به الظنون منزه عن الكيف قائم بالوحدانية في ذاته لا تغيره الأزمان وسيان بين ماضيها ومستقبلها فهو الذي ملأت قدرته جميع العوالم وهو الأصل والفرع لكل شيء و كلاهما واحد[1] ثم عددوا صفاته العلية وميزوها بالأسماء وإشتقوا منها نعوتًا شخصوها في المحسوسات وفي كل شيء نافع وجميعها يرجع إليه ولا جل التمييز بينها جعلوا لكل اسم تمثالًا فإنتشرت هي وما إشتق منها حتى ملأت المدن والبلاد وميز كل ناحية معبوداتها عن غيرها لعدم الإلتباس فنشأ عن ذلك جملة معبودات متباينة في الشكل والهيئة دخلت فيها الحيوانات والطيور والأسماك والحشرات ولكل واحدة وظيفة خاصة ترجع إلى صفاته تعالى من ذلك معبودهم «أمون» وهو الله الذي ينبعث منه كل شيء يعطي لنور العقل القوة لإدراك الأشياء الخفية ومنها «فتاح» وهو الذي أتقن فعل كل شيء ومنها «أوزيرس» وهو الله الرحيم فاعل الخير فبناء على ما ذكر يكون أمون وفتاح وأوزيرس أسماء لصفات مترادفة ترجع إليه تعالى.

وذكر بروكش باشا أنهم حصروا صفاته العلية في جميع الأشياء النافعة كالشمس والنور وغيرهما وعبدوا هذه المنفعة إذ هو مصدرها وأصلها ولا جرم أن الكهنة كانت تعرف الحقيقة وتقصد في عبادتها وجهه الكريم أما العامة وهم السواد الأعظم فصار واسع توالى الإعصار

---

[1] من هنا أتت عبادة الأوثان عند جميع الملل.

يعبدون الأشياء لذاتها و يتقربون إليها زلفى لجهلهم بالحقائق وفشا الكفر فيهم ومما يثبت ذلك ما رواه بعض المؤرخين أنه كان مكتوبًا في أحد الأسفار المصرية المنسوبة إلى هرمس «إدريس عليه السلام» وصورته «يا مصر يا مصر يأتي عليك يوم يتغير فيه دينك القويم ومنهجك القديم فتظهر الخرافات وتعم الضلالات ويستبدل الإيمان بعبادة الأوثان ويطفيء الإلحاد نور الهدى والرشاد وتنحصر أخبارك في بعض أحجارك» وقال ماريت باشا إتفق كثير من قدماء المؤرخين على أن المصريين كانوا يعبدون الله وحده لكن من الأسف أننا لم نجد لهذا الآن على الآثار أدنى شاهد حتى كنا نجعل قولهم في الكفة الراجحة وأن الشك في صحته أخذ كل يوم يزداد وقال غيره إتخذ المصريون كل شيء من ربا إلا الرب جل وعلا وهذا مصداق قوله تعالى «إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفًا ولم يك من المشركين» أي كان وحده في زمنه موحدًا فهو أمة بنفسه لإعتزاله إياهم وإنفراده برأي يخالف آراءهم ونتيجة القول أن الكهنة هي التي كانت تعرف الحقيقة ولم تتصد لإرشاد الأمة فسرحت هملًا وضلت عن الحق وعبدت ملوكها وليس هذا بغريب فإن طائفة من ملحدي الإسلام زعمت أن عبيدالله المهدي إله وقال فيه شاعرهم

حـــــل برقـــــادة المســـــيح   حـــــل بهـــــا آدم ونـــــوح
حـــــل بهـــــا الله والـــــبرايا   ومـــا ســـوى ذاك فهـــو ريـــح

«رقادة إسم مدينة في تونس الغرب» وإدعى الحاكم بأمر الله الفاطمي الربوبية بمصر وكان جهلة المسلمين يصيحون عند رؤيته قائلين سبحانك يا حي يا قيوم يا محيي يا مميت وفي أيام علي كرم الله وجهه قالت طائفة بربوبيته فقاتلهم وأحرقهم بالنار.

وفي زمن المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي ظهر المقنع الخراساني وإسمه عطاء وكان لدمامة وجهه يتقنع وأدعى الربوبية وتبعه خلق كثير فسحر أعينهم حتى خيل لهم صورة قمر يطلع تراه الناس من بعد وقد أشار إبن سناء الملك إلى ذلك بقوله:

إليـــك فمـــا بـــدر المقنـــع طالعًـــا   بأســـحر مـــن أجفـــان بـــدري المعمـــم

ومن تصفح الأديان القديمة على أن بعض كهنة القوم كانوا يعرفون الله غير أنهم لم يتعرضوا لردع الناس إتقاء شرهم وخوفًا على مناصبهم ومقامهم وكان بعض فلاسفة اليونان يقولون بوجوده فقامت الأمة عليهم وحكموا على بعضهم بالموت ولا ريب أنهم أخذوا ذلك من كهنة المصريين كما أن العرب زمن الجاهلية كانت تعرف الله ولا تعبده وكان إسم الكعبة عندهم بيت

الله ومن أسماء رجالهم عبدالله لكن الشقاء غلب عليهم ومن أراد التفصيل فعليه بالتواريخ إذ ليس هذا محله.

أما معابدهم فكانت كثيرة جدًا بالصعيد وهي عمارة جسيمة منقوشة من الداخل بالرسوم الدينية وكثيرًا ما يكون عليها من الخارج صورة الحروب والوقائع والنصر على الأعداء لأنه كان من عادتهم أن كل ملك محارب ينقش جميع نزواته ونصراته خارج معبده ليفتخر به على معبوداته كأنه يقول لهم ها أنا تكبدت المشاق وقاسيت العذاب وإقتحمت الأخطار وقاتلت أعداء مصر وأنكيت فيهم وأتيت بهم مكبلين بقيود الأسر والعبودية وجميع هذه الهياكل مبني بالحجر المنحوت وحول كل واحد منها سور عظيم جدًا متخذ من اللبن« الطوب الني» الجافي الجاهلي و يكون مع جسامته مرتفعًا جدًا بحيث إذا غلقت أبوابه ستر جميع الهيكل والبحيرة التي بجواره وقد أخطأ من شبهه بالمسجد أو بالكنيسة العامة لأنهما كان يسوغ لأي إنسان أن يدخله ما عدا الكهنة ولذا قالوا إن بناءه كحسنة يتقرب بها الملك بانيه إلى معبوداته فهو قاصر على عبادته خاصة وكانت الملوك تحتفل بهذه الهياكل وتزينها وتقطعها الإقطاعات وترصد لها الأطيان و غيرها وربما إشترك في عمارة الواحد منها جملة ملوك هذا يبنيه وهذا يتمه وهذا بنقشه وهذا بعمل صورة كمعبد «دندره» مثلًا فإن أول بنائه كان زمن بطليموس العاشر وتم في زمن «طباريوس» قيصر وتمت زينته مدة «نيرون» قيصر الطاغية وكلاهما من إمبراطرة رومه وفي مدة بنائه ولدا المسيح عيسى عليه السلام وهذا المعبد كغيره يشتمل على أربعة أقسام كلية وهاك وصفها

«القسم الأول» إيوان كبير معرض لضوء الباب التجه إلى الشرق وبه أربعة وعشرون عمودًا ضخمة جدًا حاملة لسقف معروش بالحجر الجافي العظيم وهذا القسم عبارة عن وجهة المعبد وليس له علاقة به لأنه طرقة يتوصل منها إليه وبه بابان صغيران أحدهما إلى الشمال والآخر إلى الجنوب كانا معدين لدخول الكهنة والقرابين أما الباب شالكبيرة فكان لا أحد النهر الثالث من السطح نفسه «هوروس الشمس محبوب معت ملك الآثار العظيمة مسكن أمون» الملك القوي النبيه رب السيف القاهر ملك الصعيد والبحيرة «رع أوسر معت ستب أن رع» ابن الشمس «أمن مررع مسو» الذي أبهج أرباب طيبه إلخ.

النهر الأول من السطح الشمالي «هوروس الشمس محبوب معت» ملك الصعيد والبحيرة «رع أوسر معت ستب أن رع» ابن الشمس «أمن مررع مسو» رب المدح مثل «تاتن» صاحب

الأرضين «رع أوسر معت ستب أن رع» صانع الآثار العظيمة بمدينة طيبة المختصة بأبيه أمون رع الذي أجلسه على كرسيه إبن الشمس «أمن مررع مسو» وهكذا باقي أوجه المسلة وفي كل وجه أو سطح ثلاثة أنهار من الكتابة غير أن جميع معانيها تدور على هذه المعنى وكان بقاعدتها صورة أربعة قرود من الحجر اللطيف تعرف عند علماء الآثار باسم «سينوسيفال»[1] نقل بعضها الفرنسيس إلى بلادهم عندما أخذوا المسلة السابق ذكرها ولهذا الآن لا يعلم ما كان الغرض من عمل هؤلاء المسلات وزعم العلماء أن الغرض هو تخليد اسم الملوك أصحابها وشهرة المعبد الذي تكون أمامه كالمئذنة وبرج الكنيسة إذ ليس لهما مدخل في قواعد الديانة أما باب المعبد فكان مزينًا بستة تماثيل جسيمة جدًا وكلها من عمل هذا الملك وهو رمسيس الأكبر المعروف باسم رمسيس ميامون أو سيزوستريس أو رمسيس الثاني أما التمثالان اللذان عن يمين الداخل ويساره فهما صورة هذا الملك وهو جالس على تخت ملكه وهما باقيان إلى الآن والأربعة الأخيرة على صورته وهو قائم ولم يبق منها غير واحد سليمًا تطرق إليه يد التلف إلا شيئًا قليلًا وهو تسوية وجهه وإزالة راحتي يديه و كل واحد منها متخذ من حجر واحد من الجرانيت الأسود وفي التمثال الغربي وهو السليم عرق أجر يمتد على العصابة أما عرض جلسته فتبلغ ٥٠ سنتي و ٢ متر وطولها ٧ متر وارتفاعها ٥ سنتي و ١ متر وارتفاع التخت أو الكرسي الجالس عليه هذا التمثال يبلغ ٩٠ سنتي و٢ متر و ارتفاع التمثال ٦٥ سنتي و ١١ متر منها ٦٥ سنتي و ٦ متر من القدم إلى الكتف ومنها ٢ متر ارتفاع الرقبة والرأس والباقي وهو ٣ متر قيمة العصابة والتاج وهو مركب من تاجي الصعيد والبحيرة داخلان في بعضهما فوق العصابة المصنوعة على شكل قماش به خطوط يحيط بالرأس ويرى في عنقه قلادة جميلة المنظر أو أسماط منضدة وعلى بدنه صورة ثوب متجعد بلطف به ثنيات يصل إلى ركبتيه وبوسطه منطقة معقودة فوق الخصر وعلى أحد جوانب التخت صورة زوجته الملكة «موت مَرْ نفَرَتْ أرى» وعلى قاعدته صورة الأم التي خضعت له من الزنوج وأهل آسيا واسمهم مكتوب في خانات سلوكية على صدرهم.

أما باب المعبد فهو محصور بين البرجين السالف ذكرهما ويبلغ عرض كل واحد منهما ٤٠ سنتي و ٨ متر وطوله ٣٠ مترًا وسعة الباب بينهما ٤ متر فعلي ذلك يكون عرض وجهة المعبد ٦٤ مترًا وحالتهما الآن غير جيدة وتؤذن بالسقوط ما لم تتداركهما عين الحكومة بالترميم والتقوية

[1] السينوسيفال حيوان خرافي يكون على هيئة إنسان برأس قرد وهو رمز على كوكب الشعري اليمانية أو هرمس.

ويغلب على الظن أن الشرقي منهما يسرع له الدمار إذا أزالت المصلحة الأثرية التي تسند جدرانه وكان في الجهة الشرقية من الباب سلم يصعد إلى عرشه ومنه يصعدان إلى أعلاهما وارتفاعهما ٢٤ مترًا ويرى فيهما بعض أحجار مأخوذة من المعبد الصغير الذي كان بناه هناك «خون أتن» لمعبوده قرص الشمس وجميع وجهة الباب منقوشة وعليها اسم رمسيس الثاني ونصوص بربائية تدل على وقائع هذا الفاتح مع أمة الخيتاس «في بر الشام وقد تحزب فيه على أهل مصر أغلب سكان آسيا الصغرى» وصورة المعسكر وعساكر الرماة بملابسهم وأسلحتهم والدرق في أيديهم وعلى الجهة اليسرى صورة الملك اثنين من الجواسيس وبجوار ذلك صورة مشورة حزبية معقودة ثم الخفر السلطاني مركب من العساكر المصرية وعساكر «الشردنه» ويعرفون بخودهم الكروية الشكل ذات القرون والأكرة الصغيرة وعلى الجناح الشرقي صورة المصاف أي الواقعة الهائلة التي كانت بين هذا الملك وأمة الخيتاس وعلى اليمين صورة الملك راكبًا عربته يرمي سهامًا على أعدائه وقد احتاطوا به من كل ناحية ثم تراهم قد انهزموا وولوا مدبرين ووقعوا في النهر وترى العربات المصرية أعلى وأسفل تسير صفوفًا مع الترتيب والإنتظام وعلى كل واحدة ثلاثة رجال أحدهم يقاتل الأعداء وثانيهم قائم بسياسة الخيل وثالثهم يقودها.

وفي نهاية الجهة اليسرى جيش العدوّ مصطفًا أمام جيش مصر وكل منهما زحف على عدوه وأسفل ذلك كتابة صورتها «عاد الوغد اللئيم ملك الخيتاس وهو يرجف فوق عربته الحربية» وعلى عربته كتابة بربائية ونصها «خلفه عشرة آلاف وتسعمائة مقاتل وهم جيش العربات أتى بهم من بلاد خيتاس الحقيرة» ثم ترى جيوش المتحالفين من الأعداء دخلوا بإزدحام في مدينة محصنة بالأسوار يحيط بها الماء وإلتجؤا إليها فرارًا من جيش المصريين وترى لهم صورًا متنوعة ظاهرة منهم أمة الخيتاس ولهم وجوه ضخمة متقبضة «متكرمشة» ورؤوسهم مستورة بقماش معقود بشريط على جبهتهم ومنهم أمة الشكلاش وعلى رؤوسهم قلنسوة نازلة من خلفهم ومنهم أمة الطورشا ولهم خودة دقيقة من قمتها ثم أمة الجكاري ولهم عصابة تشبه قلنسوة العجم وأسفل ذلك تفصيل الواقعة منقوش بالقلم القديم وهذا النصّ يعرف عند علماء الآثار باسم قصيدة «بنتاؤر» ولم نتعرض لذكرها إذ ليس هذا محله فراجعها في كتاب توفيق الجليل للمرحوم رفاعه بك نمرة ٨٣ .

وكان ظاهر الحوش الذي بناه هذا الملك بهذا المعبد مستورًا بالنقوش والنصوص البربائية وتواريخ وقعاته غير أن يد الدهر تسلطت عليها فأزالتها بالكلية ومحتها بالطريقة القطعية لكن

لحسن الحظ نجد صورتها في كثير من المعابد الباقية من أيامه.

أما نقوش داخل هذا الحوش فنصوص دينية ولا فائدة في ذكرها هنا ويرى به أسماء رؤساء بلاد وهي عبارة عن الأقاليم التي كانت خاضعة لمصر مدة حكم هذا الملك باقي نقوش هذه الجهة فمستورة بمسجد سيدي أبي الحجاج وإذا كشف هذا المكان لابد وأن نجديه بعض أشياء تاريخية أو جغرافية وترى بجوار حلية الباب الذي شيده أمونوفيس الثالث ما بقى من التصاوير التي كانت تدل على العبادة وعلى حائط رميس صورة الأبراج والمسلتين والستة تماثيل ثم صورة سبعة عشر من أولاده وفي كل واحد منهم باقة أزهار كأنهم أتوا ليحضروا حفلة عامة وخلفهم فوج من الخدم والحشم ومعهم نيران ليقدموها قربانًا وبين قرونها علامات مختلفة .

الفصل الثاني والعشرون

الرحلة العلمية في آثار الكرنك من مدينة طيبة

أعلم أن آثار الكرنك تحتاج في وصفها إلى مجلد ضخم لأنها أكبر و أعظم جميع الآثار المصرية وهي واقعة في الشمال الشرقي من معبد الأقصر و بينهما ما نحو نصف ساعة تقريباً وقال ماريبت باشافي في كتابه مرشد السياح أن أطلال الكرنك أغرب خراب يراه الإنسان على وجه الدنيا ولذا يجب زيارته لكن إذا حاولنا أن نستخرج منه وصفاً أو نتيجة أو تعيين غرض لعز علينا المطلب وطاح مسعانا مع الرياح وأخطأ سهمنا المرمي لأن وحدة المبانى تفرقت وجمع شملها تشتت بما جنته عليها يد الأيام فضلاً عما طرأ عليها من المباني والترميمات مدة تلك الأحقاب الخالية . ومع ذلك لاتخلو من الفوائد العملية التي هي نصب عين علماء الآثار أما السائحون الذين يريدون بها هؤلاء الأطواد الشامخة وتلك الأطلال الدارسة فلا يخرجون منها إلا وقد ذهب بهم العجب كل مذهب حائرون في أمرهم مندهشون مما عاينوا ثم يغادرونها وما تحصلوا منها على شئ غير لغرابة والعجب لأنهم كلما زاد وهناً نظراً زادتهم عجباً وكلما أستنبطوا منها معنى أيقنوا أن هناك معاني ومهما أرادوا الوقوف على حقيقتها علموا بعجزهم وكلما زوّدوا الطرف منها أوقعهم في الحيرة اهـ.

ومساحة هذه الأطلال التي شرق النيل تبلغ نحو ألف فدان وبها من الهياكل والأبراج والعمد والمسلات والجدر والصخور والأسوار والبحيرات المقدسة والنقوش والتصاوير والرموز والتماثيل والوقائع الحربية والتواريخ مايذهل العقل ويجعل اللسن أعزل والقلم مغزل وبالجملة مهما كتبت البراعة وأفرغت حقبة البراعة فأنها لا تستطيع أن تأتي بتفاصيل هذا القول المجمل ولاتقوى على وصف ذلك الطلل المهمل الذي مزقته يد الزلازل وفرقته كوارث النوازل وهل لعبر المصريين مبان صبرت على كيد الزمان وتجرعت غصة الملوان حتى وصلت إلينا ويااليت شعري هل هي رسل مرسلة من لدن أهل تلك الأزمان لتنبئنا بما كان في قدرة الإنسان ولقد حارت الأفهام وضلت الأوهام في كيفية نصب هذه الأساطين البالغة مائة أربعة وثلاثين وكل واحد منها ما كالبرج يبلغ إرتفاعه نحو السبعين قدماً و قطره أحد عشر قدماً وعليها تيجانها الصخمة التي كانت تحمل سقفها المنقوش بالقلم القديم وجميعها من الصخور الجافية .فأحكم رعاك الله بما كان للمصريين من القوة والإقدام وتذليل كل أمر صعب وما كان الغرض من مثل هذا العمل وما مقدار المدة التي

أستحضروا فيها تلك الصخور وكيف قطعوها وبأي طريقة أحضروها وأي آلة رفعتها وكيف كان بناؤها وما مدته .أما ما عليها من النقوش فقد أتوا فيه بالمرقص والمطرب بل بالمدهش والمغرب وكم أدمجوا في خلالها من أفكار مبتكرة وأدرجوا سطورها من ضمائر مستترة أشغلت أفكار علماء الآثار وكل من يعاني حل المعاني فتارة كانوا يرسمون صورة الهيجاء والملك فوق عربته كبرج شاهق وصدر خيله فوق آلاف من العدو وأخرى كانوا يصورونه كطود شامخ والأعداء في حذاء ركبته أو يجعلونه كشخص هائل الخلقة قد وطأ بقدميه رأس رؤساء القبائل أو وطأ قدميه جماعة ويده متهيئة لطعن آخرين) راجع شكله في الباب السابع من هذا الكتاب (وربما رسموه على صورة بحر يجر خلفه كثير من الأمم التي خضعت له أو جعلوه في هيئة جسيمة قابض بيده اليسرى على شعر كثير من أعيان الأعداء وملوكهم وهم جاثون على ركبهم أمامه وفي يده اليمني مقمعة يضرب رأسهم بها أنظر الشكل الآتي المنقول من معبدا بسمبل ومندرج في الفصل الثاني عشر أو يقود خلفه كثيراً من الرؤساء وهم موثوقو الأيدى من خلفهم والأغلال في أعناقهم وغير ذلك مايعبر الأفكار .أما الهياكل التي بهذه الجهة فكثيرة ومتفرقة في خراب تلك البقعة وأحسن الطرق لزيارتها هو ماذكره ماربيت باشا وغيره وهو أن يخرج الإنسان من قرية الأقصر ويتجه إلى الشمال الشرقي ويقصد الطريق المشار إليه في الرسم بنمرة 3 وهو طريق محاط بأصنام لها رأس كبش وجثة أسد رابض وعليها اسم الملك أمونوفيس الثالث) ارع مانب (كما تقدم في ذكر معبد الأقصر يمر بوسط معبد خنسو المرموز له بحرف) ت (ومنه توصل إلى أبراج معبد أمون المشار اليها بنمرة 1 ثم يقصد المعبد نفسه ويمشي فيه إلى الشرق ثم ينعطف إلى جهة اليسار حتى يصل المعبد الواقع على يساره المرموز له بأحرف)ا ب ح (ثم يعود إلى الجنوب ويميل قليلاً إلى الشرق أي إلى جهة اليسار حتى يصل نقطة) ك (ومنها إلى البحيرة المرموز لها بحرف) ع (ثم إلى أبراج نمرة ٨ المشهورة بتماثيلها الجافية ثم يسلك الطريق المشار إليها بنمرة 4 والمحاطة بالأصنام ذوات رأس الأدمي وكلها من عمل الملك هوروس) هورمحب (حتى يصل معبد المعبودة موت المرموز له بحرف) و (وإلى هنا انتهى وصف الطريق المرسوم بهذه الأحرف في اللوحة العامة لأطلال الكرنك أما وصف هذه الأما كن على وجه الاختصار فهو:

(أولها) معبد خنسور هو من بناء الملك رمسيس الثالث وأبراجه اللطيفة تنسب إلى بطليموس المدعو أورجيطه) أي الرحيم سمي بذلك من باب التهكم والسخرية (وعليها صورة الشمس بجناجيها .أما الباب الثاني المقابل لهذه الأبراج في فهو لدولة البطالسة أيضا فإذا دخلنا منه وجدنا

الملك أورجيطه المذكور متقمشياً بثياب يونانية وقائماً يقدم قرابينه كفراعنة مصر إلى المعبود خنسو الذي نسب إليه هذا المعبد ثم نجد بعد ذلك رحبة ليس بها عظيم فائدة غير صورة كل من رمسيس الثالث والرابع والثالث عشر وهم قائمون بعبادة هذا المعبود ثم يلى ذلك فسحة بها ثمانية من العمد و على حائطها حادثة ماوقع نظيرها في تاريخ مصر وهى إغتصاب الكاهن حرحور لملك مصر وكتابة أسمه في خانة ملوكية لكنه لم يلبس التاج ولم يتلقب بالألقاب الفرعونية فإذا دخلت الرواق الذي يليه وجدته قد تم له الأمر ووضع ثعبان الملك على جبهته وهو عنوان على السلطنة وتلقب بالألقاب الملوكية وكتب أسمه في خرطوشين كباقي الملوك ثم ترى على الأبراج أسم الكاهن الأكبر المدعو بنتم مكتوباً في الخانات الملوكية أيضا لأنه صار ملكاً بعده ومن ذلك أستنتج علماء الآثار ضعف دولة الفراعنة في آخر العائلة المتممة للعشرين وهى دولة الرمامسة) أنظر لوحة 1 و الرسوم بها عموم أطلال الكرنك ولوحة 2 و المرسوم بها العبد الأكبر وهو من بها أمون.

ثانيها (المعبد الأكبر) معبد أمون (وطول محوره من الشرق إلى الغرب يبلغ 366 متراً وعرضه ١٠٩ أمتار فإذا أضفنا إليه جمع ملحقاته الواقعة بجواره من الشرق والغرب يبلغ طول محوره ٨٠٨ أمتار وأحسن طريق أن يدخل المتفرج من بابه الغربي المشار لأبراجه بنمرة 1 وهنالك يرى الحوش المرموز له بحرف) ب) (أنظر رسم هذا المعبد في لوحته الخاصة به .(أما الأبراج فن بناء دولة البطالسة لكنها لم تتممها وهي عمارة جسيمة جدا يبلغ طولها ١١٣ متراً وعرضها 10 متراً وإرتفاعها 50 و 45 متراً وجميعها خال من النقوش والزينة وظن بعض علماء الآثار أنهم كانوا عزموا على أن يعملوا عليها رسوما هائلة فأبتدؤا بأن يرسموا عليها خطوطاً بالألوان ليحددوا بها تلك الصور التي أرادوا حفرها في الحجر ولكن لم يتيسر لهم أن يتمموا هذا المشروع فبقيت كما هي ومن صعد عليها رأى جميع الأطلال أسفله أما السور الشمالي والجنوبي من الحوش المتقدم ذكره فمن بناء الملك شيشاق رأس العائلة البوبسطية) نسبة إلى تل بسطه وهي العائلة الثانية والعشرون (ونصب به الملك طهراقه الأتيوبي) الحبشي من العائلة الخامسة والعشرين (صفين من الأعمدة الضخمة جعل تيجانها على هيئة النواقيس المحفوفة بمايشابه ورق الكاس الزهري وحولها النبات المائي وفوق كل واحد قاعدة مكعبة كانت جلسة لتمثال المعبودات غير أن الملك ابساميطيقوس الاول) من العائلة الصاوية وهي السادسة والعشرون (جعل أسمه على هذه العمد مكان اسم صاحبها ونسبها لنفسه.

أما البانى للأبراج والباب المرموز لها بنمرة 2 فهو والملك رمسيس الأول ولم يكن للمعبد

باب عام غيره من جهة الغرب إلى أن بني الملك شيشاق الحوش الذي نحن بصدد وصفه وآثار هذه الأبراج القديمة لم تزل باقية إلى الآن .وكان لرمسيس الأكبر على هذا الباب القديم تمثالان متقنا الصنعة قائمان كأنهما يمشيان أحدهما على يمين الداخل وقد هشمت رجله الأمامية والثاني على يساره أي على يسار الداخل وقدخر على الأرض وتهشم وزال ومتى كان الإنسان في حوش المعبد وظهره إلى الباب نمرة 1 كان على يساره آثار المعبد الصغير المرموز إليه بحرف) ل (وهو منفصل عن جميع المباني وليس له علاقة بهذا الحوش وهو من بناء سيتى الثاني أو منفطة) مرنبتح ( )من العائلة التاسعة عشرة (وحجره رملي وأبوابه الثلاثة من حجر الكوارس الرملي الأحمر وعليه أسم المعبود سات ولما بناه أرصده إلى ثالوث مدينة طيبة وهو أمون وموت وابنهما خنسو تقدم في ذكر معبد الأقصر وفي الرواق الشرقي صورة السفينة المقدسة للمعبودة موت مع ابنها خنسو والملك سيتي الثاني أو منفطة يقدم لها الخمر وبجوار ذلك صورة الملك المذكور يقدم إلى معبوده أمون صورة إلهة الحق فإذا خرج الإنسان منه وجعل وجهه إلى الباب المشار له بنمرة 2 كان على يمينه المعبد المشار له بحرف) م (وهو من بناء رمسيس الثالث) من العائلة العشرين .(وهو معبد عظيم قائم بذاته لكن إذا نسبناه إلى معبد الكرنك لم يكن إلا كزاوية أو بيعة صغيرة وطول محوره 52متراً وأبراج بابه أنهدمت من أعلاها وله حوش واسع يرى به الداخل عن يمينه ثمانية أساطين مركوز عليها صورة أوزيريس وعن يساره مثلها وفي صدر الحوش أربعة من الأساطين كانت تحف مجازا يفضى إلى رحبة صغيرة بها ثمانية أعمدة و تيجانها على شكل أكمام نبات البردي وهذه الرحبة توصل إلى المحل الأقدس وتماثيل هذا المعبد تشابه التماثيل الكائنة في معبد الرمسيوم ومدينة) أبو .(وسوف يأتي الكلام عليه وعلى ظاهر الأبراج نقوش وكتابة تفيد ممنونية الملك رمسيس الثالث من معبوداته التي أباحت له الظفر بالأعداء وعلى الجناح الشرق أي الأيسر من الأبراج صورة هذا الملك وهومتوج بتاج الصعيد فقط وقابض على شعر ثلاثة صفوف من الأعداء وهم جاثون أمامه ويضربهم بمقمعة بحيث تصيب جميع رؤسهم في آن واحد وأمامه المعبود أمون يقدم له سيف النصر ومن تأمل في هؤلاء الصفوف علم أن اثنين منها رمز على أهالى الجنوب) بلاد أتيوبيا و وما جاورها .(والصف الثالث رمز على أهالى الشمال) بلاد الشام وماحولها (وعلى الجناح الغربي أي الأيمن منها تجده متوجاً بتاج البحيرة وفي سمك فتحة الباب تراه يستر علامة الحياة من معبوده أمون وعلى الحائط الأيمن من الأبراج صورة الحرب والقبض على الأسارى .أما داخل المعبد فدمر ومفعم بالأنقاض وعلى اليسار فيما يلي الجدار شرقا صورة تقديم القربان وهناك مكتوب ما نصه أمر

رمسيس الثالث في شهر بينى) بؤنه (من السنة السادسة عشرة من حكمه أن يقدم قربان إلى أبيه أمون رع على مائدة من الفضة ومن المأكولات الطبخ مما يطبخ من قرابين الخ أما رحبة الأعمدة المرموز لها بحرف) د (فهي أكبر رحبة في جميع آثار القطر المصري حيث يبلغ طولها نحو 103 أمتار وعرضها 52 متراً وذلك بقطع النظر عن سمك سورها ويرى به أسم الملك سيتى الاول) من العائلة التاسعة عشرة (وهو أقدم اسم ملك وجد بها وظن بعض علماء الآثار أنها من بناء رمسيس الأول أماسيتي المذكور فأتمها و زينها وكانت هذه الرحبة مع إتساعها مسقوفة بالصخور وجميعها ظلام لا يدخلها الإ ضوء ضعيف من مناور كان عليها برامق من الأحجار لم يزل بعضها باقياً إلى الآن وكان جميع السقف والجدر مستورا بالنقش والقلم البربائى و بوسط جداريها شمالاً وجنوباً بابان كبيران ينفضيان إلى هاتين الجهتين ولابد أنها كانت أعجب جميع مباني الدنيا بعد الأهرام فأن المتفرج يخال أعمدتها ومسلاتها غابة بديعة من الأحجار الملساء القائمة بهندام كأحسن ما يكون وقال بعض العلماء إذا كان هنالك مبان غريبة فلاشك أن تكون هذه الرحبة .وقد أهتم بها جملة ملوك بذلوا فيها أقصي عنايتهم منها الملك رمسيس الأول وسيتى الاول ورمسيس الأكبر وغيرهم و بها لهذا الأخير بعض تماثيل وتشغل من الأرض نحو خمسة آلاف متر مربع وقال المعلم بيديكر الألماني في الجزء الثاني من كتابه مرشد سائحي الألمانيين إلى آثار مصر أن هذه الرحبة تسع جميع كنيسة مريم العذراء التي بمدينة باريس **Notre Dame** وبها مائة وأربعة وثلاثون عموداً من أعظم ما يكون تحمل سقفاً من الصخور أما صفا الأساطين التي بوسطها فيبلغ عددها اثنى عشر عموداً وهي أعلى وأضخم من باقي الأساطين التي حولها حيث يبلغ قطر كل واحد منها ٣,٥٦ أمتار ومحيطه ينوف عن العشرة أمتار وارتفاعه ٢١ متراً وقطر تاجه ٣,٣٤ أمتار وإذا تحلق بالعامود الواحد منها ستة رجال واضعين يدهم في يد بعضهم لايكادون يحيطون به وأما باقي الأعمدة فيبلغ محيطها نحو 8,40 أمتار وإرتفاعها ١٣ مترا وتيجانها على شكل أكمام نبات البردي .ولكن من الأسف أننا نرى بها كثيراً من هذه الأساطين قد طاحت به الأيام فأنقض أو مال أو وقع تاجه من وقته أو آل إلى السقوط أما عرشها فخر على الأرض وأن لم تتداركها عين الحكومة أو المحسنين من الزائرين لأصبحت كأن لم تغن بالأمس ولكن ماذا تصنع الحكومة أو الحكومات الأجنبية في بناء قام به جملة دول من الفراعنة مدة سطوتهم وإمتداد شوكتهم وتسخيرهم لمن جاورهم من الأمم مع وفرة الوسائط من مال والآت والذي أعلمه أن أعظم دولة ببلاد الأفرنج تعجز عن ترميم معبد الكرنك وإعادته لما كان عليه إلا في الزمن الطويل أما العمد فكل واحد منها مركب من جملة صخور

منحوتة بهندام لطيف الشكل وعلى كثير منها أسم رمسيس الثاني وفي أعلى الستة صفوف.

التي جهة الشمال اسم سيتي الأول وفي أسفلها اسم رمسيس الرابع وفي أعلى باقي العمد اسم رمسيس الثاني وفي أسفلها اسم رمسيس الرابع وعلى بعضها اسم رمسيس الثالث والسادس والثالث عشر وعلى بعضها اسم رمسيس الثاني وهو ملقب بأنه ملك الصعيد والبحيرة وسيد الخافقين وابن الشمس وصاحب التاج وغير ذلك وأحسن طريقة لرؤية جميع هذه الرحبة بما إشتملت عليه هو أن يقف الإنسان على بابها بين الأبراج المشار لها بنمرة ٢ وينظر من بين صفي تلك الأعمدة الضخمة المارة بوسطها. وقد رأيت بعض السائحين يقصدون هذا المكان ليلًا متى كان ضوء القمر مستكملًا لأنهم يرون له رونقاً وبهجة عجيبة.

الفصل الثالث والعشرون

فما قالوه في الروح بعد الموت وسب إعتنائهم بتحنيط الأموات وإعتقادهم في الجعل (الجعران)

وإتخاذهم التماثيل المعروفة بالمساخيط وبعض شذرات تاريخية

كانوا يقولون أن الإنسان إذا مات تخرج منه الروح وينعقد الدم وتخلو الأوردة والشريانات منه وإذا ترك الجسم بلا تحنيط يتحلل إلى أجزاء صغيرة جداً ليس لها شكل خاص وتتزمل مدركة الفهم بقميص من نور وتلحق بالشياطين العليا أما الروح فإنها مى إنفصلت عن هذه المدركة التي كانت تهديها وتخلصت من كثافة الجسم الذي كانت تسكنه تذهب عاجلاً إلى محكمة (أوزيريس خنت أمنت) المتركبة من اثنين وأربعين قاضياً جهنمياً فينطق القلب

ويشهد بما لها وما عليها من خير أو شر ثم ينصب لها ميزان الحق وبوزن أعمالها فيه وسمبل ويصدر الحكم إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر وتكلف مدركة الفهم بتنفيذه عليها فتدخل في الروح الشقية وهي متسلحة بالنار اللدنية فتضلها وتحسن لها فعل القبيح وتحول دعواتها وصلواتها غلى عبث وهزئ فتجلد بسياط ذنوبها وتسلمها إلى زوابع عناصر العذاب فتذبذب بين السماء والأرض وتصير ممقوتة ملازمة للسب واللعن وهنالك تبحث على جسم إنسان لتسكنه ومتى تيسر لها ذلك أسلمته للعذاب وأثقلته بالأمراض وعرضته للهلاك أو الجنون أو تنقمص بأجسام الحيوانات الدنيئة وتسجن في كل جثة نجسة وتدوم على ذلك قروناً عديدة إلى أن تستوفي جميع ما كتب عليها من العذاب ثم تموت وتنعدم كأنها ما خلقت وما أتى لها ذلك إلا من شهادة القلب عليها وقد وجد على أحد أوراق البردي ما صورته (أيها القلب أيها القلب الذي خلقت لي وأنا في بطن أمي وأتيت معي إلى الدنيا لاتنازعني ولا تشهد علي بين يدي الله). (

أما الروح الراضية المرضية فإنها بعدما تحاسب تحجب عن رؤية الحقائق لأنها لا تصل إلى النعيم إلا بعد معاناة الشدائد وقطع العقبات المعدة لها ثم تهديها المدركة ويأخذ بيدها الرجاء الصالح فتدخل في الفضاء المجهول وهناك تكثر علومها وتزيد قوتها وتتشكل كيف شاءت فتكون كنسر من ذهب أو كطير الغرنوق أو الخطاف (عصفور الجنة) أو كالبشنين وغير ذلك فتكمن لها

الشياطين في طريقها وتحفها الأرواح الخبيثة من كل ناحية وتهجم عليها لتخطفها أو لتخطف عضواً من أعضائها سيما القلب أو تعيق سيرها فتتلو عليهم العزائم الخاصة لذلك حتى تتلاشى قوتهم ثم تتحد (باوزيريس) وتصير مثله أي تدخل في العنصر الذي إنبعث منه وتقطع الذي غنبعثت منه وتقطع المساكن السماوية ولها أن تزور متى شاءت الجسم الذي فارقته فلذا إعتنوا بتحنيط أجسام موتاهم وبالغوا في التحفظ عليها لتبقى إلى الأبد في حالة جيدة وكانوا يعتقدون أن الروح على شكل باشق أو حمامة لها رأس إنسان تنشر جناحيها على صدر تابوت الميت هكذا.

وهذا مطابق لما قاله الرئيس ابن سينا في قصيدته المذكورة بالكشكول ومطلعها

هبطــت إليــك مــن المكــان الأرفــع	ورقـــــاء ذات تعـــــزز وتمنــــــع
ومنهـا وصـلت علـى كـره إليـك وربمـا	كرهــت فراقــك وهـــي ذات تفجـــع

وقوله ورقاء أي حمامة وسوف يأتي بقية الكلام على إعتقادهم في الروح.

وقد رأيت بقبر الملك سيتي في بيان الملوك جهة القرنة صورة الحشر والمنشر والحساب والعقاب والمجرمين مقرنين في الأصفاد وقد قطعت رؤسهم أو أعضاؤهم أو غير ذلك وكذا صورة المتقين وهم يرفلون في النعيم المقيم وفي جهة أخرى صورة الميزان وقضاة الحساب يحاسبون الروح ويحصون أعمالها وسيأتي ذلك في الرحلة في بيان الملوك وكثيراً ما كانوا يرسمون ذلك على الورق البردي ويجعلونة مع أمواتهم.

(أ)أوزيريس رئيس القضاة جالس على منصة الحكم (ب ب) الاثنان وأربعون قاضياً المكلفون بحساب الروح وعلى رؤسهم ريشة العدل (حـ حـ) الروح تحاسب بين يدى القضاة (د) مائدة عليها بعض أرواح الموتى وقليل من القرابين (هـ) كاب جهنم أو او أحد الزبانية (و) توت كاتب الأعمال يسجل ما ظهر له (ز) علامة العدل ثم الميزان وفي كفته اليمنى قلب الميت وفي اليسرى معيار الحق (ح) هوروس ينظر كم بلغت الحسنات والسيئات (ط) أنوبيس يراقب كفة معيارالحق (حـ حـ) المعبودة معت إلهة العدل لها صورتان بيدا حديهما قضيب الملك وبوسطهما روح الميت تتبرأ من كل ذنب. وقال العلامة مسبرو أن طائفة من الناس كانت في ريب من هذا الحساب والعقاب وظنوا أن لا شيء غير الموت إذ هو الطامة الكبرى وأن الدار الآخرة ليست إلا دار الصمت الأبدي ولا هناك شيء غير الحداد والحزن وكأنهم يقولون أنها لأرحام تدفع

وأرض تبلع وما يهلكا إلا الدهر وإستدل على ذلك بهذه النصوص التي وجدت في بعض المقابر لأحد النساء وصورتها يا أخي ياخليلى ياحليلي (يازوجي) كل وإشربه وإطرب وإترع كؤوس الصفا وإنتهز فرصة الدهران صفا وتمتع بكل عيد وإفعل جميع ما تريد وما دمت في دنيالك لا تحزنعلى ما فات ولا لما هو آت لأن مملكة الأموات محل النوم الطويل والظلام الكثيف الثقيل ودار للأحزان والهم والأشجان وأن كل من وافاها لم يفق من نومته ولا يشتاق لرؤية إخوته ولا يهيم قلبه إلى زوجته وينسى الأهل والأولاد ويلبس فيها ثوب الحداد وكل حي يرويه ماء الحياة في دنياه وأنا محرومة منه بعيدة عنه وكل من شرب الماء الزلال إرتوي في الحال وأنا الماء يظمئني ولا يرويني وإني لا أعلم أين أنا منذ ما جئت إلى هنا وها أنا أنوح على شربة من ماء السلسبيل كنوحي على نسيم وادي النيل ليطفئ اللهيب من قلبي الكئيب وها هو إله الموت يدعو الآخرين ويجمعهم بالأولين فيأتون له خاضعين خاشعين ويرتعد لديه الكبير والصغير ويستوي عنده الجليل والحقير فهو لا يسمع لهم دعاء ولا يلبي لصوتهم نداء ولا يقبل منهم فداء أه.

وهذا يقرب مما قاله الوزير أبو بكر لأخيه أبو مُحَمَّد البطليوسي.

يا أخـــي قـــم تـــرى النســـيم علـــيلًا	باكـــر الـــروض والمـــدام شمـــولًا
في رياض تعـــانق الزهـــر فيهـــا	مثـــل مـــا عـــانق الخليـــل خلـــيلًا
لا تـــنم وإغتـــنم مســـيرة يـــوم	وأن تحـــت الـــتراب نومـــاً طـــويلًا

وهو يقرب أيضاً ما قاله الشيخ السعدي في جلستاته الفارسي من أنه كان مكتوباً على تاج كسري أنوشروان ما ترجمته.

دهـــر طويـــل وأزمـــان وأعصـــرة	ســتركض الخلــق فيهــا فــوق أرؤســنا
كمـا سـرى الملـك فينـا مـن يـد ليـد	ســينتهي لســوانا بعــد أنفســنا

وقال بعض المؤرخين أن سبب إعتناء المصريين بحفظ أجسام موتاهم كان لأمور صحية لأنه لم يعهد في أيامهم حدوث وباء قط وقال آخرون أنهم كانوا يقولون بالرجعة في هذه الدنيا وأن الروح تعود إلى جسم صاحبها بعد مدة طويلة لتسكنه فإذا رأته تلف وتقطعت أوصاله دخلت في جسم إنسان آخر وهو قول أهل الهند وبعض فلاسفة اليونان مثل فيثاغورس وغيره ومن تأمل في عوائد القدماء وجد أن الرومانين كانوا يحرقون جسم موتاهم ليفنوه بتمامه على الفور والمصريين كانوا يحافظون على بقائه إلى الأبد. والأشوريين وغيرهم كانوا يدفنونه ليبلي شيأ فشيأ

وطائفة من الهنود يرمونه في نهر الكنج ليجعلونه قرباناً إلى التماسيح المقدسة عندهم وسكان مملكة دهومي ببلاد غينا الشمالية كانوا يقدمون له قرباناً من الآدميين وغيرهم.

أما طريقة عمل الجنائز والتحنيط عند قدماء المصريين فقد ذكر هيردوت المؤرخ تفصيل ذلك حيث قال كان من عادتهم أنه إذا مات لهم أحد تضع النساء الطين على رؤسهن ويطفن بالمدينة أو القرية حاسرات الوجوه ويضربن صدورهن ووجوههن وتفعل الرجال مثلهن ثم يحملون الميت إلى المحيطين وهم طائفة أباح لها القانون هذه الصنعة وعندها جملة أنموذجات على شكل الأموات مصنوعة من الخشب المنقوش المزين بالكتابة تتفاوت في الأثمان ومتى حصل الإتفاق على الثمن والكيفية يعود أهل الميت إلى منازلهم ويشرع المحيطون في مباشرة العمل وكيفية ذلك هي أنهم كانوا يخرجون جزأ من المخ بواسطة قضيب من حديد أعوج من أحد طرفيه وما بقى يخرجونه بواسطة العقاقير والتوابل التى يدخلونها في تجويف قحف الدماغ ثم يشقون الخاصرة بموانة حادة ويخرجون منها الأمعاء ثم ينظفونها ويغسلونها بنبيذ التمر ويجعلون عليها التوابل العطرية ويملؤن تجاويف البطن بمسحوق المر والقرفة وغيرها ما عدا المصطكي ثم ينقعون الجسم في سائل مركز بالنطرون مدة سبعين يوماً بلا زيادة ثم يفشلونه ويغسلونه بالسوائل المدبرة ويقمطونه بقط من الكتان المدهون بالغراء ويضعونه في تابوت من خشب الجميز بعدما يطلونه بالجبس وينقشون عليه اسم الميت واسم أبيه وصنعته ويسلمونه لذويه فيأخذونه ويحملونه إلى دارهم ويجعلونه في خزانة واقفاً مرتكزاً على حائط منها أو يدفنونه في قبر العائلة.

أما الأحشاء وهي الأمعاء الكبيرة والصغيرة والقلب والكبد فكانت توضع في أربع قدور من المرمر أو الفخار وترصد على أربعة من الجان توضع في أربع زوايا القبر ولست هذه الطريقة مطردة في تحنيط جميع الأموات لأن فيها كلفة على الفقير الذي لا يستطيع دفع ثمن هذه التكاليف الكثيرة ففي هذه الحالة كانوا يستعملون طريقة التحنيط بواسطة الملح والقطران أو بالملح فقط ويعملون من جريد النخل تابوتاً بدل خشب الجميز وربما دهنوا الكفن بالقفر أو القار حتى يصير الجسم كالخشب الصلب القوي وذلك لا يمكن فكه إلا إذا تهشم الجسم بنحو بلطة ورأيت على بعض هذه الأكفان أختاماً مصنوعة من مادة سوداء تميل إلى الحمرة واقعة على أشرطة فوق الجبهة والصدر والسمرة فظننت أن أصحابها من النساء الأبكار لكن علمت فيما بعد أنها أختام القسس التي كانت تضعها على الأموات من الذكور والإناث لأجل التبرك بها. وكثيراً ما يرى على توابيت الموتى صورة الجعل (الجعران) حاملًا صورة قرص الشمس بين قرنيه أو

ماداً جناحيه أو صورةالمعبود نوت (السماء) عند قدميه وبعض المعبودات تحفه بأجنحتها لتقيه الشر في الدار الآخرة أو يكتبون عليه فصلًا من كتاب الموتى أو صورة الحساب والميزان أوعيني أوزيريس أو غير ذلك ولم يقتصروا على تحنيط موتاهم بل حنطوا البقر والتماسيح والطيور والقطاط والهوام والزواحف والأسماك ويري أحياناً في عنق الميت أو على صدره أو في فمه جعل وعلى صدر المرأة قلائد أو سجع من الخرز أوعقود من تماثيل المعبودات الصغيرة أو أشياء أخرى من المصوغات.

أما إعتقادهم في الجعل فهو أنهم كانوا يزعمون أنه يجعل الميت في رعاية المعبود الذي هو رمز عليه وهو المعبود (خبر) أي الشمس المشرقة كل يوم المتجددة صباحاً بعدما ماتت بالعشي وسجنت في قرصها ووضعت في سفينتها اللدنية ودعالها كل من أوزيريس ونفتيس حتى صارت في أمان من كيد أعدائها وقطعت ساعات الليل وتجددت صباحاً فلذا كانوا يجعلون الجعل مع أمواتهم كالتمائم وربما كتبوا على بطنه شيأ من كتاب الموتى

ولما كان لفظة (خبر) معناها الصيرورة صار الجعل عندهم رمزاً على تجديد الحياة كالشمس التي تجددت بعدما ماتت أو على ما يؤل إليه أمر الروح في الملكوت لأن من عادة الجعل أنه بيض بيضة واحدة ويطبق عليه رجليه من خلف ويد حرجها بهما حتى تكتسب الملاسة وتتم أيامها فيخرج منها جعل صغير ثم تموت الأم فكأن الحياة إنتقلت منها إليه أو صارت جعلًا جديداً وكانت نساء القدماء يحملن صورته كالقلائد في أعناقهن أو يجعلنه أقراطاً في آذان أو يتختمن به للتبرك أو لمجرد الزينة وكذا الرجال كانوا يتختمون به ويكتبون عليه علامات مشتبكة في بعضها ليس لها معنى أو علامات لا يعرفها غيرهم وتارة يكتبون عليه أسماءهم أو ألقابهم أواسم ملك عصرهم وتارة تكون عليه فائدة تاريخية أو يكون عليه أدعية أوغير ذلك مما يطول ذكره وقال بلوتاركه أن طائفة الجند المصري إتخذت خواتمها من الجعل وقال غيره ان الجند إنما فعلت ذلك لأن الجعل يدل على التذكير إذ ليس له أنثى من جنسه ولأنه سهل المحمل سواء كان مركباً على خاتم أوغير مركب سيما وأنه يمكن أن ينقش على بطنه كل ما يراد وقد وجد على بطن بعضها صورة الجعل نفسه وصورة الأسلحة أو الرجال بسلاحها أه.

أما التماثيل الصغيرة الخزفية التي توجد الآن مع الأموات المعروفة عندنا باسم المساخيط فكانت تسمى عندهم (شبيتي) أي الوكلاء أو النائبون لأنهم كانوا يعتقدون أنها تؤدي وظيفة

مهمة يوم العقاب منها أنها تجيب عن الميت عندما يطلب للحساب والعذاب ومنها أنها كانت تقوم مقامه في تأدية أشغال السخرة التي كان أوزيريس وطلبها من الأموات وقد وجد على كثير منها نصوص تؤيد ما قلناه فقد وجد على أحدها مكتوب (أنا خي خادم الجحيم) وكثيراً ما يوجد على بعضها تأكيد على البعض الآخر منها بحسن أداء الخدمة يوم الحساب للميت التي هي معه من ذلك ما صورته (يا نائب عن أهموس إذا نودي باسم أهموس وطلبوه للشغل في الجحيم صح أنت بدله قائلًا ها هو أنا أهموس) ومنها (أيها النائبون عن الرئيس فتاح موس إذا سمعتوهم نادوا باسم الرئيس أو جعلوه مع الذين عينوهم لأداء جميع الأشغال في الدار الآخرة وحتموا على فتاح موس الذي قهر الأعداء أن يشتغل في الأشغال الشاقة كأن يزرع الغيطان أو يملأ الترع والخلجان أو ينقل الحب من الشرق إلى الغرب صيحوا قائلين ها هو أنا ها أنا ذا صيحوا وإرفعوا أصواتكم ولو نودي اسمه في كل ساعة من النهار) وكانوا يكثرون من هذه التماثيل مع الميت ليكون أداء الخدمة محققاً ويعتق الميت من مشقتها حتى أنهم كانوا يجعلون معه مئات بل آلافا فتارة يلقونهم في تابوت الميت أو في قبره بلا ترتيب وتارة يضعونها في صناديق خاصة كبيرة أو صغيرة وكانوا يصنعوها من الخزف أو الفخار ويطلونها بمادة زجاجية زرقاء أو يتخذونها من الرخام أو المرمر أو من الأحجار الجبرية أو غير ذلك وقد وجد منها من بيده فاس كأنه مستعد لفلاحة الأرض ومن معه مخلاة لبذر الحب أو نقله أو إناء لسقي الخمر أو مفتاح النيل أي علامة الحياة بعد الموت وغير ذلك أما التمساح وفرس البحر والثعبان فكانت رمزاً على إله الشر عندهم المدعو (تيفون) وكانوا يعبدونها ليتقربوا بها إليه إتقاء شره وكانت هذه المعبودات تقدس في بعض الجهات وتقتل في البعض الآخر مثل التمساح فإنهم كانوا يعبدونه في إقليمي الفيوم وطيبة فكان يستأنس بالناس حتى يأكل في أيديهم وهو معزز عندهم مبجل لديهم كبير في أعينهم مع أن أهل جزيرة أسوان ودندره كانوا يمقتونه وينفرون من رؤيته ويصطادونه ليقتلوه أو ليعذبوه بأنواع العذاب ويشدون وثاقه في الشمس الحارة حتى أن بعض البلاد التي كانت تبغضه عبدت الشمس لأن من دأبه إتلاف بيضه.

وقال هيرودوت أن أهل الفيوم كانت تجعل في أذنه قرطاً من ذهب أو من خزف منقوشاً المينة وفي يديه أساور من ذهب إلى أن قال وأكل ضيفنا النطير والسمك والمقليات وشرب شراباً محلى بالعسل وذهب معنا إلى البحيرة ونام على شاطئها فاتت القسس إليه وتقدم اثنان منهم وفتحاته ووضع الثالث فيه من الفطير المقلي وسقاه المرطبات وبعد ذلك نزل الماء وسبح فيه

حتى وصل الشاطئ الآخر فأتى إنسان ومعه نذر له فناوله للقسس فأخذته منه وسارت به على شاطئ البحيرة حتى وصلت إليه وأعطته له بالطريقة المتقدمة ثم قال في موضع آخر وهذا الحيوان لا يأكل مدة أربعة أشهر الشتاء ويعيش في البحر كما يعيش في البر وبيضه قدر بيض الأوز يدفنه في الرمل فيفقس فيه بلا تحضين لأن حرارة الشمس تكفيه ومتى خرج من البيضة ينمو بسرعة عجيبة حتى بلغ سبعة عشر ذراعاً فصاعداً وليس له لسان كباقي الحيوانات ومتى أكل حرك فكه الأعلى على الأسفل خلافاً لباقي الحيوانات ولعينيه مشابهة بعيني الخنزير بارز الأنياب عظيمها بالنسبة لجسمه حاد المخلب جداً مفلس الظهر صلب الجلد قوي البصر حديده في البر ضعيفه في البحر مرهوب الخلقة مهول الطاعة تخشاه الدواب والطير بفمه حشرات صغيرة تغذى من دمه لأنه يأكل عادة في الماء ومتى خرج فتح فمه إلى الهواء فيأتي طير صغير ويدخل في فيه ويلتقطها منه ثم يخرج بدون أن يصل غليه منه ضرر.

أما صيده فله جملة أنواع أعظمها أن الصيادين يجعلون في كلاليب (خطاطيف) من الحديد فلذات من لحم الخنزير ويلقونها في الماء ثم يضربون خنزيراً آخر على البر فيسمع التمساح صوته ويقصده فيرى في طريقه الكلاليب باللحم ومتى بلعها شبكت في جوفه هنالك يسحبونه إليهم ومتى أخرجوه من الماء طهسوا عينيه بالطين وفعلوا به ما أرادوا وإلا تعذر عليهم فعل أي شئ به أه.

وقال المؤرخ (شمبليون فيجاك) الذي نعلمه أن التمساح يأكل طول السنة صيفاً وشتاء خلافاً لما قاله هيرودوت وأنه حيوان بحري بري متوحش صاري مفترس مهول جسور متيقظ محتال ماكر يربض للنساء اللاتي يأخذن الماء من النيل ويغتالهن وفي سنة ١٨٢٠ مسيحية ضرب أحد الأرنؤد (الأرناؤط) خيمته على الساحل بجوار بندر اسنا فدخل عليه تمساح وخطفه من رجله وإنقض به في النهر وهذا الحيوان يعيش في البر لكن يفضل الماء ولسانه رقيق جداً محجوب في أغشية الفم وأن الشمس تنضج بيضه فيفقس من حرارتها وقد جمع أحد سياحي الإفرنج حينما كان ببلاد النوبة كثيراً من بيضه وجعله في سفينته ففقس البيض وخرجت أفراخ التماسيح ليلًا وملأت السفينة وهو لا يدري ولما رأى ذلك صباحاً هاله الأمر وأكبره (لم يذكر لنا المؤرخ ماذا فعل بها) وأن النمس يتلف بيضه فيأتي إلى النيل ويأخذ في التجسس على بيضه فيضع أذنه على الرمل ليسمع همس الفرخ داخل البيضة فيخرجه في الحال ويتلفه وجلد التمساح صلب جداً حتى أن الإنسان إذا أطلق عليه عياراً نارياً تنزلق رصاصته من فوق تفاليس

ظهره ولا تؤثر فيه وإذا كان نائماً لا تكاد تيقظه ويسافد أنثاه بعدما يقلبها على ظهرها ثم يعيدها إلى ما كانت وإلا بقيت مطروحة لا تستطمع حراكاً عرضة للموت والصياد لأنها لا تقوى على أن تنبطح من نفسها أه.

وصارت التماسيح الآن مجهولة بالكلية لغاية الشلال الأول مع أنها كانت في مبدأهذا القرن تأتي إلى القاهرة وكانت تأتي في قديم الأزمان هي وفرس البحر إلى مصاب النيل بقرب البحر المالح (راجع المقريزى وتاريخ عبداللطيف البغدادي) والسبب في عدم وجودها الآن بالنيل هو هدير الدواليب البخارية والطلقات النارية وقد أخبرني بعض الشيوخ بالصعيد وكان من صياديه أن الرصاصة لا تؤثرفيه قط إن أخطأت عينه أو تحت إبطه وأنه يغتال الناس والحيوانات بذيله ولا يقدر على أخذ السابح في الماء ومتى وجد إنساناً جالساً على الساحل أتاه من خلفه ودفعه في الماء وإغتاله ولنرجع إلى ما كنا بصدده.

ولما كان لكل إقليم معبودات خاصة به كانت عقارب العداوة تدب بين الأهالي ما عدا الكهنة وتحيك الضغائن في صدورهم فيكثرون من المشاغبات الدينية والجليات الوثنية والجلبات النفسانية وليس هذا بعجيب فإن من طالع التواريخ القديمة علم أن إختلاف الأديان كان سبباً وحيداً للحروب الطويلة وسفك الدماء كالأنهار وخراب الممالك العامرة وتدمير المدن الآهلة من ذلك حرب الأزارقة الذي مكث تسع عشرة سنة بن نافع بن عبدالله بن الأزرق والمهلب بن أبي صفرة أيام كل من عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنه وعبدالملك بن مروان الأموي وكان من مذهب الخوارج أي الأزارقة أن كل من إرتكب كبيرة خرج عن الإسلام ووجب قتله وأيدوا حجتهم على ذلك بكفر إبليس وقالوا ما إرتكب إلا كبيرة حيث أمره الله بالسجود فإمتنع وإلا فهو عارف بوحدانيته عز وجل وقال المهلب للحجاج الثقفي رأيت الرجل منا يطعن الرجل منهم فيمشي في الرمح إلى قاتله ويقتله وهو يقول وعجلت إليك رب لترضى فإنظر ما فعلته المذاهب مع أن كلا من الطائفتين تقر لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة (راجع ذلك في كتاب سرح العيون نمرة ١٠٤) وقال المؤرخ (ولهلم ريدانباخر) ما ملخصه (وفي سنة ١٣٧٨ مسيحية إستولى بابوان أحدهما في رومة بإيطاليا والثاني في أفنيون بفرنسا فكانا كالثعابين المؤلفة يتفلان ناراً على وجه بعضهما حتى حكم كل واحد منهما على صاحبه بالزندقة والإلحاد ورماه بالهرطقة والكفر وأن مصيره إلى الدرك الأسفل من النار هو وأشياعه والذي نعلمه أن مقام البابا يجل عن كل مقام لأنه رئيس الديانة العيسوية وإليه مقاليدها ولا نعلم أيهما كان النبي الكاذب وأيهما كان ابن الشيطان

ومازالا يسخطان على بعضهما حتى إنقسمت الممالك إلى حزبين وقامت القيامات وقويت الحروب وإشتدت الحمية وكثرت العربدة وإنفجرت ينابيع الفتنة وعلا شواظ الهياج وتأجج وهج الشر وكان كل واحد منهما يضرم لهيب الخصام وينفخ في نار الثورة ويستفز قومه على الإيقاع بعدوه ليخلو له مسند البابوية وكانت أمراء البلاد وأهل الميسرة من الطرفين يمدون الأهالي بالزاد والراحلة ومازال الخطب يشتد وسيف البغي يمتد إلى القرن الخامس عشر فكم تلفت أموال وتجندلت رجال وتيتمت أطفال وليس لذلك سبب غير شره البابوات) راجعه في الكتاب المذكور إن شئت).

وذكر في بعض التواريخ الفرنساوية المعتبرة أن في سنة ١٤٥٣ مسيحية لما هجم السلطان محمد الثاني على مدينة القسطنطينية عاصمة بلاد الروم وأراد أخذها من يد ملكها قسطنطينوس إستصرخ هو وقومه بالبابا في رومة فقال لهم إن أردتم أن أنقذكم من يد عدوكم إتبعوا مذهب الكنيسة الغربية فأبوا أن يرضخوا لقوله وآثروا ضياع ملكهم على إتباع مذهب غيرهم وبذلك وقعت مملكة الروم بأسرها في قبضة آل عثمان.

وقال المؤرخ دروي في تاريخه لما إنهزم المسلمون من أسبانيا (الأندلس) وإستولى عليها الإفرنج رتبوا بها مجلساص لإختبارعقيدة الفصارى وهو المعروف عندهم بالتفتيش الديني فحكم على ٣١,٩١٢ نفساً بالحرق وعلى ٢٩١,٤٥٠ نفساً بالأشغال الشاقة مؤبداً وجميعهم من النصارى لإعتزالهم المذهب إلى آخر ما قال هذه هي العداوة المذهبية فما بالك بالعداوة الدينية راجع تاريخ الحروب الصليبية وما حصل لليهود من نصارى اسبانيا بعد خروج المسلمين منها وما معنى المسئلة الشرقية التي تكلم عنها صاحب كتاب الوافي في صحيفة نمرة ٤ من مقدمة كتابه وماذا فعل المصريون ببني إسرائيل مدة إقامتهم بمصر وما فعلته دولة فارس بعد إستيلائها عليها وهاك طرفاً مما فعلته عرب الرعاة أو العمالقة بعد دخولها في هذه الديار.

لما هجر الكوشيون وطنهم المعروف قديماً باسم بلاد (البون) لعلها اليمن أو بلاد العرب قصدوا جهة الشمال وإنضم إليهم فوج من الناس الذين كانوا في طريقهم إلى أن وصلوا نهر الفرات وبحر النجف ثم توجهوا إلى بلاد الشام من جهة الشمال فخضع لسطوتهم كثير من البلاد حتى دخل تحت سلطانهم جميع الأقاليم المحصورة ما بين نهر الفرات وبرزخ السويس ولما كان غناء مصر وثروتها يجلبان لها طمع الأجانب قصدها فريق منهم مدة العائلة الرابعة عشرة بعد أن جابوا

الصحراء المعتبرة حداً فاصلًا بين آسيا وإفرقيا وسطوا عليها سطوة الذئب على الغنم فعاثوا في ربوع تلك الأمصار وجاسوا خلال الديار وخربوا مدينة سخا عاصمة الوجه البحري وقال المؤرخ مانيطون المصري في تاريخه (تولى على مصر ملك من أهلها يدعى (طمايوس) وفي أيامه أرسل الله علينا ريحاً مشؤمة هبت على جميع بلاد المشرق ولا أدري لذللك سبباً فساقت إلينا أمما أوغاداً أدنياء دخلوا مصر بغتة ونزعوها من يد أهلها بلا مقاومة أهـ) وقال غيره نزلت أمة العالقة أو الهكسوس على مصر كالجراد المنتشر فأضرموا بها نيرانهم الحسية والمعنوية ونهبوا المدن والهياكل وأوقعوا بها الدمار حتى صارت خراباً ويبابا وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال وإستولوا على جميع الوجه البحري ووقعت مدينة منفيس في قبضة جبروتهم وأثقلوا

كاهل من نجا من الموت بالمغارم وقال بروكش باشا لما نزات الرعاة بأرض مصر وكانوا أخلاطاً من الهمج سطت أيديهم على جميع ما بها فدمروا البلاد وأبادوا العباد وحرقوا الديار وأتلفوا الآثار وأكثروا القتل وأهلكوا الحرث والنسل فأصبحت مدن الوجه البحري كأن لم تكن بالأمس وألزموا من أسروه بعبادة الصنم سوتح معبودهم ولأجل توحيد عبادته خربوا المعابد المصرية وكسروا الأصنام الأهلية وفعلوا كل مكر قدروا عليه وإنحاز سكان الوجه القبلي إلى مدينة طيبة بالصعيد وحصنوها وإستولى على الرعاة ملك منهم يدعى شلاطي ويعرف عمد اليونان باسم سلاطيس وإتخذ مدينة صان تختاً له وأسس قلعة هوعر المعروفة الآن باسم تل النهر أما ما فعلوه من الفظائع فبقى منقوشاً في صدور المصريين نحو الألفي سنة بتوارثه الخلف عن السلف إلى زمن المؤرخ مانيطون المصري إلى آخر ما قال وقد وجد على ورقة من البردي ممزقة ما صورته (كانت الديانة وتوزيع ماء النيل سببين للحرب).

وذكر المسيودي مرجان نقلًا عن فهرست المتحف المصري للعلامة مسبرو أن نمرة ١١٧٤ هي صندوق الملك (سوكن إن رع) أحد ملوك العائلة السابعة عشرة وهذا الصندوق ثمين وثقيل وعليه طبقة من مسحوق الرخام والجير وكان مذهباً وعلى غطائه صورة الملك ورأسها والعصابة مدهونان باللون الأصفر وعلى الجبهة صورة الثعبان الملوكي ويمتد من الصدر إلى القدم سطر مكتوب بالقلم القديم غير أن الأحرف ليست متقنة وأما الموصية فكانت مقمطة بقماش غليظ بدون كتابة ظاهرة وفتح الصندوق يوم ٩ يونيه سنة ١٨٨٦ مسيحية وهاك ترجمة ما عليه من الكتابة (مات الملك سوكن إن رع في محاربة الرعاة فضرب ببلطة أزالت خده الأيمن وكسرت فكه الأسفل وكشفت أسنانه وضرب ثانية فشجت رأسه حتى ظهر المخ) ويشاهد بجانب العين اليمنى

جرح مفتوح ناشئ من ضربة رمح أو خنجر وحالة الجثة غير جيدة لتحنيطها بسرعة أهـ.

وروى مسبرو عن ماريت أنه يستدل من تماثيلهم وأصنامهم التي صنعت في أيامهم ووجدت حديثاً في خراب مدينة صان أن عيون القوم كانت صغيرة وأنوفهم عظمة مقوسة مفرطحة ووجناتهم ضخمة ظاهرة بالعظام وذقونهم بارزة وفمهم منخفض من طرفيه ويظهر على تقاطيع وجوههم قحولة وصلابة وشعرهم المرسل الساتر لجميع رؤوسهم يعطيهم هيئة خاصة بهم راجع باقي تاريخهم في محله وإلى هنا رددنا جماح القلم.

الفصل الثالث والعشرون

باقي الرحلة العلمية في معبد الكرنك

فإذا خرجنا من الباب الجنوبي رأينا على ظاهر الجدار المرموز له بحرف (ر) نقوشاً محفورة في الحائط تدل على واقعة حربية كانت بين المصريين وأهل فلسطين إنتصر فيها الملك شيشاق أول ملوك العائلة الصاوية فترى على يمين الباب صورة هذا الملك وهو متوج بالتاجين ورافع يده بمقمعة يضرب بها فوجاً من الأسارى الجاثمين أمامه ولهم سلمة دقيقة من أسفلها وهم رافعون إليه يد الإبتهال وأمامه صورة معبوده أمون بتاجه المضاعف وهو في صورة إمرأة قابضة بيدها على السيف أو الحسام وهي تناولها إياه وترى نحو مائة وخمسين شخصاً لم يظهر منهم غير رؤوسهم أما جسمهم فمستتر خلف شكل قطع ناقص أو شرافة كأنها قلعة أو مدينة و بجوار ذلك كتابة تذكر أن الآلهة هي التي يسرت إلى شيشاق الإستيلاء على هذه المدن فيعلم من ذلك أن هذه الشراريف عبارة عن المدن التي إستولى عليها ويرى على القطع الناقص التاسع والعشرين اسم يوده ملك أو يهوداً ملك وهو موثوق اليدين خلفه.

وجزم شمبليون الشاب أن هذه الصورة عبارة عن ملك اليهود المدعور حبعام بن سيدنا سليمان عليه السلام الذي غلبه شيشاق ملك مصر وقال أنه أتى به أسيراً مع باقي هذه الأسارى المرسومين بجواره بالمعبد وفي الواقع قد دلت التوراة على أن شيشاق المذكور غزا مملكة اليهود وسار من مصر إلى القدس الشريف في جيش مؤلف من ألف ومائة عربة حربية وستين ألف من الجنود المصرية وطوائف كثيرة من مشاة المغاربة والنوبه وغيرهم فإستولى على جميع قلاع فلسطين ودخل مدينة القدس الشريف وسلب أموال المسجد الأقصى الذي بناه سيدنا سليمان عليه السلام وكذا أموال القصور الملوكية حتى الدروع السليمانية المصوغة من الذهب وغير ذلك وقال بروكش باشا ان يهودا ملك المرسوم على معبد الكرنك هو كباقي الأسماء المذكورة بجواره عبارة عن بلاد فلسطين التي إستولى عليها هذا الفاتح ومن ثم لا نرى دليلًا قطعياً يؤيد رأي شمبليون الشاب من أن هذه الصورة هي عين رحبعام المذكور وترى على بعض الصور أسماء كثيرة عبرانية يشم منها أنها مدن أو عائلات يهودية إذ ترى الإسم الأخير من الصف الأول ينطق ربيت وفي الصف الثاني إسم تاناخ وشونم ورحوب وهفرايم وأدولام ومهنايم وجبيون (وهي مدينة

جبيون التي كانت في ملك اليهود) وبيت هورون وكدموت وأيولون وغير ذلك.

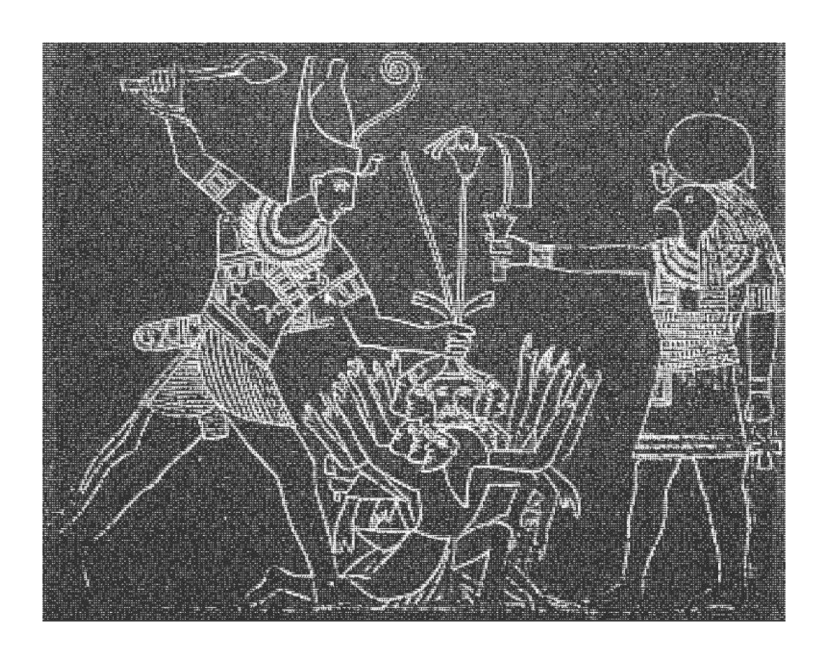
فإذا إتبعنا الجدار وسرنا معه إلى الشرق وجدناه يتقاطع مع جدارا آخر فإذا علونا عليه وإستقبلنا جهة الشمال كان على يميننا أي على الجدار المرموز له بحرف (ن) صورة قصيدة بنتاؤر الشاعر الذي مدح بها مسيس الأكبر وذكر فيها نصرته على أمة الخيتاس أي الهيثيين في وقعة حربية كانت في السنة الخامسة من حكمه وقد مر ذكرها وكان عن سارنا أي على الحائط المرموز لها بحرف (ك) ما بقى من نصوص تجريدة أخرى جردها الملك المذكور على الأمة المذكورة وهي مجردة عن التاريخ وكان أمامنا أي على الحائط المرموز له بحرف (ر) صورة الصلح المبرم ما بين رمسيس وملك الخيتاس المدعو (ختاسار) راجع صورة هذه المعادية في كتاب العقد الثمين تأليف حضرة أحمد بك كمال نمرة ١٠٧. فإذا غادرنا هذه الجهة ونحونا نحو الباب الشمالي الذي برحبة الأعمدة المرموز له بحرف (هـ) وخرجنا منه إلى الخارج ونظرنا إلى ظاهر الحائط رأيناها قد لبست لطول العهد ثوب البلا وتلت لا حول ولا بيد أننا نجد على بعض بقاياها أنفس شيء يؤثر عن مدة الملك سيتي الأول حيث نرى صورة وقائعه الحربية في آسيا الغربية مع أمة الرمتم (الأرمن) وأمة الشاسو (عرب البادية) وأمة الخارو (لعلها بلاد الخابور جهة العراق) وأمة الروتنو (الأشوريون أو رالكلدان ببلاد الموصل أو أرض جزيرة إبن عمرو) وأمة الخيتاس (جهة أرض فلسطين) ومن نقوشها نعلم أن الملك سيتي توجه إلى بلاد آسيا وأسرع الكرة إلى بلاد الأرمن ودخلها فدوخها وخضع له أهلها حيث تراهم يقطعون أشجار غاباتهم ليصنع منها سفن له أو ليمهدون طريقًا لعربته بوسط جبالهم وآجامهم وترى نصوصًا على بعضها ما صورته كان سعادته أمامهم كأسد إحتد بالغضب وهاج فهجم عليهم وجعلهم ربما بوسط أوديتهم عائمين في دمهم اهـ.

ثم ترى أحوال الواقعة والمصاف وانهزام العدو وشتات شمله ورجلًا فارًا من الموت رافعًا يديه بالضراعة وعلى رأسه نحو قلنسوة وترى في جهة أخرى صورة الفشل الذي وقع فيهم وقد رشقهم المصريون بنبالهم فإرتموا على الأرض وما فر من كل عشرة آلاف منهم غير واحد ليخبر بما عاينه من قتال المصريين ويطير الخبر إلى باقي البلاد البعيدة فإذا تحولنا إلى الحائط الشمالي رأينا نقوشها منقسمة إلى قسمين أعلى وأسفل ففي الأعلى (في نهاية الحائط من جهة اليسار) صورة الجنود المصرية وقد إستولت على قلعة نينوى (عاصمة الأشوريين وهي بلدة يونس عليه السلام) وصورة نهر الدجلة ولأهلها وجوه قبيحة قدوات الأدبار واختفت خلف الأشجار والملك فوق عربته بوسط المعركة (قد أزيل الحجر المرسوم عليه رأس الملك وخيل عربته) وقد

هجم على إثنين من الأعداء وهما فوق عربتهما وهو يرميهم بالنشاب (جزء من الحائط مهدوم) وعلى بقيته صورة الملك يوثق بيديه بعض الأعداء ويجر آخرين خلف عربته وعلى يمين هذا الرسم صورته تسحب أربعة من الأسارى وتجر صفين من الأعداء وبين هذين الصفين كتابة مفادها أن هذه الأسارى هم أعيان أمة الروتنو ووجوه البلاد (أي الكلدان) (ثم هدم بالحائط).

وبعد ذلك صورة الملك رافع يده اليمني يجر بها الأسارى وهم مغلولون في حبل مع أنه قابض بيده اليسرى على ذلك الحبل مع قوس له وهذه الأسارى من سكان الشام العليا وهو يجرهم أمام ثالوث طيبه (أي أمون وموت وخنسو) ويقدم لهم منحة نفيسة من الفضة والذهب واللازورد وغير ذلك من الأحجار والمعادن النفيسة.

أما الرسم الأسفل ففيه صورة الملك (جهة اليسار من الحائط الشمالي) راكبًا على عربته الحربية وجاعلًا ظهره إلى أهل آسيا (أمة الخارو) ويمر على جملة قلاع لعله هو الباني لها لتكون محطات للمياه اللازمة لجيشه لأنك ترى بجوار بعضها صورة بحيرة من الماء العذب و بإزاء ذلك صورة الملك فوق عربته بوسط المعركة وقد إحتاطت به أمة الشاسو (عرب البادية) فصار يرميهم بالنبل وهم يقعون حوله ومن فر منهم بحصن في قلعة تسمى قلعة كنانه وبالقرب منها صورة خليج السويس أو الترعة المالحة الفاصلة ما بين قمم آسيا وأفريقيا كأنها كانت موجودة من أيامه وهو أمر غريب أما باقي الرسم فيدل على أن الملك قد عزم على العودة إلى الأوطان وقد ركب عربته وخيله تجحم عن السير وتعربد بخفة العربة وهو قابض بيده اليسرى على أعنتها مع القوس ويهز بيده اليمنى سيفه المسلول مع أنه قابض بها على حبال مقرون فيها عصبة من الأسارى تمشي صفوفًا نصفها أمامه ونصفها خلفه ثم تراه كأنه وافي محطة بالصحراء وبجوار حافر الرجل الخلفية لفرسه صورة قلعة إسمها مجدل (لعلها مجدله) وبين قوائم الخيل صورة قلعة أخرى تعرف بإسم قلعة السباع ثم تراه دخل أرض مصر وهو مظفر منصور ووقف عند قلعة تسمى (واتء إن ستى) ثم وصل إلى قلعة أخرى تسمى (تازام إف إم با) ثم إنتقل إلى غيرها وتسمي (پاما) ثم وصل إلى البلدة قد ضاع إسمها وهو يقود أفواجًا من الأسارى المختلفي الأجناس وهناك أتت له رجال دولته وأعيان مملكته لتهنئه بسلامة القدوم فوافته بجوار نهر به كثير من التماسيح وتراه في جهة أخرى قد قبض على شعر فوج من الأسارى ليقتلهم أمام معبوده وهذا الرسم كثير الوجود على آثار الصعيد وقد إخترنا منه ما هو مرسوم على معبدًا بسمبل ببلاد النوبة ليكون نموذجًا لغيره (أنظر الشكل الآتي).



صورة رمسيس الأكبر قابض على شعر كثير من رؤساء القبائل المختلفة الأجناس المتباينة الوجوه التي تمردت عليهوشقت عصا طاعته ليقتلهم بضربة واحدة أمام معبوده هرماخيس الذي يقدم له الحسام

وجميع ما ذكرناه لغاية الآن لا شيء بالنسبة لما هو مرسوم على تلك الآثار لأننا لو أردنا التفصيل لإحتجنا إلى كتابة جملة أسفار ولنؤجل وصف باقي هذا المعبد إلى الفصل الآتي

الفصل الرابع والعشرون

في خرافات الأمم القديمة وذكر شئ من اعتقاداتهم

من تصفح تاريخ العالم القديم رأى أن جميع الناس على اختلاف مللهم وتباين نحلهم أجمعوا على إعتقاد الخرافات وتصديق المستحيلات وإقتفى البعض أثر البعض كأنهم أمة واحدة فوق الأرض لا يفرق بين دانيها وقاصيها ولا يفضل عابدها على عاصيها وإسترسل كل فريق منهم في الأوهام وما كان عليه إن اهتدي في طريقه أو هام وهاك طرفًا مما به أرجفوا وفيه خرفوا من ذلك أن المصريين كانوا ينسبون لكل واحد منهم طيفًا أو خيالًا أو ظلًا يسمونه (قا) ومعناه عندهم القرين أو القرينة ويعتقدون أن الإنسان مادام على قيد الحياة سكن قرينه الأحجار والصخور والأخشاب و بقى بها فإذا مات إنتقل معه إلى قبره وسكن فيه ولازمه ملازمة الصفة لموصوفها وقال مسبرو كان القرين عندهم عبارة عن نتيجة حياة الإنسان في الدنيا فإذا مات سكن معه في رواق القبر المعد لإجتماع أهل الميت وأقاربه أيام الأعياد والمواسم أو سكن الأماكن المعدة لذبح القرابين المجاورة لمدفن صاحبه وزعموا أن عض السباع والوحوش والهوام يؤثر فيه كما أن لدغ العقارب أو نهش الأفاعي يميته وسمها يجري في جسمه الوهمي كما يجري في جسم الأحياء و يعتريه الجوع والظمأ والشيخوخة والهرم ثم يدركه الفناء وبالجملة يعتريه جميع ما يعتري الأحياء وكانوا يزعمون أن غذاءه دائمًا من القرابين التي تقدم إلى الميت صاحبه بعد الدفن وأن صورة القرابين المرسومة على جدر المقابر تكفيه ألم الجوع فإن لم ير عليها رسم شيء ولم تبادر أهله بذبح القرابين خرج من القبر إلى الفلاة والطرقات وأكل القاذورات والقمامات فإذا لم يجد ما يأكله مات لوقته جوعًا وعطشًا وكانوا يقولون إنه يأكل الجوع ويشرب العطش رغمًا عنه وهي عبارة يصعب الوقوف على حقيقتها ولعلهم يريدون بذلك أن الجوع والظمأ يدخلان جوفه رغمًا عنه وقالوا أن الأغذية الدسمة تقويه والمشروبات المرطبة ترويه وقد أكثروا في نصوصهم من ذكر ذلك منها ما وجد مكتوبًا بقبر (تتي) ونصه (ما كان تتى يخشى إلا الجوع ولم يأكله وما كان تتي يخشى إلا العطش ولم يشربه) والإشارة في ذلك إلى قرينه لا إلى شخصه وكانوا يكتبون الرقية والتعاويذ على الأحجار ويجعلونها مع الميت في قبره لتقي طيفه أو قرينه ألم الجوع والظمأ منها (إبعد أيها الجوع

عن تتى وحد عنه وإذهب إلى (نو) وارجع إلى محيط الملكوت ولا تدخل في جوفه لأنه شبعان وأنت أيها الظمأ أغرب عنه ولا تمسه لأن تتي مروي).

وبإمعان النظر يتضح أن بعض هذا الإعتقاد يطابق ما هو شائع الآن على لسان فريق من أهل هذا العصر إذ يعتقدون أن كل قتيل له خيال أو طيف يسمونه العفريت أو الساروخ ويقولون إن كل عفريت يخاف من الكلاب كما أنهم يرون صحة القرينة والقرين وأن الأمراض العصبية والأحوال التشنجية التي تصيب الأطفال ليست إلا نتيجة فعلهما بهم ويقولون إن دواءها الوحيد هو الرقية وتعليق التمائم في عنق الطفل المصاب ولا جرم أن هذه الأوهام الفاسدة سرت إلينا من تلك الأمة تلقاها الأحفاد عن الأجداد قضية مسلمة بدون روية ولا تعقل.

ويقرب من ذلك ما كانت تدعيه عرب الجاهلية من وجود الطيف أو الخيال الذي يسمونه الهامة ويزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو كالبومة فلا يزال يصيح على قبره ويقول إسقوني إسقوني إلى أن يؤخذ بثأره وكانت طائفة منهم تزعم أن النفس طائر يخرج من جسم الإنسان إذا مات أو قتل يسمى الهامة ولا يزال متصورًا في صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشًا له وفي ذلك يقول شاعرهم

سلط الموت والمنون عليهم * فلهم في صدى المقابر هام

ثم جاء الإسلام والعرب تقول بالهامة والهام حتى قال النبي ﷺ (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر) وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيرًا ويكبر حتى يصير كضرب من البوم ويتوحش ويصرخ ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى ويزعمون أن الهامة لاتزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت أما الصفر المذكور في الحديث الشريف فهو حية تكون في بطن الإنسان إذا جاع عضت على شرسوفه وهذا أيضًا من خرافاتهم وفي القاموس الشرسوف كعصفور غضروف معلق بآخر كل ضلع وذكر ماريبت باشا أن قدماء المصريين كانوا يضعون مع أمواتهم أكلًا وشربًا زادًا للسفر الطويل في الدار الآخرة وقال مسبرو أن أهل ليبيا قامت على فرعون (نخروفس) نفرقارع وهددوا داخل المملكة المصرية فقام الملك لمكافحتهم وإصطف جند الفريقين وبينما هم على وشك القتال وإذا بالقمر خسف فخاف أهل ليبيا وظنوا أن القمر غضب عليهم فصالحوه وإنقادوا لأمره ولم يخرجوا عن طاعة المصريين مرة ثانية وهذا يقرب مما حكاه بعض المؤرخين من أن سيا كزار ملك الميديين تحارب مع آليات ملك الليدين

مدة خمسة أيام متوالية ولم يغلب أحد خصمه وفي اليوم السادس بينما هم في أشد القتال إذ رأوا الشمس إنكسفت إنكسافًا كليًا وتحول ضوء النهار إلى ظلام حالك ففزع الطرفان من هذه الحادثة المخيفة وكفا عن القتال وعقد أصلحا وزوج ملك لديا إبنته بإبن سيا كزار المدعو إستياج وجرح وزراء الدولتين أيديهما وشر بوادم بعضهما علامة على الإرتباط والتحالف حسب العوائد التي كانت جارية في تلك الأيام.

وفي المقريزي ما نصه ومن عجائبها (أي مصر) شعب البوقيرات بناحية أشمون من أرض الصعيد وهو شعب في جبل فيه صدع تأتيه البوقيرات في يوم من السنة فتعرض أنفسها على الصدع فكلما أدخل بوقير منه منقاره في الصدع مضي لسبيله فلا تزال تفعل ذلك حتى يلتقي الصدع على بوقير منها فيحبسه وتمضي كلها ولايزال ذلك الذي يحبسه معلقًا حتى يتساقط ويتلاشى (راجع ذلك في الجزء الأول نمرة ٣١).

ومن خرافاتهم ما ذكره المؤرخون من أنهم كانوا يعبدون العجل أبيس مدة خمس وعشرين سنة فإن لم ينفق بالموت أخذوه في مهرجان عظيم وأغرقوه في النيل ثم حنطوه ودفنوه في مدفن العجول المعروف بسرابيوم جهة سقارة ويليس أهل مصر على موته شعار الحداد والحزن حتى يجدون عجلًا غيره وقد قلنا فيما سلف أنهم كانوا يعبدون كثيرًا من الحيوانات وغيرها وذكر كليمان الإسكندري في تاريخه أن الإنسان إذا دخل في أحدهيا كل هذه المعبودات رأي كاهنًا موقرًا عابس الوجه يد نومنه وهو يترنم بالزجل المقدس وقصيد المدح ويرفع قليلًا من الستر فيرى خلفه هرًا أو تمساحًا أو ثعبانًا هائلًا أو حيوانًا مفترسًا يتمرغ على بساط أرجواني.

وروى المؤرخ بلوتاركه أنه سمع أن المصريين كانوا يقربون قربانًا من بني آدم إلى معبودهم أوزيريس فيأتون بالرجال في يوم معلوم من السنة ويحرقونهم أحياء في قرية الكاب (بمحافظة الحدود) ويذرون رمادهم في الهواء ويسمونهم التيفونيين وذكر ديودور الصقلي أنه سمع هذه الرواية بعينها وزاد عليها قوله بشرط أن تكون وجوههم كلون وجه تيفون (إله الشر) أعني شقر الوجوه ولما كان هذا اللون نادرًا عند المصريين فلا جرم أن هذا القربان كان من الأجانب أما المؤرخ شمبليون فيجاك فجحد هذا القول كلية وشد النكير على من قال به واستشهد بالآثار وإنه لم ير عليها شيئًا من هذا القبيل وعضد قوله بأن منطقة فلك البروج المصرية وتقاويم الأعياد والمواسم خالية من تعيين يوم هذا القربان وقال إن المؤرخ هيرودوت طعن على اليونان الذين أشاعوا أن

المصريين لما أرادوا ذبح هرقول الجبار ليجعلوه قربانًا وتحقق من تصميمهم على ذلك قتل الحاضرين ونجا من الموت

إلى أن قال وأني أرتاب كل الريب في صحة هذا الإفتراء على المصريين الذين رفعوا للتمدن أعلى منار بين الأمم لكن إذا كان حصل هذا الأمر بأرض مصر فلابد وأن يكون جرى على يد العمالقة الذين أغاروا عليها سيما وأنهم قالوا أن الملك أحميس الذي أجلاهم عنها أبطل ذبح الآدميين منها.

وكان المصريون يعتقدون أن الأرض سطح مستو رقيق طولها أعظم من عرضها قد طفت على (النو) أي الأقيانوس أو المحيط وأن السماء ممتدة عليها كسقف عظيم ثقيل من الحديد مركب من طبقتين والماء محصور بينهما وأن الطبقة السفلى فرشه وهى شفافة والعليا أو العرش غطاؤه وجميع الكائنات تحته ولما كانت هذه الكتلة السماوية ثقيله جدًا ولا يمكن إمساكها في الجو ولا تعليقها في الفراغ إلا بالدعائم المتينة والعماد القوية جعلوا لها في رسمهم اسطوانات على شكل جذوع الأشجار ولها شعوب تخرج منها لتحملها وتقيها من السقوط على الأرض وتارة كانوا يرسمونها على شكل قبة عظيمة تحملها أربعة عمد أو إسطوانات أو يرسمون الأرض على صورة معبودهم (سيبو) وهو راقد على ظهره ورافع يديه ورجليه كأنها أربعة عمد تحمل المعبود (نوت) وهو السماء وإذا أرادوا بيان الطبقتين رسموا هذا المعبود الأخير كأنه شخصان راقدان فوق بعضهما محمولان على أربعة قوائم المعبود (سيبو) الراقد على ظهره وهو الأرض وكثيرًا ما رسموا السماء على هيئة إنسان قائم فوق الأرض على يديه ورجليه كأنه سقف ممدود عليها وتحته سفينتا الشمس وهى تشرق وتغرب تجرها الآلهة وصورة الكواكب وأرواح الموتى (انظر الشكل الآتي)

(أ) السماء نوت قائم فوق الأرض على يديه ورجليه كالسقف.

(ب) الأرض سيبو تحمل السماء و بينهما كثير من المعبودات.

(ج) الشمس رع تكون في غروبها على هيئة إنسان له جناحا طائر.

(د) الثعبان آف يحرس الشمس وهو فاغر فاه ليقيها في غروبها من كيد أعدائها.

(هـ) السفينة اللدنية الحاملة لشمس تسبح في ماء القدرة وقت الغروب.

(و) الأعوان المكلفون بجر سفينة الشمس وقت الغروب.

(ز) الشمس في مشرقها تحفها الآلهة ويسيرون معها في سفينتها.

(ح) جثة الصالحين بعد الموت تكون في أعلى عليين وترى الشمس في مشرقها.

(ط) الروح (با) أتت لزيارة جثتها بعد الموت.

وكثير مثل هذه التصورات مرسوم على الآثار ولكن من الذي يهتدي إلى حل معماها وكانوا يقولون أن المعبود (شو) خلق جميع العالم وفصل السماء عن الارض ورفعها في الفراغ على قدر ما إستطاع أن يرفع يديه بها ثم حملها المعبود (سيبو) الأرض على قوائمه وهي يداه ورجلاه وهذا يقرب مما قاله اليونانيون في خرافاتهم من أن أحد المردة المعروف عندهم بإسم أطلس حرم الفتنة وأضرم نار الشر وأغرى التيتانيين على حرب الآلهة ونبذ طاعتهم ظهريًا ولما علموا بما كان منه قضوا عليه أن يجثوا على ركبتيه ويحمل السماء على عاتقه إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين جزاء لما كسبت يداه.

وكانوا يزعمون أن الشمس والقمر والنجوم السيارة والثابتة المنيرة آلهة بعضها راسب في قاع المحيط السماوي وبعضها طاف على وجهه وبعضها سابح فيه وبعضها راكب في مدينة يسير بها كل يوم من المشرق إلى المغرب وأن جميع الأجرام السماوية تحت رئاسة الشمس ويرى أحيانًا صورة هذه الكواكب في سنن تسبح في الأقيانوس الأعلى خلف سفينة أوزيريس وكثيرًا ما كانوا يرسمونها في صورة مصابيح معلقة في قبة السماء توقدها القدرة في كل ليلة لتضيء على أهل الأرض وما أحسن قول الشاعر في هذا المعنى

والمشـــــترى يتلـــــو الصـــــباح كأنـــــه   عــــربان يمشــــي في الــــدجى بســــراج

وتارة كانوا يرسمون الماء على شكل وادي مصر يشقه (النو) وقد مثلوه بالنيل وحصروه مثله بين ساحلين ممتدين من الجنوب إلى الشمالا وقسموا السماء إلى أقسام أو مديريات كأقسام مصر والشمس تطوف عليهم كل يوم في سيرها من المشرق إلى المغرب وتدخل عند المساء في فتحة جبل مثلوه بجبل العرابة المدفونة أو الخرابة المدفونة التي بمديرية جرجا بإقليم الصعيد فإذا نزلت وغارت في جوف الأرض تجرى في سرداب يتخلله مغارات وكهوف واسعة ذات أرض فسيحة مسكونة بالعالم السفلي فتضيء عليهم بنورها ثم تغادرهم وتخترق الظلام وتقطع المسافات الطويلة والعقبات الهائلة والمهالك الصعبة وهي تؤم المشرق إلى أن تظهر في الأفق وتنجو من شر الظلمات وأخطار العقبات فتنير على أهل الأرض مرة ثانية وهكذا في كل يوم.

وقد سبق ذكر ما قالوه في الروح من أنها على شكل باشق أو حمامة لها رأس إنسان تطير في

ملكوت العالم وتعود لزيارة جثة صاحبها متى أرادت ولذا جعلوا لها في بعض المقابر رواقًا أو مخدعًا بجوار الميت لتستريح فيه أو لتسكنه متى قصدت زيارته وأغلب نصوص الأهرام تنبئنا عن الروح وما آل إليه أمرها في الدار الآخرة وكانوا يعتقدون أنها مخيرة في صعودها إلى السماء بأي طريقة شاءت فتارة ترقى سلمًا من مغرب الأرض إلى السماء حيث مساكن الآلهة غير أن هذه الطريقة ليست متيسرة لكل روح أرادت الصعود إليها لأنها تضطر أولًا إلى الوقوف بين يدى هاتور الموكل بخفارة السلم وأنها تتلو عليه العزائم وترقيه بالرقية الخاصة لذلك أو يكون معها الطلاسم والتعاويذ لينبتا قدميها بين يديه ومتى فعلت ذلك أخذ يحاسبها على ما أجرمته في دينها ودنياها فإن كانت تقية وظهرت مبرتها أباح لها الصعود عليه هنالك يحيط بها ثلاثة من الآلهة يتكفلون بحفظها من شر المهالك والمخاوف ومتى وصلت إلى السماء أوقفوها بين يدي المعبود (رع) أي الشمس فإن لم ترض الروح بالصعود إلى السماء على هذه الطريقة وكانت طاهرة فلها أن تتشكل في هيئة باشق له جناحان قويان يوصلانها إلى السماء بدون واسطة وتقدمها الآلهة إلى الشمس كمامر وإلا فلها أن تذهب بعد دفن صاحبها إلى جبل العرابة المدفونة وهناك تلوذ بالشمس وقت غروبها وتدخل في كتفها في مساء اليوم نفسه الذي دفن فيه صاحبها وتخترق معها السرداب والكهوف وتجوب الغسق والظلام وتقطع العقبات والمهالك وتقاسي معها ما تقاسيه من الشدائد فتصير كأحد حاشيتها ومتى أتمت هذه الدورة السفلية معها وإرتفعت في الصباح إلى السماء صارت في حكم الشمس نفسها وتصير أعداؤها أعداءها وغذاؤها غذاءها وهناؤها هناءها ولها ما لها وعليها ما عليها ولها أن تترك الشمس وباقي الآلهة وتهبط إلى الأرض متى شاءت لزيارة جسم صاحبها المقبور بشرط أنها إذا أرادت العودة إلى السماء لا تسلك إلا طريقها الأول وعلى كل حال فالروح بعد خروجها من جسم صاحبها لم تنل هذه الدرجة العليا إلا إذا كانت طاهرة زكية تقية بارة وأيدت براءتها يوم الحساب بالبراهين الدامغة والأدلة الساطعة كما أن كثرة القرابين التي تقدم للمرء بعد موته تلزم الآلهة بالتجاوز عن سيئاته وغض الطرف عن مساويه وهفواته وتوجب عليهم قبول روحه في أعلى عليين وتكون معهم أينما كانوا (راجع الباب الثاني عشر) وكل من تأمل في نصوص أدعيتهم التي كتبوها على الآثار على أنها أوامر مشددة على معبوداتهم بإجابة طلبهم ليس فيها إستغاثات ولا إبتهالات بل جميعها صيغ في حكم التنبيه والطلب والأوامر مجردة عن الرجاء والخضوع عارية عن التذلل والخشوع غير أن بعض علماء الآثار إنتحل لهم عن ذلك معذرة وقال أن هذه الأدعية كتبت في أزمانهم القديمة جدًا حينما كان

الناس على فطرتهم الأصلية وجبلتهم الأولية لا يميزون بين الأمر والإلتماس والدعاء و بقيت هذه الصيغ محفوظة في صدور كهنتهم يتلقاها كل جيل ممن سلف وتوارثها الأبناء عن الآباء ويتبركون بتلاوتها وهم جازمون بسرعة إجابتها مجمعون على بركتها لأنها من الباقيات الصالحات فلذا مكثت على حالها لم تمسها يدًا لتغيير اه مسبرو ومن المستغربات أني رأيت بالصعيد سنة ١٨٩٢ مسيحية كثيرًا من أجسام الموت المحنطة وعلى كل واحد هراوة عظيمة من جريد النخل مربوطة على صدره وقدميه فخلتها عضادة

لحفظ جسمه من الإنحناء والتقوس أو الإلتواء ولم أهتد للمراد من وضعها مع الميت وربطها بهذه الحالة حتى عثرت في بعض كتب العلامة مبرو على توضيح ذلك حيث قال ورأيت بالصعيد مع كل ميت عكازًا وفي رجليه نعالًا من الجلد ليستعين بهما على وعثاء السفر الطويل وقد ظهر للباحثين من علماء الآثار أن أغلب الآلهة القديمة المصرية تبدلت بغيرها ولا يعلم السبب إلى الآن فقال بعضهم أنهم ماتوا وإنطوت أخبارهم وجاء غيرهم من بعدهم وقال آخرون إنهم لم يموتوا ولكن تغيرت وظائفهم فتغيرت أسماؤهم تبعًا لذلك اه ومما يؤيد ما قلناه قلة وجود إسم أوزيريس وغيره من الآلهة على آثار العائلة الرابعة والخامسة ثم أخذ في الظهور والكثرة مدة العائلة الثامنة عشرة ثم صار شائعًا على الآثار في عهد العائلة العشرين وما بعدها إلى آخر أيام دولة البطالمة بل إلى عصر دولة الروم العيسوية بمصر ومازال مرعبًا معبودًا إلى أن أخذ أمر هذه الديانة في الإنحطاط وصار عابدًا لصنم عرضة للقتل والنكال أعني بعد دخول دين المسيح عليه السلام بمصر ولما إنحط شأن أوزيريس وغيره من هذه المعبودات كسر أحد عساكر الرومان صنم الشمس الذي هو أكبر معبوداتهم وأخرج منه عدة من الفيران مع ما رسب فيه من فضلاتها التي هي أشد خبثًا من بول الثعلبان ولم يحصل من كسره على هذه الحالة أدنى فتنة لضعف دين الصابئة ولو كان كسر ذللك الصنم قبل ذلك الزمان لقامت الفتن وإشتدت المحن كما حصل أيام دولة البطالسة فإن أحد عساكر رومة قتل هرًا مقدسًا خطأ فقامت الأهالي على قدم وساق وقبضوا على الجندي وأذاقوه العذاب الأليم ثم قطعوه إربا ولم يصغوا لشفاعة ملكهم فيه ولم يكترثوا بسطوة رومة التي كانت سيدة الممالك ولها الشهرة وبعد الصيت وبتكسير الأصنام المصرية تركت عبادتها بالكلية وتلاشت الأوهام والوساوس الشيطانية سيما أمام الملك أركاديوس بن الملك تيودوسيس الأكبر الذي حكم سنة ٢٢٧قبل الهجرة النبوية أعني سنة ٣٩٥ بعد ميلاد المسيح وبذلك إسودت الهياكل وإغبرت بالتراب فصارت مهجورة لا يدخلها عابد ولا يومي

إليها راكع وساجد وبالجملة فلم تستفد مصر من دولة الرومان السفلى وهي دولة الروم العيسوية بمدينة القسطنطينية إلا إرشادها في أيامها الأخيرة إلى دين عيسى بن مريم عليه السلام وإنقاذها من دين الصابئة وهدم معابد الصم والوثن وتخليصها من خرافات الجاهلية.

وربما توهم القارئ أن مصر التي إنفردت في زمانها بالذكاء والحصافة ونشر العلوم وتدوين المعارف قد إنفردت أيضًا بالخرافات وتعميم الضلالات وتصديق الأكاذيب والترهات فدفعًا لهذا الوهم أذكر فصلًا صغيرًا في هذا المعنى لكل دولة كانت عظيمة بين العالم العظيم القديم وإشتهرت بالسطوة وشدة البأس أو بالرفاهية وحسن السياسة الأهلية حتى يندفع الاعتراض ويعلم القارئ أن جميع تلك الأمم كانت ذرية بعضها من بعض فأقول.

كانت العرب زمن الجاهلية تستعمل الأزلام وهى سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرني ربي وعلى بعضها نهانى ربى فإذا أراد الرجل السفر أو أمرًا يهتم به ضرب تلات القداح فإذا خرج الأمر مضى لحاجته وإذا خرج النهي لم يمض ومنها وأد البنات أي دفنهن أحياء فكان الرجل منهم إذا رزق أنثى وأدها وإذا بشر بها ضاق صدره وأسود وجهه وهو قوله تعالى (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم) وكانوا يئدون بناتهم بعد الولادة بأن يحفر الرجل حفرة في الجبل ومتى جاء المخاض إلى زوجته أخذها إليها فإن ولدت أنثى وأدها فيها وإن ولدت ذكرًا عاد به إلى داره وتارة كان يترك البنت إلى قرب المراهقة فيخبر أمها أنه يريد أن يذهب بها إلى بعض أهلها فتلبسها أحسن ما عندها ويأخذها أبوها إلى الجبل ويرميها في الحفرة التي أعدها لها ويهيل عليها التراب ويرجع وإن لم يكن قصده وأدها ألبسها من صغرها مدرعة من شعر وتركها ترعى الإبل.

ومنها الرتيمة وهي ناقة كانوا يعقلونها على قبر من مات منهم ويسدون عينيها ويتركونها بلا أكل وشرب حتى تموت يزعمون أن الميت يركبها يوم البعث أما التعمية فكان الرجل إذا بلغت إبله ألفًا قلع عين الفحل يقولون إن ذلك يدفع عنها العين فإذا زادت عن الألف فقأ عينه الأخرى أما رمي السن فكانوا يزعمون أن الغلام إذا ثغر فرمى سنته في عين الشمس بسبابته وإبهامه وقال أبدليني بأحسن منها فانه يأمن على أسنانه من العوج والفلج وهذا الزعم مستعمل إلى الآن عندنا ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباؤها وأن الرجل إذا ضل فقلب ثيابه إهتدى إلى الطريق.

وكانت البقرة إذا إمتنعت عن الشرب ضربوا الثور يزعمون أن الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب وكانوا يقولون أن من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر وذلك أن الجن تهرب من الأرانب لأنها تحيض وليست من مطايا الجن وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت وذكر إسم أمها فأمها تسكن ولهم حكايات عجيبة وأحوال غريبة وقد بقي شئ من هذه التصورات في صدر الإسلام عند جهلة القوم من ذلك أن بعضهم كان يعتقد أن عليا رضى الله تعالى عنه لم يمت وأنه في السحاب والرعد صوته والبرق في سوطه وقالوا مثله في مُحَمَّد بن الحنفية وأنه في جبل رضوى من أرض الحجاز وقال شاعرهم فيه

ألا أن الأئمـــــة مـــــن قـــــريش	ولاة الحـــــق أربعـــــة ســـــواء
علـــــي والثلاثـــــة مـــــن بنيـــــه	هـــم الأســباط لــيس بهــم خفــاء
فســـــبط ســـــبط إيمـــــان وبـــــر	وســـــبط غيبتـــــه كـــــربلاء
وســـبط لا يـــــزوق المـــــوت حـــــتى	يقـــود الجـــيش يقدمـــه اللـــواء
تغيـــــب لا يـــــرى فـــــيهم زمـــــانًا	برضـــوى عنـــده عســـل ومـــاء

أما اليونان فحدث عن خرافاتهم ولا حرج منها أنهم كانوا يزعمون أن طير (الفنكس) ولعله السمندل كان يأتي من الغرب مرة واحدة في كل خمسمائة سنة ويدخل في معبد (رع) الشمس ويخفق فيه بجناحيه ثم يذهب وقال بعضهم إنه كان يأتي حاملًا جثة أبيه مضمغة بالمر وقال هيرودوت إنه كان عندما يعتريه الشيخوخة والهرم يضرم نارًا في حطب ذى رائحة زكية ويضع عليه كثيرًا من المر ثم ينزل فيها فيحترق و يصير رمادًا فيخرج منه فنكس آخر صغير يطير صوب المشرق ومنها بركان الذي حذفه أبوه چوبتير (كوكب المشترى) من السماء لكونه ولد شنيع المنظر ممسوخًا فإنكسرت إحدى رجليه حالة سقوطه فصار أعرج جعله أبوه رئيسًا على الحدادين الذين يعملون الصواعق وقالوا إن باخوس ولد قبل أوانه فأدخله أبوه جوبتير في فخذه ليكمل مدة الحمل الذي كان يمكثها في بطن أمه ومنها بركسته الذي كان يمدد الغرباء على فراشه فات زادت أقدامهم عنه قطعها ومنها غزوة الأرغنوط في البحر إلى بلاد كلمغيده لنهب صوف الذهب ومنها يونون التي أرضعت هرقول الجبار حينما كان طفلًا فطار من لبنها شيء في السماء فنشأ عنه المجرة المعروفة بطريق اللبانة ومنها أن هرقول هو الذي قطع الحبل وصنع البوغاز المعروف الآن باسم بوغاز جبل طارق ويعرف قديمًا عندهم بإسم أعمدة هرقول ومنها تيزا الجبار إبن ملك أنيكا وذهابه إلى جزيرة كريت ودخوله في التيه على الغول المسمى مينوطور الذي كان

على شكل إنسان وله رأس طور وقتله إياه وزواجه بنت مينوس ملك هذه الجزيرة مقابلة ما فعلته معه من الجميل وغير ذلك مما يطول ذكره ويمل القارئ منه (راجع صحيفة ٢٢٧ من كتاب بداية القدما وهداية الحكما).

وكما أن الخرافات كانت ضاربة أطنابها عند اليونان وغيرهم كانت مستوطنة أيضًا عند الأشوريين والبابليين من ذلك ما نقله المؤرخون في خبر الملكة سميراميس وملخصه أنها فتحت الفتوحات العظيمة وجالت بخيلها ورجلها في جميع الممالك التي بقسم آسيا الصغرى واستولت عليها وضمتها إلى بلادها حتى جعلت حدودها بلاد الهند ثم دخلت مصر وبلاد السودان واستولت عليهما وبعد ذلك سولت لها نفسها أن تخضع بلاد الهند فتوجهت إليها بالأفيال والرجال والتحمت في القتال مع ملكها المدعو إستراتوباتيس وإنتهى الأمر أخيرًا بانهزامها وعودتها خائبة إلى بلادها وهي التي خرقت الجمال وأجرت الأنهار العظيمة إلى الأراضي القحلة التي كانت في بلادها وبنت القلاع والحصون والمعاقل وشحنتها بالرجال والمقاتلة ومهدت الطرق في الجبال الصعبة المرتقى التي ما كانت الوحوش الضاربة تستطيع الوصول إليها ثم بلغلها أن إبنها المدعو ننياس إئتمر بها وأراد هلاكها فتنازلت له عن الملك وتحولت إلى حمامة وطارت.

أما الفنيقيون أو الكنعانيون فكانوا أدهى وأمر لأنهم كانوا يفزعون عند الشدائد إلى معبودهم المدعو (بعل ملوخ) المتخذ من الصفر (التوج أو البرونز) على شكل إنسان جالس ماد ذراعيه ويوقدون تحتهما نارًا حتى يتلظيا ثم يلقون أولادهم عليهما فيموتون في الحال وقس على ذلك.

وأما العجم فيكفينا منهم زواج الرجل أخته وإباحة المحصنات من نسائهم لكل إنسان راجع تاريخ (زرداشت) وذكر هيرودوت أن إكزرسيس ملك العجم لما قصد حرب اليونان عبى جيشًا كثيفًا وتوجه به لقتالهم وبينما هم سائرون في البحر لذهبت عليهم عاصفة من الريح فإنكسرت منهم سفينة ذات ثلاث طبقات فغضبا إكزرسيس المذكور وضرب البحر بالسوط وأمر بقتل الملاحين الذين كانوا بتلك السفينة وقطع جبل أتوس (الواقع في نهاية شبه جزيرة سالونيك بأرض الروم إيلى في تركية أوربا) لأجل تسليك طريق لسفنه ولو أطعنا القلم لكتبنا مجلدات في هذه الخرافات ولكن حسبنا ما أثبتناه في هذا المختصر.

الفصل الخامس والعشرون

الرحلة العلمية في باقي وصف معبد الكرنك

ثم نعود إلى المعبد ونمر بين البرجين المرموز لهما بحرف (و) وهنا نرى برج أمنحتب الثالث (أمونوفيس الثالث من العائلة الثامنة عشرة) وهو المرموز له في الرسم بنمرة ٣ وكان هذا البرج وجهة المعبد قبل بناء رحبة الأعمدة والذي قرره علماء الآثار أن البرج نمرة ١ ينسب لدولة البطالسة ونمرة ٢ لرمسيس الأول ونمرة ٣ لأمنحتب الثالث ولم يبق من هذا الأخير الأطلال أتت عليها الأيام وجميع بقايا نصوصه الكائنة على الجهة الجنوبية الشرقية تفيد أنها كانت جدولًا تبه هذا الملك لحصر جميع ما سلبه في حر به من أهل آسيا ووهبه إلى معبد أمون بمدينة طيبة (يعني هذا المعبد) وأعده لترصيع المحل الأقدس منه وذلك عقب رجوعه سالمًا من تلك الجهة وكان شيئًا كثيرًا ما بين أحجار كريمة نادرة الوجود ومعادن نفيسة.

أما البرج المبين بنمرة ٤ فمن بناء تحوتمس الأول (طوطوميس الأول من العائلة المذكورة) وقد أخنت عليه الأيام بحيث لا يكاد يعرف له أثر الآن كما أن الباب الذي قبله من بناء تحوتمس الرابع ثم صار إصلاحه أيام الملك سبا كون (من العائلة الخامسة والعشرين السودانية) وكان أمام هذا البرج مسلتان وقعت إحداهما ويرى على كل وجه من القائمة ثلاثة أنهار من الكتابة النهر الأول منها يشتمل على أسماء وألقاي الملك طوطوميس الأول أم النهران اللذان بجواره فعليهما إسم الملك رمسيس السادس ويظهر من حال الكتابة أنه تلاعب بإسم رمسيس الرابع وكتب إسمه بدله في خانته الملوكية وكان هو أيضًا كتب إسمه بدله في خانته الملوكية وكان هو أيضًا كتب إسمه بلا وجه حق على هذا الأثر أما المسلة المكسورة فيرى على بعض قطعها المتفرقة إسم الملك طوطوميس الثالث.

فإذا فرغنا من هذا المكان بمنافسحة الأربعة عشر عمودًا المرموز لها بحرف (ف) وينسب بناؤها وبناء الأبراج المحيطة بها من الشرق والغرب إلى الملك طوطومس الأول وهناك أقامت بنته الملكة حعت شبسو (حتزو) مسلتين عظيمتين قد خرت إحداهما وتكسرت وبقيت الأخرى قائمة وتعرف بمسلة حتزو وهي أكبر مسلة وجدت إلى الآن على وجه الأرض لأن مسلة المطرية لا يزيد طولها عن ٢٢,٢٠ م ومسلة الأقصر الموجودة الآن بمدينة باريس تبلغ ٢٢.٨٠م ومسلة

ماری بطرس برومه ٢٥.١٣ م ومسلة ماري حنا برومه أيضًا ٣٢.١٥ م ومسلة حتزو المذكورة هنا تبلغ ٣٣.٢٠ م وجميع السياحين الذين يأتون إلى هذا المكان يتعجبون من حسن وضعها على قاعدتها وهندام شكلها كما أن محورها ينطبق على محور المعبد نفسه ويستفاد من دقة صنعتها ووضعها على نصابها أنهم كانوا يستعملون وسائط ميكانيكية ولهم أعظم يد في الهندسة وصبر على مسابرة الأعمال الجسيمة كما كان لهم قدرة على عمل أحسن الأشياء وأدقها وقد اشتهرت هذه الملكة بالغزو وتجشم المشاق كالطوطوميسيين والأمونوفيسيين ملوك العائلة الثامنة عشرة الذين هم كنبراس في تاج التواريخ المصرية وكان حكمها قبل الميلاد بنحو 1660سنة أمَّا ما عليها من الكتابة فألقاب ملوكية وعناوين فرعونية ومدح للملكة المذكورة وفي أسفلها أسطر أفقية تدور حول أربع جهاتها يعلم منها.

أولًا :أن قتها أى رأسها الهرمية الشكل كانت مغشاة بالذهب الخالص الذي غنمته من حرب الأعداء.

ثانيًا: أن جميع المسلة المذكورة كان مطليًا بالذهب و بإمعان النظر يظهر أن قاع كتابتها أملس وفي سطحهاحرشة وخشونة أو تضاريس يعلم منها أنه كان مدهونًا بالخافقي الأبيض المبطن للطلية الذهبية.

ثالثًا: أنها صنعت هي وزميلتها في مدة سبعة أشهر من ابتداء تفصيلهما في الجبل لغاية نصبهما في مكانهما أما التماثيل الملتصقة بالكرانيش فهى صورة طوطوميس الأول مصنوعة على هيئة المعبود أوزيريس بمعنى أنه ملك العصر الرحيم بالناس وكانت مرتكزة على برج نمرة 5 وهدمت.

ثم نصل إلى فسحة الثمانية عشر عمودا المرموز لها بحرف (ح) وهي من بناء طوطوميس الأول أيضا واسمه مكتوب على العمودين الكثيري الأضلاع المتصلين بالبناء على يمين الداخل ويساره وقد تم بناؤها مدة ابنه طوطوميس الثالث وليس بها كبير فائدة.

ثم نستقبل قسما من المعبد رمزنا لأماكنه بأحرف (ط س ص ر ش ض) ومركزه فسحة (ر) وهي أي الفسحة من بناء طوطوميس الثالث وقد جددها فيلبش أرّيدا (أخو الإسكندر وتقدم ذكره) ولذا لا يوجد بها غير اسمه أما فسحة (ط) فبها البرج نمرة 6 الذي هو أصغر جميع أبراج المعبد وآخرها وهو أصغر من البرج نمرة 5 الذي هو أصغر من البرج نمرة 4 وأكبرها البرج نمرة 1

وكان لجميعها أبواب تفضي إلى الخارج ويرى على الوجه الغربي من البرج نمرة 6 صورة جم غفير من الأسارى المقرنين في الحبال والأشطان وأيديهم موثوقة من خلفهم وهم منقسمون إلى طائفتين كل واحدة مائة وخمسة عشر أسيرًا وفي عنق كل واحد مجنّ أو ترس على شكل قطع ناقص مكتوب بالقلم القديم أما الطائفة الأولى التي على اليمين فرمز إلى مائة وخمسة عشر إقليمًا استولى عليها طوطوميس الثالث في إحدى غزواته جهة الجنوب ببلاد السودان وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام.

أولها: بلاد الكوش السافلة الدنيئة أو بلاد أثيوبيا وبها ثلاثة وأربعون اسما.

القسم الثاني: بلاد البون (وقال ماريت هي بلاد الصومال وقال مسپر وهى بلاد اليمن) وبه ثلاثة وأربعون اسما جغرافيا.

القسم الثالث: بلاد ليبيا.

أما الفرقة الثانية التى جهة اليسار فرمز إلى مائة وخمسة عشر إقليمًا استولى عليها المذكور في إحدى غزواته جهة الشمال وفي السطر الأفقي من أعلى عبارات عامة وترجمتها (جدول بلاد الروتنو العالية التي حصرها جلالته (طوطوميس الثالث) في مدينة مجدّو الحقيرة وأتى جلالته بأولادها أسارى وهم أحياء إلى قلعة شوهن بطيبة في أول غزوته المنصورة وذلك بناءً عن أمر أبيه أمون الذي أرشده إلى أحسن الطرق) وكانت هذه الغزوة هي الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من وقائعه الحربية بعد جلوسه على منصة الحكم أما البلاد التي عرفت على الآثار باسم بلاد الروتنو العالية فمنها (نمرة ١ كدش المعروفة باسم قدوس بقرب حمص) (نمرة ٢ مجدّو المعروفة باسم مجدلة) (نمرة ٦ بيت تبوات) (نمرة 9 يوتا)

)نمرة ١٣ دماس المعروفة باسم دمشق) (نمرة ١٩ بيروت) الخ وأغلبها واقع ما بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الأردن أو الشريعة وهي عبارة عن جميع أرض كنعان الشهيرة في الأزمان السالفة بما فيها بلاد فينيقيا فبناء على ذلك تكون المائة وخمسة عشر اسما عبارة عن خريطة جغرافية للأرض الموعودة قبل خروج بني اسرائيل من مصر بنحو مائتين وستين سنة وقبل وقوعها في يد يوشع بن نون عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة.

فإذا جاوز الإنسان هذا البرج والتفت إلى يساره رأى أمامه بقايا أسطر من نصوص طويلة تبتدئ من أول الحائط وقد دمر الناس بعضها لأغراضهم الذاتية مع أن هذه الكتابة من نفس

النصوص التي وجدت على معبد الكرنك لأنها تقص بوجه الإيجاز جميع الغزوات التي باشرها طوطوميس المذكور من ابتداء السنة الثانية والعشرين من حكمه الى السنة الأربعين منه ومذكور بها أربع عشرة تجريدة حربية ونرى الكاتب استعمل الدقة في بيان الغنائم التي اكتسبها الملك من الأعداء والجزية التي ضربها عليهم ثم أخذ يسرد عدد الأسارى والخيل والمواشي وسن الفيل والأبنوس والأخشاب النفيسة والأحجار الكريمة والعربات الحربية والأسلحة وأثاثات المنزل والأدوات المنزلية والحبوب والخمر والعسل والروائح العطرية التي أرسلت إلى مدينة طيبة.

وقد نسب تاسيت المؤرخ جميع هذه الغنائم إلى رمسيس الأكبر من باب السهو والغلط وقد تلقفها من أفواه القسس فسها أو سهوا عن اسم الملك صاحبها.

وقال بعض علماء الآثار أن نقطة (ر) هي المحل الأقدس للمعبد وليس الأمر كذلك لأن المحل الأقدس كان بوسط الحوش المشار إليه بحرف (ذ) مبنى بحجر البلاط قبل طوطوميس وغيره بعدّة قرون إذ يصعد تاريخ بنائه إلى زمن أوزرتسن الأول من العائلة الثانية عشرة ولا شك في أن شهرة هذا المكان وأقدميته وزخرفته بأنواع الزينة جلبت له الويل وجرت عليه ذيل الوبال عندما دخل المتغلبون على مصر في هذه المدينة وجاسوا خلال ديارها وهم شاهروا السلاح فهدموه عن آخره وجعلوا عاليه سافله وهناك ترى عمودين أو ثلاثة مكتوبًا عليها اسم أوزرتسن الأول وترى فيما يلى الشرق من هذا الحوش رواقًا أو مجازًا بيناه بحرف (غ) ينسب بناؤه إلى طوطوميس الثالث وبه كثير من الحجرات والقاعات التي كانت معدة للعبادة وحفظ الأشياء المقدسة اللازمة لإشهار المواسم الدينية أو لحفظ الأدوات الضرورية للصناعة ولتقديم القرابين وكلها في آخر المعبد جهة الشرق وكان الزفاف يمر بهذا المجاز إلى الحوش ونرى في القاعة المبينة بحرف (ظ) تبليطة عليها صورة إله المواشي وإله الأزهار اللذين كانا مبجلين عند أمة الروتنو العليا وأمة أخرى كانت تسكن إقليمًا يدعى (تانتر) أي الأرض المقدسة وقال ماريت باشا هذه الأرض غير معلومة الآن و يمكن أن تكون في نهاية شبه جزيرة العرب جهة الجنوب أو على الخليج الفارسي وليس لصورة هذين المعبودين شبيه في باقي المعابد المصرية وكان بين أساطين هذا الرواق تمثالان من حجر الجرانيت الوردي وقد نقلا إلى المتحف المصرى.

ثم نجد على اليمين حجرة صغيرة أشرنا إليها بحرف (ث) وعليها اسم الاسكندر الثاني ابن اسكندر الأكبر الذي تولى الملك وهو طفل بعد موت أبيه وقتل في حداثة سنه وما بها من

النقوش يدل على أنها كانت هدمت وتجددت في أيام هذا الملك القاصر وكان هناك حجرة أخرى رمزنا لمكانها بحرف (ع) سبق فكها وحملها إلى بلاد فرنسا وتعرف باسم رواق الأسلاف وقد تقدم ذكرها وإلى هنا جف المدد عن وصف معبد الكرنك بوجه الاختصار.

الفصل السادس والعشرون

في بعض عوائد قدماء المصريين والإلماع بشيء من ترتيباتهم العسكرية

كان من عادتهم أن يعبدوا كل ملك يولى عليهم لاعتقادهم أنه الفاعل المختار ووكيل المعبودات الذي بيده الضر والنفع وإعلان الحرب وإبرام الصلح وشريك الكهنة في تقديم القرابين وهو الحاكم المطلق وأشرف الأمة ومولى العباد وسيد الأمراء وصاحب الأمر والمتكفل بسعادة الأمة وكانت الكهنة تقدّسه في محفل عام عند استلامه زمام الملك ولعل هذه العادة سرت الى الإسرائيليين منهم لأنهم اقتبسوا كثيرا من عوائدهم وكانوا يكتبون اسمه في الخانات الملوكية إجلالًا لقدره وتعظيمًا لمكانته ويلقبونه بجملة ألقاب منها ابن الشمس أو ملك البرين أو الأرضين أو صاحب التاجين أو محبوب الآلهة وغيرذلك.

وكان يباح له تعدد الزوجات من الأهالى والأجانب ويتخذ المحاضى والسرارى بدليل أن رمسيس الأكبر الذي طالت مدة حكمه كان له من الذكور ثلاثة وعشرون ولدا وذلك غير الإناث وأن ابنه الثالث عشر هو الذي حكم على سرير الملك من بعده لانقراض جميع أولاده الذين كانوا له من زوجته الأصلية لأن وراثة الملك كانت من حقوق البكري واقتدت أشراف الأمة بملوكهم في تعدد الزوجات على شروط مدونةً عندهم منها أن أولاد الزوجة الأصلية يرثون جميع مال أبيهم بعد موته وغير ذلك بخلاف كهنتهم فإنهم كانوا يقتصرون على الواحدة وكان يباح لبنات الملوك الجلوس على سرير الملك عند عدم وجود الوارث الشرعي من الذكور أو عدم بلوغه سن الرشد وذكر المعلم (روجه) أن أول من أباح حكم النساء على مصر هوالملك (بنهوتر) أحد ملوك العائلة الثانية واشترط أن يكنَّ من العائلة الملوكية وسبب ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن ملوك مصر ليسوا كباقي الملوك الذين يحكمون على الناس بل يفضلون عليهم لأنهم من نسل الآلهة التي كانت حكمت على وادي النيل وورثتهم في الحكم وأنهم أبناء الشمس كما هو مذكور على جميع الآثار ولا يسوغ لبناتهم أن تستولي على الملك مع وجود الذكور إلا إذا انقرضوا فيعود الحق في الملك إليهنَّ أولى من استيلاء أحد البشر على تاج أبناء الشمس ولذا جرت العادة أن كل من اغتصب الملك ولم يكن من بيته يتزوج بأحد بنات الملوك السالفين

ليصير ابنه حاكمًا شرعيًا وترتبط سلسلة الملوك ببعضها ثانيا اهـ.

وكانوا يحترمون النساء احترامًا زائدًا و يقولون أنها قرينة المرء ورئيسة المنزل والمربية لأولاده وزيادة على ذلك قد ساوى القانون في العقاب بين الذكور والإناث عند ارتكاب ما يوجب ذلك ولشرفهن ورفعة منزلتهن كانت نساء الملوك يحضرن في المحافل الدينية عند جلوس أزواجهن على منصة الحكم و يشاهدن تقديسهم بعد الكاهن الأعظم ويجعلن صورتهن على الآثار بجوار أزواجهن بعد حضورهن في الجمعيات العامة.

)استطراد لا بأس به) قال بعض علماء الافرنج لا أدري لماذا سقط اعتبار المرأة في جميع بلاد المشرق وهي الحافظة للوداد الأمينة على الأموال الصابرة على البأساء والضراء الخادمة بلا أجر أوليس من العدل التأسي بقدماء المصريين الذي لما أدركوا بفطنتهم أن الحضارة والمدنية لا تتم إلا بحسن معاملتهن والأخذ بناصرهن وعلموا ما لهن في قوام الهيئة الاجتماعية أدوها حقها في الشرف ولم يبخسوها قدرها أوليس من التوحش معاملة المرأة بالجفوة والنظر إليها بعين الاحتقار وتنزيلها منزلة الرقيق فإن بلاد الافرنج لم تزدر بالنساء كبلاد المشرق إلا مدة توحشها وقد أخذت هذه المسألة قبل الآن بنحو قرنين دورًا مهمًا ببلاد فرنسا وكان الجدال فيها علنا على ملأ الأشهاد وفحواها هل النساء من جنس الرجال أم لا؟

فاجاب البعض وأنكر آخرون من الأطباء و ياليت شعري هل كان هؤلاء المنكرون رجالا بين الناس اهـ.

وفي بعض التواريخ المعتبرة أن (ساتنو) زوجة ملك النوبة حضرت على الفور أمام رمسيس الأكبر بعد حضور زوجها أمامه وقبل دخول باقي رجال الدولة عليه وبذلك يثبت أن عوائد قدماء المصريين كانت كعوائد الفرنج سواء بسواء من حيثية الاحترام لهن اهـ.

وقد أتت الشريعة الغراء تحثنا وتنبهنا على حسن معاملتهن والرأفة بهن منها قوله تعالى: {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا }

فانظر رعاك الله ما في هذه الآية الشريفة من الأمر بالمعروف في كلتا الحالتين ثم الزجر الذي هو في معرض النهي عن الإعتداء عليهن، وقوله تعالى }وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ{ أي اضربها بأعواد من الحشيش الأخضر ولا تقع في يمينك رأفةً بها وقوله ﷺ ارأفوا بالقوارير أي عاملوا النساء بالرأفة فإن أجسامهن كالقوارير أي الزجاج ولا يختفي مافي هذا الحديث من البلاغة

والإيجاز والتشبيه وجزالة المعنى فإذا علمنا ذلك تيقنًا أن التعدي على هؤلاء القوارير الضعفاء مخالف لأمر الله وأمر رسوله ومن يفعله كان متوحشا بل ملحقًا بالبهائم وإني على غير رأي ذلك الفيلسوف الذي قال له بعض الناس أيُّ الوحوش أظرف فقال له النساء والظاهر أن زوجة هذا الفيلسوف كانت من أظرف الوحوش لعدم تربيتها وإلا فالمرأة التي أحسن أهلها تهذيبها كانت نعم العون لزوجها ولتربية أولادها ولو أرخينا عنان القلم لطال الكلام وخرجنا عن الموضوع (راجع كتاب المرشد الأمين تأليف المرحوم رفاعة بك فإن فيه الكفاية) وكانت الملوك تجعل على رأسها شعرًا قصيرًا وفوق جبهتها ثعبانًا من الذهب لأن الثعبان كان مقدسًا عندهم وكانت الكهنة تتقمش بثياب من التيل الأبيض الناصع أو الكتان النظيف وكان الصوف محرمًا لبسه على جميع الأمة لأنه متحصل من الحيوانات ومتكون من دمها وهو نجس بالإجماع وقال بعض أهل السير أن الذي حملهم على عدم استعمال الصوف هو كثرة وجود التيل والسكان وموافقة لبسهما لجميع فصول السنة وخفتهما على الأبدان اهـ.

و يغلب على ظني أن القول الأول هو الأرجح لأنهم كانوا أي الكهنة يحلقون رؤوسهم وجميع بدنهم بالموس كل ثلاثة أيام مرة واحدة ويغتسلون في كل يوم مرتين صيفًا وشتاءً بالماء القراح البارد والظاهر أن النظافة كانت عندهم من أهم الأمور وقد رأينا فيما سبق التنديد بالبناء الذي لا يغتسل إلا مرة واحدة في اليوم وكان رئيسهم يتوشح بجلد النمر عند أداء وظيفته الدينية داخل المعبد وكانوا يأكلون لحم الأوز وبعض الطير المباح أكله وبعض الخضراوات والبقول والفاكهة ولحوم ما يهدى إلى المعابد من القرابين وكانوا يهذبون أولادهم ويثقفون عقولهم بالعلوم والمعارف كالرياضيات وأخذ المساحة والفلك والتواريخ والمحاضرة وحسن الخط ويلقنونهم أسرار الديانة لأنهم هم الوارثون لعلومهم القائمون بالخدمة بعدهم حتى إذا بلغوا العشرين سنة كانوا على قدم راسخ في أجل العلوم متوشحين بحلية المعارف ومترشحين للخدمة.

وكان المصريون يعقون عن أولادهم بعد الولادة ويختنونهم ويحلقون جميع رؤوسهم وربما تركوا بوسطها خصلة من الشعر ويهتمون بتربيتهم ويعلمونهم احترام الشيوخ وهذه العادة انتقلت من مصر إلى بلاد اسبارطة ببلاد اليونان (راجع قوانين سولون الحكيم).

وكان لبس رجالهم الثياب الواسعة المتخذة من القطن ونحوه و يتمنطقون عليها ويأتزرون بالمئزر لكن كانت هذه العادة تتغير بحسب الأحوال والأزمان ويلبسون الأحذية المتخذة من

الجلد أو من ورق البردي وكثير منها موجود الآن بالمتحف المصري أما النساء فكن يلبسن كالرجال ويخرجن حاسرات الوجوه بلا نقاب ويعتصبن بالعصائب و يتطيبن ويضفرن شعورهن ويرسلنها ذوائب على أكتافهن ويتحلين بالشعور العارية عند الحاجة لها و يتقلدن بالقلائد والأسماط المتخذة من الذهب والفضة أو من باقي المعادن أو الأحجار الكريمة وغيرها أو من المعبودات المتخذة من الخزف أو المعدن ويلبسن الأقراط والخواتم من كل نوع ويكتحلن ويزججن الحواجب وكثير من مكاحلهن باقٍ إلى الآن في أطلال مدنهم القديمة وهي إما من العاج أو الفخار أو الزجاج أو غير ذلك وكانت مرآتهن من المعدن النقي الجيد الصقل كالذهب والفضة والصفر وغيرهما و بالمتحف المصري كثيرًا من ذلك وكانوا يعتنون بتربية أولادهم ويعلمونهم حب الوطن ومثابرة المشاق والتمسك بالديانة ويشربون الخمر رجالاً ونساءً في الأقداح ويستخرجونه من التمر والعنب وهو مصداق لقوله تعالى حكاية عن صاحب يوسف في السجن }إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا { أي أعصر عنبًا لأجعله خمرًا وكانت الكروم والنخيل متوفرة عندهم بكثرة لاستخراج الخمر والدليل على أنهم كانوا يشربون الخمر صورة الوليمة التي في مقابر بني حسن والسكران الذي يحمل منها إلى داره وكانوا يعرفون عمل الفقاع والمزر (البوزه أوالبيره) (أنظر الشكل الآتي) وكانوا يأكلون جميع البقول والخضراوات ويتحامون أكل لحم الخنزير ويستعملون الأصابع والملاعق في أكلهم وكانت ملوكهم تجعل حرسها السلطاني من الأهالي والأجانب أو منهما معًا ويقبلون في جيشهم العساكر المجمكة من المغاربة والنوبة وغيرهم راجع تاريخ شيشاق وابساميطيق وابرياس وأماسيس وغيرهم من فراعنة مصر وكانوا يؤرخون وقائعهم و حوادثهم باستيلاء كل ملك على التخت أو بموته أما ترتيب التاريخ المعروف عندنا فكان مجهولًا عندهم وكانوا مغرمين بالصيد والقنص ويبنون دورهم باللبن أو الآجر وغالبها دور واحد ويحافظون على النظافة ونظام الحواري والشوارع لمرور الأهوية ويدكون أرض دورهم بالشقف وفتات الأحجار ويبيضون منازلهم بالجير وينقشون عليها صورة الأشياء المشاهدة.

وكانت نساؤهم كنساء الفلاحين الآن يتخذن الأسطحة أندية يتحادثن عليها وكان لأغنيائهم العقار والبساتين والوكلاء والكتاب وكان لهم ميل عظيم لخدمة الأرض وتفليحها وهم الذين اخترعوا المحراث والشادوف والنواعير والنورج أو المدراس وبالجملة جميع آلات الزراعة والحراثة كما اخترعوا المعامل لفقس بيض الدجاج الصناعي وقد شاهد هذه المعامل كل من ديودور وأفلاطون وأرسططاليس والقيصر أدريان الروماني عند سياحتهم بمصر وذكروها في ضمن

ما شاهدوه من العجائب وقال بعض متأخري الافرنج أن طريقة عمل الدجاج الصناعي المستعملة بمصر لم تزل مجهولة في جميع أوروبا لغاية الآن وأن سائحي الافرنج الذين يأتون إلى مصر و يشاهدون تلك المعامل يخرجون منها وهم متعجبون وروى بعضهم أن قدماء المصريين لما رأوا بيض التمساح والنعام يفقس في الرمل على شاطئ النيل بمجرد حرارة الشمس بدون تحضين قلدوهما و بحسن ذكائهم صنعوا المعامل وأعطوها الحرارة الكافية فنجحوا ولم ننجح مثلهم وذهب سعينا أدراج الرياح لأن حرارة بلادهم غير حرارة بلادنا اهـ.

وقد تكلم عبداللطيف البغدادي على هذه المعامل وشرحها بالتفصيل في كتاب الإفادة والاعتبار ولكثرة وجودها بأرض مصر ضربنا عن ذكرها صفحا وسمعت من الشيخ حسين المرصفي رحمه الله تعالى أن خالته وضعت بيضًا في طاقة بجوار الفرن ونسيته ففقس بعد مدة وخرجت الأفراخ بمجرد الحرارة التي كانت تصل إليه منه (أي الفرن) وهم الذين قاسوا الأرض بالقصبة ووضعوا لها طريقة الحساب المعروفة الآن بالقاعدة القبطية وضبطوا مياه النيل وأوسعوا حركة الري صيفا وشتاء وكانت السنة عندهم منقسمة إلى ثلاثة فصول وهي فصل النيل أو البذر وفصل الربيع وفصل الحصاد وكانت الحكومة عندهم استبدادية مطلقة والتخت ميراث والملك أب والرعية وكلمته هي الأحكام المرعية وعليه النظر في مهام أمور المملكة وما فيه سعادة الرعية وتقدمها.

أما كيفية سير الملوك بين رعيتها بمصر فهي أن الكهنة سنت لهم قانونًا يردون به جماحهم وضمنوه جميع أشغالهم الخاصة والعامة فخضعوا لأحكامه وعملوا به وكانت حاشيتهم تنتخب من جملة طوائف مختلفة كما أن الخدامات الشريفة كانت تعطى لأولاد الكهنة المعدودين في الدرجة الأولى لأنهم متى بلغوا سن العشرين توفر فيهم حسن التربية وكثرت معارفهم وتخلقوا بالأخلاق الجميلة والخصال المحمودة وشبوا على الأدب والعدل وكان منهم من يلازم الملك و يحضر مجالسه و يمنعه عن الشطط في الأحكام وارتكاب الهوى والزيغ عن اتباع سواء السبيل وكانت جميع أشغاله متوزعة قانونًا على ساعات النهار فجعلوا له الساعة الأولى خاصة بالنظر في الدعاوى وحل المشكلات العامة وبانقضائها يلبس أفخر ثيابه ويتوجه إلى المعبد وعلى رأسه شعار الملك فتستقبله هناك الكهنة وبعد أن يؤدي شطرًا من العبادة يتلو عليه رئيس الكهنة بعض النصائح المستخرجة من كتاب الموتى ثم يشرحها له ويبين فيها ما يجب على الملك وبذلك كان له في كل يوم درس جديد يتنبه به إلى فعل الخير والقيام بما يجب عليه لله و لرعيته أما باقي ساعات اليوم

فكان يستعملها حسب ما هو مدوّن في ذلك الدستور منها ما هو مخصص للاستحمام وما هو مخصص للأكل وأنواعه من لحم وبقول وخضراوات وكية النبيذ الخمر) الذي يجب أن يشربه ومنها ما هو مخصص للرياضة و الاستراحة و غير ذلك فكان هذا الدستور عبارة عن شكيمة توقف غيهم وترد جماح شرههم وإن شئت قلت كانوا مقيدين بقيد الأحكام الدينية فاقدين الحرية لكنهم كانوا آمنين على أنفسهم من الوقوع في الهفوات ومايوسوس لهم بذلك أصحاب الغايات وما تسوله لهم النفس الأمارة بعيدون عن الحدة والغضب واتباع طريق الظلم والعدوان وما ينتج عنهما من الحسرة والندامة كما أنهم كانوا يراعون حرمة القوانين و يعضون عليها بالنواجذ ولا يشتغلون إلا لسعادة الأمة ولا يفكرون إلا فيما يعود عليهم بالتقدم والثروة فلذا كبروا في عين رعيتهم ورفعوا شأنهم وعظموهم حتى أدخلوهم في صلاتهم وعبادتهم وقربوا لهم القرابين بعد موتهم وقال بعض المؤرخين قد استنبطنا من ثروة مصر وغناها وفتوحاتها الواسعة بآسيا وإفريقا وفخامة مبانيها التي كانت كغرة في جبهة أمهات القرى والأشغال الجسيمة التي كانت تباشرها الملوك للمنفعة العامة كالزراعة والتجارة ومن خصوبة الأرض التي ما كان لها ثانٍ في جميع المسكونة وتنوع محصولاتها ومن إتقان الأشغال وسمو درجتها على أنه كان هناك أحكام سياسية عادلة مرعبة وأنه كان هناك ملوك صدقت في وطنيتها وسهرت لرواج حال الأمة التي كانت تقتبس من مصابيح هذه الفوائد كل ما يخطر ببالها ويجول بخلدها فيكلل النجاح مسعاها إلى آخر ما قال ولما تحقق أهل مصر من حسن نوايا ملوكهم لهم قابلوا الإحسان بمثله حتى كانوا يلبسون عند موت كل من مات منهم شعار الحزن ويغلقون الهياكل ويبطلون الولائم والعزائم مدة اثنين وسبعين يومًا متوالية ويقيمون له الصلاة والأدعية رجالًا ونساءً و يحثون التراب على رؤوسهم و يتحزمون بقطعة حبل علامة على الحداد ويمتنعون من أكل اللحم والعنب وخبز القمح وشرب الخمر ومتى جهز المحنطون جثة الملك و ضعوها في التابوت يحضرون بها في نهاية هذه المدة بجوار القبر ويباح لكل إنسان الحضور وأن يشهد بما يعلم من مساويه وما كان يشينه في دنياه وقد أباح القانون للأمة هذه الشهادة أما الكهنة فكانت تهتف بمحاسنه وتذكر مناقبه وتعد للأمة فضائله وما كان له من الخدمات الوطنية والوقائع الحربية والمشاهد التي عادت بالشرف على مصر فإن لم يجدوا من يعارضهم في قولهم حكم الإثنان وأربعون قاضيا بدفنه مع الإحترام اللائق للملوك والدفن بغير ذلك وروى أهل السير أن كثيرًا من الملوك حرم من الدفن بهذا الاحترام لسوء سلوكه وقبح تصرفه فكانت الملوك على جلالة قدرها تخشى هذا اليوم وتسلك سبيل العدل والإنصاف

وتتحلى بحلية الرأفة والرفق بالرعية وزيادة على ذلك كان هنالك ماهو أصعب من هذه الشهادة وهو محو أسمائهم من آثارهم التي شيدوها مدة حكمهم وبذلوا فيها النفس والنفيس وكانت الرعية أحيانا تدمر نفس آثارهم حتى قبورهم ولم تكتف بمحو اسمهم كما فعلوا بآثار الملك أمونوفيس الرابع المعروف باسم (خون أتن) وقد سبق ذكره في الرحلة بتل العمارنة والحاج قنديل وكانت هذه العادة تسري على أموات الأمة كما كانت تسري على الملوك فلذا اتصفت بالتقوى وأكلت الحلال وخشيت سوء العاقبة.

أما الجند فكانت أعظم طائفة بعد الطائفة الكهنوتية وتقسم إلى جملة فرق تسمى بأسماء مختلفة كأسماء المعبودات منها فرقة (رع) وفرقة (أمون) وفرقة (فتاح) وغيرذلك وكان الملك هو الرئيس الأعظم وهو الذي يعين الرؤساء لجميع الفرق من أولاده وأقاربه أو من أولاد أعظم العائلات المصرية مع مراعاة الكفاءة والأهلية والدرجة وكانت الملوك أرباب الغزو تقود الجيوش بنفسها إلى البلاد البعيدة وتدير جميع حركة الأعمال وتقف في ساحة الحرب على عرباتهم كباقي العسكر وهم شاكو السلاح و محاطون بخفرهم السلطاني ورؤساء ضباطهم ويقذفون على العدو نبالهم ويضربونهم بالبلط وغير ذلك والغرض من هذا هو تشجيع عساكرهم وتثبيت أقدامهم في مواقف القتال ومشاركتهم في النصر وقد ذكرنا في بعض الأبواب السالفة ما حصل للملك (سوكن ان رع) وقد وجد على الآثار أن كثيراً من الملوك كانت تقتنص الأسود وهي صغيرة.

وتربيها ومتى إستأنست وصارت داجنة أخذوها معهم في القتال فكانت تمشي عادة أمام عربة الملك وتقاتل معهم الأعداء وكان من عادة بعض الملوك تربية السباع وإتخاذها بداخل قصورهم . من ذلك ما ذكره المقريزي في الخطط أن خمارويه بن أحمد بن طولون بنى في داره داراً للسباع عمل فيها بيوتاً من زجاج كل بيت يسع سبعاً ولبوة إلى أن قال وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له زريق قد أنس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي أحداً ويقام له بوظيفته من الغذاء في كل يوم فإذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها وربض بين يديه فرمى إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به وكانت له لبوة لم تستأنس كما أنس فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه فإذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه فأن كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه مادام نائما وأن كان نام على الأرض بقى قريباً منه وتفطن لمن يدخل و بقصد خمارويه لايغفل عن ذلك لحظة واحدة وكان على ذلك دهره قد ألف ذلك ودرب عليه وكان في عنقه طوق من ذهب فلا

يقدر أحد أن يدنو من خمارويه مادام نائماً .حتى اذا أراد الله ان انفاذ قضائه في خمارويه كان بدمشق وزريق غائب عنه بمصر ليعلم أنه لا يغني حذر من قدر) راجع ذلك في الجزء الأول نمرة ٣١٧.

أما جيش مصر فلم يعهد أنه كان به عساكر من الفرسان لأن جميع الآثار واللوحات الحربية خالية من ذلك وربما توهم القارئ أن المصريين كانو يجهلون ركوب الخيل وأنواع الفروسية فدفعا لهذا الوهم نقول أنهم كانوا يعرفون جميع ماذكر لكنهم لم يدخلوه في جيشهم والدليل على ذلك أنه وجد في كثير من النصوص الأثرية صورة فارس يركض جواده ونجاب يعدو مسرعاً بفرسه وهو قابض على قراطيس من ورق أو مكاتيب ليس لها في محل لزومها ووجد أيضا صورة أجنبي يعدو بفرسه وهو بلا سرج فراراً من الموت راجع لوحة الأسلحة الآتية .أما ماذكرته التوراة في الفصل الرابع عشر من سفر الخروج من أن فرعون غرق في البحر مع خيله وفرسانه وعرباته فهذا لا ينافي عدم وجود جيش من الفوارس لأن الخيالة التي كانت معه كانت من الأهالى المتطوعة لا من الجيش وقال) شمبليون فيجاك (ما علمنا أنه كان لمصر عسا كر خيالة وأن الغرض من الفرسان المذكورة في التوراة هم راكبو العربات لا راكبو الخيل وأن التوراة ذكرت في موضع آخر أن فرعون غرق في البحر بخيله وعرباته وفوارسها أي المقاتلة الذين كانوا عليها إلى أن قال ويؤيد صحة ماقلناه وهو خلو الجيش المصري من جند الخيالة كيفية تربية العساكر وتمريناتها المختلفة المنقوشة على الآثار وجميعها مشاة ولم نر للخيالة عليها أدنى ذكر وسكوتها دليل كافٍ على عدم وجودها به اهـ

وكانت هذه التمرينات عبارة عن مصارعة ومنازلة مختلفة النوع والشكل فتارة ترى المصارعين في هيئة الهجوم أو الدفاع وتارة في هيئة الكر والفر يتناوبان ذلك بالدور والترتيب فتراهما يخفضان ويرتفعان وتارة يقعان ويقومان ويشتبكان ويفترقان ويغلب أحدهما الآخر فينهزم المغلوب ثم يعود غالباً و يستعمل كل واحد منهما ضروب المخاتلة والمراوغة والحيل والقوة وهما عراة الأجسام ليس عليهما غير منطقة عريضة تستر سوآتهما) أنظر الشكل الاتي . وكانت تربية العسكر وتمريناتهم تستغرق المدد الطويلة يدخل فيها جميع القواد و الرؤساء كما يدخل فيها جميع العسكر على إختلاف طبقاتهم وكانوا يعوّدونهم من حين شبيبتهم على المكافحة و المقارعة ومنازلة بعضهم بعضاً ويعلمونهم قواعد الحرب وأركانه حتى يشبوا على حب القتال وإقتحام المعارك و كان جميع أبناء الجند تتعلم كآبائها وتتمرن في حداثة سنها على إجراء الحركات العسكرية لأنهم هم الوارثون

لآبائهم القائمون بحماية الوطن بعدهم ولايصرح لأى إنسان منهم أن يشتغل بحرفة أخرى مادام يقوى على حمل السلاح وهو خال من جميع العاهات والأمراض وكانت الأسلحة عندهم هي الحراب والمزاريق والرماح والقسي والنشاب والسيف والحسام والخنجر والدبوس والنصل والبلطة والشاطور والسكين والدرق والدروع والزرد والمخفر أو الحودة) كما في الشكل الآتي.(

ويرى على بعض الآثار كيفية المعسكر المصري وهو مكان من الأرض مربع محاط بأخشاب وأوتاد من كل جهاته وعلى بابه الديدان) خفير النوبة أو النوبتجي (وفي الجهة المقابلة له خيمة الملك أو القائد العام مضروبة و بجوارها الأسد المستأنس رابض ويداه مغولتان) مربوطتان (وبجواره خفير من العسكر قائم و بيده عصاً طويلة ثم مضارب الضباط وخيامهم وعلى جانبى باب المعسكر صفوف من الحمير والخيل بلاسروج وأمامها العلف متوزع على الأرض أو في المداود (المعلف) ثم صفوف من العربات الحربية مرتبة في الجهة المقابلة لصفوف الحيوانات .أما الجهة الخالية ففيها السروج وأطقم العربات ومهمات الحملة والرحال والأخلاس والبراذع مربوط بكل واحدة منها سلتان للزاد والمشروب وعلى يمين المعسكر بعض الجند يجري الحركات العسكرية والتمرينات الحربية بعضهم يتريض كأنه فرغ من تعليمه وفي جهة أخرى عساكر الرديف تمارس الحركات والتعليمات وترى الأوامر العسكرية جارية على محور الطاعة والإمتثال وفي جهة أخرى صورة تنفيذ العقاب على المجرمين من العساكر وبعض الضباط فوق عرباتها يطوف على الجند للتفتيش وصدور الأوامر أوبمباشرة تنفيذها وعلى الجهة اليسرى من المعسكر بيمارستان الجند)المستشفي (والبقالات مرتكزة بجواره ثم المرضى من الخيل والحمير والأطباء البياطرة قائمون في خدمتها والطومارجية) خدمة المرضى (واقفة تركب الأدوية والجزع وتسقيها لمرضى العساكر .ونرى حول المربع فرساناً فوق عرباتهم يمارسون حركات التعليم وأركان الحرب وعساكر المشاة في المصارعة فإذا عرفنا ذلك علمنا أن الجيش المصري كان يتركب من صفين فقط وهما المشاة وفرسان العربات الحربية وترى في غير هذا الموضع صورة المشاة منقسمة إلى جملة فرق منها ما لعساكر هادرق يسترها من وسطها إلى رأسها وفي يدها اليمنى حربة أو رمح وفي اليسرى بلطة بمراوة) يد (قصيرة وثيابها أقبية قصيرة وصفوفها متكاثفة بالرجال .وكان أغلب الجيش يتركب من هؤلاء الفرق ومنها المشاة الخفيفة وعساكرها تحمل في يدها اليسرى درقة صغيرة مستديرة وفي اليمنى حساماً أو سيفاً أعوج له قبضة وعلى رؤسها خوذ من النحاس أو من باقي المعادن محلاة من أعلاها ومنها فرقة الرماة أصحاب القوس والنشاب وعساكرها تلبس أقبية طويلة وتحمل قوساً

عظيماً مثلث الشكل وعلى كتفها جعاب للنبل .

هذا مايختص بترتيبهم وثيابهم وسلاحهم أما ترتيب سيرهم للغزو فتكون المشاة الثقيلة في القلب وهي مثقلةٌ بالسلاح وتكون العربات الحربية من أمامها ومن خلفها وعلى جوانبها وتكون المشاة الخفيفة في المقدمة وعلى النقط المخيفة ومتي دنوا من العدوّ عقد الملك حفلة جامعة يحضرها جميع رؤساء الجيش وضباطه ويضجون جميعهم بالدعاء و الإبتهال إلى معبوداتهم ويطلبون منهم النصر والفوز على أعدائهم ثم يستلم الملك قيادة الجند ويزحف بهم على العدوّ وتتقدم فرقة من المشاة ومعها النفير يتلوها عربة بها صارى منصوب عليه صورة رأس كبش يعلوها صورة قرص الشمس وهو رمز على معبودهم) أمون رع (كأنه يقود الجيش إلى قتال عدو مصر أو صورة أحد المعبودات الأخرى) راجع نمرة ١ و ٢ من لوحة الأسلحة .(ثم يأتي الملك فوق عربته تحفه عساكر الرماة وضباط الحرس السلطاني وبمجرد ما يصل إلى العدوّ يساجلهم الحرب ومتى تم له النصر عليهم يقوم خطيباً بين ضباطه وهم يقدمون له الأساري من الأعداء ويبادر كل فريق إلى قطع اليد اليمنى من كل ميت من الأعداء وتارة يقطعون أحليلهم ثم يحصونها ويجعلونها حزماً ويقدمونها إلى الملك ليعلم عدد الأسارى والأموات وترى جميع ذلك منقوشاً في معبد رمسيس الثالث بمدينة أبو .

فإذا كان الحرب براً كان الملك بوسط عسكره يقاتل وهو فوق عربته كأحدهم وإذا كان بحرًا تصطف سفن المصريين أمام سفن العدو بقرب الساحل فتجري وتتحرك بواسطة الشراع والمداري والمجاذيف وتصطف عساكر الرماة على الساحل لتساعد من بالسفن من المصريين ويرمي الجميع بالنبل والنشاب على سفن العدوّ ويكون الملك قائماً على قدميه بوسط العساكر البرية يدير حركة القتال ويترك عربته مع باقي متاع الجردة ومتى فاز بالنصر يتبع العدوّ براً و بحراً وينصب القناطر على الأنهار ويمر من فوقها مع جيشه ويدخل بلاد العدوّ ويستولى عليها وتتسلق عساكره على القلاع والحصون ويأمر الملك بهدمها أو بإحراقها بالنار و يسمع قول سفراء العدوّ ويملي عليهم شروط الصلح ويضرب الجزية والمغارم ويبن لهم مقدارها وكميتها فتارة تكون من المعادن النفيسة أو من الأشياء النادرة الوجود النافعة أو من أدوات الحرب والأسلحة أو من الحيوانات الأهلية الخاصة بتلك البلاد أو من الأشياء المعدومة من مصر .ثم يجمع قواده ورؤساء جيشه ويخاطبهم بما معناه إبتهجوا وإنبسطوا وليصل فرحكم إلى عنان السماء فأن الاعداء ولت مدبرة من قوّتي وبأسي وقد حاق بهم غضبي وأمتلأت أفئدتهم رعباً من هيبتي فأنهم رأونى كأسد ضارٍ وقد أتبعتهم كالباشق فأزهقت أرواحهم الخبيثة وقطعت أنهارهم فوصلت إليهم وأحرقت قلاعهم وأني أنا الحامي لحمى

حوزة مصر وقاهر المتوحشين أعداءها ثم يختم قوله ويأمرهم بالعودة إلى الأوطان فيمشي الجيش فرقاً فرقاً والملك فوق عربته يقود خيلها بنفسه وهى مطقمة بأجمل زينة لها مجللة بأحسن ما يكون وتقدمه الأسارى وهم مكبلون بالحديد وتحمل بعض ضباطه المظلات على رأسه ويدخل في موكب حافل مدينة طيبة وتكون الأسارى خلفه ومتى وصل إلى المعبد ترجل ودخل وأثني على معبوداته وشكر لهم هذه اليد البيضاء حيث منت عليه بهذا الفتح ثم يتوجه إلى داره و يعين يوماً للتبريك . فتأتي إليه الوفود من أرجاء المملكة وبعدما يجتمعون في قصره يخرجهم إلى المعبد يتقدمهم رجال الموسيقي ومعهم الشبابة) الناي (والنفير والطبل والمغنون والمرتلون و يتلوهم أهل الملك وأقاربه ثم القسس ثم رؤساء الدواوين ورجال الدولة ثم ابنه البكري أو الوارث للملك ويمشي أمام الملك وهوحامل البخور ثم الملك في محمله المحلى بأنواع الزينة يحمله أثناعشر ضابطاً من قواد الجيش وعلى رأس كل واحد منهم ريشة من ريش النعام والملك في زينته وأبهته الملوكية جالس على التخت الملوكى فوق المحمل وعليه صورة أبي الهول علامة على القوة والتدبير ثم صورة سبع علامة على الشهامة وأقتحام الأهوال وتمشي أولاد الكهنة حول المحمل وهم حاملون قضيب الملك وقوسه وباق سلاحه والإشارات والعلامات الملوكية ثم يتلوه باقي الأمراء وكبار الكهنة وضباط الجيش وهم مصطفون صفين وحول الجميع فرقة من العساكر المشاة تمشي كالحلقة المفرغة لتمنع الناس من أن تتخلل هذا الترتيب .أما باقي الناس فتمشي حول الحلقة ومتى وصل إلى باب المعبد رحل ودخله وقضى به ما وجب عليه وتقابله الكهنة وتجري رسومها المعتادة ثم يخرج ويعود إلى قصره كما أتي أي على هذا الترتيب الذي ذكرناه وبعد ذلك ينفض الجمع ولولا الإطالة لشرحنا جميع مايفعله بالمعبد) راجع الرحلة العلمية في معبد رمسيس الثالث الذي بمدينة هيو - أنظر الشكل الآتي.)

ومن البديهي أن جميع ماذكرناه هنا لم يكن عادة مطردة في جميع أيام الفراعنة بل كل وقت

كان يعطي حكمه وكان من عادتهم أنهم يجعلون مع كل من مات من أفراد الأمة حجراً مكتوباً عليه اسمه ولقبه واسم أبيه وبعض أدعية لمعبوداتهم ومن لم يكن معه هذا الحجر كان كمن لم يخلق والظاهر أنهم كانوا ينفرون من حلي الميت وما كان يستعمله من الآت حرفته حتى كانوا يدفنونها معه.

كما كانوا ينفرون من رؤية الأجانب ويتشاءمون من طلعتم مالم تلحهم الضرورة لإستخدامهم عندهم.

إستطراد

حكي أن أحد الوزراء كانت جالساً وحوله بعض العلماء والظرفاء فجرى بينهم ذكر الشؤم والتشاؤم فقال الوزير لمن حوله أني لم أتشاءم الإ من يوم الأربعاء حتى أني ألازم فيه داري ولا أخرج منها فقال له أحد الفضلاء ممن كان بالمجلس أنه يوم مبارك وهو اليوم الذي انتصر فيه صلى الله عليه وسلم في غزوت الاحزاب فقال الوزير له نعم ولكن بعد ما زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر فقال له أنه اليوم الذي ولد فيه يونس بن متى عليه السلام فقال الوزير نعم ولكن التقمه الحوت اهـ

الفصل السابع والعشرون

لمحة على أطلال معبد الكرنك وما حوله من الخراب

قد يري الزائرون حول هذا المعبد ثاراً مكتومة ومباني متهدمة تدهش العقول وتأخذ بمجامع القلوب وتحير الألباب وقد نسبها بعضهم إلى فعل الزلازل وأنها هي التي أهوت هؤلاء الشواهق إلى الأرض وقال آخرون بل هذا هو أثر ما فعله بطليموس لاطيروس عندما وقعت هذه المدينة في قبضة جبروته بعد حصارها جملة أشهر وقال آخرون بل نشأ هذا من عدم تمكين البناء وتوطيد أساسه ونسبه غيرهم إلى فعل النيل و رشحه السنوي ودخول الأملاح في مسام أحجاره وأساسه فتحللت وذابت وانقضت على بعضها وهذا هو الأرجح فأن دكة المعبد الأكبر منخفضة عن سطح ماء النيل وقت شدة فيضه بنحو **1,90** متر وفي سنة **92** رأيت رشح الماء قد عم أرضه وعلا عليها نحو متر ولونه أصفر داكن مشحون بالأملاح والقلويات وهكذا في كل سنة حتى تأكلت أحجاره ووهنت دعائمه و بليت محاسنه واختل تركيبه وتساقطت أحجاره وانقضت جدره وتزعزعت أركانه وخرت أساطينه التي طالما قاومت يد الدهر وصبرت على حر الزمان وتقلب الملوين ورأيت بعضها وقد ذابت قواعدها ولم يبق منها غير نحو الربع وصارت تلك العمد الهائلة

كأنها معلقة في الفراغ على غير أساس حتى كنت أخشى أن أمر بجوارها ورأيت بعضها وقد أرتكز على غيره فأماله معه فعلمت أنه أنصدم فيه عند وقوعه فأختل منه مركز ثقله ورأيت كثيراً منها قد هوى إلى الارض ولابد أن يتم خراب هذا المعبد في أمد قريب وقد طالت حسرتي على ما حصل لرحبة الأعمدة التي به كماحصل لباقي حيشانه والله يرث الأرض ومن عليها واليه المصير.

وإلى هنا إنتهى وصف المعبد الأكبر المرسوم في اللوحة الثانية.

ثم توجه إلى الشمال وتخترق هذا الخراب ونمر ما بين برجي نمرة **3** و **4** فنرى أمامنا محرابين صغيرين على يسار الطريق وهما من مدة العائلة السادسة والعشرين وليس في رؤيتهما كبير فائدة للزائرين أما المعبد المرتكز على سور المعبد الأكبر المرموز له بحرف) ز (من رسم اللوحة الأولى فهو من بناء طوطوميس الثالث وزاد فيه سباكون الأتيوبي وبعض ملوك البطالسة مباني أخرى ونرى في

الجهة الخلفية من هذا السور ستة معابد صغيرة منهدمة وهي المشار اليها بأحرف) أَبَ حَ دَ هَ وَ (وأبوابها مصنوعة في السور نفسه ومدة بنائها محصورة ما بين العائلة الثانية والعشرين والسادسة والعشرين أما المعبد الواقع جهة الشمال الشرقي منها المرموز له بأحرف) ع ط ے (فمن بناء أمونوفس الثالث وقد بناه لثالوث مدينة طيبة وقد تقدم ذلك وغيرت البطالسة وضع الجهة المرموز لها منه حرف) ع (حسبما يقتضيه ذوق وقتهم وكذا غيروا رحبة الأعمدة التي كانت به كما غيروا وجهة الباب الشمالي وكان رمسيس الأكبر أقام على هذا الباب مسلتين من حجر الجرانيت ولم يبق منهما الآن هناك غير أحجارهما المطروحة على الأرض .أما المعبد نفسه فقد درسته نوازل الأيام وبلغ خرابه نهاية التمام وليس به الآن غير بابه الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية وبعض جدر لايكاد يتجاوز إرتفاعه متراً فإذا علمنا ذلك عدنا إلى الجنوب وقصدنا البحيرة المشار إليها بحرف) ع (وهي التي كانت تسير فيها السفن المقدسة مدة المهرجان وسبق الكلام عليها عند ذكر معبد الكرنك ودندرة وهي أي البحيرة من عمل طرطوميس لأنه وجد في بعض النصوص مايفيد أنه حضر نفسه في أول يوم من حفرها وقد علم الآن أنها كانت تمتلئ من رشح النيل وما كان لمياهها مصدر غيره أما الأربعة أبراج المشار إليها بنمرة ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ فقد سرى إليها الدمار أيضا وجميعها واقع على الطريق الواصل من المعبد الأكبر إلى معبد المعبودة موت المشار إليه بحرف) ن (وقال ماريت باشا أن إنحراف محورها عقدة لم يتيسر إلى الآن حلها وقال داريسى)أمين المتحف المصري في معبد الأقصر (أن إنحراف محوره كان سبباً لإعتدال الطريق الواصل منه إلى معبد الكرنك ولعل هذا مثله والذي بين البرجين المشار إليهما بنمرة ٩ و ١٠ هو الملك هورروس)هورمحب.(كما أن الباني للبرج نمرة ٨ هي الملكة حتزو أما برج نمرة 7 فمن بناء طرطوميس الثالث ولكل من رمسيس الأول ورمسيس الثاني والرابع والسادس بناء في هذه الأبراج وكان على أبوابها تماثيل هائلة مزينة بها وتهشمت ومابقي منها صار في حالة يرث لها من التلف ولرمسيس الأكبر تمثالان من حجر جيري منصوبان أمام الوجهة الشمالية من البرج نمرة 10 وكان أمام الوجهة الجنوبية من البرحج نمرة 8 ستة من هذه التماثيل الهائلة أما التماثيل التي جهة الغرب فلم تزل ظاهرة والأول منها صورة طوطوميس الثاني وهو جالس على كرسيه والثاني منها صورة أمونوفس الأول وقد سبق الكلام عليه ويرى على قاعدة التمثال الثالث أسم الملك طوطوميس الثالث ويوجد بين البرجين نمرة ٩ و ١٠ معبد صغير وسط حائط السور وهو المرموز له بحرف) م (وله بناء خاص به ولا يعلم إلى الآن الغرض منه .و تاريخ بنائه يصعد إلى زمن أمونوفيس الثاني وبه مركز ديني

كانت الكهنة تقف عنده وقت الزفاف وتتلوا مدائحهم وقصائدهم ثم نتوجه إلى معبد موت المشار إليه بحرف) و (وهو في آخر خراب الكرنك من جهة الجنوب وقد تم خرابه وكلما شاهد علماء الآثار ما آل اليه أمره من الدمار وعلموا أنه كان معبداً قائماً بذاته تام المنافع الدينية من سور وأبراج وتماثيل وأصنام أبي الهول ومحاريب وبحيرة كلما اشتد أسفهم على ما أصابه من الدمار والذي أسسه هو الملك أمونوفيس الثالث وجعله في آخر الهياكل التي بالكرنك من جهة الجنوب .
كما أنه شيد معبد أمون وجعله في آخر هؤلاء الهياكل من جهة الشمال وكان به أي بعد موت كثير من الأصنام الجالسة بجوار بعضها صفوفاً بحيث ان أذرعتها تكاد أن تتماس وهي على شكل المعبودة بشت أي جسم إنسان جالس على كرسيه له رأس أسد وكلها مصنوعة من حجر الجرانيت الأسود وحجمهما واحد تقريباً ويقال انه كان بهذا المعبد خمسمائة صنم من هذا النوع انتهي ملخصاً من كتاب مارييت باشا و بيديكر وغيرهما من علماء الآثار.

الفصل الثامن والعشرون

في الصناعة المصرية والدرجة المدنية

قد ألمعنا في بعض الأبواب الماضية بطرف مما كان للقسس المصرية من القدم الراسخ في العلوم على إختلاف ضروبها وتباين مناهجها وتنوع مصادرها ومواردها وما كان للمصريين من اليد البيضاء في إحرازهم قصب السبق على غيرهم في درجة الزراعة والإمارة والتجارة براً وبحراً وما كان لهم من الأوّلية في سن القوانين والشرائع وغير ذلك .والآن نذكر لك ذلك مفصلاً تتميماً للفائدة فنقول روى المعلم شمبوليون فيجاك في تاريخه على مصر أن قسسها كانوا مصابيح يهتدي بنورهم من شاء من الأجانب حتى أن علماء أوربا التي بلغت الآن شأو المدنية ورفعت أعلام الرفاهية لم تزل متطفلة على لفظات موائد قدماء اليونان وغيرهم الذين تطفلوا في أيامهم على لفظات موائد أولئك القسس الجهابذة .وقال بروكش باشا أن المصريين تبحروا في جميع العلوم على إختلاف مشاربها وعلموا ما ليعلمه الراسخون من علماء أوربا الآن وكانت علمهم منقوشة في صدورهم وسطورهم وعلى هياكلهم وأماكنهم العامة تتميماً للإستفادة والتعليم وكأنهم رزقوا الحظوة في نشر العلوم وتهذيب الأمة وبث روح الفضيلة النادرة المثال بينهم .وقال هيرودوت أن مدارس الكهنة منتشرة في جميع أمهات القرى بمصر ولكل مدرسة جامعة رئيس أو حبر يدير حركتها وهذه الرتبة ميراثية كرتبة الكاهن الأعظم الذي مقره في هيكل العاصمة وله من الشرف والمكانة عند ذويه ما للملك نفسه عند رعيته اه وكما أن الحكومة كانت تضع في هذا الهيكل الأعظم تماثيل جميع الملوك الذين تناوبوا الجلوس على تخت مصر.

كانت الكهنة تحفظ به أيضا تماثيل رؤساء الديانة الذين تناوبوا الجلوس على التخت الكهنوتي ولما دخل هيرودوت مصر وزار هذا المعبد أراه كهنتها **341** تمثالاً وأشاروا له على واحد منها وقالوا له أن هذا هو آخر من مات من رؤسائنا وهو ابن هذا وأشاروا له على غيره وهو أبن هذا وهكذا إلى أخرها ثم قالوا له أعلم أن في مدة أحد هؤلاء الأحبار أشرقت الشمس من حيث تغرب مرتين وغربت من حيث تشرق مرتين وقد أضطربت علماء جميع الأزمان في تخريج هذه الحادثة الجوية فأجازها بعضهم وأنكرها اخرون وقالوا أن الكهنة ألغزوا بهذا القول على أب المؤرخين) وهو هيرودوت (وقال بعضهم أن المؤرخ المذكور فهم منهم غلطاً وقال فريق أن فى عبارة

الكهنة تحريفاً وقالت طائفة أن الكهنة الذين أشاعوا هذا القول توهموا ذلك ثم قال هذا المؤرخ ولما أجريت الحساب بناء على وجود هذه التماثيل ظهر لى أن مصر كانت عامرة آهلة مقامة الأحكام والشرائع قبل دخولى بمصر بنحو **11340** سنة اهـ.

والظاهر أن هذا المؤرخ جعل لكل قرن ثلاثة أجيال وأعتبر الجيل ٣٣ سنة وكسر فيكون القرن ثلاثة أجيال وهو مخالف لما هو معروف الآن لأن القرن في زماننا عبارة عن أربعة أجيال.

أما ماذكرته الكهنة إلى هذا المؤرخ من أن الشمس أشرقت من حيث تغرب مرتين فيقرب مما ذكره المؤرخون في حادثة وقوف الشمس ليوشع بن نون عليه السلام وملخصه وملخصه أنه كان يحارب الجبارين بالقرب من مدينة جبيون بالأرض الموعودة وكان ذلك يوم الجمعة ولما رأى عليه السلام أن الشمس على وشك الغروب أشار اليها فوقفت حتى تم له النصر عليهم ولم يناجزهم في السبت ولهذه الحادثة أشار أبوتمام بالتلميح في قوله.

فردت علينا الشمس والليل راغم	بشمس لهم من جانب الخدر تطلع
فوالله ما أدري أ أحـــــــلام نائم	ألمـت بنـا أم كـان في الركـب يوشـع

وقال بعض علماء الآثار أن الكهنة كانت تعرف على الكميا والتحليل والتركيب والخلط والمزج والتقطير والتصعيد وأن لفظة كميا محرفة عن لفظة كم التي معناها باللغة المصرية الأسود وكانت علماً في الأصل على بلاد مصر.

وزعم الدجالون المولعون بعلم جابر بن حيان أن كهنة مصر كان لهم اليد البيضاء في قلب المعادن إلى ذهب وفضة وخبرة تامة تبدبير الأكسير أو الحجر المكرم واستمالوا بذلك عقول كثير من البسطاء وزينوا لهم نيل المستحيل فأصغوا لدعائهم ولبوا نداءهم فأصبحوا وقد خربت منازلهم ولم يخرجوا منها على طائل وصاروا من فقراء الناس بعد أن كانوا من سراتهم ومياسيرهم وقال بعضهم في جابر بن حيان.

هــــــــــذا الـذي بقالـه	غـــــــر الأوائـــــــل والأواخـــــــر
مـا أنـــــــــت الأكاســـــر	كـــــذب الـــــذي سمالـــــك جـــــابر
وقـال غـــــــــــيره وقـد	أصـــــــــــبح مـن الفقـراء
ومـا صــــــــــنفه جـــــابر	في الصـــــ،ـــــنعة جربـــــت
فكـم للطــــــــين حملـــــــت	وللآمـــــــــــــال وصـلت

وفوق الشـــــب والكبريـت	للـــــــــــزرنيخ صـــعدت
وكـم ركبـــــــت أبنيقـا	علـى النـــــــار وقطـرت
وللأجـــــــساد لينـت	ولـــــــــلأرواح لطفــت
وللزهـــــــــرة نقيـت	وكـم للشـــــمس كلسـت
وكـم في بــــــوط بربـوط	مـن الراســـــخت نزلـت
وبالماســـك كـــــــم كـوي	ت في كفــــــــي وحرقـت
فاصـــــــــح لى التـدب	يـر لكـــــــــى أدبـرت

وأستدل بعضهم على أنها كانت معروفة عند المصريين بقوله تعالى حكاية عن قارون) انما أوتيته على علم عندى (وتنكير علم يفيد الضن به فأن كان ذلك هو المراد كان للمصريين الفخر الذي عجز الناس عن الإتيان بمثله في جميع المسكونة إلى الآن وكما أن الكهنة كان لها الأسبقية في جميع العلوم العقلية والنقلية كان لعموم الأمة الأسبقية أيضا في الزراعة والصناعة أما الزراعة فكانت متقدمة جداً وبتقدمها تنوعت المحصولات ونمت فتفننوا فيها بالصناعة وما لابد منه من ضروريات المعيشة والحضارة فكان يخرج من معاملهم جميع مايحتاجون إليه من أكل ولبس و زينة و يصدّرون منه ما زاد عن حاجتهم إلى الآفاق فكان ذلك منبع سعادتهم وأصل ثروتهم وقد برعوا في عمل الأواني من أنواع المعادن لإحتياجاتهم المنزلية والتزين قصورهم وسراياتهم كما برعوا في غزل القطن والتيل والكتان والصوف وحياكتها ونسجها حتى حاكت منسوجاتهم أرفع المنسوجات الهندية المتداولة الآن بين الناس وأشتهروا بعمل الأقمشة والديباج والمخمل البابلي والتخييش والتطريز بخيط الذهب والنقش والرسم بالأبرة المعروف عندنا باسم) الركامو والظرافة وغيره (والتلي والحرير وغير ذلك وكانت لحسنها وطلاوتها بهجة منظرها مقبولة في مشارق الأرض ومغاربها

ولما كنت بالصعيد سمعت من بعض الناس أن السائحين الذين يأتون إلى هذه الجهة يشترون قطع الأكفان من الأقمشة المطرزة ويدفعون فيها من مائة قرش إلى الخمسمائة مع أن القطعة الواحدة لا تكاد تبلغ المتر طولًا ويتهافتون على شرائها ليجعلوها نموذجًا ينسجون على شاكلته في بلادهم فأنكرت منهم هذا الخبر وإستضعفته ولما وصلت بندراخميم رأيت في بعض المقابر القديمة قطعة من تلك الأكفان وعليها من التطريز والنقش بالحرير ما يعجز اللسان عن وصفه فصدقت ما كنت كذبته.

وذكر هيرودوت أن أماسيس ملك مصر «من ملوك العائلة السادسة والعشرين» أهدى إلى بلاد لقدمونيا «مملكة قديمة ببلاد اليونان» زينة للصدر وقماشها من أغرب ما يرى عليه نقوش كثيرة متنوعة ومطرزة بخيط الذهب وهدّابها من القطن وأغرب ما بها أن جمع فتلاتها دقيقة جدًا مع أنها مركبة من ٣٦٠ شعرة قطن يمكن الإنسان أن يتحقق منها ولم يوجد الآن من هذا القماش إلا نوع آخر دونه في الحسن كان أهداه الملك المذكور إلى معبد إلهة الحكمة اه وبقدر ما إرتفعت درجة الحياكة عندهم إرتفعت درجة الصباغة فكانوا يعرفون تركيب الألوان ومزجها وإستخراج اللون الأرجواني والعندمي والقرمزي حتي نافست صباغة الهند ومدينتي صور وصيدًا وكان لكبار تجار الفنيقيين مخازن تجارية كثيرة بمدينة منفيس وقال پلين الروماني وهو متعجب رأيت المصريين وهم ينقشون الأقمشة بطريقة بسيطة جدًا وما رأيتهم إستعملوا الألوان لذلك بل الأجزاء التي تزيل كلًا من الألوان والنقش معًا فيغمسون الأقمشة في سائل حار مركز بالأجزاء ثم يخرجونها منه وقد إكتسبت لونًا واحدًا ولم تمض عليها برهة إلا وتكتسب أشكالًا وتظهر لها نقوش ورسوم بديعة وقال علماء هذا العصر إن هذه الطريقة التي رآها پلين ببلاد مصر غير معلومة الأن والتي تعلمها الإفرنج حديثًا من بلاد الهند هي أنهم ينقشون الأقمشة أولًا بالألوان المطلوبة ممزوجة بغراء لا تؤثر فيه أجزاء اللون الثاني الذي يريدون أن يجعلوا أرضية القماش منه ثم يغمسون الأقمشة في هذا اللون وهو حار أو بارد حسب الأصول فتخرج الأقمشة منه ملونة بلون واحد ثم يغمسونها ثانية في سائل مركب من أجزاء تزيل هذا الغراء فعندها تظهر النقوش اهـ وما إكتسب المصريون هذا التقدم إلا بطول التجارب الكيماوية المطبقة على علم النبات والمعادن الداخلة في علم الصباغة.

ومن نظر إلى الأحجار الكريمة والحلي الذي وجد بجهة أهرام دهشور على أن القوم كان لهم دراية بصقل الأحجار النفيسة الصلبة وتكييفها كما يشاؤن وثقبها وتركيبها في المصوغات ومن إطلع على صياغتهم الموجودة الآن بالمتحف المصري أيقن بإنفرادهم في هذا الفن بين الأمم القديمة جدًا وليس الخبر كالعيان وقد يوجد في نواويسهم ومقابرهم كثير من هذه المصوغات والحلي والأحجار الكريمة والزجاج الملون المختلف الأجناس المنقوش بأوكسيد المعادن أو بالمينة وقال بعض المؤرخين من الإفرنج إن إبراهيم عليه السلام لما أتى مصر مع زوجته سارة ورأى نساءها يتجملن بالحلي أهداها خاتمًا وأساور من ذهب كما أن فرعون يوسف الصديق أهداه خاتمًا وقلادة من الذهب وأن صاعه الذي وضعه في رجل أخيه بنيامين كان من الذهب أيضًا.

وقال بعضهم لما أراد الإسرائيليون الخروج من مصر إستعار نساؤهم من نساء المصريين كثيرًا من الحلي والمال والمصاغ والذهب والفضة ثم خرج الجميع ليلًا بما معهم فأقتفى فرعون أثرهم يقود جيشًا جرارًا وإنتهى الأمر بغرقه في البحر الأحمر مع قومه وفاز الإسرائيليون بما أخذوه غنيمة باردة بلا تعب ومشقة اه وقد تعلم الإسرائيليون منهم جميع ما كان لديهم من حياكة ونجارة و بناء وسبك وصباغة وتلوين وغير ذلك بدليل عملهم المظلة أو قبة العهد وأن موسى عليه السلام هو الذي حل تركيب العجل الذي صاغه قومه من الذهب مدة غيابه بجبل الطور ومازالت هذه الصناعة يتوارثونها ويتداولونها إلى زمن سليمان عليه السلام بل إلى زمن بختنصر الجبار لأنه أخذ من مملكة اليهود كثيرًا من أهل الحرف والصنائع وأرسلهم إلى بلاد بابل والظاهر أنه كان لهم مواصلة بالمصريين بعد خروجهم من مصر لأنهم قالوا إن بناء بيت المقدس الشريف ليس إلا معبدًا مصريًا سواء بسواء وإن اليونان والرومان ما إستناروا إلا بضوء مصباحهم مع أنهم أتوا في الزمن الأخير بالنسبة للأمم القديمة المتمدنة لأنهم تعلموا كيفية تنقية الذهب بواسطة الأسرب أي الرصاص وتحويله إلى رقائق رفيعة جدًا وتذهيب المعادن بواسطة النجف الزئبق وتذهيب الرخام والخشب بواسطة زلال البيض ولحام الذهب بالبورق الصناعي ولحام باقي المعادن ببعضها وتبييض النحاس وتركيب الصفر «البرونز» وتحضير المرتك الذهبي «أول أوكسيد الرصاص» والسلقون «ثاني أوكسيد الرصاص» والإسفيداج وأدخلوا في صباغتهم الألوان المستخرجة من الأرض ومن المعادن ولا ريب في أن المصريين كانوا أساتذة اليونان ومعلميهم كما علموهم قيمة المنسوجات الثمينة التي كانوا يزينون بها ملوكهم ومعبوداتهم وكما أن المصريين كانوا يعرفون عمل الأشياء الجليلة كانوا يعرفون أيضًا عمل الأشياء الحقيرة كعمل اللون الأسود المستخرج من العثان «الهباب» ومن راووق الخمر ومن تكليس العاج وعمل الغراء القوي من جلد البقر وكانوا يصبغون أغنامهم باللون الأرجواني ويبيضون الصوف ببخار الكبريت وكانوا يعلمون أن المصباح إذا طفئ في مطمورة أو في مخدع كان هواؤه مخنقًا قتالًا وكانت لهم معرفة تامة بتركيب المينة وعمل الفاخورة والزجاج والنقش وعمل التماثيل من المعادن وتطريقها والحفر عليها والتذهيب وبناء السفن وعمل الخافقى من الرخام المسحوق وعمل الورق البوردي والجلد المصبوغ أو الملون والسختيان ونرى في كثير من الأماكن الأثرية أشياء مركبة بالمينة وكثيرًا من الشقف الصيني والفرفوري الأبيض والملون وكلها جمعت بين اللطافة ودقة الصنعة.

وروى بعض الإفرنج أن المعلم سورس صانع الصيني قلد كثيرًا من هذه الأواني المصرية

الأنيقة الشكل فأجمع أهل أوربا على تقدم قدماء المصريين في هذه الصنعة وقد تحصلنا على كفة ميزان كبيرة لطيفة من أطلال مدنهم فزينا بها دار تحفنا بفرنسا أما الخافقى المركب من الجبس والغراء القوي أو من مسحوق الرخام الأبيض والجير فكثير الوجود بإطلالهم ولتوفر الذهب عندهم وكثرته كانوا يذهبون به كثيرًا من أثاث منازلهم وتماثيلهم وتوابيت موتاهم وكأنهم لم يكتفوا بنقشها وتزيينها بكل الألوان حتى جعلوا على وجوههم وأيديهم وفروج نسائهم صفائح منه ومن تأمل في نقش الصيني والفرفوري الذي كان يخرج من معاملهم على أنهم كانوا على معرفة في شغل القصدير والكوبلت «حجر الزرنيخ» وقال المعلم «داوى» الشهير رأيت تسعة أنموذجات من الزجاج المصري الشفاف المنقوش بالكوبلت أما الكوبلت الأزرق فكثير على آثارهم وقد أثبتت لنا الكيميا الآن أن جميع الألوان التي قاعدتها المعادن ونقشوا بها معابدهم دخلت في مسام الأحجار والجرانيت وتشربها أكثر من خط ومن المستغرب أنهم كانوا يخيطون الزجاج المكسور بسلك من الحديد ويلحمونه بالكبريت و يزينون قصورهم وهياكلهم بالزجاج والمينة و يبلطونها بترابيع من الزجاج الملون البراق المدهش للعقول اهـ أما سبب كثرة الزجاج عندهم فهو أن الله قد خص أرض مصر بكثرة الرمل والتراب وملح البارود والقلى الداخل في تركيبه فإهتدى أهلها بعقلهم لعمله و برعوا فيه ومن البديهي أن هذه المعرفة ما أتت لهم إلا بكثرة التجارب مع طول الزمن وقد أدهشت هذه الصناعة البديعة عقول اليونان والرومان وأخذت بمجاسع قلوبهم وألقتهم في بحر الحيرة لأنهم رأوا بمصر ما لم يسمعوا به من قبل وروي إسترابون أن طائفة من المصريين كانت بمدينة طيبة تعمل سرًا نوعًا من الزجاج الرائق الشفاف ذي الألوان التي تأخذ بالأبصار وتسبى العقول منها ما لونه كلون السنبل أو الياقوت الأصفر أو الأحمر وأن رمسيس الثاني أمر بنصب تمثال على صورته من زجاج أخضر كالزمرد وقالوا إنه نقل إلى مدينة القسطنطينية وبقي بها إلى زمن تيودور وروى أهل السيرة أنه كان في سراي التيه أو البرية التي كانت بالفيوم تمثال هائل من النوع المتقدم ذكره ولما دخلت مصر تحت يد رومة ضربت على أهلها خراجًا سنويًا من الحنطة والزجاج وقال پلين علمت أن أوغسطس قيصر أهدى إلى معبد «الكونكوردو» برومة صورته وصورة أربعة أفيال مصنوعة من العقيق الأزلندي من عمل المصريين وهي أعظم هدية أهدتها الملوك إلى معابدها اهـ.

وكان أحد عمال رومة مصر نزع من معبد عين شمس تمثال «متيلاوس» «ملك إسپارطه اليونانية وأخو أغاممنون قائد جيش اليونان في حرب ترواده» مصنوعًا من الزجاج الأسود فرده

طباريوس قيصر إلى مصر ثانيًا وقال شمپليون فيجاك قد أفعمنا دار تحفنا بما إستخلصناه من مصر من الحلي والجواهر والذهب والفضة المنقوشة بالمينة والمعادن المشغولة اهـ والظاهر أن هذه الأواني النفيسة المتخذة من الزجاج وغيره الخارجة من معامل مدينتي طيبة وقفط كانت ترسل في البحر الأحمر إلى بلاد العرب وبلاد إفريقيا أما الصفر وإستعماله في الأسلحة والأواني وغيرها فكان شائعًا جدًا ببلاد مصر وقد رأيت بقرية صا الحجر سنة ١٨٩٣ كثيرًا من النصال المصنوعة منه وله ثلاثة أضلاع ولكن من أين كان يأتي لها هذا النعاس الوافر الكمية ولم تهتد العلماء لحل هذه المسئلة إلى الآن غير أنه وجد على بعض الآثار أن بعض الملوك كان مهتمًا بإستخراج النحاس من جهة بلاد العرب وغيرها.

وذكر بعض المؤرخين أن الذي أوصل مصر إلى هذه الدرجة وساعدها على ترقيمها إلى أوج الحضارة والرفاهية هو خلوّ بالها من الفتن والقلاقل الداخلية وبعدها عن الشقاق والثورات الناشئة عن الطمع وحب الرياسة خلافًا لبلاد اليونان التي كانت منقسمة إلى جملة أيالات أو ممالك صغيرة فلذا بقيت قريرة العين ملتئمة الشمل مجتمعة الكلمة منتظمة السياسة الملائمة لأحوال البلاد يوقن صغيرهم وكبيرهم بالحساب والبعث والنشور ويعقدون محافلهم الدينية لمعبوداتهم التي خضعت لها جباه ملوكهم بالتيجان مشمول دانيهم وقاصيهم بعدل القوانين والأحكام الكافلة لإستتباب نظام الهيئة المدنية وتوطيد دعائم الراحة في جميع أنحاء المملكة المصرية ولما رأت الأهالي أن طائفة الكهنة التي هي أشرف الأمة دانت لهؤلاء النواميس والأحكام قلدوهم وتلقوها بالقبول والإمتثال مثلهم فبنيت العواصم وشيدت المدن وبلغت الحضارة أوج فخارها وإرتقت الصنائع ودبت الحمية الوطنية وإستقامت الأحوال وأسست العمائر الثابتة الأركان المؤسسة على العلم والعمل وبنيت الآثار التي فاقت جميع أعمال النوع الإنساني وإنتشرت في جميع أنحاء القطر وإختبرت الأراضي الزراعة ومسكت بالدقة ورصدت الأجرام السماوية وتدونت قوانينها ونواميسها المهمة وتحققت نظرياتها بتطبيقها على المعارف ونسخت بالقلم المتداول بين جميع الناس حينما كان أغلب الأمم ضالًا في غياهب الضلالة وساربًا في مسارب الجهالة ويا ليت القفار كانت وارت سوءته أو سترت المغارات عورته وها هي صورة أشكالهم تنبؤنا بأحوالهم.

ونقل شمپليون فيجاك عن شمپليون الشاب ما ملخصه «لما أتيت مصر وشاهدت صورة الأجانب مرسومة في بعض مقابر ببيان الملوك تعجبت من حسنها فمن ذلك ست صور كل واحدة منها تدل على الأمة التي هي من جنسها وقد إعتنيت بأخذ صورتها أما الأولى فصورة

مصري جعلوه رمزًا على جميع سكان مصر ولونه أحمر داكن معتدل القامة متناسب الأعضاء سمح الوجه طلق المحيا أقني الأنف قليلًا مرسل الشعر سابله عليه كتابة بربائية معناها إنه «الإنسان الكامل» أما الثانية فصورة زنجي وهو رمز على جميع سكان إفريقيا وإسمه بالبربائية «نَحَسْ» «ولعل لفظه مَحَسْ الدالة على بعض أقاليم بلاد النوبة محرفة عنها اه مؤلف» الثالثة صورة عربي ويهودي ولونه أحمر مشرب بالصفرة أو السمرة أقني الأنف جدًا له لحية كنة سوداء رقيقة من أسفلها قصير الثياب المزينة بالألوان الرابعة صورة ميدي أي فارسي وهو متقمش بنحو مئزر ملتف به وعليه رداء قصير خفيف اللحية والعارضين الخامسة صورة يوناني أو أيوني «نسبة إلى أيونيا إحدى ولايات أسيا الصغرى القديمة وكان يسكنها طائفة من اليونان اه مؤلف » وهو قابض بيمناه على قوس وبيسراه على مسوقة وخلفه جعتة النشاب وكلها رمز على قسم آسيا أو على ممالكها السادسة وهي الأخيرة صورة أوربي جعلوه رمز على جميع سكان أوربا وهو أبيض اللون معتدلًا الأنف أزرق العينين أصهب اللحية «أشقرها» طويل القامة نحيفها عليه قباء من جلد ثور بشعره وهي دلالة على الهمجية والوحشية وهذه الصورة «وأخجلتي من بيانها لأنها صورة أجدادنا المتوحشين سكان أوربا الذين حطتهم همجيتهم في آخر ترتيب النوع الإنساني» ولسوء البخت ما كانت وجوههم بالسمحة المليحة وقد علمت أن المصريين ما رسموا تلك الصور إلا ليبينوا لمن يأتي بعدهم حالة سكان أربعة أقسام الدنيا وأوّلهم المصريون وهم أول قسم ثم سكان إفريقيا وهم الزنوج ثم سكان آسيا ثم سكان أوربا وهم آخر أنواع بنى آدم اه ملخصًا «رجع» ومن مخترعاتهم المستغربة أنهم كانوا يشيدون أرصفتهم على النيل بكيفية لم تزل إلى الآن غير مستعملة ببلاد أوربا وهي أنهم كانوا يجعلونها على هيئة أقواس متجهة إلى الماء وحديتها إلى الأرض فبذلك يكون لها صلابة ومتانة قوية تقاوم تدافع التراب وضغط الأرض ومهما بلغ إرتفاع الأرصفة التي تكون على هذا النمط لا تتزعزع من تثاقل التراب عليها إلا إذا إختلت نقط إرتكازها وهي أطرافها وبقاء هذه الأرصفة إلى الآن من أعظم الأدلة والبراهين على متانتها كما أنها من أعظم الأدلة والبراهين على صفاء فكرتهم وتوقد مدركاتهم في التفنن وسلامة الإختراع مع أن في بناء هذه الأقواس الأفقية مشاقًا تصعب على المهندسين من الإفرنج رغمًا عن تقدم العلوم في أوربا ولم نر في أجسم مبانيهم وأكبرها أدنى عيبًا فإن الهياكل التي بلغ طولها أكثر من أربعمائة قدمًا وإرتفاعها أكثر من الأربعين قدمًا لم يبد لعين الرائي في واحد من أحجارها الكثيرة أقل إختلال أو تزعزع عن مكانه ولا يقع نظر الإنسان في هذه العمارات العظيمة الأعلى خطوط

مستقيمة وأسطحة مستوية مع أن معابد اليونان والرومان التي هي أحدث عهدًا منها قد لعبت بها أيدي الكوارث وأخنت عليها الأيام أما معابد أوربا فإنها لم تقاوم كر الدهور إلا مدة بعض قرون ثم تمحي وتزول فضلًا عن إنها بمعزل عن معابد مصر من حيثية تنميق الزينة وتنسيق الترتيب وكثرة النقوش والتصاوير حتى إن الكتابة والنقوش التي توجد على جدر المعبد الواحد تبلغ لغاية خمسين ألف قدم مربع ما بين كتابة دينية وإشارات رمزية ورسوم حربية كما أنه لا يوجد لغاية الآن على سطح الكرة الأرضية عمارة فخمة أبرزتها يد الإنسان تقرب من هذه العمارات التي جميع مبانيها على هذا الأسلوب الآنف الذكر وهل يستطيع الإنسان أن يقطع هذه المسلات التي بلغ طول بعضها نحو المائة قدم أم هذه التماثيل التي بلغ إرتفاعها إلى الخمسة وخمسين بل إلى الستين قدمًا مع أن جميع أعضائها متناسبة مع بعضها وأغرب من ذلك أنها مع إنفرادها في الحسن والعظم صنعت من قطعة واحدة من حجر الجرانيت المنقول من أسوان إلى طيبة مع أن بينهما أكثر من أربعين فرسخًا بل نقلت من أسوان إلى الإسكندرية أعني من الشلال الأول الواقع في جنوب مصر إلى البحر الأبيض المتوسط الواقع في شمالها وهل تستطيع أمة أن تجول مثلها في هذا الميدان إلا إذا بلغت أوج فخارها وسمت إلى عرش مجدها وكانت موصوفة بالمعارف التي يتشرف بها النوع الإنساني أما تجارتها فكانت رائجة في جميع الأسواق ولسهولة المعاملة التجارية إتحدت مع مملكة مروا «مكانها الآن بين البحر الأزرق و بحر تكازه أو إتبرا ببلاد السودان» وإنجذبت كل واحدة منهما لصاحبتها بواسطة هذه العلاقة وإمتدت تجارتها على شواطئ البحر الأحمر وداخل إفريقيا والذي سهل لمصر ذلك وقوعها بين بحرين عظيمين وهما البحر الأبيض والأحمر والفتوحات البعيدة التي كانت مصر تواليها في تلك الأزمان فبواسطتها إكتشفت أقرب الطرق للبلاد الأجنبية ولم تقتصر على بيع السلع والأعيان بل كانت تمير بحنطتها كثيرًا من الممالك المجاورة لها وتأخذ بدلًا عنها ما عندهم من متحصلات بلادهم كالمعادن المتنوعة والطيب والعطر المرغوب فيهما بمصر لتطييب الأحياء والأموات والمعابد والأصنام.

وكانت بلاد الهند والصين وأسيا العليا ترسل إليها مصنوعاتها الفاخرة كالأقمشة المتخذة من الخز والأبسطة والغراء والروائح العطرية والبخور وسن الفيل والأخشاب النفيسة واللؤلؤ والبهارات وغير ذلك وهي ترسل إليها من جميع محصولاتها ومصنوعاتها ولما كانت هذه البلاد بعيدة عن بعضها جعلوا مراكز تجارية في جميع الجهات لتقريب المسافات بينها بدليل ما ورد في التوراة من أن يوسف الصديق عليه السلام باعته إخوته إلى السيارة من الإسماعيلية الآتين من

جلعاد الواقعة على نهر الأردن أو الشريعة وكانوا قاصدين مصر يحملون على إبلهم الروائح العطرية والراتينج والمر وكانت بلاد الشام تبعث لها الأخشاب اللازمة لعمل السفن لتوفر الغابات في جبالها وكانت قوافلها تقطع الصحراء والقفار وهي آمنة لوجود المراكز التجارية في جميع الجهات كما أن سفنها التجارية

كانت تجول في البحار المجاورة لها فبذلك كانت الثانية لمملكة فينقيا المشهورة بالملاحة والثالثة لبلاد الهند وأشور مدة إنفرادهما بثروة التجارة والصناعة.

ومن المحقق أن فرعون نيخاؤس «المعروف بإسم فرعون الأعرج من العائلة السادسة والعشرين» أمر جماعة من الصوريين بالطواف حول إفريقيا لإستكشافها فأقلعوا بسفنهم في البحر الأحمر ودخلوا بحر الهند ووصلوا المحيط الأعظم ثم دخلوا في المحيط الأتلنطيقي أو بحر الظلمات ومازالوا سائرين به إلى أن مروا ببوغاز أعمدة هرقول المعروف ببوغاز جبل طارق أو زقاق سبته ثم عادوا إلى مصر بعد ثلاث سنين.

وذكر المؤرخون أن رمسيس الأكبر صنع أسطولًا مركبًا من أربعمائة سفينة شراعية وفتح به جميع الممالك الواقعة على البحر الأحمر وبحر الهند وإستولى على جميع الجزائر التي به حتى وصل بلاد الهند ويقال إن هذه التجريدة كانت أول مرة ظهرت فيها سفن عظيمة في هذا البحر فكانت غزوة مباركة لأنها أتت بفائدتين جليلتين إحداهما فتوح تلك البلاد ودخولها تحت الطاعة وثانيهما معرفة طرق التجارة بتلك الجهة وكانت مصر تقبض الجزية من بلاد سواحل الهند وإفريقيا وبلاد العرب فكانت أهالي إفريقيا تؤدي لها الجزية من الذهب والأبنوس وسن الفيل وسن فرس البحر وجلده ومن الحيوانات النادرة الوجود الغريبة الشكل وبلاد العرب تؤدي لها الذهب والفضة والحديد والنحاس والمر والبخور وبلاد الهند ترسل لها الأحجار الكريمة والمواد المعدنية المتنوعة والأقمشة الثمينة «انظر الشكل الآتي».

«اللوحة الأولى» بها رجل زنجي «سوداني» يحمل خشب الأبنوس ويقود نمرًا ثم زنجيان يسوقان زرافة وفي عنقها قرد.

«اللوحة الثانية» بها أهل آسيا وأفريقيا وصحراء برقة تحمل الجزية والأول منهم يحمل سلة وآنية بها أزهار غريبة لتغرس بأرض مصر ثم إثنان يعملان شجرة صغيرة بصلايتها لتغرس بها أيضًا لغرابتها ثم رجل يسوق تيسا جبليًا و يحمل خشبًا ذا رائحة زكية ثم زنجي يعمل حلقانا من الذهب

وسن الفيل ثم ثلاث نساء إثنتان منهنّ من جهة آسيا والثالثة زنجية وجميعهن رقيق بأولادهنّ ثم زنجي يقود قردًا ويحمل آنية بها سبايك من الذهب أما الآخير من أهل آسيا وهو يحمل قوسًا وخلف ظهره جعبة النشاب وعلى كتفه قدر به عسل أو نحوه وهذا الرسم يدل على بعض أنواع الجزية لا جميعها. وجميع ذلك يثبت شهرة مصر بالغنى وبفن الملاحة وقد رأى شمپليون الشاب على بعض الأوراق البردية الباقية من عهد رمسيس الأكبر صورة سفينة عظيمة بجميع أدواتها ناشرة أشرعتها وعلى صواريها ملاحون يديرون حركتها وقد نصت التواريخ أن جماعة من المصريين هاجروا إلى بلاد اليونان قبل وبعد إستيلاء هذا الملك على سرير الملك ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان للمصريين دراية تامة بفن الملاحة حتى يأمنوا على أنفسهم من شر الغرق وبالجملة فوضع مصر الجغرافي بين الثلاث قارات وهي أوربا وآسيا وأفريقيا ووقوعها على بحرين عظيمين أي البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وخصوبة أرضها وتنوع محصولاتها ينظمها في سلك أعظم الممالك القديمة التجارية وهذه التجارة الواسعة تجعلها في مقدمة الممالك التي كانت متمدنة فإنها كانت تشتغل بالتجارة في غلاتها ومحصولاتها المتنوعة الخارقة العادة وكانت ترسل مصنوعاتها «الباقي شيء منها إلى الآن» في أطلال مدنها إلى من جاورها من الأمم وقتئذ وبذلك توصلت إلى أن تعطي جميع نظاماتها وترتيباتها الأهلية منظر العظمة والثروة ومن البديهي أن ذلك نتيجة النشاط والعمل والقدوم على مهام الأمور في داخليتها وخارجيتها فضلًا عن أنه كان لها جملة مواسم دينية تقام حينا فحينا في أغلب مدنها يقصدها الناس من كل مكان ترويجًا لتجارتهم وكان هذا سببًا لقبولهم الأجانب وإكرام مثواهم مع شدة بغضهم لهم لتباين دينهم لأن حركة التجارة والأخذ والعطاء والمقايضة في السلع أحوجتهم لمداراتهم وحسن معاملتهم ولما كانت مدينة طيبة في التخت العام والمركز الديني متوسطة ما بين السودان واليمن والحجاز والشام قصدتها القوافل بمتاجرها حتى إجتمع بها من الأموال مالم يدخل تحت حصر وقال أوميروس الشاعر كانت بها الأموال ونفائس البضائع متكومة على بعضها لكثرتها وقضت عليها التجارة بربط علائق المودة بينها وبين أهل السودان وقرطاجنه «بلاد تونس الغرب» المشهورة بالثروة في تلك الأزمان وقد تكلم هيرودوت على الطرق التجارية التي كانت مستعملة في تلك الأعصار ومطروقة ما بين مدينة طيبة وباقي الممالك فقال أولها طريق عام يخرج من هذه العاصمة ويصل إلى مملكة قرطاجنة الفينيقية فيتجه أولًا إلى الشمال الغربي ويمر بواحة أمون «واحة سيوى» ثم يصل إلى مدينة سدره أوسرته «ببلاد طرابلس الغرب» بعدما يمر بواحة أوجلة «جهة الجنوب من أرض فزان ببلاد

طرابلس» وهناك يخرج منه طريق آخر يتجه إلى الجنوب الغربي ببلاد جرماته حتى يصل بلاد قرطاجنه «وكانت هذه المدينة معاصرة لسيدنا سليمان عليه السلام ولا يخفى من له أدنى دراية بالتاريخ ما كان لها من السعة والثروة والجولان في جميع البحار».

ثانيها طريق يخرج من مدينة طيبة ويصل إلى بوغاز أعمدة هرقول «بوغاز جبل طارق في شمال مملكة مراكش» ثم يصل إلى المحيط الأعظم.

ثالثها طريقان يخرجان من مدينة طيبة ويمران ببلاد إتيوبيا ومملكة مروه الشهيرة «بين نهر تكازة والبحر الأزرق ببلاد السودان» أحدهما يسلك محاذيًا للنيل والثاني يخترق عطامير النوبة.

رابعها طريق مسلوك يخرج منها ويصل إلى البحر الأحمر ثم طريق آخر يخرج من بلدة إدفو ويجتمع مع الطريق الأول بثغر القصير.

أما الطرق التي كانت تخرج من مدينة منفيس والوجه البحري وتتجه إلى جميع الجهات فكانت كثيرة جدًا أيضًا أعظمها ما كان يخرج من هذه المدينة ويصل إلى بلاد فينقيا التي كان أعظم مدنها مدينتي صور وصيدا ومنها تتفرع جملة طرق منها ما يصل إلى بلاد الأرمن ومنها ما يصل إلى بلاد الشركس ومنها ما يصل إلى بلاد بابل بعدما يمر بولاية تدمر ثم يخرج من مدينة بابل طريق يمر ببلاد السوس ويصل إلى بلاد الهند.

وكانت مصر لا تألو عزمًا في نشر معارفها الصناعية والجغرافية بين جميع هذه البلاد بقصد رواج تجارتها بين العالم وكان قانونها مرعيًا والربا محرمًا عليهم شرعًا والذي سهل لها هذه الطرق وأعانها على موالاة الأسفار البعيدة هي الحروب والغزوات التي عانتها شرقًا وجنوبًا بقسمي آسيا وإفريقيا والغنائم التي كانت تجلبها معها وقد ورد بعضها بالجداول المدونة على الآثار الدالة على الإنتحار والظفر بالأعداء ومن رآى ما هو منقوش على جدران الدير البحري جهة الكرنك علم ما كان للمصريين من السودد والسيادة وسوف يأتي الكلام على هذا المكان في الرحلة العلمية بالفصل الثامن عشر.

وقال المعلم فوريه ما ملخصه قد إستنبطنا من التوراة ما كان للمصريين من درجة التقدم في الحرف والصنائع فإنها قضت علينا حالة الهيئة الإجتماعية التي كانت بمدينة طيبة ومنفيس عند دخول أجداد العبرانيين مصر وعند خروجهم منها إلى بلاد فلسطين لأنهم لما خرجوا منها كان لهم دراية تامة بجميع الصنائع التي كانت شائعة في تلك البلاد المصرية وقدرتهم على عمل المظلة

أوقية العهد وسن قوانينهم برهان على ذلك لأن من قارن بين الصنائع التي باشروها في عملها بعد خروجهم وصنائع المصريين الباقية على شاطئ النيل وجد مطابقة تامة فإن سفر الخروج إشتمل على أصول العمارة المصرية وإحكام الرسم والتناسب العددي ونصب العمد بقواعدها وتيجانها وأصول تزيين العمارات وإستعمال المعادن المختلفة والحياكة والتطريز بالذهب وصبغ الجلود والأقمشة بالألوان الزاهية المتنوعة وصقل الأحجار الكريمة وحفرها ولا يخفى أن هذه الصنائع مفتقرة إلى معرفة صنائع أخرى كثيرة مما كانت مستعملة بمصر وآسيا قبل دخول إسكروبس المصري ببلاد أتيكه «هو الذي أسس مدينة أثينة عاصمة اليونان» ومن نظر إلى الآثار وطالع سفر الخروج على أن جميع ما إكتسبه العبرانيون من المعارف والصنائع كان شائعًا متداولًا بين الخاصة والعامة بمصر ومن المعلوم أن هذه المعارف الواسعة التي هي ثمرة الزمن والعقل يسقط إعتبارها كلما كانت مبذولة بين الناس وشائعة فيهم وما إخالهم دوّنوها في صفحات آثارهم إلا لتكون أعجوبة لن يأتي بعدهم ويعجز عن الإتيان بمثلها ولقد علمنا منها ومن الورق البردي صورة القتال والحصار والنصر وأنواع الأسلحة والعربات الحربية وأدوات الحرب وما كان الأول من القوة وشدة البأس وما للأسارى من الذل والإحتقار وكيفية تركيب مواكب الإنتصار ومقدار الشرف الذي يعود على من يأخذ للوطن بثأره من عدوه.

ولا شك أن معرفة اللغة القديمة تعود على التاريخ بأجل الفوائد وتنير العقل بمعرفة ما كان لأهل آسيا من الحضارة السابقة على زمن خرافات اليونان وتشخص لنا السياسة القديمة في هيئات مختلفة مغايرة لما إختارته الأمم المتمدنة الآن ولا شيء أجدر بالإلتفات إليه من الفلسفة القديمة المصرية لا بهذه الأمة التي أخذ الإفرنج عنها أغلب معارفهم بنت آدابها على أقوى الدعائم فإخترعت وتممت وأحرزت كل لطيفة وصيرت إقليمها أنقى هواء وأخصب تربة وأعظم إتساعًا ورفعت لفن العمارة أعلى منار فإقتبس اليونان من نورها ونحوا نحوها ولولا ذلك ما كان لنقوشهم وتماثيلهم إسم يذكر ولا معنى يؤثر وما كانوا يهتدون لعمل الشعر والعروض والموسيقى التي نسبوها لمعبوداتهم اهـ.

وقال أفلاطون إن جميع النوع البشري أسير إحسان المصريين لأنهم علموه فن القراءة والكتابة والهندسة والفلك والله أعلم.

الفصل التاسع والعشرون

في الرحلة العلمية جهة القرنه وما حولها

فإذا تركنا الجهة الشرقية وقطعنا النيل ونحونا نحو الغرب قاصدين قرية القرنة التي هي النصف الغربي من مدينة طيبة و بينها وبين قرية الأقصر نحو الساعتين أو الساعة حسب أيام الفيض والتحريق فأول ما نري بها معبد القرنة الواقع في نهايتها الشمالية بالقرب من طريق بيبان الملوك وهو من بناء سيتي الأول إبن رمسيس الأول وأبي رمسيس الثاني بناه لأحياء ذكر أبيه بعد موته وكان بناؤه مدة بنائه معبد العرابة المدفونة وجعل وضعه غريبًا مثله وكان شيد له أبراجًا كباقي المعابد لكنها أزيلت الآن كلية ولم يبق من أثرها غير بعض أحجارها المطروحة هناك وهذا المعبد يقرب من أن يكون مصطبة جعله بانيه لإجتماع أقاربه وذويه في أعيادهم ومواسمهم وكان من عادة القوم أن يجعلوا في كل مصطبة بئرًا لدفن موتاهم بها خلافًا لهذا المكان لأن قبر الملك في بيبان الملوك بعيدًا عنه وقال بعضهم إنهم فعلوا ذلك لتكون جثة الملك رمسيس الأول بمعزل عن الأحياء من رعيته لعلو شرفه حيًا كان أو ميتًا.

ومتى دخل الإنسان من الباب الوسط في فسحة الستة أعمدة وعبر إلى الرواق الثالث جهة اليمين رأى على أحد الجدر صورة الملك سيتي الباني لهذا المعبد ورأسه متقنة الصنعة جدًا كأعظم صورة لها بمعبد العرابة والظاهر أن هذا الملك مات ولم يتمه فجاء إبنه رمسيس الثاني وأتم ما بقى به وجعله تذكارًا لأبيه سيتي الذي جعل ما بناه تذكارًا لأبيه رمسيس الأول كما ذكرنا ثم نترك هذا المكان ونقصد الفرجة على معبد الرمسيوم فنسير على الخط الفاصل ما بين الأرض الزراعية والصحراء بحيث يكون كل من ذراع أبي النجا والعصاصيف ومقابر الشيخ عبدالقرنة عن يميننا وكان هذا المعبد يدعى سابقًا بإسم سراى ممنون أو قبر أوزيمندياس والذي سماه بإسم الرمسيوم هو شمپليون الشاب الفرنساوي عند سياحته بمصر وبقى هذا الإسم علمًا عليه إلى الآن أما الباني له فهو رمسيس الثاني إبن سيتي الأول السالف ذكره وهما من ملوك العائلة التاسعة عشرة بدليل أنك ترى إسمه منقوشًا على أغلب جدرانه وأصل الفكرة في بنائه هي أصل الفكرة في بناء معبدالقرنة بمعنى أنه جعله مكانًا لإجتماع أقاربه به بعد موته وجعل له أبراجًا نقش عليها بعض مآثره وقد طاحت الأيام بمحاسنها وهدمت أغلبها ونقوش البرج الأول منها قد لبست ثوب

البلى بحيث لا يمكن مشاهدتها إلا في ساعة معلومة من النهار أعني متى كانت أشعة الشمس مائلة على سطحه وجميعها تدل على أغرب وقائعه الحربية في بلاد الشام فتراه مصوّرًا كأنه بجوار نهر يدعى «أورونتو» وهو شاهر سلاحه يقاتل أمة الخيتاس «الهيثيين» ومن تحزب معهم على قتال مصر وكانت هذه الواقعة بقرب مدينة «كدش» وترى في الرسم أن جميع عساكره المصرية ولت الفرار خوفًا وجبنًا من لقاء العدو فثبت هو بمفرده فإحتاط به العدو وأخذ عليه جميع الطرق فإندفع بعربته وسط عرباتهم وقتل رؤسائهم بيده بدليل ما هو مذكور هناك «المقتولون هم رؤساء أمة الخيتاس الحقيرة» حتى قنط العدوّ من النصر وولى مدبرًا وقطع النهر المذكور وهو في خبال طائش العقل كل ذلك وجنده بعيد عنه متفرقون في الأودية لا يعلمون بشيء من هذا وتراه في جهة أخرى قد إقتحم الهيجاء وخاض الصفوف وهجم على الجموع بمفرده وإلتحم معهم في القتال وقد إحتد بالغضب ففرق جمعهم وبدد شملهم وإندفع بعربته فداست خيله الأعداء بسنابكها وهرس العجل كثير منهم فصارت الأرض مستورة بالقتلى بعضهم مطعون بحرابه وبعضهم مرشوق بنباله وبعضهم وثب إلى النهر فغرق به وتراه في جهة أخرى جالسًا على كرسيه وقد عاد له ضباط جيشه الذين كانوا تخلوا عنه وقت الكفاح ليهنئوه بالسلامة فقابلهم بالملامة والتعنيف وأسمعهم الزجر والتوبيخ وهاك بعض عبارته «قد أخطأتم جميعًا في التخلي عني وأنا بين الأعداء وحدي أساجل لفيفهم وأطارد ألوفهم وما رأيت أحدًا منكم أشدد به أزري أو يشركني في أمري ولو لم يثبت قدمي لكان عدمكم وعدمي» إلى آخر ما قال.

«وقد سبق ذكر هذه الواقعة عند ذكر أبراج معبد الأقصر» أما البرج الثاني من هذا المعبد فلم يبق منه إلا بعض أطلال كأنها منصوبة بالقدرة على أساس قد ركع بناؤه وسجدت أركانه ورهنت جدرانه وهو باق على هذه الحالة من أيام الحملة الفرنساوية بمصر لأنهم رسموه في مدتهم كحالته الراهنة وها هي علماء الآثار تنذر كل يوم بسقوطه وكان يتوصل منه إلى رحبة محاطة بأعمدة مربعة مرتكز عليها صورة رمسيس المذكور متصف بأوصاف أوزيريس بمعنى أنه مات وحنط فمن ذلك يعلم أن هذا المكان كان عنوانًا على العبرة بالموت وما يؤل إليه الإنسان بعد النعيم في حياته وكان أمام البرج مما يلي الشرق صنم هائل وهو أكبر جميع الأصنام التي أخرجتها يد الصناعة المصرية من صخرة واحدة من الجرانيت لأن طوله يبلغ سبعة عشر مترًا ونصفًا وثقله نحو واحد مليون ومائتين وسبعة عشر ألفًا وثمانمائة وإثنين وسبعين كيلوغرامًا أعني ألفًا ومائتين وثماني عشرة طونولاته وهو على صورة رمسيس المذكور لكنه تكسر ولم يبق منه إلا بعض أجزائه

وتشوه وجهه ومتى رأى الإنسان هذا التمثال الهائل إندهش به وجالت جيوش الحيرة في عقله وقال وهو متعجب كيف قدر القدماء على مسايرة عمل هكذا فما أصدق صبرهم وأقوى عزمهم وأقدمهم على عمل

كل مستحيل عند غيرهم ويا للعجب كيف قطعوه من مقطعه بأسوان وأي قوة نقلته إلى هذا المكان وما كان الغرض من ذلك هل أعدوه لتزيين هذا المعبد أم لشهرة الملك بانيه أم للمباهاة بقوتهم لمن يأتي بعدهم أم لإظهار حسن صنعتهم في تناسب الأعضاء ثم العجب أيضًا من القوة التي كسرته وألقته على وجه الأرض.

وفي سنة ١٨٩٢ توجهت لمشاهدته فرأيته مصنوعًا من الحجر الأزرق ومطروحًا على ظهره كأنه صخرة هائلة أو كتلة من الجبل فوقفت بجواره ورفعت يدي صوب كتفه فكان بينهما نحو متر ثم تسلقت فوقه ووقفت على رقبته ونظرت إلى الأرض فرأيت بيني وبينها نحو مترين ونصف وهو سمك جسمه لا عرضه كما لا يخفى ورأيت طول أذنه تقرب من متر.

وترى على الناحية التي كان مرتكزاً عليها هذا التمثال كثيراً من الوقائع التاريخية منها واقعة حربية كانت مع هذا الملك و أمة الخيتاس أيضا وهو بوسط الأعداء وهم محدقون به وقد نشر الرمم على الأرض وفيهم سائس خيل ملك الأعداء المدعو) جرابالتوزا (وقائد عساكر رماتهم المدعو) ربسوتا (وقد أصابه سهم فوقع على الأرض يجود بنفسه والأعداء تشتتت وقصد بعضهم نهر) أورنتو (السالف ذكره وهم منهزمون فألقوا أنفسهم فيه وترى على الشاطئ الآخر منه أحد رؤساء العدوّ كأنه غرق ونشلوه إلى الساحل وقد امتلأ ماء فنكسوه بجعل رأسه أسفل و رجليه أعلى لبقئ الماء الذي دخل جوفه وغير ذلك مما لا يمكننا حصره في هذا المختصر .وبالجملة فيه كثير من الوقائع الحربية والعبادات ومعبودات طيبة والملك أمامهم يتقرب إليهم بأنواع العبادات وفيه قوائمها أسماء العائلة الملوكية من رجال ونساء ثم لوحة فلكية وفي آخر هذا الأثر رحبة بها أعمدة وتيجانها على هيئة أزهار ذابلة تفوق بلطفها تيجان الأساطين الضخمة التي برحبة أعمدة معبد الكرنك فإذا عملنا ذلك يمنا صوب طودي ممنون اللذين أجمع علماء الآثار على أنهما كانا أمام برجين لأحد المعابد ولم يبق الآن منه ولا منهما أثر ولا عين وأخذت أحجارها فحرقت وتحولت إلى جير وعميت مواضعها وصارت أرضاً زراعية أما التمثالان فالسبب في بقائهما هو عدم صلاحية حجرهما لعمل الجير لأنه من الصوان المشوب بالزلط العقيق الغير صالح لذلك ويستنتج

من فخامة منظرهما وجلالة هيئتهما أن المعبد كان غاية في الحسن وإتقان الرونق بقدر ماهما من العظمة وطلاوة الهندام وجميعها من عمل أمونوفيس الثالث) أمنحتب من العائله الثامنة عشرة .(و لاريب في أن تدميره حرم تاريخ مصر من فوائد مهمة كانت توضح لنا أيام الملك بانيه المعدود فحول ملوك مصر وتزيد تاريخه ظهوراً وكل واحد منهما جالس على قاعدة حجرها من نوعه بحيث يتصور للرائي أنها حجر واحد وارتفاعهما يبلغ **19,60** متراً وقال ماربيت باشا أن هذا الإرتفاع يعادل إرتفاع أعظم منزل بمدينة باريزيكون به خمس طبقات مركبة فوق بعضها فإذا طرحنا إرتفاع قواعدهما بلغ طول كل واحد**15 ,6**٠ متراً وقد غاصا في الأرض نحو ١,٩٠ متر وهما على صورة

الملك المذكور وهو جالس على تخت ملكه أما التمثالان الصغيران المرتكزان على القاعدة فأحدهما صورة أمه والآخر صورة زوجته وأشتهر الصنم الشمالي في الأزمان السالفة بأسم طود ممنون ودوت هذه الشهرة عند اليونان والرومان وقصده السائحون من كل مكان إلى ما بعد إستيلاء رومه على ملك مصر بنحو قرنين وسبب ذلك أن هذين الصنمين كانا معروفين بأسم صنمي أمونوفيس الثالث إلى السنة السابعة والعشرين قبل الميلاد فصلت زلزلة شديدة خر منها الجزء الأعلى من التمثال الشمالي وصار مطروحاً على وجه الأرض الأغبر منبوذاً بالعراء الأقفر منزوياً في زوايا النسيان لا يعبأ به انسان وبينما هو على هذه الحالة إذ ظهرت منه حادثة عجيبة هرع إليها الناس من كل مكان وهو أنه صار يسمع منه عند طلوع الشمس صوت طويل ممتد فتزاحموا على سماعه وقصده الناس على إختلاف طبقاتهم ولما سمعوا طنينه وشاهدوا رنينه صار كل منهم يهرف بما لا يعرف ويقول ما لا تقبله لعقول ثم إتفقوا أخيراً على أن هذا الصوت وأنين ممنون يسلم على أمه المسماة) أورور (أي الفجر .وفي القاموس الفرنساوي أن ممنون هو شخص خرافي كان اليونان يعتقدون صحة وجوده حتى قالوا انه إبن تيتون ملك مصر بلاد أتيوبيا وأمه أورور)الفجر (فأرسله أبوه المذكور لإنقاد مدينة ترواده حينما حاصرها اليونان وضيقوا عليها فتوجه لها وظهرت منه شجاعة وبسالة في حربهم حتى أنه قتل أنتيلوك بن نسطور أحد ملوك اليونان وفصحائهم فجزع لهذا المصاب أخلاوس فارس اليونان وصنديدهم فدعاه للكفاح و إلتحم معه في الحرب وقتله به فشق ذلك على أغلب الممالك ونعته الناس وأقاموا له التماثيل في بلادهم تذكاراً لشهامته في الحرب .ولما بلغ أمه أورور) الفجر (خبر مصرعه ناحت عليه وتوجهت إلى جوتير (كوكب المشتري) أبي الآلهة وهي تسكب العبرات وشعرها مرسل على أكتافها بلا إعتناء وترامت على قدميه وترجته أن يمنح إبنها المقتول ما يمتاز به على سائر الناس فرثى جوبتير لحالها وأجاب

طلبها ولما أحضروا حثة ابنها ممنون للحرق ظهرت منه الخوارق للعادات و كثير من المعجزات غير أن جميع ذلك لم يطفئ لهيب حزنها عليه وصارت تنديه في كل يوم من الفجر إلى طلوع الشمس وترسل عليه صيب دموعها وشابيب عبرانها فدموعها هي الندى الذى ينزل كل يوم على وجه الأرض من الفجر إلى طلوع الشمس .ومن ذلك أتت الإستعارة المستعملة الآن عند الأفرنج في قولهم دموع الفجر) أي الندى (أما الشهرة التي حصلت له بعد قتله فقد أتت من التمثال المشهور الذي نصبه له المصريون في مدينة طيبة.

عاصمة بلادهم بعد قتله حيث كان يسمع منه بعد طلوع الشمس صوت رنان لطيف وهو السلام الذي كان يسديه لأمه التي قامت بفرائض الحداد والحزن عليه هذا ما قاله اليونان في خرافاتهم أما حقيقة هذا التمثال فهو للملك أمونوفيس الثالث اهـ.

وفي دائرة المعارف النمساوية) الأنسكلوبودية (ما ملخصه ممنون هو أبن تيتون ملك بلاد أتيوبيا وأمه الفجر وقتله اخلاوس أمام سور مدينة ترواده أما التمثال المعروف بهذا الأسم فهو للملك أمونفس الثالث و يوجد الآن بأطلال مدينة طيبة بمصر وهو من حجر واحد معدنه مركب من أخلاط كثيرة ومن شأنه أنه متى حصل تغير فجائي في الجو بظهور الشمس حدث من الهواء الذي دخل في مساسه ليلاً صوت رنان فلذا قال القدماء ان ممنوناً هو صاحب هذا التمثال الذي يهدى السلام في كل صباح إلى أمه الفجر اهـ.

والذي حمل اليونان على إعتقاد هذه الخرافة هو أن هذين التمثالين كانا موضوعين في أحد أخطاط مدينة طيبة المدعو ممنوناً وكان المشاع على ألسنة اليونان وقتئذ أن ممنوناً هو الذي بني هذا الخط فلما سمعوا هذا الصوت قالوا ماذكرناه ثم انتشر أمره فأمّه الناس من جميع الآفاق وهرعوا إليه من كل مكان ليسمعوا صوته العجيب و يتأكدوا من سلامه على أمه وقال بروكش باشا أن اليونان كانوا يعتقدون أن ممنوناً المذكور هو إله الليل وابن الفجر وهو صاحب هذا التمثال فلما قتل في ساحة الحرب صار هذا التمثال يئن عليه و ينوح في كل يوم وقت طلوع الشمس أي عند إنتهاء مدة حكمه وهي الليل فقصده الناس ليسمعوا أنينه على صاحبه اهـ .فكانوا يرثون لحاله وينقشون شهاداتهم على سيقانه ويضعون عليها أسماءهم حتى أفعموها بالكتابة والشهادات وبقي الحال على ذلك مدة قرنين وأكثر إلى أن جاء القيصر سيتيموس سواريوس الروماني وسمع أنينه وهو مطروح على الأرض فظن أنه لو أقامه وأجلسه على قاعدته كما كان لتغير أنينه بخير منه وسلم على أمه

وهو جالس على كرسيه أولى من سلامه وهو معفر بالتراب فأجلسه وأنتظر سماع صوته فلم يسمعه لأنه أمسك كلية عن السلام أو النوح وسكت إلى الأبد لأن الشرخ الذي كان يخرج منه ذلك الصوت امتلأ بالمونة .ومن تأمل الآن لسيقانه علم من بقايا الكتابة التي عليها كثرة الشهود والزائرين ورأي تواريخهم وخطوطهم مكتوبة باليونانية أو اللاطينية وأقدم شهادة عليها كتبت في زمن نيرون الطاغية قيصر دولة رومة وأحدثها كانت في زمن القيصر سبتتيموس سواريوس وبلغ عدد ماعليها من الشهادات المؤرخة بحكم القيصر أدريان سبعة وعشرين شهادة وذلك غير الشهادات التي لم تؤرخ وأغلبها عبارات نثرية بسيطة منها هذان) أناسا بين أوغسطه زوجة القيصر أو غسطي سمعت مرتين صوت ممنون كل مرة كانت في الساعة الأولى من النهار .(الثانية) أنا وبتالينوس وزوجتي پويلياسوسيس سمعنا صوت ممنون مرتين في شهر بشنس من السنة الثالثة في الساعة واحدة ونصف من النهار اه .(وكانوا في بعض الأحيان يكون شهادتهم بالشعر ولها نتعرض لها إكتفاء بما ذكرناه ثم ظهر لعلماء الطبيعة أن هذا الصوت كان ينشأ من رطوبة الليل والهواء البارد الكامنين في شجة فيه عند مقابلهما بحرارة الشمس فأن الهواء يتمدد بحرارتها فيخرج منه فيحدث هذه الطنة ولاشك أن الرنين الذي سمعته في أحجار معبد دندرة هو من هذا القبيل وبالتأمل في الجزء الأعلى منه يرى به بعض تصليحات بأحجار معشقة ليست من معدن حجره تدل على أنه كان سقط على الأرض وتكسر ثم أعيد ثانيا والله أعلم.

ثم نتحول إلى المكان المعروف بدير المدينة فنرى هنالك معبداً صغيراً بناء بطليوس فيلوپاطور)أي محب أبيه (وأتمه خلفاؤه وهو واقع في وهدة من الأرض خلف المكان المعروف الآن بقرنة مرعي .ومن المحقق أن بطليموس المذكور بناه ثانياً بعد إنهدامه لإنه كان موجوداً أيام أمونوفيس الثالث أما الذي أسسه فكان شخص من الأهالي يدعى أمونوفيس أيضا على أسم ملك عصره وكان أبوه يدعى هابو وبعدما أتمه أرصده على معبودة الحق وسماه) حاقاق (وكان من عادة أهل طيبة أن متى أرادوا دفن موتاهم مروا بهذا المعبد ودخلت الكهنة في دهليزه وتلت بعض أدعية كانت على زعمهم تخفف الحساب عن الروح ويرى إسم الباني له في جميع جهاته ويرى في حائط الرواق الجنوبي لوحة بها صورة ما يؤل إليه أمر الروح .وقد جرت عادة الأفرنج الآن أنهم يقصدون هذا المعبد ليشاهدوا اتقان وجهته المحفوظة إلى الآن كأنها بنيت بالأمس وليروا شباكه العجيب المصنوع في الجانب الجنوبي في أحد دهاليزه.

الفصل الثلاثون

في تربية الدواب ونبات البردي وعمل الورق منه

أما تربية الدواب أو السوائم والطيور فكانت نصب عين الأمة ومنتشرة في جميع القطر لأنه

كما لا يخفى عليها مدار ثروة الأهالى أرباب الاطيان والمشتغلين بالفلاحة والتجارة فكانوا يهتمون بشأنها ويحسنون تربيتها و يستخدمون لها الحكماء البياطرة والخدم ولكل نوع منها رعاة خاصة كالمعز والأوز والغنم ولكل فرقة من الرعاة رئيس مسؤل عنها وكانوا يتغالون في حسن تربيتها سيما الثيران فأنهم كانوا بعتنون بها زيادة عن باقي الحيوانات لما لها من المنفعة وقال بعضهم إنما أهتم المصريون بتربية هذا النوع زيادة عن غيره للتفاخر بنطاحها وتحسين نوعها والإبتهاج برؤيتها .وكان رئيس الرعاة مكلفاً بتمرينها على النطاح واذا حضر الرعاة أو رؤساؤهم لدى سيدهم لتلقي الأوامر وقفوا أمامه بإحتشام وهم واضعون يدهم اليمنى على كتفهم الأيسر علامة على الطاعة وكمال الإمتثال أما يدهم اليسرى فمرسلة تشير بالإحترام ,والظاهر أن سكان الوجه البحري كان لهم شغف عظيم بتربية هذه السوائم المختلفة الأنواع لإتساع أراضيهم وخصوبة مراعيهم وكثرة الكلأ عندهم خلافاً للوجه القبلى فأنه كما لا يخفي واد بين جبلين لا يقوم بحاجة كثرة الماشية ومما يدل على كثرتها والإعتناء بها لوحة وجدت في أحد المقابر بجوار الأهرام مرسوم عليها صورة صاحب القبر كأنه على قيد الحياة واقف يتفقد أحوال ماشيته وهو متمنطق ومتقلد بشريط عريض ينزل من كتفه الأيسر إلى خاصرته اليمنى و بيده عكاز طويل وفوق رأسه راية من القماش المزدوج يحملها خادم ليقيه حر الشمس وبجواره جرو من ابن آوى صغير قد استأنس وصار داجناً وفي عنقه قلادة أو عقد وأمامه خدم أورعاة تسوق أنواع الحيوانات وفوق كل فريق منها رقم واضح به كميته وفي مقدمة الجميع قطيع من الحمير تقدمها جحش صغير وعددها ٧٦٠ وعلى كتف الراعي عكاز عليه جلد حمار مات في الغيط ليطلع سده على صحة موته ثم يتلو ذلك قطيع من الغنم وكميته 974 وخلفه راع حامل في يده سله بما رأس حيوان بلا فرون يظهر من حالها أنها رأس ذئب ثم يتلوه سرب من البقر وعدده ٨٣ 4ثورا ثم 220 مابين بقرة وعجل ثم يتبعه قطيع من المعز وعدده ٢٢٣ 4ووجد على جرف مقبرة أخرى لأحد أغنياء مصر الوسطى أن عدد حميره كان يبلغ ٤١٣٠و بقره ٨٣٠ و يظهر أن بقر الملك كان من أجود الأنواع وأكتشف بعضهم في

مقبرة لأحد وجوه مدينة منفيس صورة خدم وحشم يقدمون قرباناً إلى الميت سيدهم من محصول أرضه و نتاج ماشيته مثل التمر والتين والعجول والأوز والغزال والفاكهة والازهار ومنهم من يقود ثيراناً عظيمة الجرم منها الأبيض والأحمر والأسود وفي أعناقها قلائد بها زينة على شكل نبات البشنين .ومنها اثنان من لونين مختلين موسومان) مدموغان (على فخذهما الأيسر بعلامتين مربعتين سوداوتين مكتوب في أحداهما) المنزل الملوكى نمرة (43 وفي الأخرى) المنزل الملوكى نمرة ٨٦ (وربما كان هذا الرقم يدل على عدد النيران التي كانت من نوع كل ثور عليه هذه الوسمة ومن ذلك يظهر أن ذوي الثروة كانوا يسمون ماشيتهم ويكتبون عليها أسماءهم وعددها وكان من عادتهم أنهم يرسمون صاحب المنزل واقفاً متكئاً على عصا طويلة علامة على الحكم ليمتاز عن باقى خدمه وحاشيته ودلالة على التصرف المطلق في عائلته ومنزله وقد رأينا في لوحة عصير العنب) صحيفة ١ (76صورة الخادمين المنكبين على وجههما أمام سيدهما وهو يعزرهما و يهددهما بالضرب والجلد لما أرتكباه من الجناية و وجد في مقبرة أخرى صورت رئيس الرعاة بلغ سيده عن راع ذبح عجلاً و يقدم له أعضاءه إثباتاً على صحة قوله والراعي يدافع و يجادل عن نفسه ثم طرحوه وجلدوه أمام سيده .ومن المعلوم أنه كلما كثرت الماشية عند قوم كثرت ثروتهم بشرط توفر الكلأ والمرعى وإلا كانت عيلة وفاقة بدل أن تكون سعادة وميسرة وبالجملة كان الأغنياء منهم متمتعين بالترف والرفاهية والأموال وليس ذلك الأثمرة أتعابهم ونتيجة نشاطهم وحسن ادارتهم وإقتصادهم وكدحهم لأكتساب ما يجلب لهم الشرف والسعادة وكانوا يتفرغون بعد شغل يومهم إلى ترييض النفس بسماع الآلات المطربة ورنة الأوتار والأغاني أو مشاهدة رقص الغواني و يقيمون الأفراح والولائم تنشيطاً للروح أو يتسلون بالألعاب المتنوعة كالشطرنج والضامة وغيرهما) أنظر الشكل الآتي لوحة ١ و.(2

(اللوحة الاولى (بها أربعة رجال يلعبون الشطرنج أو الضامة) واللوحة الثانية (به ثلاث نساء راقصات واثنتان يلعبان بالأكرة وستة يضربن على الأوتار والرباب والدف والأخيرة منهّن تشبب بشبابة مزدوجة وعلى رأس بعضهّن أكاليل بأشرطة و بجوارهن غلام صغير بيده غصن يرقص به . وبالتأمل في ذلك وفما تقدم تعلم أنهم تفننوا في كل شئ وماتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا وسلكوا ضروبها ومارسوا حلوها ومرها وأكتشفوا سهلها ووعرها وأن جميع الناس مقلدون لهم في كثير من الأمور .وربما إندفع القارئ إلى الوهم ان عدد المواشي المرقومة في مقابر أغنيائهم به تحريف عمدوه لمجرد المبالغة والإطراء بغناهم أو أن الأمر إلتبس على المترجمين فردّاً لهذا الوهم نذكر نبذة وجيزة

عما لبعض الأنكليز من المواشي بلاد أوستراليا لخصناها من كتاب القونتة بوفوار في سياحته ببلاد أوستراليا حيث قال ما ملخصه لما كنت بمدينة ملبورن) احدى عواصم أوستراليا (تعرفت بالمعلم كابل الانكليزي فعرض عليّ السفر إلى محل إقامته بساحل نهر مورّاى بوسط صحراء المروج التي بها مواشيه فلبيت دعوته .وركبنا سكة الحديد وقطعنا خمسين فرسخاً وكنا نمر بوسط مروج لا نهاية لآخرها وبها من السوائم والدواب مايخرج عن الحصر لكثرتها وفي 31 يوليه سنة 1866 تركنا سكة

الحديد وركبنا العربة وقطعنا بها السباسب والفدافد وفي أثناء ذلك كنا نخترق سهولاً بها كثير من بقر الوحش الضال في ذلك الفضاء الواسع وكان السراب أو الآل) هو مايظهر وقت القيلولة في السهول الرملية على هيئة بحر أو مدن أو غيرذلك (يعظم تلك الثيران في أعيننا وتارة كان يضاعفها فيجعل الواحد اثنين أو أكثر وأخرى كان يعكس وضعها فيجعل رأسها أسفل ورجليها أعلى كأنها معلقة في الفراغ تسير و هى منكسة وطورا كنا نري على البعد بحيرة قد عكس ماؤها ما على شاطئيها من الأشجار .وكلما دنونا منها بعدت عنا كأنها تهرب أمامنا ومازلنا سائرين حتى جنّ علينا الليل فنزلنا من العربة و أكلنا ما تيسر ثم إلتحف كل واحد منا في ردائه ونام على الأرض الرطوبة بلافرش وغطاء فأحتاط بنا جيش من الحشرات المغرمة بمص الدم وهجمت على أجسامنا ووقعت فيها نهشاً حتى سكرت من خمر دمّنا وكاتبين ذلك نستعجير ولامجير و في الغد ركبنا العربة وسرنا حتى وصلنا محل إقامته في تلك البرارى المنفردة .فرأيت منزله مصنوعاً من الخشب به ثلاثة أروقة مسقوفة بقشر خشب الأكلبتوس) المعروف عند بشجر الكافور (وله هيئة موحشة جداً وأخبرني أنه يسكنه من نحو الثلاث عشرة سنة وأنه عزم على العودة إلى بلاده بعد ستة أشهر لأنه صار غنياً جداً وله من الثيران والبقر آلاف مؤلفة ومن الخيل ما يقرب من الألف وما عنده غير خمسة عشر رجلاً لحفظ جميع هذه المواشي التي ترتع في هذه المروج النضرة إلى أن قال وأخبرني ذات يوم أنه يريد أن يرسل إلى مدينة ملبورن ثمانمائة ثور ليبيعها بها كى توزع على مراكز شركات إستخراج الذهب إلى هناك فركبنا الخيل وكنا ثمانية وبيد كل واحد مناسوط يبلغ طوله نحو الثلاثة أمتار ذو يد قصيرة وخرجنا إلى المروج نجمع الثيران التي كانت ترتع بها وفي ظرف خمس ساعات جمعنا منها نحو الألفين مابين ثور و بقرة ثم إنتخبنا منها كل سمين مكتنز اللحم حتى أتينا على الثمانمائة وأفردناها في ناحية وأقنا عليها الحرس ولما دجى الليل أضرمنا النار حولها إلى الصباح . وكانت طائفة من الرجال تدور بالخيل طول الليل لتمنعه من الفرار إلى المروج ثانياً وقد أخبرني صاحبها أنه يرسل رجاله في كل سنة إلى النزلات البعيدة ليشترى منها العجاف المهازيل عن كل

رأس خمسون أوستون فرنكاً فيقصدون الجهات التي ليس بها الكلأ متوفراً ويأتون بالبقر المهزول فيتركها ترتع في هذه المروج المخضلة العشب فتسمن في مدة قصيرة ثم يبيعها بعد حول بنحو مائة وخمسة وسبعين فرنكاً فوقها وقد بلغ جميع ما أشتراه بهذه الحالة نحو خمسة عشر ألفا مابين ثور وبقرة بمبلغ سبعمائة وخمسين ألف فرنك وباعها بمليونين وستمائة وخمسة وعشرين ألف فرنك فربح من ذلك مليونا وثمانمائة وخمسة وسبعين ألف فرنك أعنى اثنين وسبعين ألفا وثلثمائة ثلاثة وثلاثين جنيهاً مصرياً .وما عدا ذلك فله ألف بقرة من خيار هذا النوع أعدها للنتاج ومائة فرس من جياد الخيل أعدها لهذه الغاية وقد إستنتجت مما سلف أنه سيكون عنده في هذه السنة من نتاج الحيوانات نحو خمسة آلاف من العجول فيكون جميع ماعنده من صنف البقر خمسة عشر ألف رأس ثم إسترسل المؤلف في الحساب والمكسب وضريبة الميري التي يدفعها عن هذه المروج إلى أن قال ماقولك أيها القارئ في خمسة عشر ألف ثور وسبعمائة وخمسة عشر كيلومتر مربع من الأرض جميعها مروج محاطة بالأخشاب تسقى بنهرين بلا مشقة وكلفة فضلاً عما له من الخيل أبعد هذا يكون غنى ومع ذلك فقد سمعت أن هناك ناساً لهم من الدواب أضعاف مضاعفة زيادة عما لهذا الرجل المذكور إنتهى .بإختصار ومن تجول في أرض مصر علم أنها ضاقت عما كانت عليه أيام الفراعنة رغماً عن زيادتها السنوية من فيض النيل) راجع الباب الأول لأنى رأيت سنة1 ٨٩٣ (في شمال مديرية الدقهلية والغربية والبحيرة أراضي فسيحة يسير فيها المسافر أياماً وليالي ليس بها حيوان ولا أثر إنسان وكلها قفراء مسبخة غير صالحة للزرع والسكن وقد علمت أنها كانت في غابر الأزمان معمورة لأني رأيت بها أثر المدن والعمارة ولم تزل أطلالها القديمة وكيمانها العتيقة باقية إلى الآن وبها كثير من الآجر)الطوب الاحمر (والحجارة تأخذ منها البلاد القريبة ما تحتاج إليه لبناء المساكن و السواقي و المساجد و غيرذلك وبعضها باق على حالته إلى الآن لبعده عن البلاد المسكونة ووجدت بها كثيرا من بقايا المعابد القديمة والتماثيل المكسورة مما يدل على أنها كانت في تلك الأعصار عامرة آهلة بالناس ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان هنالك صلاحية الزراعة وجودة في معدن التربة تقوم بمعاش السكان وتكفيهم وفي سنة ١٨٩٢ رأيت في جملة جهات بالصعيد آثار أسوار عريضة جداً مبنية باللبن) الطوب البنى (ممتدة بجوار الجيل الشرقي والغربي فعلمت بأول نظرة أنها بنيت لقصد منع الرمال عن الأرض الزراعية ولما تسلطت يد الزمن على تلك الأسوار وهدمتها زحف الرمل من مكانه وكسا الأرض بثوب أغبر فأقفرت ولحقت بالصحراء المجاورة لها بعد أن كانت خضراء يانعة ذات مدن وبلاد وبذلك ضاع من مصر كثير من أرضها فضاقت عما

كانت عليه كما ذكرنا.

وقد أجمع مؤرخو العرب على أن هذه الأسوار هى بقايا مابنته دلوكه العجوز حول مصر لما خافت على إبنها ويا للعجب كيف تكون عجوزاً ويكون لها ولد صغير تخاف عليه وقال المقريزى نقلاً عن أبي القاسم بن عبدالملك إن دلوكه المذكورة كان عمرها مائة وستين سنة وأنها بنت السور أحاطت به جميع أرض مصر كلها المزارع والمدن والقرى وجعلت دونه خليجاً يجري فيه الماء وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرسة ومسلية وجعلت في كل محرس رجالاً وأجرت عليهم الأرزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس فإذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض بالاجراس فأتاهم الخبر من أي جهة كانت في ساعة واحدة وفرغت من بنائه في ستة أشهر) راجع صحيفة ١٩٩ من الكتاب المذ كور.)

وهذا القول ساقط لأنى رأيت عرض السور يلغ نحو الثلاثة أمتار فأكثر وإرتفاعه في بعض المحلات والأربعة أمتار ولاشك أنه كان أعلى من ذلك وكيف تيسر لدلوكه المذكورة أن تبنيه على جميع مصر وتحفر خلفه خليجاً أو تعقد عليه القناطر وما فائدة الخليج حينئذ وتتم جميع ذلك في ظرف ستة أشهر مع عدم وجود الرجال لأنهم غرقوا في البر مع فرعون ولم يبق على زعمهم بمصر إلا العبيد والإجراء.

ومن أنفع ما وصل إلينا من مصنوعات القدماء ومدّخراتهم ورق البردي لما أشتمل عليه من العلوم والإعتقادات والصنائع والغزوات وكانوا يصنعونه من النبات المعروف بهذا الإسم ويرسلونه إلى الآفاق ضمن تجارتهم الواسعة لشدة الإحتياج إليه في الممالك القديمة المتمدنة وكان يشتغل بعمله فريق عظيم من الأمة ولهم المعامل والورش الكثيرة بمدينة طيبة ومنفيس وغيرهما من المدن فكان هذا الصنف من أهم صنائعهم وكان طول نباته يبلغ أحيانا إلى عشرة أقدام يعلوه هداب كالشعر لا فائدة فيه وسمكه من أسفله وبوصتين فأكثر) البوصة جزء من إثنى عشر بجزأ من القدم (وكيفية عمل القرطاس منهه وأنهم كانوا يقطعون طرف الساق لعدم صلاحيتهما و يشقونه نصفين طولاً وهو مركب من قشر يغلف بعضه فيقصلونه نبحو منخس وكلما كان الغلاف أقرب إلى المركز كلما إشتد بياضه وحسن ورقه ثم يجففونه في الشمس بنشره عوداً عوداً ثم يعطنونه ويدقونه ويجففونه ثانياً ثم يفرشونه بجوار بعضه كالحصير ويدهنونه بالغراء القوى ويضعون فوقه طبقة ثانية منه بحيث تكون متعاكسة أي متصالبة مع الأولى ويدقونها بلطف فتتفرطح الأعواد وتملأ الأخلية

والفراغ الذي بينها ثم تكبس وتجفف جيدا وتدهن بزيت الشربين أو ما يقوم مقامه ليكتسب اللدونة والملودة ثم يصقلوبه فيصير ناعم الملمس حسن المنظر ويكون به صلابة كافية فيصنعون منه الصناديق والعلب والسلات والأحذية بدل الجلد وغير ذلك أو يدخرونه للكتابة أو للتجارة.

وفي دائرة المعارف النمساوية) الأنسكلوبوديه (ما نصه البردي نبات كانت في الترع والمستنقعات بمصر وبلاد إفريقا وفلسطين وجزيرة صقلية وكان قدماء المصريين يزرعونه ويأكلون جذوره وقلب سيقانه أو يدخلونا في مصنوعاتهم فيضفرون منها أحذية) مداسات (أو يفتلونها حبالاً أو يصنعونها ورقاً وغير ذلك وكيفية عمله هو أنهم كانوا يشقون الساق إلى شظيات ويشقون الشظيات إلى شظيات أخرى ثم يضعونها متعاكسة على بعضها ويجرون عليها جملة عمليات فتصير ورقاً وقد إنعدم هذا النبات الآن من مصر اهـ.

ويوجد الآن في أطلال المدن القديمة أدراج وملفات ربما بلغ طول الدرج الواحد منها ثلاثين قدماً فأكثر مكتوبة بالقلم القديم العامي أو البربائى ومن الأسف أنه بتوالى الأزمان عليه ضاعت مرونته وتصلب بحيث ان أدنى ملامسة تتلفه فينكسر وطالما أتلفت يد الجهلة أوراقاً منه كانت سجلاً للمعارف من ذلك ورقة) تورينو (التي أضرمت في قلب علماء الآثار نار الحسرة لأنها كانت تتضمن ترتيب جميع ملوك مصر لغاية العائلة الثامنة عشرة وماوصلت إلى العلماء حتى صارت جذاذاً وأفلاذاً.

وقال مارييت باشا في كتابه دليل المتفرج) لولم يصب ورقة نورينو ما أصابها إلى أن صارت في أسوأ حال يرثي لها لما كنا كحاطب ليل أو راكب العشواء لايهتدى إلى سواء السبيل وكنا اكتفينا بها عن جدول مانيطون الكاهن المصري الذي لعبت به يد التحريف والمسخ في الكتابة ووضعنا كل ملك من ملوك العائلة الثانية والثالثة في مكانه بلا تردد ولا شبهة لأنها كانت قائمة لولا الذين تعاقبوا على سرير الملك من أول الملك منا لآخر ملك ذكر بها والظاهر أنها ما كانت تتجاوز العائلة الثامنة عشرة ومذكور في أولها ما قاله مانيطون أن الآلهة حكمت مصر قبل قيام الدولة الملوكية الأولى ولايعلم ما بعد هذه العبارة فأنظر كم كانت فائدة هذه الورقة وأحكم بمقدار ما نجم عن تكسيرها من الأسف والحرمان من الفوائد الجمة فانها تمزقت كل ممزق وضاع منها أربع أو خمس قطع ومابقي صار هشيما حتى بلغ مائة وأربعاً وستين قطعة ولايمكن ترتيبها وإحكام وضعها كما كانت و بذلك ضاعت فائدتها وسقطت أهميتها انتهى بإختصار .(وقال في موضع آخر

ما ملخصه) أوصيكم أيها السائحون الزائرون للآثار المصرية أنكم لاتضيعون فرصة بدت لكم في شراء الورق البردي لأنه نفس آثار تقتنى فأن مجموعة الرقاع التي جمعها المعلم هرّيس بالإسكندرية

كانت هذه الصفة واعلموا أن الست أوربيني ماوصلت إلى هذه السمعة التي دوت شهرتها بلاد الانكليز إلا بواسطة ورقة اشترتها صدفة من يد فلاح بمصر وهى الآن بمتحف لندره وبالجملة لايمكن خدمة العلم بأكثر من المحافظة على هذا الورق ونزعه من يد الفلاح الذي لتهاونه به وجهله بحقيقته ينتهى أمره إلى التلف عاجلاً أواجلاً اهـ ملخصاً.(

أقول وطالما وجدت أوراق من هذا النوع وباعها الجاهل ببعض دريهمات فرح بها ثم صارت تعلو قيمتها في يد كل بائع من الأفرنج حتى وصلت إلى حد لا تصور وأنتفع بها العلماء وغيرهم وأحرزتها الدول في دار تحفها وترجمت إلى جملة لغات وعرف منها الطب القديم والآلهيات وغير ذلك من العلوم التي كانت عند القوم وقد استعمل الناس الآن الفت هذا الورق طريقة مناسبة بدون أن يحصل له أدنى تلف وهو أن يؤتى بالدرج منه ويعرض إلى بخار الماء الساخن فيتندّى وتلين صلابته فيفتح شيأ فشيأ مع الراحة إلى أن يتم فتحه ويلصق على قماش أو ورق قوي فلا يصيبه بعد ذلك شئ.

وكانت هذه القراطيس متداولة في كثير من الممالك الأجنبية فقد وجد منها كتب وأسفار مكتوبة باليونانية والرومانية وأوراق عليها معاهدات وإمتيازات محررة من بعض ملوك فرنسا والباباوات بإيطاليا وجميع ما وجد منها بتلك البلاد لا يضاهي ما يوجد الآن ببلاد مصر المحفوظة في الخوابي والجرار بقبور الموتى مسدود عليها بالإحكام مشتملة على الأشغال الإدارية والعلمية والدينية وضروب مختلفة من المواضيع منها ما يشتمل على مايسمى باب الأموات أو قوائم مساحة الأراضي أو جوابات ومراسلات أو ملفات للدعاوى والخصومات التي أقيمت أمام محاكمهم أو حجج العقار وكل ما يكون مستنداً لأحد المتعاقدين من الإتفاقات المدنية فهذه الأوراق عبارة عن دفترخانة القدماء ومنها مايصعد تاريخه إلى زمن موسى عليه السلام أو إلى ماقبله ويقارنة هذه القراطيس بأمين الأوراق المتداولة في أيامنا نجد منها بوناً بعيداً في القوة والصلابة ومنها نوع يعرف بأسم الورق الملوكي وهو رقيق ناعم أرض جهد مصنوع من غلاف قلب النبات وكان يستعمل لكتابة الأمور ذوات البال ثم نوع آخر متوسط الجودة كان يستعمل لكتابة الأشياء العادية والدينية

ومازال استعمال هذا الورق شائعاً بمصر وغيرها إلى أن عرف الناس عمل من الحرق والقطن .وفي القاموس الفرنساوي أن صناعة الورق من الخرق دخلت بفرنسا في القرن العاشر من الميلاد وأهمل عمله إلى آخر القرن الثامن عشر أعني قبل الآن بنحو مائة سنة فقط أي في زمن الثورة بفرنسا وفي دائرة المعارف الهاوية ما نصه لم تدخل عندنا صناعة الورق المتخذ من الخرق إلا في سنة1 ١٩٠ للميلاد أتت إلينا من دولة العرب وكانت أتت لهم من سمرقند وأصلها من بلاد الصين اه .وأول من إستعمل هذا الصنف بدواوينه في دولة الإسلام هو الخليفة هرون الرشيد خامس خلفاء بني العباس وكان ذلك في القرن الثامن بعد الميلاد أي قبل الآن بنحو ألف سنة.

وذكر بعض علماء الآثار أن نبات البردي أنقطع من مصر لعدم لزوم إستعماله بها كباقي النباتات التي إنقطعت منها ولا يوجد منه الآن إلا في بلاد الحبشة التي هي وطنه الأصلي والظاهر أنه كان يشتمل على مادة سكرية أو طعم لذيذ بدليل قول المؤرخين أنه كان مستعملاً في صناعة الورق وفي الأكل قبل أن يدخل قصب السكر بمصر وروى مسپور وأنّ الوجه البحرى كان يمتاز بنبات البردي كما إمتاز الوجه القبلي بالبشنين وقال هيرودوت ومن محصولاتها أى مصر نبات البردى وفي كل سنة يحصدون خلفته من المستنقعات ويرمون برأسها ويأكلون سيقانها نيئة وطولها بعد قطع رأسها نحو ذراع أو بيعونها في الاسواق أما المترفهون وذوو الثروة فلا يأكلونها إلا بعد شيها في الأفران اه .ولمارأى ذلك بعض قدماء المؤرخين لقيهم بأكلة البردي ومن زار المتحف المصري أو باقي المتاحف التي بأوربا وجد بها أروقة برمتها مشحونة بهذه الرقاع المتفاوتة في الطول والعرض محفوظة في دواليب من الزجاج أو في ألواح منه معلقة على الجدار وعليها من الرسم والنقش والأشكال والألوان والبهجة والنضارة مايبهر العقل ويحير الفكر وكلها أخذت من أطلال الديار المصرية .

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما وقد حدّوثك فما راء كمن سمعا

وقال شمبليون الشاب رأيت بلاد فرنسا درجاً من الورق البردي يشتمل على مدح رمسيس الأكبر وغزواته البعيدة وجميع نصه مسجع في صورة محاورة ما بين هذا الملك ومعبوداته وهو في غاية الأهمية لما به من الفوائد التاريخية الجمة وقد سمح لي الزمن القصير الذي خصصته لمطالعته أن أتيقن من أنه أحد كنوز التاريخ المصري لأني إستنبطت منه إثنتي عشرة ملكة خضعت لهذا الفاتح من المملكة الأيونيين والأيونيين والليقين واللوقين) وكلهم بقسم آسيا الصغرى (والسودان والعرب

وغيرهم ومنصوص بها أنه أسر رؤساء تلك الممالك وضرب عليها الجزية فنقلت هذه الأسماء كما هى بإعتناء وهي مكتوبة بالخط الأيراطيقي المصري) القلم الدارج العامي (ومافعلت ذلك إلا لاقارن أحرفها بأحرف نفس هذه الأسماء المكتوبة بالقلم البربائي إن كانت متزل باقية على الهياكل المصرية.

بمدينة طيبة وأن وجود هذه الورقة غنية عظيمة بل لقية ثمينة وهي مؤرخة في شهر بؤنة في السنة التاسعة من حكم هذا الملك ثم أن المذكور جاء بعد ذلك إلى مصر وأخذ يستطلع الآثار وتسع نصوصها حتى وجد هذه الأسماء بعينها مكتوبة على أحد الجدر الأثرية بالمدينة المذكورة لكنها أوشكت أن تزول بالكلية) هكذا يكون الإشتغال بالعلم وإلا فلا (ولما عاد إلى بلاده عاود الورقة وترجمها فكان ملخصها انا السيتيين) وهي أمة متوحشة كانت تسكن الشمال الغربي من قسم آسيا (تحزبوا على قتال المصريين وانضم إليهم جملة قبائل وعشائر ممن كان يسكن آسيا الغربية وآسيا الصغرى منهم الأيونيون والليقيون وغيرهم فقام رمسيس خطيباً بين جنده يعرضهم و يحرضهم على قتال عدوهم فأجابوه بالدعاء وطيبوا خاطره ووعدوه ببذل الجهد في ملاقاته ثم زحف بهم وساجل خصمه في القتال وكان يقاتل معهم وهو لا يغفل عن تشجيعهم وحثهم إلى أن تم له النصر فصاح قائلاً ها أنا قبضت على رئيس الأعداء أقلعوا عن القتال وكفوا عن الحرب ثم أقام الجند مهرجاناً عظيماً أشهروا فيه سلاحهم ولقبوا ملكهم بأسمى الألقاب الفرعونية .

الفصل الحادي والثلاثون

الرحلة العلمية في معبد رمسيس الثالث

ثم ننتقل إلى مدينة أبو أوهبو وهي التي يراها الزائرون على البعد متى وصلوا الى الشاطئ الغربي من النيل فتظهر لهم جهة الجنوب كأنها تل أسود به قطع من المباني المهدومة التي تكلست من الحريق وصارت صفراء ذهبية اللون وجميع ذلك عبارة عن أطلال المدينة القبطية التي كانت تتحول معبد رمسيس الثالث عند سقوط دين الجاهلية بمصر وهى مشهورة بآثارها العجيبة وأهم مابها معبدان أحدهما يعرف باسم طوطوميس وتيجان أساطينه لها شكل الأزهار وكلها قائمة في الرحبة الأولى منه ويظهر من حالة نقشه وإنحطاط درجة خطه أن مدخله وأبراجه الناقصة بنيت في زمن الرومان فضلاً عن أنا ترى في رحبته اسم طيطوس قيصر وأدريانوس قيصر وانطونيوس قيصر أمبراطرة رومة

أما إحدى جهتي الباب الذي بوسط هذين البرجين فبنيت في زمن بطليموس لاطيروس) أي الأرقط (والثاني في زمن بطليموس أوليطيس) أي الزامر (ثم نرى بعد ذلك حوشاً صغيراً وفي آخره برج لطيف الهندام عليه اسم طهراقة الأثيوبي) من العائلة الخامسة والعشرين (ثم الملك نقطنبو الثاني)آخر من حكم من الفراعنة وهو من العائلة الثلاثين (وليس هما البانين له وإنما وضعا إسمهما ظلماً بلاحق على مابناه غيرهما من الملوك .وترى بطليموس لاطيروس) الأرقط (إختلس أسم قطنبو الذي كان اختلس إسم طهراقه ونسبه لنفسه.

ومتى جاوز الإنسان هذا المكان صار في المعبد الأصلى وعليه اسم طوطوميس الأول أما إسم طوطوميس الثالث فشائع على أغلب جدرانه ومن ذلك تعلم أنه إشتمل على جملة أسماء ملوك تعاقبوا على تخت الديار المصرية في أزمان مختلفة حتى أنك ترى عليه اسم بطليوس فسكون) أي البطين وهو الثامن من ملوك البطالسة (وبذلك صار أمر هذا المعبد غريباً لأن عوامل الإختلاس كانت تتجاذبه في كل حين وربما أتى له ذلك من التصليحات أو الترميمات التي أعترته مدة هؤلاء الملوك في تلك الأزمان الطويلة أما الغرض بنائه فمجهول إلى الآن.

ثم نتحول إلى معبد رمسيس الثالث وهو أحد المباني الفرعونية العجيبة التي سمعت بها مصر

مدة عنفوان شبابها وقد إشتهر صيته وطارت عنه لضخامة مبناه وهيئة مجموع أماكنه وأهمية ما به من التواريخ المصرية وأسلوب كتابته وزينة نقوشه وتنوّع لوحاته بحيث أن الزائرين لا يخرجون منه إلا و هم في دهشة مارأوه به من لطفه وغرابته وهو قسمان يفصلهما حوش كبير.

القسم الاول ويعرف عند علماء الآثار بأسم سراي رمسيس الثالث وهو ما يقابل الزائرين عند دخولهم من الباب ويظهر من حاله أنه كان مسكناً ملوكياً وهو عبارة عن برجين مربعين وجدرهما الأربعة مائلة على بعضها بالهندام نحو المركز العام وشبابيكهما محاطة من الخارج بزينة خاصة غريبة سيما الجهة الشمالية أما تفاصيل هذه السراى جديرة بإمعان النظر في الدور الأعلى رفارف تحملها أسارى من الحجر مبطوحون أي مطروحون على بطونهم كانت معدة لتثبيت أطراف القماش الذي كانوا ينشرونه ليستر مجاز.

المدخل وبقى وجهة الباب الشرقية من الشمس وفي بعض الأروقة الداخلة رسم خاص وهو صورة رمسيس الثالث جالس في منزله بين عائلته وواحدة من بناته تقدم له باقة من الأزهار وكأنه يلعب الضامة مع الثانية ويأخذ فاكهة من الثالثة وهو يلاطفها ويشكرها على ذلك ومن نظر إلى ما هناك من الرسم أيقن أن هذا الملك كان عالماً بالتواريخ معتنياً بالرسم والتصوير فإنه حمل نفسه في أول المدخل كغالب منصور يقود الأسارى ويقدمهم إلى معبوداته والعجب كل العجب من المصور الذي أعطى وجه كل أسير هيئة جنسه بعدما قسمهم إلى قسمين فجعل أسارى الجنوب أي بلادى أثيوبيا وليبيا على الجهة الجنوبية من المدخل وجعل أسارى الشمال على الجهة الشمالية منه وكل واحد منهم جاث على ركبتيه ويداه موثوقتان من خلفه وأساري الجنوب هم

١ (رئيس بلاد كوش الحقيرة) مرسوم في هيئة العبد مع أن هيئة هذه الأمة تقرب منهيئة المصريين ولا يعلم السبب الذي أوجب هذا التغيير في أصل خلقته.

٢ هدم بالحائط.

٣ هدم بالحائط أيضاً ويظهر من بقايا الرسم أن الأسارى كانوا من بلاد كوش أيضاً.

٤ (رئيس بلاد ليبو) وله لحية دقيقة من أسفلها وذآبة شعره مرسله على أذنه وهو رئيس بلاد لبيا الواقعة غرب مصر.

٥ (رئيس بلاد تورس) وسكانها من جنس الكوشيين أي قنى الأنوف ولثيابهم هداب مرسل.

٦ (رئيس المشواشيين) وهو ضخم الوجه كبيره وقومه قسم عظيم من الليبيين كانوا يسكنون سواحل إفريقا الشمالية.

٧ رئيس بلاد تروا.

أما أساري الشمال المرسومون على الجهة الشمالية من مدخل السمراي فهم

١ (رئيس أمة الخيتاس الحقيرة أخذ أسيراً بالحياة) ووجهه ممتلئ باللحم ليس له لحية وفي أذنيه أقراط كبيرة وعلى رأسه قلنسوة كابسة ينزل منها نحو طيلسان على ظهره وكانت هذه الأمة تسكن جهة الشام من قسم أسيا بالقرب من نهر (أورنتو).

٢ (رئيس بلاد أمرو الحقيرة) ووجهه مستطيل ولحيته دقيقة وهو ملك العموريين الذين كانوا يسكنون الشاطيء الغربي من بحيرة لوط أو البحر الميت.

٣ (رئيس بلاد تكاري) وكان قومه يسكنون بقرب بلاد الشركس ولما هزمهم رمسيس الثالث إنضموا مع المنهزمين وطلب الجميع أن يسكنوا الناحية الغربية من حدود مصر فصرح لهم الملك بذلك وقد ذكر بطليموس الجغرافي جميع هؤلاء القبائل في أحد مؤلفاته.

٤ (رئيس بلاد الشرتنه الواقعة على ساحل البحر) وذكرهم بطليموس باسم خرتني ويظهر أنهم سكان بلاد سلسيا ببر الأناطولي بقسم أسيا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في شمال خليج إسكندرونه الآن.

٥ (رئيس أمة شازو) وكانت معروفة من قديم عند المصريين ومذكورة في تواريخهم وكانت تسكن الصحراء الممتدة بجوار برزخ السويس وتعرف في التوراة باسم الأيدوميين.

٦ (أمة الطورشا الساكنة على البحر) وقال بعضهم أن هذه الأمة كانت تسكن بجوار جبل الطروس (جبل الجودي) ما يلي ساحل البحر.

٧ (رئيس أمة البو) أو البوزاتا وقال بعضهم أنهم أمة البلسج (أصل سكان بلاد اليونان) وظن غيرهم أنهم أمة الفلسطين (هي أمة كانت تسكن أسيا الصغرى) وهي فرع من أمة البلسج أتت من جزيرة كريت ثم توطنت بعد ذلك ما بين البحر الأبيض المتوسط وبلاد الشام وكان من مدنها غزة وعسقلان وأشدود وغيرها.

فمن ذلك يؤخذ أن مصر في زمن رمسيس الثالث حاربت في آن واحد جميع هؤلاء الأقوام

وهم الكوشيون بأقسامهم وكانوا هجموا عليها من جهة الجنوب ثم الليبيون بأقسامهم وكانوا هجموا عليها من جهة الغرب شمال الخيتاس (الهيثيون) والترويون والعموريون والتكاريون والشرتنه والسازو وكلهم هجموا من جهة الشمال والشرق وجيعهم هجموا عليها من البر ثم الطورشا والبرزا وكانا هجما عليها من البحر بمعنى أن مصر حاربت في عصر هذا الملك النبيل السودان والمغرب والحجاز والشام وبر الأناطولي وسكان سواحل البحر المتوسط وقهرهم جميعاً في آن واحد وكبحت طمعهم فعادوا بالخيبة والنكال لم ينالوا منها خيراً بعدما أسرت رؤساءهم وسلوكهم وغنمت جميع ما كان معهم حتى نساءهم وأولادهم ولو كان هؤلاء الأحزاب يتحزبون الآن على أعظم دولة لا وقعوا بها الدمار ولكن الله يقلب الليل والنهار ولا يقع في ملكه إلا ما يريد. ويستنتج من هذه العمارة ومن هذا الرسم سؤال مهم وهو هل كانت هذه السراي دقيقة مسكناً لهذا الملك وهل كانت جميع السرايات الملوكية مبنية على هذا النمط وهل كان لكل معبد سراي مبني بالحجر المنحوت كالمعبد نفسه ومنقوش بالكتابة متله فإن قلنا بالإيجاب لزم أن يكون بمصر جملة سرايات ملوكية كهذه مع أن الأمر بخلاف لأننا لم نجد لغيرها أدنى أثر في جميع أرض مصر وعلى ذلك لا يمكننا حل هذا الإشكال لأننا كلما حاولنا فكه إزداد خفاء سيما وقد علمنا أن الملوك ما كانت تسكن بالمعابد والغالب على الظن أن هذا المكان ما كان مسكناً لهذا الملاك ولا لغيره من الملوك.

وبالتأمل في وضعه وإنفراده بالقرب من الصحراء وهندسة بنائه يصبو الإنسان إلى القول بأن الغرض الوحيد منه هو بناء هذه الأبراج التي تعرف باسم أبراج النصر لأن ما عليها من الكتابة والنقوش موجود نظيره على جميع الأبراج بالأقصر والكرنك والرمسيوم وأن الملوك ما شيدوها على حدود المدينة إلا لتكون حصوناً أو قلاعاً ومعاقل للدفاع وقت الحرب كما تكون أثراً ضامناً لتخليد نصراتهم على أعدائهم وعلى ذلك تكون هذه الحصون آثاراً حربية للملوك أرباب الغزو لا آثاراً مدنية ومما يقوى هذا القول هوأننا نرى على السور العام وبرج السراي شراريف نشعر بأن هذا المكان كان حصناً يتترس الجند بشراريفه وقت مهاجمة الأعداء والله أعلم بحقيقة حاله.

الفصل الثاني والثلاثون

في إعتقاد المصريين في منشأ العلوم وذكر هرمس والتنجيم وكتاب الموتى والسحر والطلاسم والحواة

نقل مؤرخو اليونان عن تاريخ قدماء المصريين أن الله عز وجل أمر هرمس الهرامسة أو المثلث المعروف بهرمس الأول أن يكتب جميع العلوم بالقلم السري ففعل وأودعها بطون الأسفار والكتب وكان يسكن السماء وهو أول من عرف الله ومجده أما هذه الكتب فبقيت مجهولة إلى خلق العالم ثم جاء الطوفان وأغرق الأرض ومات كل من عليها ولما عمرت ثانياً كانت الناس على فطرتهم الأولى لا يعرفون شيأ من ضروريات معيشتهم فأرسل الله لهم هرمس الثاني وهو عبارة عن هرمس الأول متجسداً في صورة إنسان ولما هبط إلى الأرض أخذ يعلمهم ما يحتاجون إليه لأنهم كانوا يهيمون على وجوههم كالوحوش في الفلوات لا يمكنهم التفاهم والتعارف إلا بصياح ساذج مختلط متقطع فبدأ بتعليمهم النطق بالكلام ووضع أسماء المسميات وبين لهم طريقة التعارف فيما بيهم ثم إخترع أحرف الهجاء ولقنهم أياها ورتب لهم الهيئة الإجتماعية وسن أصول الدين ومحافله ودون قواعد علم الفلك والرياضة والهندسة ووضع الأرقام الحسابية وإخترع الكيل والميزان وكل ما يعود عليهم بالمنفعة ولم يقتصر على ذلك بل علمهم تحنيط الأموات وهو الذي حنط أوزيريس معبودهم بعدما قتله تيفون إله الشر كما في هذا الشكل وسيأتي بيانه في الباب الحادي والعشرين.

وقالوا انه لما هبط إلى الأرض ألف بها كتباً كثيرة وأسلمها إلى طائفة القسس وجعلهم أمناء عليها وكانت مكتوبة بغير اللغة والخط اللذين ألف بهما كتبه الأولية ثم أودع هذه الطائفة من غامض العلوم ما لم يبح لغيرهم بها وحتم على كل فرد من أفرادها معرفة ما بهذه الكتب كلها أو بعضها حسب ما تقتضيه وظيفته بين أمثاله وذويه أما عددها فكان اثنين وأربعين كتاباً تشتمل على جميع أصول الحكم والنصائح وأركان الدين وقواعد العبادة وترتيب الحكومة وعلم الفلك والجغرافية حتى علمهم ما يتريضون به مثل الموسيقى ونحوها فإخترع لهم عوداً ركب به ثلاثة أوتار فقط وعلمهم الألعاب الرياضية والبهلوانية والنقش والرسم وبالجملة كل فن نافع وكل شئ مريض للجسم والروح فلذا صاروا أسيري إحسانه وعبيد عرفانه فهذا هو ما رواه أفلاطون الحكيم وبلوتاركه وغيرهما.

وبالجملة كتب جميع الفنون والمعارف على إختلافها كما نسبوا إليه جميع الغختراعات النافعة التي إخترعتها الكهنة وقالوا أن وظيفته إدارة أحكام أهل الأرض والقمر وتسجيل أعمال المخلوقات يوم البعث والميزان بجهنم (راجع صحيفة الاثنين وأربعين قاضياً نمرة ١٤١) وقال جامبليك أن كتبه بلغت بمصرعشرين ألف كتاب وقال مانيطون المصري أكثر من ذلك فيستفاد بداهة مما ذكر أن لفظة هرمس كانت رمزاً على الطائفة الكهنوتية العلوم نفسها ليس شيأ آخر والظاهر أنهم نسبوا إليه إختراع كل شيء كما نسبنا إختراع جميع الأشياء إلى إدريس عليه السلام وكل كلام مستحسن أو حكمة مفيدة أو شعر رائق إلى علي كرم الله وجهه وكل فضيلة إلى سيدي جعفرالصادق رضي الله تعالى عنه وكل شيء غريب إلى صنعة الجن ومن قول أبي العلا المعري

تضـــل العقـــول الهـــبرزيات رشـــدها ... ولا يســـلم الـــرأي القـــويم مـــن إلا فـــن
وقـــد كـــان أرباب الفصـــاحة كلمـــا ... رأوا حســـناً عـــدوه مـــن صـــنعة الجـــنّ

وبمسابرة التواريخ ترى أن لكل أمة فيه إعتقاداً مغايراً لمن عداها لكنهم إتفقوا جميعاً على أنه هو المخترع للأشياء كلها أو أجلها فيعرف عندنا باسم إدريس عليه السلام وعند اليهود باسم أخنوخ وعند الكلدانيين وغيرهم باسم هرمس.

وفي دائرة المعارف النمساوية (الإنكلوبودية) ما نصه هرمس هو عطارد بن المشترى والمعبودة مابه وكان اليونان يعتقدون أنه إله الرعاة والمراعي والمروج والأعشاب وقد إشتغل به في دولة الإسلام كثير من العلماء والحكماء وكان لهم من طرف الخلفاء الخلع والرواتب والجوائز سيما أيام عبدالله المأمون بن هرون الرشيد العباسي فإنه إجتمع عليه كثير من أهله وأخذ عنهم وكان له مشاركة فيه ولما مات بطرسوس قال فيه بعضهم

هـــل علـــوم النجـــوم أغنـــت عـــن المـــأ ... مـــون شـــيأ أو ملكـــه المـــأنوس
خلفـــــوه بســـــاحتي طرســـــوس ... مثلمـــــا خلفـــــوا أباه بطـــــوس

وفي بعض التواريخ قال أبو معشر الفلكي أخبرني مُحَّد بن موسى المنجم الجليس (لا أبو الخوارزمي) قال حدثني يحيى بن أبي منصور قال دخلت غلى المأمون وعنده جماعة من المنجمين ورجل يدعى النبوة وقد دعا له المأمون بالعصى ولم تحضر بعد ونحن لا نعلم فقال لي ولمن حضر من المنجمين إذهبوا وخذوا الطالع في دعوى الرجل في شيء يدعيه وعرفوني ما يدل عليه الفلك من صدقه وكذبه ولم يعلمنا المأمون أنه متنبي قال فحملنا إلى بعض تلك الصحون فأحكمنا أمر الطالع وصورنا موضع الشمس والقمر في دقيقة واحدة وسهم العادة منها وسهم الغيب في دقيقة

واحدة مع دقيقة الطالع والطالع الجدي والمشترى في السنبلة ينظر إليه والزهرة وعطارد في العقرب ينظران إليه فقال كل من حضر من القوم ما يدعيه صحيح وأناساكت فقال لي المأمون ما قلت أنت فقلت هو في طلب تصحيحه وله حجة زهرية عطاردية وتصحيح الذي يدعيه لايتم له ولا ينتظم فقال لي من أين قلت هذا قلت لأن صحة الدعاوي من المشترى ومن تثليث الشمس وتسديسها أذا كانت الشمس غير منحوسة وهذا الطالع يخالفه لأنه هبوط المشتري والمشتري ينظر إليه نظر موافقة إلا أنه كاره لهذا البرج والبرج كاره له فلا يتم التصديق والتصحيح فقال المأمون لله درك أنت ثم قال أتدرون من الرجل فقلنا له لا قال هذا يدعي النبوة فقلت يا أمير المؤمنين أمعه شيء يحتج به فسأله فقال نعم معي خاتم ذو فصين ألبسه أنا فلا يتعين منه شيء يحتج به ويلبسه غيري فيضحك ولا يتمالك من الضحك حتى ينزعه ومعي قلم شامي آخذه فأكتب به ويأخذه غيري فلا ينطلق أصبعه فقلت يا سيدي هذه الزهرة وعطارد قد عملا عملهما فأمره المأمون بعمل ما إدعاه فقلنا له هذا ضرب من الطلسمات فمازال به المأمون أياماً كثيرة حتى أقر وتبرأ من الدعوى ووصف الحيلة التي إحتالها في الخاتم والقلم فوهب له المأمون ألف دينار فلقينا بعد ذلك فإذا هو أعلم الناس بعلم النجوم ثم قال أبو معشر لو كنت حاضراً مكان القول لقلت أشياء ذهبت عنهم كنت أقول الدعوى باطلة لأن البرج منقلب والمشتري في الوبال والقمر في المحاق والكوكبان الناظران في برج كذاب وهوالعقرب.

وقيل أن أحد الملوك في زمن أبي معشر غضب على أمير من أعيان دولته وأراد الإيقاع به فإختفى من وجهته وشدا الملك في طلبه فلم يقف له على خبر فأمر أبا معشر أن يأخذ عليه الطالع ليعلم أين مكانه ففعل ثم قال يا مولاي رأيت عجباً وهو أني رأيت المطلوب جالساً على جبل من ذهب وسط بحر من دم يحيط به سور من نحاس فكذبه الملك وأمره بإعادة أخذ الطالع ففعل وكانت النتيجة عين الأولى فتعجب الملك من ذلك وإشتاق لمعرفة الحقيقة وأعطاه الأمان فحضر لديه وسأله عن مكانه مدة غيبته فقال يا مولاي لما خفت من أبي معشر أن يدل على ملأت طستا من نحاس بالدم وجعلت بوسطه هوناً من ذهب وجلست عليه فتعجب الملك من حذاقته وعلو مكانة أبي معشر في التنجيم.

وعلم التنجيم ليس من الحقيقة في شيء حتى قال أحد مشاهيرالفلكيين من الإفرنج أن علم الفلك خلف ولداً مجنوناً لا يعتد به ومما يدل على فساد مبناه أن أحد الملوك أراد الخروج إلى الصيد فنهاه أحد المنجمين عن ذلك وأخبره أن الطالع منحوس وأنه يخشى على الملك من

الخروج إلى الجبال في مثل هذه الأيام إلا إذا حل الغمر بالقوس فتكدر الملك من ذلك وإغتم وبينما المنجم يوسع له في النصح ويحذره من الخروج وغذا بغلام تركي وجيه المحيا وسيم الطلعة دخل عليه متقلداً بقوسه فقال له أحد الظرفاء من جلسائه يا مولاي قد حل القمر بالقوس فإنهض لحاجتك فقام الملك من فوره إلى الصيد فغنم شيأ كثيراً وعاد سالماً ولم يحل به نحس المنجم.

أما كتاب الموتى فكان يصنع من الورق البردي ويوجد الآن على هيئة ملفات أو صحف بجوارالميت أو بين فخذيه وهو كثير الوجود بأرض مصر وفي متاحف الممالك الأجنبية وهو كتاب مقدس عندهم ربما بلغ طوله إلى ثلاثين قدماً فأكثر ويختلف عرضه من قدم إلى اثنين مكتوب به جملة فصول وأبواب تذكر سفر الروح بعد فراقها جسم صاحبها وما تكابده من العقبات والمهالك والمخاوف مدة هذا السفر الطويل حتى تتصل بعالم الأرواح الطاهرة إن كانت أهلاً لذلك وإلا فالسجن والعقاب وغير ذلك مما هو مدون به وتارة يكون عليها كيفية تحنيط الأموات ونقلها إلى المقابر أو إستغاثات إلى كل واحد من الاثنين وأربعين قاضياً المرسومين في لوحة محكمة أوزيريس (صحيفة ١٤١) أو يكون عليها أجوبة لأسئلة مفروضة تقولها الروح لمن يسألها أو أدعية وطلب المغفرة وتمحيص الذنوب أوتزكية النفس وأنها كانت راضية مرضية وهاك نموذجين من ذلك الأول منهما (تقدست يا صاحب الحق والعدل تقدست يا عظيم يا صاحب الحق والعدل قد أتيتك معترفاً بكل خضوع أني ما إقترفت صغيرة ولا كبيرة في جانب مخلوق وما أهنت الأرامل ولا كذبت في المحاكم ولا كلفت صانعاً بشغل أكثر من عمله اليومي ولا كنت كسلاناً ولا متوانياً ولا خالياً من الشغل في الحياة الدنيا ولا إرتكبت المعاصي المنهي عنها ولا أجعت أحداً ولا أبكيت له عيناً ولا قتلت مخلوقاً ولا أمرت بفعله ولا أخذت ذخائر الأموات ولا إكتسبت من حرام ولا طففت المكيال والميزان ولا غيرت حدود الأطيان والمزارع ولا غششت أحداً في كفة الميزان ولا طردت الحيوانات المقدسة عن مراعيها ولا إقتنصت الطيور المنهي عنها ولا حولت المياه عن مجاريها وأني طاهرة زكية زكية زكية).

الثاني (نجني من الفتانات يا حاكم في يوم الفصل وإسمح للميت بالقرب منك لأنه ما عصاك ولا شهد بالباطل بل عاش في الحق وأكل الحلال وأطعم الجائع وأروى الظمآن وكسى العاري وأعطى سفينة لمن أتعبه السفر وذبح القرابين وأخرج الصدقات عن الأموات فنجه من المهالك ولا نحكم عليه بالعذاب يا سيد الأموات لأنه طاهر الفم واليد). وكانوا يجعلون مع كل ميت كتاباً من ذلك ليصرف عنه السوء والمخاوف وأغلبها كانت تكتب بيد الميت قبل وفاته أو بمعرفة

أقاربه أو الكهنة وتارة كانت القسوس تبيعها للناس وجميعها مكتوب بالقلم العامي القديم. وكثير من هذه الملفات عليه نقوش وألوان محكمة الصنعة نقل أغلبها غلى بلاد الإفرنج وزينوا به دار تحفهم كما أسلفنا غير مرة ويوجد بمتحف لوفر بفرانسا ملف لكاهن مصري يدعى (نيوتن) كان قاضياً في إحدى المحاكم المدمرة وهو مصور بثياب بيض جالس على كرسي بوسط حجرة مزينة بأحسن زينة يقدم القرابين إلى معبوده أوزيريس وخلفه أمه وأخته وأسفل ذلك نصوص مأخوذة من كتاب الموتى بها أدعية تقال عند الدفن وبعد ذلك صورة الإحتفال وجثة الكاهن المذكور محنطة موضوعة على نعش بوسط سفينة محمولة على عربة يجرها أربع ثيران وأمه تمشي خلفه وشعرها مرسل على ظهرها وأكتافها بلا إعتناء وثيابها ملوثة بالحداد تنوح على ابنها ثم إمرأتان لابستان ثياباً حمراً إحداهما في صورة المعبودة نفتيس جالسة عند رأسه والأخرى في صورة إيزيس جالسة عند قدميه وبجوار العربة قسيس من الكهنة متشح بجلد النمر وبإحدى يديه مجمرة وبالأخرى إناء الخمر ثم أربع رجال يقودون عربة عليها صندوق أسود على هيئة تابوت به القدور الحافظة لأحشائه المحنطة (وهذه القدور تعرف عند علماء الآثار باسم كانوب) والمعبود أنوبيس (ابن آوي أو الذئب) جالس على هذا الصندوق ثم نساء من أهل الميت وأقاربه يمشين خلفه راخيات الشعور قد سخمن ثيابهن ووجوههن بالطين والرماد ينحن عليه ويندبنه وهيئة أذرعتهن تشير إلى ذلك ثم يتلو الجميع رجال من أقاربه وأحبابه عليهم شعار الحزن أيضاً وفي يد كل واحد هراوة طويلة وترى في رسم آخر بجوار هذا كأن النعش وصل إلى قبر مفتوح وأمه واقفة بإزائه تودعه آخر وداع له وفوق رأسه كاهن أوزيريس السالف ذكره يتمم واجب وظيفته ولله در المصور الذي أمكنه إظهار داخل هذا القبر بالرسم حيث جعل به سلماً يفضي إلى فسحة صغيرة منقوش بابها باللون الأصفر و بها محراب وكرسي بمساند وباب آخر يفضي إلى رواق يتصل برحبة كبيرة بها مصطبة عليها جثة المتوفي ثم سرداب مواز لهذه الرحبة به قدور الأحشاء والصدقات التي قدمت له بعد الموت وفي جهة أخرى من الورقة رسم به صورة الميت بثياب بيض قائماً يعبد معبوداته ثم صور المعبودات التي تحضر وقت التحنيط وتحت كل واحد كتابة تنبيء عن وظيفته ثم صورة الميت قائمة تعبد أوزيريس وخلفه المعبود أنوبيس وكأن الميت قد حضر إلى المحكمة أمام الاثنين وأربعين قاضياً وهو يبتهل إليهم وتراه بعد ذلك واقفاً أمام أوزيريس يضرع إليه وبجواره ميزان الحق و بإحدى كفتيه ريشة العدل التي يوزن بها القلب و بازائه كلب جهنم أو ملك العذاب ثم تراه بعد ذلك مصوراً قد صار مع الأبرار في أعلى عليين حيث سفينة الشمس وقد

جلس في سفينة تسبح في السماء الشراع وبجواره زوجته.

أما السحر وعمل الطلاسم فكانا مستوطنين بمصر من قديم الزمان وذكر المؤرخ تاسيت الروماني كثيراً من العجائب السحرية التي كانت تحدث بمدينة الإسكندرية مدة إقامة الإمبراطور (وسبازيان) بها وكذا العجائب والإستدراجات التي كانت تظهر على يد هذا الإمبراطور بها حيث قال أنه كان يبرئ الأعمى ويقيم السطيح و كات (أرنوفيس) الساحر يستخدم الشياطين ويشير إلى السماء فتمطر وقال (أوريجين) الساحر الإسكندري تعلمت من كهنة مصر بعض كلمات مصرية إستخدمت بها الشياطين وبعض كلمات فارسية أطعت بها كل عات من المردة وهذه الكلمات لا يعرفها إلا العلماء وقال القديس جيروم) أن إحدى العذارى أصابها مس من الشيطان وكان يعشقها شاب بمدينة غزة فلما حضرت ذات يوم إلى منزله إستهوتها المردة فغارت في الأرض تحت عتبة المنزل ولم يقف لها أحد على خبر إلى أن جاء (هلياريون) الساحر وكتب عزيمة على صفيحة من المعدن كان تلقنها من قسس مدينة منفيس وبعد أن عزم ظهرت الشابة على وجه الأرض. وكان إستفحل عمل السحر بمصر مدة موسى عليه السلام وذكر المؤرخون أنهم سروا الحبال والعصى وقلبوها إلى حيات وكانوا قبل ذلك يقلدون كل معجزة ظهرت على يده عليه السلام فإنه لما ضرب النيل بعصاه وصار دماً صنعوا مثله ولما دعا بالضفادع وخرجت من النهر صنعوا أيضاً مثله لكنهم عجزوا عن أن يخرجوا من التراب بعوضاً كما فعل وقد وجد على بعض الآثار اسم الطلسم مكتوب باللغة القديمة في حكاية بنترش أوبنتشرش أخت زوجة رمسيس وكان أصابها مس من الجن وهي حكاية نفيسة ذكرناها باللغة البربائية في الباب المتم للعشرين من هذا الكتاب وفي مقدمة ابن خلدون ما ملخصه وفي المغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالبعاجين فيشيرون إلى الكساء أو الجلد فيتخرق ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج لأن أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأنعام يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم مستترون بذلك في الغاية خوفاً على أنفسهم من الحكام لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه وأخبروني أن لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفرية وإشراك الروحانيات الجن والكواكب إلى آخر ما قال راجع ذلك في الفصل الثاني والعشرين من الكتاب المذكور. وفي الخطط الجديدة أنه كان في هذه المدينة (يعني مدينة قوص) قوم لهم معرفة تامة بصيد الثعابين والحيات والعقارب بواسطة عزائم وأقسام سحرية يقرؤنها عليها ويسلطونها على من يشاؤن فتتبعه بكل جهد ولا ترجع عنه إلا إذا

أمرت بالرجوع ويؤيد ذلك ما حكاه المقريزي عن الأمير (تكتباي) حاكم قوص في زمن السلطان محمد بن قلاوون أنه أوقف ذات مرة ساحرة أو حاوية وأمرها أن تريه شيأ من عجيب صناعتها فأخبرته أن سرها الأكبر أن تسحر العقارب وتحركها لمن شاءت فإذا سمت لها شخصاً ذهبت إليه ولا تتعداه فتلدغه وتهلكه فقال لها أريني ذلك وأرجوك أن تجر بي في فاتت بعقرب وتلت عزائها عليها ثم أطلقتها فإنطلقت وراءه وهو يزوغ منها بجهات شتى حتى كادت تلدغه فهرب منها وجلس على كرسي وسط حوض مملوء بالماء فوقفت على حافته تراود نفسها في خوضه ثم جرت على الحائط ومشت بالسقف حتى صارت موازية لرأسه ثم رمت بنفسها فسقطت بالقرب منه وقصدته فبادر إليها بضربة فقتلها ثم أمر بقتل تلك المرأة.

وبالجملة فإن أمر العزائم العسكرية المستخدمة للثعابين والعقارب كان من قديم الزمان في أرض إفريقية وفي بعض تراجم التوراة أن ثعباناً أصم مفقود السمع لا تؤثر فيه العزيمة يدل على قدم هذا الفن وقال في موضع آخر ومن أعجب ما يرى ويسمع أن الحواة يجلبون الثعابين بأنغام الآلات قال الناقل أنه حضر عندي (أي ببلاد الهند) ذات يوم أحد الحواة وأخبرني أن في منزلي ثعابين وطلب الإذن في إخراجها فأذنت له بعد أن جردته من ثيابه وفتشت سلته فلم أجد فيها غير عقرب كبير أسود قدر الكف ففي الحال أخذ زمارته وهى عبارة عن جوزة من جوز الهند في رأسها ماسورتان وفي أسفلها كذلك وزعق بها زعقة مهولة توقف شعر الرأس وكنت بقربه أنظر إليه لا أفارقه ومعنا كثير من أهل البيت والجيران فلما وصلنا إلى ركن الجنينة غير نغمة الزمارة بنغمات متتالية نحو خمس دقائق وإذا هو بشير إلى شيء أرانا إياه ثم طأطأ ومسكه بيده فإذا هو حية من أشنع الحيات ذات السم القاتل طولها نحو قدمين ونصف وفي حال مسكها قرصته قرصة أسالت الدم من أصبعد من دون أن يلتفت إلى ذلك ووضعها تحت شجرة وجعل يرمز كالأول ثم مسك حية أخرى لكنها ليست في السم كالأولى وبعد أن وضعها في السلة أخرج جذر النجا وعرك به محل القرصة وقد نظرت إلى الجذر وأمعنت النظر منه (أقول هذا الحذر لا يوجد إلا ببلاد الهند وهو نافع لقرص الثعابين ولا يعرفه إلا حواة تلك البلاد) وفي تلك اللحظة قيل لنا أن في شق تحت شجرة ثعباناً لم يكن أحد إلى الآن أن يقرب منه فذهبنا مع الحاوي إلى الشق فأخذ يرمزيز زمنا ثم أدخل يده في الشق فأخرج حية طولها نحو خمسة أقدام ونصف وقد قرصته في قبضة يده ورأينا بمحل القرصة جرحاً يشبه قطع السكين والدم يسيل منه والحية لم تهجع بل كانت تعنفه بقوة وشدة وتحاول قرصه مرة أخرى فرمى بها إلى الأرض فرفعت رأسها وهجمت عليه فمسكها

من رأسها وثبتها في الأرض بعصى معه وفتح فاها بخشبة وأرانا أسنانها ثم قلعها ورماها فصارت بلا أسنان ثم أخذ يزمر وأخذت الحية ترقص على النغمات وتتمايل يميناً وشمالًا وترتفع بصدرها وتهبط إلى الأرض فإذا مشى تبعته وإذا إلتفت إلتفتت فكانت كأنما الحلوى طلسم عليها وقد كمل للحاوي في زمن قليل من الجنينة والمنزل ست حيات وقد حصل له في نحو ساعة جملة قرصات إستعمل فيها الدلك بجذر النجا ولم يحصل له أدنى ضرر وإلى الآن لم يصر وقوف أهل العلم على خواص هذه الجذور (راجع ذلك في الجزء الرابع عشر نمرة ١٣٣). والظاهر أن الحواة يقلدون بصفيرهم أصوات الثعابين فيصفرون للأنثى بصوت غليظ يشبه صوت الذكر وللذكر صوت رفيع يشبه صوت الأنثى فيخرجان للسفاد فيقبض عليهما بهذه الحيلة.

وقال شمبليون فيجاك إشتهر حواة المصريين من قديم الزمان بمسك الثعابين والأفاعي من المنازل كما تصطاد الناس الفيران والجرذ بدون حذر فيمسكونها من الفراش وغيره ويقال أن سمها لا يؤثر في جسمهم ماداموا من نسل هذه الطائفة أه.

وقرأت في بعض كتب الجغرافية الطبيعية أن جزيرة سيلان (سرنديب) نوعاً من أخبث الثعابين لا يدنو منه أحد إلا أتلفه في الحال يعرف باسم أبي نظارة لوجود صفرة بعينيه تشبه النظارة يقصده حواة الهند لصيده ومتى دنت منه وثب عليها فترمي في وجهه مسحوق عرق النجا فيقع في الحال مغشياً عليه فيأخذونه وهذه الجذور لا يخرجونها لغير طائفتهم ولو بذل لهم الإنسان فيها ما بذل وتارة يبيعونها مغشوشة بأغلى الأثمان ضنا بها ويوجد ببلاد الهند نوع من الثعابين كالنخلة يدعي البوا يلتف على الثور العظيم فيكسر أضلاعه ثم يلعقه بلسانه فيفرز عليه مادة غروية ثم يبلعه مع أن غزال المسك الضئيل يقتله بظلفه (حافره) لأنه متى دنا منه وثب الغزال عليه وضربه على رأسه في فيفلقها لخاصية فيه وأخبرني بعض أمراء الإنكليز وكان حاكماً بالهند أنه ركب ذات يوم على فيل وخرج يتريض بالجبل مع أحد رفقائه فنظرا على بعد شيأ متدلياً من فرع شجرة ولا دنيا منه وجداه ثعباناً مغشياً عليه لا يبدي حراكاً فأطلق أحدهما عليه الرصاص فأصاب رأسه ووقع على الأرض ميتاً وله بطن كبيرة ففتحها وإذابها قرد لم يتغير منه شيء كان إصطاده من الشجرة و بلعه والله أعلم.

الفصل الثالث والثلاثون

تتمة الرحلة العلمية في باقي معبد رمسيس الثالث

القسم الثاني هو المعبد الحقيقي ويمتاز بأبراجه الشامخة وهو كالسراي بمعنى أنه أثر لرمسيس المذكور بناء مدة حياته وزينه بأكمل زينة وجعل أبراجه للتفرج غاية وللتفكر آية لما حوته من بديع الصنعة والتواريخ منها لوحات عظيمة مؤرخة في السنة الحادية عشرة والثانية عشرة من حكمه تنبئنا بالوقائع الحربية والتجريدات التي جردها هذا الملك الجليل لسلامة الوطن من الأعداء كقتال أهل ليبيا والمشواشيين وباقي الأمم التي زحفت على مصر من سواحل البحر الأبيض المتوسط وجبال آسيا الغربية التي إتحدت قلباً وقالباً على الإيقاع بها ويرى على وجهة البرج من جهة الشمال صورة الملك وبيده مقمعة وهو متهيىء لأن يضرب بها فوجاً من الأسارى الجاثين على ركبهم الرافعين إليه يد الضراعة والإبتهال ومعبوده (أمون هر ماخيس) يناوله نحو بلطة ويمدحه بخطبة ترجمها العلامة شباس وصورتها أيها الابن الذي خرجت من أحشائي أنت الذي أنطتك بمحبتي أنت ملك الخافقين أنت رمسيس الثالث رب السيف على وجه الأرض ها أنا جعلت قبائل بتي ببلاد النوبة تحت قدميك وأحضرت لك رؤساء الممالك الجنوبية يحملون لك أولادهم على ظهرهم كباقي المحصولات النفيسة الخارجة من بلادهم تقتل منهم من تشاء وتعفو عمن تشاء وقد وجهت وجهي إلى الشمال وحففتك بعجائب فعلي وجعلت تاتشر (أي الارض الحمراء) تحت قدميك فإكسر بأصابعك كل من لم يسلك منهم جادة الصواب وغقلب الهيروشاوو بسيفك المنصور وقد أحضرت لك الأمم الذين ما سمعوا بمصر يحملن حقائبهم (صناديقهم) المفعمة بالذهب والفضة واللازورد الحقيقي وكل الأحجار الكريمة وكل ما يخرج من تانوتر (الأرض المقدسة) جعلته أمام وجهك الحسن فإختر منه ما تشاء ثم وجهت وجهي إلى الشرق وحففتك بغرائب فعلي وأوثقت جميع سكانه بين يديك وجمعت لك كل محصول مملكة بون (أرض الحجاز) فصار في حضرتك كل محصول أراضيها وكل نباتها العطري ثم وجهت وجهي إلى الغرب وحففتك بغرائب فعلي فإضرب بلاد تاهنو الذين يأتون إليك وهم ركع يعبدونك ويقعون جريهم من صوتك المخيف أه.

ثم نجد بعد ذلك حوشاً محاطاً من أحد جوانبه بأساطين ضخمة ذات تيجان لها هيئة أكمام البشنين الذابلة وبالجهة الثانية دعائم مربعة عليها تماثيل جافية على هيئة رمسيس الثالث في زي المعبود أوزيريس وفي الجدار الجنوبي لوحة عظيمة عليها صورة أمون وموت والملك رمسيس يقدم لهما ثلاثة صفوف من الأسارى الذين أتى بهم من أهل آسيا وبالصف الأسفل منها أمة البروزاتا وبالصف المتوسط أمة تعرف باسم تعاناوونا ومعها أمة أخرى من الشراكسة التي إستوطنت في بلاد ليبيا ذكرها بطليموس الجغرافي باسم تينايا وبالصف الأعلى أمة تدعى شكرشا وهي أمة ثالثة من جهة جبال القوقاز ظن بعضهم أنهم هم الشراكسة وقد تحرف اسمهم على مدى الزمن وقال بروكش باشا أن هذه الأمة طائفة من سكان ليبيا كانت أتت لمحاربة مصر مع من أتى من الاحزاب ولما هزمت سكنت جهة ليبيا وعلى الحائط الشمالي كتابة نفيسة إشتغل بها العالم الشهير روجه وحل معانيها وأظهر حقيقة ما بها من التواريخ وليس في الخمسة عشر سطراً لعليا منها عظيم فائدة لأنها ألقاب ملوكية وعناوين سلطانية ولايهمنا ذكرها أما التواريخ والوقائع الحربية فتبتدئ من أول السطرالسادس عشر وهي تتضمن غزوات هذا الملك مع أمة الخيتاس (الهيثيين)

وأمة كاتي وأمة كركماشا وسكان أراتق وأروزا الذين إنضموا مع أمة بوروزاتا وأمة التكاري والشكرشا وأمة تعاناوونا وأمة الأواشلشا وهجموا على مصر وأرادوا الإستيلاء عليها وكان المصاف بين الفريقين في البحر في أحد مصبات النيل وقد ضربنا صفحاً عن ذكر تفاصيل هذه الواقعة المهولة إذ ليس هذا كتاباً للتاريخ ومن ذلك تعلم أن زمن هذا الملك كان زمن محن لكن قام لحماية الوطن أحسن قيام ودفع صولة بجميع هؤلاء الأحزاب الذين كانوا دائماً يتوعدون مصر بالقدوم ويهددونها بالهجوم.

فإذا غادرنا هذا المكان ودخلنا من الباب المصنوع من حجر الجرانيت ألفينا حوشاً عظيماً معدوداً من أنفس الآثار المصرية قد أحيط من أربع جهاته بمشاية أو مجاز مستور بالنقش والكتابة الملونة اللطيفة وفي المجاز الشمالي والجنوبي أساطين عظمة لتيجانها شكل أكمام البشنين أما المجاز الشرقي والغربي فعمده مربعة كان يرتكز عليها تماثيل الملك المذكور وبهذا الحوش كثير من هشيم تلك العمد المطروحة على الأرض وحجرها رملي وبقى به إلى الآن ثلاثة أو أربعة عمد قائمة على أصلها والسبب في هذا الخراب هو أن النصارى حولوا هذا الحوش إلى كنيسة عند دخول الدين المسيحي بمصر أما الكتابة التي على المجاز فكثيرة جداً ولا يسعنا التكلم عن شيء منها في هذا

المختصر ويرى الإنسان على يساره وهو داخل صورة الحرب والكفاح ويجب على المتفرج أن يتعود على رؤية صورة الملك الهائلة فإنه مصور كأعظم ما يكون بالنسبة لغيره وهو راكب على عربته وقد إندفع بها بوسط الأعداء وهم يولون أمامه مدبرين وقال بعض العلماء أن هذه الأمة من أهل ليبيا وترى لوجوههم في آخر اللوحة سماجة أو بساطة يستغرب منها النظر ولا يستحسنه والأعداء تقع على بعضهم من شدة الوجل والخوف وعلى الحائط الجنوبي لوحة أخرى صور بها ضباط الجيش المصري وقواده يأتون بالأسارى إلى ملكهم المنصور وبجوارهم كتابة تذكر أن عددهم بلغ ألفاً والقتلى ثلاثة آلاف وبجوارها كتابة أخرى تذكر تفصيل الواقعة غير أنها تلفت لتقادم العهد عليها حتى محيت معالمها أما اللوحة الثالثة ففيها صورة الملك وهو محفوف بعساكره وعائد إلى مصر يتقدمه لفيف من الأسارى المقرنين في الأصفاد وترى باللوحة الرابعة صورته أيضاً وهو يقدم الأسارى إلى معبوداته بعد دخوله مدينة طيبة وهذه اللوحات الحربية تشغل جميع الجزء الأسفل من الجهة الشرقية والجنوبية وترى باللوحة الرابعة صورته أيضا وهو يقدم الأسارى الى معبوداند بعد دخوله مدينة طيبة وهذه اللوحات الحربية تشغل جمع والشمالية من الحوش المذكور أما الجزء الأعلى ففيه رسم وأشكال مهمة لا تنقص قيمتها عن قيمة الأربع لوحات السالفة الذكر وهي تستحق النظر وتكلم عليها شمبليون الشاب الفرنساوي أبو علماء الآثار وهاك نص عبارته. هذه الأشكال عبارة عن رمسيس الثالث وهو خارج من سرايته بمحمله المزين بأجمل زينة يحمله اثنا عشر ضابطاً وهو متحل بالحلية الملوكية وعليه أبهة كبار الملوك ورأسه مجملة بريش النعام قد جلس على تخت لطيف فوق المحمل وإستتر بأجنحة تماثيل من الذهب كانت عندهم رمزاً على الحق أو العدل وبجوار تخته صورة أبي الهول وهو رمز على العقل والقوة ثم صورة أسد للدلالة على القوة وشدة البأس وحول المحمل ضباط يحملون مراوح أو مظلات وحوله شبان من أولاد الكهنة يحملون قضيب ملكه وجفير قوسه وباقى علاماته الملوكية وحول الحمل تسعة من أمراء العائلة الملوكية وأكابر الدول الذين ترقوا من الطائفة الكهنوتية يمشون صفين ثم عساكر تحمل قاعدة المحمل والمدرج يحف الجميع فرقة من الجند وأمام الملك طائفة من رجال الدولة المختلفي الدرجات يمشون بإنتظام والمغنون أوالمرتلون أمام الموكب تتلوهم الموسيقى وبها المزمار والطبل والنفير ثم أهل الملك وأقاربه وفيهم كثير من الكهنة ثم ابنه البكري ثم قائد العسكر يمشي أمام الملك وينجره وبعد ذلك ترى الملك أتى إلى معبد هورروس ودنا من المحراب وسكب الخمر وحرق البخور ودخن واثنان وعشرون كاهناً يحملون تختروانا مزيناً وبه صنم المعبود يسير بين

المراوح والمظلات وأغصان الأزهار والملك يمشي على قدميه أمام التختروان وهو متوج تاج مصر السفلى فقط يتقدمه ثور أبيض وهو رمز على معبودهم أمون هوروس أو أمون رع وهو زوج أمه (أي زوج أم الملك على حسب إعتقادهم) وكاهن ينجر ذلك الثور وفي أعلى اللوحة صورة زوجة الملك مرسومة وهي شاخصة لهذا الإحتفال الديني وبمجرد ما يتجاوز صنم المعبود عتبة الهيكل يعلن أحد الكهنة بالأدعية الخاصة بذلك ويتقدم تسعة عشر كاهناً يحمون العلامات السرية وهي الأواني المقدسة وموائد القرابين وجميع أدوات العبادة ويمشي سبعة من الكهنة أمام الجميع يحملون على أكتافهم تماثيل صغيرة وهي صور الملوك السالفين أجداد الملك كأنهم يحضرون زفاف حفيدهم المنصور أه.

أما الأربعة طيور المرسومة هناك فهو أنهم كانوا يعتقدون أنها المردة أولاد أوزيريس المحامون عن الأربع جهات الأصلية (أي المشرق والمغرب والشمال والجنوب) وكانوا يقولون أن للكاهن الأعظم السيطرة عليهم وهو الذي يسرحهم إلى هذه الأربع جهات ليخبروا من بها من السكان أن رمسيس وضع على رأسه تاج الصعيد والبحيرة كالمعبود هوروس أما باقي الرسم فقال عنه شمبليون السالف الذكر أنه عبارة عن الملك قد تتوج بالعلامة المسماة بشنت وأخذ يتلو آية الشكر لمعبوده ومعه ضباط معيته وأمامه طائفة من القسس والموسيقى المقدسة ثم ترى بعد ذلك كأنه يحصد جرزة من القمح بمنجل من ذهب وعلى رأسه خودة الحرب كأنه خارج من سرايته ثم يستأذن في الرواح باراقة الخمر لدى معبوده أمون هوروس الذي دخل في محل قدسه وبجوار الملك الثور الأبيض وتماثيل أجداده قائمون على قواعدها وزوجته مصورة كأنها تشاهد جميع ما يفعله ثم كاهنين أحدهما يعزم ويزمزم والآخر يبتهل وهو يرتجل أه.

ثم نتوجه إلى الحائط الجنوبي من الخارج فنرى عليه صورة جدول به أسماء الأعياد التي كانت تقام في هذا المعبد وليس لذكرها فائدة هنا أما ما على الحائط الشمالي من الخارج فقد تطرقت له الأيام بالدمار لكنه في الأهمية بمكان حتى أن الزائرين يتخيلون أنهم في متحف مصري جليل يتركب من عشر لوحات مرتبة النظير لنظيره وعليها الوقائع الحربية التي حدثت في السنة التاسعة من حكم هذا الملك وكانت بينه وبين أهل ليبيا وأمة التكاري وهاك بيانها.

(اللوحة الأولى) بها سيرالجنود وترتيبهم وصورة الأسلحة المصرية التي كانت مستعملة عندهم في ذلك العصر.

(اللوحة الثانية) بها واقعة حربية هائلة كان النصر فيها للمصريين على أعدائهم أهل ليبيا الذين هم من نسل أمة تماهو وفيها الملك يقاتل بنفسه والقتلى أمامه لا تعد ولا تحصى.

(اللوحة الثالثة) بها المصريون قتلوا اثنى عشر ألفاً وخمسمائة وخمسة وثلاثين عدواً وقواد الجيش تقدم الأسارى إلى الملك.

(اللوحة الرابعة) بها الملك قام خطيباً بين ضباط عسكره يستفزهم على القتال والعسكر حاملة سلاحها متهيئة للمشي والهجوم على العدو وتفاصيل هذه اللوحة عجيبة فللمتفرج أن يمعن النظر فيها.

(اللوحة الخامسة) بها سير العساكر مرة ثانية وهي تمشي صفوفاً أما النص الذي عليها فمدح للملك ولعبودات.

(اللوحة السادسة) بها واقعة حربية ونصرة ثانية والأعداء المرسومون بها هم التكاري والملك يرميهم ويقلبهم فوق بعضهم و يهجم على معسكرهم فتفر منه النساء والأطفال على عربات تجرها الثيران.

(اللوحة السابعة) بها سير جديد وكأن الجنود المصرية إخترقت مسبعة أي أرض ذات سباع (لعلها إحدى الأراضي الواقعة على إحدى السلاسل الجبلية الخارجة من جبل لبنان) والملك إقتنص سبعاً وجرح آخر ولعل هذا المكان هو الذي قتل به الملك أمونوفيس الثالث المائة أسد وعشرة المذكورة على أحد الجعارين الموجود الآن بالمتحف المصري حيث يذكر به أنه قتل بيده مدة العشر سنين الأول من حكمه مائة أسد وعشرة.

(اللوحة الثامنة) هي اللوحة الوحيدة في جميع الآثار المصرية لأنه مرسوم عليها كيفية حرب البحر في تلك الأزمان وكانت الملحمة بالقرب من الساحل وفي مصب أحد الأنهار وترى أسطول التكارى إنضم إلى أسطول أمة الشرتنة وهجما على الأسطول المصري وحصل هيجاء غير واضحة البيان فيها غرقت سفينة من العدو فإنكسرت وصعد قاعها في الهواء أما رمسيس وعساكر الرماة فكانوا على الساحل يساجلون العدو ويرشقونه بالنبل والنشاب.

(اللوحة التاسعة) بها كأن الجنود عائدة إلى الأوطان ثم وقفوا عند حصن يدعى (رمسيس حق أن) وهناك يحصون القتلى بواسطة عد أيديهم التي قطعوها منهم في ميدان الحرب والاسارى تمشي صفوفاص أمام الملك وهو يخطب أمام أولاده وقواد جيشه. (اللوحة العاشرة) بها الملك

كأنه دخل مدينة طيبة وهو يرفع أيادي الشكر لمعبوداته التي منت عليه هذا النصر وبها خطاب منه لمعبوداته وخطاب منهم إليه ثم خطاب من الأسارى إليه وهم رافعون أكف الضراعة ويبتهلون له كي يرأف بهم ويطلق سراحهم لينشروا فضل شجاعته وشدة بأسه زمناً طويلًا بين الناس الذين لم يرونه.

فينتج مما ذكرناه أن هذا المعبد هو أحد الآثار المصرية المهمة جداً مع أننا لم نتكلم عليه إلا بوجه الإيجاز وإذا أردنا الوقوف على غرض الملك من بنائه لم نجد له تأويلًا إلا ما قلناه في معبد الرمسيوم ومن دقق النظر علم أن إنتخابه لهذا المكان وجعله معبداً على ساحل الصحراء بالقرب من المقابر لم يكن بلا سبب قد خفي علينا الآن والله أعلم بالغرض منه.

أما المقابر الموجودة بهذه الجهة فليس في رؤية أغلبها كبير فائدة بيد أننا لم نر بأساً من الإلماع بذكر أهم ما بها وأولها مقابر ذراع أبي النجا وهي الآبار المنبوشة والآكام المتراكمة فوق بعضها الواقعة عن يمين الإنسان متى كان في معبد القرنة وقصد معبد الرمسيوم وهي أقدم مقابر حفرت بمدينة طيبة لأن بعضها يصعد تاريخه إلى زمن العائلة الحادية عشرة والسابعة عشرة وأول الثامنة عشرة وقد سبق ذكر ذلك في الرحلة العلمية عند الكلام على مدينة طيبة ومن هذا المكان تحصلت مصلحة الآثار المصرية على المصاغ الثمين المنسوب للملكة عاحوتب وليس في رؤية هذه المقابر فائدة عظمى للزائرين.

فإذا جاوزنا هذا المكان إلى الجنوب وصلنا إلى مقابر العصاصيف وتنسب إلى العائلة التاسعة عشرة والثانية والعشرين والسادسة والعشرين وكان من عادة القوم في ذلك العهد أن يجعلوا موتاهم في حجرات بهذه المقابر أو في عمق متر فأكثر وليس لها آبار كذراع أبي النجا وسقارة وغيرهما ومن البديهي أن المتفرج لا يتيسر له مشاهدة جميع هذه الأماكن ما لم يكن معه خبير من أهل تلك الجهة أو رسم عام لأن كل كتاب ألفه علماء الآثار في وصفها لا يفيد غير مسائل عامة للأماكن المهمة ومن الباني لها وما كان غرضه بذلك وتفسير بعض النقوش والنصوص وغير ذلك من الأشياء التي لابد منها. أما مقابر برقونة مرعي ومقابر الشيخ عبد القرنة فواقعة بالقرب من هذا المكان وكلها من أيام العائلة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة الطيبية (راجع جدول العائلات صحيفة ٣٩) وجميعها منحوت في سفح الجبل وفي سيفه وأبوابها مفتوحة إلى كل ناحية من رآها من البعد ظن أنها حوانيت خربة معلقة في الجبل يعلو بعضها بعضاً بلا ترتيب تمتد إلى أمد

بعيد ولبعضها وضع خاص يبدو لعين الرائي أنها مزاغل جعلت في طوابي أو إستحكامات بالجبل أو أفواه بألسنة تطلب الرجة لساكنيها وتدعو على من يمسها بسوء فإذا دنا منها وجدها أروقة منحوتة يتصل بها قاعات جعلها لإجتماع أهل الميت وأقاربه في الأعياد ثم أبار تفضي إلى حجرات صغيرة تكون بها الأموات وقد سبق ذكر نظيرها عند الكلام على مقابر سقارة وفي الغالب يكون بها نقش وزينة أو كتابة تنبئ بما كان للميت من الخيرات والنعيم والعيشة الرغدة وهو مصور كأنه على قيد الحياة محاط بخدمه وحاشيته وحوله آلات الطرب وهو بين عائلته وتارة تراه قائماً على رأس عماله وهم يباشرون زراعة الأرض وغير ذلك ولنقتصر من هذا على مقبرة هوى بضم الهاء وكسر الواو ولو أن نقوشها أوشكت أن تزول لكثرة عبث الأيدي بها وكان هوى المذكور من رجال الدولة الثامنة عشرة وهو مرسوم بها ملقب بلقب أمير بلاد الكوش أي حكمدار السودان وتراه قائماً كأنه أتي لإستلام وظيفته وأمامه أفواج من الناس المختلفي الأجناس والألوان ولكل واحد سيمة وتقاطيع خاصة به قد أحضر بعضهم له زرافات وثيران ذوات قرون طويلة تنتهي بما يماثل راحة اليد وبعضهم يقدم له حلقات من الذهب وسبائك من النحاس ومن جلود الحيوانات المفترسة والمراوح ذوات الأيدي الطويلة وريش النعام وفي لوحة أخرى مرسوم كأنه عاد من مأموريته ببلاد الروتنو (بلاد الأسوريين أو الكلدان) وتمثل لدى الملك سيده الجالس على كرسيه ليقدم له وكلاء الأمم أو رسلهم وعليهم نحو مآزر زاهية اللون قد إلتحفوا بها جملة مرات فأغنتهم عن الثياب ومعهم عبيد أو موال عراة الأجسام ما لهم غير ستر ينزل خاصرتهم إلى دون سوأتهم بيض الوجوه المشربة بالحمرة ولهؤلاء القوم لحية مرسلة دقيقة من أسفلها وهم وقوف يقدمون إلى الملك هدايا منها الخيل والسباع وسبائك من المعادن النفيسة والأواني المصوغة من الذهب والفضة لها شكل غريب جدًا.

وفي هذه السنين الأخيرة إكتشفت مصلحة الآثار بواسطة الحفر على كثير من هذه المقابر المزينة بالرسم والكتابة الملوّنة الدالة على ما كان لمصر من الجاه والثروة منها مقبرة ركما رع وهي في الحسن غاية وفي البهجة آية منقوش على حيطانها صور رجال أتت من بلاد «پون» بلاد اليمن والحجاز كأنهم دخلوا مصر في موكب يعملون معهم برسم الجزية النسانيس والعاج وغير ذلك من نفائس بلادهم ثم صورة رجال أتت من سواحل الشام والبحر الرومي يحملون هدايا من محصول بلادهم ليقدموها إلى ركما رع المذكور فيقبضها منهم بإسم الملاك طوطوميس الثالث ملك ذلك العصر وفي الرواق الأخير صورة عمل الطوب وفتل الحبال وتطريق المعادن وتشييد

البناء وغير ذلك من الصنائع التي كانت جارية تحت مباشرة هذا الأمير وتراه وهو مسافر لمناظرة جميع هذه الأشغال في زورق «سفينة صغيرة» ثم جدول القرابين التي كانت تقدم له بعد موته وبذلك صار لهذه المقابر أهمية كلية غير أن أهل القرنة تسلطوا على بعضها فأخذوا من نقشها ورسمها ما شاء الله إقتلعوها من الجدر وباعوها للسائحين فصارت مشوهة بعد أن كانت تسر الناظرين فكأنها ما إنكشف حجابها إلا لتكون طعمة لهم ولذا إضطرت مصلحة الآثار أن تجعل على أغلبها أبوابًا من الحديد لتحفظ ما بقي بها وأناطت بحراستها الخفراء والحراس ورتبت لهم الرواتب.

فإذا عرفنا هذا عدنا إلى مقابر العصاصيف السالف ذكرها وصلنا إلى الغرب فترى هناك مقبرة كبيرة جدًا تعرف بإسم مقبرة پتامينوفيس وهي ظلام يسكنها الخفاش كباقي المغارات والكهوف الكبيرة المظلمة ولها رائحة كريهة نفاذة لما بها من خرئه ورجيعه حتى إن الإنسان الذي لم يتعود على شم مثل هذه الرائحة لا يستطيع الدخول فيها ويظهر من حالتها أنها إحترقت في الأزمان السالفة وبالقرب منها باب معقود بالآجر «الطوب الأحمر» وله وضع غريب سيما عقد القبة التي عليه بيد أن أهل القرنة عبثت بهما فأتلفوهما وحوّلوا ما بهم من الأحجار الأثرية إلى جير وباعوا كل ما إستحسنوه إلى تجار الأنتيكة بالأقصر أو الإفرنج الذين يأتون في كل سنة لزيارة الآثار بالصعيد وقال مارييت باشا إن هذا المكان إعتراه من الدمار في هذه الأيام الأخيرة ما لم يعتره مدة ثلاثة آلاف سنة وبذلك صار مهملًا لا يمكن وصفه لأنه تحول إلى أطلال بالية وأقدم قبر بني في هذه البقعة كان في أيام العائلة السادسة والعشرين وأحدثها كان في أول دولة البطالمة.

الفصل الرابع والثلاثون

في أقدمية القلم المصري وإشتقاق جميع الأقلام منه وتاريخ الخط العربي وفائدته وترتيب الدواوين

قد أكثر العلماء قديمًا وحديثًا من البحث عن أقدمية الأقلام وهل إشتقت من بعضها أم تواردت بها الأفكار عند جميع الأمم القديمة وقال صاحب العقد الفريد في الجزء الثاني روي عن أبي ذر عن النبي ﷺ أن إدريس أول من خط بالقلم بعد آدم عليهما السلام اهـ وقال بعض المؤرخين إن أصل جميع الأقلام هو القلم الفينيقي أي السوري الآن قدموس السوري هو أول من أدخل الكتابة عند قدماء اليونان وقال آخرون بل الذي أدخلها عندهم هو بلاميد السوري وعلى كل حال من أين أتى لأهل سور هذه الأحرف وهل هي من معقولهم أم من منقولهم فإن قالوا من معقولهم كلفناهم بالدليل وإن قالوا من منقولهم قلنا من أين ومتى وخلاصة القول أن حقيقة هذا البحث لم تزل مستورة بحجاب الخفاء وفيها طال جدال العلماء وتشعبت أقوالهم وتضاربت آراؤهم وتفرقت مذاهبهم وتعارضت فيها الأدلة فسقط المعلول بسقوط العلة حتى إن بروكش باشا أنكر كلية وجود قدموس قائلًا إن هذا الإسم لم يكن له مسمى قط من بني آدم وقال إنه لا يعلم لهذا الآن من أدخل الأحرف الأبجدية في بلاد اليونان أما لفظة قدموس فأتت من لفظة قم التي هي علم على بلاد المشرق أي مصر وملحقاتها ولما حصلت المخالطة بين بلاد المشرق واليونان إنتقلت اليوم الأحرف الأبجدية فتعلموها وصاحوا قائلين قد أتى قوالينا وأدخل عندنا أحرف الكتابة يريدون بهذا الإسم منفعة بلاد المشرق لا المشرق نفسه فيكون من باب إطلاق المحل وارادة الحال فيه وهي الكتابة أو المنفعة ثم بتوالي الأيام حرفوه ثانيًا وأضافوا له حرف السين جريًا على عادتهم فصارت قموس ثم أبدلوا أحد المتجانسين بحرف الدال تسهيلًا للنطق وقالوا قدموس أدخل عندنا أحرف الكتابة والمراد بذلك بلاد المشرق وهي مصر وملحقاتها أما بعض متأخري الإفرنج فقد إتفق على أن المصريين هم أول من خط بالقلم بدليل ما وجد من النقوش البربائية مدة العائلة الرابعة أي زمن بناء الأهرام بل ومن قبلها حيث كانت جميع الأمم غارقة في بحر الجهالة هائمة في أودية الخشونة ولم يكن لسوريا ولا لغيرهم من البلاد إسم يذكر ولا خبر يؤثر وبقى القلم محصورًا في القطر المصري مستعملًا بين الكهنة وغيرهم إلى

آخر العائلة الرابعة عشرة أي إلى زمن الخليل إبراهيم عليه السلام. وقد قالت الكهنة إنهم تعلموه من هرمس أي إدريس عليه السلام وهو مطابق للحديث الشريف «راجع الباب الماضي وما قالوه في هرمس» و بق المصريون منفردين مدة ألف وثمانمائة سنة أعني إلى مدة إغارة الرعاة عليها وكانوا أخلاطًا من همج الناس كما علمت فتعلموا الكتابة وإختارت طائفة منهم الأحرف الأبجدية فقط أخذوها من القلم الدارج المصري وتركوا جميع صور المقاطع الصوتية لصعوبتها في الرسم ولما أجلاهم المصريون عنها سكنت طائفة منهم بلاد فينقيا فعلموها لمن كان بها قبلهم بعد ما نقحوها على حسب ما تقتضيه لغتهم والدليل على ذلك شدّة المشابهة بين الطريقتين أي بين القلم الدارج المصري والقلم الفينيقي أو السوري القديم كما ستراه مبينًا في جدول الأحرف الآتي وبتداولها في تلك البلاد إنتقلت إلى باقي الكنعانيين فهذبوها حسب لغتهم بالإضافة أو الحذف والتغيير في بعض الأحرف بدليل شدّة المشابهة بين الطريقتين أيّضا وإشتق منها الخط الإيرامي والتدمري «نسبة إلى مدينة تدمر» ثم الخط العبري ولما كان السوريون أو الصيداويون أصحاب تجارة واسعة يوالون السفر و يترددون على جميع البلاد والممالك ولهم في جميعها مراكز تجارية عظيمة إحتاجوا لإستخدام عمال من كل جنس لضبط تجارتهم وإدارة الأعمال فإضطروا رغمًا عنهم لتعليمها فإنتقلت بواسطتهم إلى جميع الآفاق ونقحها كل أمة حسب ما تقتضيه لغتها حتى صارت الكتابة عامة في جميع الممالك المعروفة قديمًا أعني أنها إنتشرت ما بين بلاد الهند والمغول إلى بلاد فرنسا وإسبانيا «الأندلس» وهذا القول هو المعتمد عند علماء الآثار الآن والذي سجلهم على الأذهان إليه والقول به عدم وجودهم خطًا قديمًا في غير مصر قبل دخول عرب العمالقة بها.

أما أصل الخط العربي وبالأخص الكوفي فقد إشتق من القلم البربائي نفسه بدون واسطة الكنعانيين أو الفينيقيين وقد زادوا فيه ما يلزم وحذفوا منه ما يستغنى عنه وعن إبن عباس رضي الله تعالى عنه أن أول من وضع الكتابة العربية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أقول وهذا مطابق لأول حكم العمالقة بمصر سيما وأنه كان لأهل آسيا مواصلة معهم خصوصًا بلاد العرب و عن عمر بن شبة بأسانيده أن أول من وضع الخط العربي أبجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت وهم قوم من الجبلة الآخرة وكانوا نزولًا مع عدنان بن أدد وهم من طسم وجديس وأنهم وضعوا الأحرف على أسمائهم فلما وجدوا حروفًا في الألفاظ لست في أسمائهم ألحقوها بهم وسموها الروادف وهي الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين وفي القاموس في حرف بجد وأبجد

إلى قرشت وكلمن رئيسهم ملوك مدين ووضعوا الكتابة العربية على عدد حروف أسمائهم هلكوا يوم الظلة[1] فقالت إبنة كلمن

كلمـــــــن هـــــــدم ركنـــــــي	هلكـــــــه وســـــــط المحلـــــــه
ســـــــيد القـــــــوم أتاه الـــــــ	حتـــــــف نارًا وســـــــط ظلـــــــه
جعلـــــــت نارًا علـــــــيهم	دارهـــــــم كالمضـــــــمحلة
ثم وجـــــــدوا بعـــــــدهم ثخـــــــذ	ضـــــــظغ فســـــــموها بالـــــــروادف اهـــــــ

أقول والذي يظهر لي أن هذا القول مشكوك في صحته بمعنى أنه لم يكن هناك رجال من طسم وجديس إسمهم أبجد وهوز وحطى وكلمن إلخ وصنعوا هذه الأحرف العربية جمعوها من أسمائهم وسوف نأتي بالدليل بعد مقارنة الأحرف ببعضها في الجدول الآتي أعني في آخر هذا الباب وغاية ما يقال إن الواضع لها قوم من حمير أو ممن كان قبلهم ببلاد اليمن أو عرب العمالقة نفسهم حينما كانوا بأرض مصر نقلوها من القلم البربائي وإستعملوها في بلاد اليمن قبل إنتشارها في باقي الممالك بمدة طويلة بدليل قوله تعالى حكاية عن بلقيس ملكة سبا ببلاد اليمن «قالت يا أيها الملأ أني ألقى إليّ كتاب كريم» أي مختوم وهذا يوافق آخر الدولة المتممة للعشرين وكان الخط إذ ذاك حميريًا وهو المعروف بالمسند وقال بعضهم إن الخط كان حميريًا وإنتقل من اليمن إلى الأنبار والحيرة «ببلاد العراق» فتكوّف أي صار كوفيًا ومن الحيرة إنتقل إلى أهل الطائف وقريش والذي تعلمه من أهل الأنبار هو حرب إبن أمية بن أخت أبي سفيان ثم تعلمه منه جماعة من أهل مكة ثم جاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنسانًا منهم علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وطلحة بن عبدالله وكانت خطوطهم بدوية غير مستحكمة الجودة لكنها كانت حسنة بقدر بداوة البلاد.

وبقى الخط العربي الكوفي مستعملًا مدة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ثم مدة الأمويين وتعرب في آخر أيام العباسيين وأخذ في التحسين شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى الدرجة التي هو عليها الآن وذلك إنه لما فتحت العرب فتوحاتها العظيمة وملكوا المال ونزلوا البصرة والكوفة وتدوّنت الدواوين للأموال والرسائل إحتاجوا لإستعمال الخط ثم إنتشرت العرب في الأقطار

[1] وقوله الظلة وعذاب يوم الطلة فالراغيم تحته سموم أو سحابة أظلتهم فإجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من الحر فأطبقت عليهم اه قاموس.

والممالك وإفتتحوا إفريقا والأندلس وإختط بنو العباس بغداد فترقت الخطوط بتقدم الحضارة وطما بحر العمران في الدول الإسلامية وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وإنتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملوكية وتنافس أهل الأقطار في ذلك ثم جاء الوزير الكاتب إبن مقلة فنقله من الكوفي إلى العربي وضبطه وكان خطه في الحسن غاية وفي الإتقان آية وفيه يقول الوزير الفقيه أبو عبيدالله البكري

خـــط إبـــن مقلـــة مـــن أرعـــاه مقلتـــه ودت جوارحـــه لـــو أصـــبحت مقـــلا

فالـــدر يصـــفر لإستحســـانه حســـدًا والـــورد يحمـــر مـــن إبداعـــه خجـــلًا

ثم تلاه أبو علي الحسن بن هلال المعروف بإبن البواب فزاد في تعريب الخط ثم تلاه ياقوت المستعصي فأكمله وجعل لقوانينه ضابطًا فقال:

أصـــول وتركيـــب كـــراس ونســـبة صـــعود وتشـــمير نـــزول وإرمـــال

ثم جاء من بعدهم حلبة أخرى ولكن لم تزد فيه شيئًا غير التحسين كالشيخ حمدالله والحافظ عثمان وبذلك صار الخط صنعة من جملة الصنائع وصار للحروف قوانين في وضعها وأشكالها معروفة بين الخطاطين.

وفضل الخط أكبر من أن يحصيه لسان أو يحصره إنسان لأنه من أشرف الصنائع وهو أجل ما تميز به الإنسان عن الحيوان وهو إنسان عين العبادات والمعاملات وتذكار الماضي والآن فالقلم لا ينطق ولكن يسمع المغرب والشرق وقالوا إنه أحد اللسانين بل القلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عنه ولولاه ما تدونت دواوين ولا تمصرت أمصار ولا أقيمت أحكام ولا عرف العدل وأصحاب الأقلام هم الأئمة الأعلام وقال الحريري في القلم

ومـــأموم بـــه عـــرف الإمـــام كمـــا باهـــت بصـــحبته الكـــرام

ويكفيه شرفًا قوله تعالى «ن والقلم وما يسطرون» وقوله تعالى «الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم» ويكفي الكتاب شرفًا أن عليًا كرم الله وجهه كان كاتبًا للوحي ثم صار خليفة ومروان كان كاتبًا لعثمان رضي الله تعالى عنه ثم صار أيضًا خليفة ولله درابن نباتة إذ شفى الغليل وأوضح السبيل حيث قال الحمد لله الذي علم بالقلم وشرفه بالقسم وخط به ما قدّر ورسم إلى أن قال فإن القلم منار الدين والدنيا ونظام الشرف والعليا ومفتاح باب اليمن المجرّب وسفير الملك المحجب فإن نظمت فرائد العلوم فإنما هو سلكها وإن علت أسرة الكتب فإنما هو ملكها

وإن إجتمعت رعايا الصنائع فإنما هو إمامها المتلفع بسواده وإن زخرت دار الأفكار فإنما هو المستخرج دررها من ظلمات مداده المنفق في تعمير الدول محصول أنفاسه المتحمل أمورها على عينه ورأسه المتيقظ لجهاد الأعداء والسيف في جفنه نائم المجهز لبأسها وكرمها جيشي الحروب والمكارم الجاري بما أمر الله من العدل والإحسان فكأنما هو لعين الدهر إنسان وطالما قاتل على البعد والسيف في القرب وأوتي من معجزات النبوّة نوعًا من النصر بالرعب وبعث جحافل السطور فالقسي دالات والرماح ألفات واللامات لامات والهمزات كواسر الطير التي تتبع الجحافل والأتربة عجاجها المحمر من دم الكلى والمفاصل فهو صاحب العلم والعلم وساحب ذيل الفخار في الحرب والسلم إلى آخر ما قال راجعه في كتاب خزانة الأدب في ذكر التغاير وقال بعضهم يمدح كاتبًا

إن هـــز أقلامـــه يومًـــا ليعملهـــا أنســـاك كـــل كمـــي هـــز عاملـــه
وإن أقـــر علـــى رق أناملـــه أقـــر بالـــرق كتـــاب الأنام لـــه

ويكفي الكاتب مدحًا ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه من خط وخاط وفرس وعام فذاكم الغلام ورأيت في بعض كتب الأدب أن رجلًا قال لجماعة الجاهل بالخط نصف إنسان ومن لم يعرف العوم نصف إنسان والأعور نصف إنسان وكان بالمجلس رجل توفر فيه جميع ذلك فقال إذا يلزم لي نصف إنسان حتى أكون معدومًا من الدنيا يعني بذلك أنه صار بهذه العيوب في القوة السالبة أي تحت الصفر ناقص نصف إنسان فإذا تحصل عليه صار صفرًا أي معدومًا من بين الناس وقال المأمون لأبي العلا المنقري بلغني أنك أميّ وأنك لا تقيم الشعر وأنك تلحن في كلامك فقال يا أمير المؤمنين أما اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان النبي ﷺ أميًا وكان لا ينشئ الشعر فقال له المأمون سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعًا وهو الجهل أما علمت يا جاهل أن ذلك في النبي ﷺ فضيلة وفيك وفي أمثالك نقيصة اهـ أقول وقول المأمون إن ذلك في النبي إلخ يشير إلى أنه لو كان ﷺ يعرف القراءة والكتابة لصار متهمًا في أنه ربما طالع كتب الأولين وعرف ما بها من العلوم فلا أنزل عليه القرآن الشريف المشتمل على كثير من العلوم وتلاه على قومه وهو أمي كان ذلك من المعجزات الباهرة وهذا هو المراد من قوله تعالى «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لإرتاب المبطلون».

ونظر جعفر بن مُحَمَّد إلى فتى على ثيابه أثر المداد وهو يستره فقال له:

لا تجـــزعن مـــن المـــداد فإنـــه عطـــر الرجـــال وحليـــة الكتـــاب

وقال المؤيد كتاب الملوك عيونهم وآذانهم الواعية وألسنتهم الناطقة والكتابة أشرف مراتب الدنيا بعد الخلافة وهي صناعة جليلة تحتاج إلى آلات كثيرة اهـ.

وأول من حوّل الحساب من الرومية إلى العربية هو عبدالملك بن مروان الأموي وسبب ذلك أن سرجون بن منصور الرومي كان كاتبًا لمعاوية ثم ليزيد إبنه ثم مروان بن الحكم ثم لإبنه عبدالملك إلى أن أمره عبدالملك بأمر فتوانى فيه ورأى منه عبدالملك بعض التفريط فقال لسليمان بن سعد كاتبه على الرسائل أن سرجون يدل علينا ببضاعته وأظن أنه رأى ضرورتنا إليه في حسابه فما عندك فيه حيلة فقال بلى وشئت لحوّلت الحساب من الرومية إلى العربية قال إفعل قال أنظرني أعاني ذلك قال لك نظرة ما شئت فحوّل الديوان فولاه عبدالملك جميع ذلك ومن ثم تسابقت أرباب الأقلام في ضبط قواعد الكتابة والحساب وترتيب الدفاتر وتجاروا في ميادين الإنشاء وبوبوا الأبواب وإنقسمت أقلام الإدارة والجباية وهي المالية وتنافسوا في وضع أحسن الطرق وأسهلها فضبطت أموال المملكة بوجه أدق وأرقى ومسحت الأراضي وإرتبطت الضريبة أو الخراج وبذلك إنتظم حال الملك وأول من دون الدواوين هو عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ولفظة ديوان كلمة فارسية أصلها دوان ومعناها شياطين جمع دو بمعنى شيطان ولفظة آن علامة الجمع بالفارسية كلفظة مبتديان جمع مبتدى و ياوران جمع ياور ومعناه المغيث أو المساعد وكلفظة ضابطان جمع ضابط وغير ذلك والسبب في هذه التسمية أن كسرى ملك العجم أمر كتابه بعمل شاق وضرب لهم أجلا فدخل عليهم ذات يوم فرآهم في حركة ونشاط وقد أنجزوا ما أمروا به فقال وهو متعجب من مهارتهم دوان بفتح الدال أي يا شياطين أو إنكم شياطين فصار هذا الإسم من وقتها علمًا على كتبته ثم بتمادي الأيام صار علمًا عليهم وعلى مكانهم ثم صار بعد ذلك علمًا على مكان الإدارة والإحكام لأن فيه الكتبة ثم إستعمل عند العرب وإتسع به نطاق الإنشاء وتفننوا في ضروبها ووضعوا لكل شيء قانونًا حتى برى الأقلام وإنتخاب نوعها والمداد ونوعه والقرطاس وجنسه أما الكتبة وإنتخابهم فكانوا يفضلون كل مربوع القامة طويل الأنف كث اللحية قصيرها أي غزير شعرها وما مدحوا الكتبة في أشعارهم ونثرهم إلا بهذه الحلية ولا ذمّوهم وهجوهم إلا بضدها فمن ذلك قول بعضهم يمدح كاتبًا

لحيـــة كثـــة وأنـــف طويـــل وإتقـــاد كشـــعلة المصـــباح

والفضل في ذلك لعبدالحميد الكاتب أيام مروان الجعدي المنبوز بالحمار آخر خلفاء بني

أمية وما جاءت الدولة العباسية إلا وكان فنّ الكتابة والحساب بحرًا زاخرًا وكان للعلماء مشاركة فيهما فقد قيل إن أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس غضب على أبي حنيفة النعمان رضي الله تعالى عنه لإمتناعه عن قبول القضاء وأراد عقابه على ذلك فأمره أن يعد كل يوم ما يصنعه الفعلة من اللبن والآجر «أي الطوب الأحمر والني» قبل دخولها في بناء مدينة بغداد فإمتثل لذلك وأمر رحمه الله العمال أن يرصوا له في آخر كل يوم ما يصنعونه ثم يأتي قبيل المساء ويقيسه ويمسحه فيعرف مكعبه ومقدار ما به من اللبن أو الآجر ومن ذلك يظهر أنه كان إمامًا في الهندسة كما كان إمامًا في الفقه والتوحيد ويا حبذا لو إقتدت علماؤنا بهذا الإمام في ذلك ومما قيل فيه رحمه الله تعالى:

أيا جبلـــــي نعمــــــان إن حصـــــاكما لتحصـــى ومـــا تحصـــى دقـــائق نعمـــان
مســـائل كتـــب الفقـــه طـــالع تجـــدبها حقـــائق نعمـــان شـــــقائق نعمـــــان

ثم إبتذل حجاب تلك العلوم فصارت شائعة بين جميع الناس حتى السوقة سيما أيام المأمون إبن هارون الرشيد فمن ذلك ما حكاه إبن عبدربه صاحب العقد الفريد قال أبو جعفر البغدادي حدثني عثمان بن سعيد قال لما رجع المعتصم من الثغر وصار بناحية الرقة قال لعمرو بن مسعدة مازلت تسألني في الرحجى حتى وليته الأهواز فقعد في سرة الدنيا(١) يأكلها خضمًا(٢) وقضمًا(٣) ولم يوجه إلينا درهم واحد أخرج إليه من ساعتك فقلت في نفسي أبعد الوزارة أصير مستحثًا على عامل خراج ولكن لم أجد بدًا من طاعة أمير المؤمنين فقلت أخرج إليه أمير المؤمنين فقال إحلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يومًا واحدًا فخلفت له ثم إنحدرت إلى بغداد فأمرت ففرش لي زلالي(٤) بالطبري(٥) وحشى بالثلج وطرح عليه الكر(٦) ثم خرجت فلما صرت بين دير هرقل ودير العاقول إذا رجل يصيح يا ملاح رجل منقطع فقلت للملاح قرب إلى الشط فقال يا سيدي هذا شحاذ فإن قعد معك آذاك فلم ألتفت إلى قوله وأمرت الغلمان فأدخلوه فقعد في كوثل

---

(١) قوله في سرة الدنيا أي في أعمر مكان منها.

(٢) الخضم الأكل مطلقًا أو بأقصى الأضراس أو ملء الفم بالمأكول أو خاص بالشيء الرطب كالقناء.

(٣) القضم الأكل بأطراف أسنانه أو أكل اليابس «كأنه يقول يأكل كيف شاء».

(٤) قوله زلالي جمع زليه وهي البساط و يفرش أي يبطن.

(٥) الطبري قماش ضيق النسيج منسوب إلى طبريه.

(٦) الكر أي مكان أو حوض يجعل فيه الماء ليصفو والمعنى أنه ملأ البسط بالثلج وجعل فوقها حوضًا ليصفو ماؤه ويبرد.

الزورق[١] فلما حضر وقت الغداء عزمت أن أدعوه إلى طعامي فدعوته فجعل يأكل أكل جائع بتهامة[٢] إلا أنه نظيف الأكل فلما رفع الطعام أردت أن يستعمل معي ما يستعمل العوام مع الخواص أن يقوم فيغسل يده في ناحية فلم يفعل فغمزه الغلمان فلم يقم فتشاغلت عنه ثم قلت يا هذا ما صناعتك قال حائك الكلام[٣] فقلت في نفسي هذه شر من الأولى فقال لي جعلت فداك قد سألتني عن صناعتي فأخبرتك فما صناعتك أنت قال فقلت في نفسي هذه أعظم من الأولى وكرهت أن أذكر له الوزارة فقلت أقتصر له على الكتابة فقلت كاتب قال جعلت فداك الكتاب على خمسة أصناف فكاتب

رسائل يحتاج أن يعرف الفصل من الوصل والصدور والتهاني والتعازي والترغيب والترهيب والمقصور والممدود وجملًا من العربية وكاتب خراج يحتاج أن يعرف الزرع والمساحة والأشول[٤] والدسوق[٥] والتقسيط والحساب وكاتب جند يحتاج أن يعرف حساب التقدير وشيات[٦] الدواب وحلي الناس وكاتب قاض يحتاج أن يكون عالمًا بالشروط والأحكام والفروع والناسخ والمنسوخ والحلال والحرام والمواريث وكاتب شرطة يحتاج أن يكون عالمًا بالجروح والقصاص والعقول[٧] والديات فأيهم أنت أعزك الله قال قلت كاتب رسائل قال فأخبرني إذا كان لك صديق تكتب إليه في المحبوب والمكروه وجميع الأسباب وكان له أم فتزوجت فكيف تكتب له أتهنيه أم تعزيه قلت والله ما أقف على ما تقول قال فلست بكاتب رسائل فأيهم أنت قلت كاتب خراج قال فما تقول أصلحك الله وقد ولاك السلطان عملًا فبثثت[٨] عمالك فيه فجاءك قوم يتظلمون من بعض عمالك فأردت أن تنظر في أمورهم وتنصفهم إذ كنت تحب العدل

---

[١] قوله كوثل الزورق أي مؤخر الزورق أي سفينة صغيرة وهو القارب عندنا الآن.

[٢] قوله بتهامة أي بشراهة.

[٣] قوله حائك الكلام أي منشؤد والحائك هو النساج الذي ينسج القماش.

[٤] قوله الأشول جمع أشل على وزن أصل مقدار من الزرع أي مقياس والأشول الحبال التي يقاس بها.

[٥] قوله الدسوق جمع دسق وهو الحوض المملوء بالماء يستعمل في حساب المكعبات.

[٦] شيات جمع شية وهي العلامة ومنه قوله تعالى لا شية فيها.

[٧] قوله العقول جمع عقل وهي الدية.

[٨] قوله بثثت عمالك أي فرقهم ونشرتهم في الجهات.

والسير وتوثر حسن الأحدوثة وطيب الذكر وكان لأحدهم قراح[١] قاتل[٢] فئيا[٣] كيف كنت تمسحه قال كنت أضرب العطوف[٤] في العمود[٥] وأنظر كم مقدار ذلك.

قال إذا تظلم الرجل قلت: فأمسح العمود على حدته[٦] قال إذا تظلم السلطان قلت والله ما أدري .. قال فلست بكاتب خراج فأيهم أنت قلت كاتب جند قال فما تقول في رجلين إسم كل واحد منهما أحمد أحدهما مقطوع الشفة العليا والآخر مقطوع الشفة السفلى كيف كنت تكتب حليتهما فقلت كنت أكتب أحمد الأعلم وأحمد الأعلم[٧] قال كيف يكون هذا ورزق هذا مئتا درهم ورزق ذاك ألف درهم فيقبض هذا على دعوة هذا فتظلم صاحب الألف قلت والله ما أدري قال فلست بكاتب جند فأيهم أنت قلت كاتب قاض فقال فما تقول أصلحك الله في رجل توفي وخلف زوجة وسرية و كان للزوجة بنت وللسرية إبن فلما كان في تلك الليلة أخذت الحرة إبن السرية فأدّعته وجعلت إبنتها مكانه فتنازعتا فيه فقالت هذه إبني وقالت هذه إبني كيف كنت تحكم بينهما وأنت خليفة القاضي قلت والله ما أدري قال فلست بكاتب قاض فأيهم أنت فقلت كاتب شرطة قال فما تقول في رجل وثب على رجل فشجه شجة موضحة[٨] فوثب عليه المشجوج فشجه شجة مأمومة [٩] قلت ما أعلم ثم قلت أصلحك الله ففسر لي ما ذكرت «قال» أما الذي تزوجت أمه فتكتب إليه أما بعد فإن أحكام الله تجري بغير محاب المخلوقين

---

[١] قوله قراح أي أرض معدة للزرع والغرس.

[٢] قوله قاتل أي داخل.

[٣] قوله فئيا الفأو أرض طيبة تطيف به الجبال «أي أرض مراح» كأنه يقول رجل له أرض صالحة للزرع متداخلة في أرض السلطان.

[٤] العطوف أي القاعدة أو ريح الأرض والعطوف الدواخل المنعطفة.

[٥] العمود أي الإرتفاع أو الريح الثاني للأرض كأنه يقول إضرب القاعدة في الريح والمعنى أنه إذا ضرب القاعدة في الإرتفاع يكون ظلمًا على صاحب الأرض لأن القاعدة بها عطوف ومنحنيات فتزيد المساحة عن أصلها مع أن الحدود ثابتة فيضطر صاحبها أن يدفع إلى السلطان قيمة ما زاد في المساحة.

[٦] قوله إمسح العمود على حدته أي بفرض أن الأرض الداخلة في أرض السلطان لها قواعد وأرياح مركبة من خطوط مستقيمة فيأخذ مساحة العمود الذي فرض أن قاعدته خط مستقيم وبذلك تنعدم المنحنيات وتسقط من المساحة فيكون في ذلك ظلم على السلطان.

[٧] الأعلم هو المشقوق الشفة العليا.

[٨] شجة موضحة أي جرحه في رأسه جرحًا أوضح العظم أي أظهره.

[٩] شجة مأمومة أي بلغت أم رأسه.

والله يختار للعباد فخار الله لك في قبضها إليه فإن القبر أكرم لها والسلام وأما القراح فتضرب واحدًا في مساحة العطوف[1] فمن ثم بابه وأما أحمد وأحمد فتكتب حلية المقطوع الشفة العليا أحمد الأعلم والمقطوع الشفة السفلى أحمد الأشرم وأما المرأتان فيوزن لبن هذه ولبن هذه فأيهما كان أخف فهي صاحبة البنت وأما صاحب الشجة فإن في الموضحة خمسًا من الإبل وفي المأمومة ثلاثًا وثلاثين وثلثًا فيرد لصاحب المأمومة ثمانية وعشرين وثلثًا «قلت» أصلحك الله فما نزع بك إلى هنا قال إبن عم لي كان عاملًا على ناحية فخرجت إليه فألفيته معزولًا فقطع بي فأنا خارج أضطرب في المعاش قلت ألست ذكرت أنك حائك قال أنا أحوك الكلام ولست بحائك الثياب قال فدعوت المزين فأخذ من شعره وأدخل الحمام فطرحت عليه شيء من ثيابي فلما صرت إلى الأهواز كلمت الرحجى فأعطاه خمسة آلاف درهم ورجع معي فلما صرت إلى أمير المؤمنين قال ما كان من خبراء في طريقك فأخبرته خبري حتى حدثته حديث الرجل فقال هذا لا يستغنى عنه فلاي شيء يصلح قلت هذا أعلم الناس بالمساحة والهندسة قال فولاه أمير المؤمنين البناء والمرمه فكنت والله ألقاه في الموكب النبيل فينحط عن دابته فأحلف عليه فيقول سبحان الله إنما هذه نعمتك وبك أفدتها ومن ذلك نعلم ما كان لعلماء ذلك العصر من القدم الراسخ في ضروب الإنشاء والتحريرات وأخذ المسائح والإحاطة بدقائق اللغة العربية وعلم الطب فضلًا عن علم الفقه والأحكام الشرعية مع فقرهم وإحتياجهم إلى القوت وما ذلك إلا لكثرتهم وإبتذال العلوم بينهم ويا ليت شعري ماذا كان يقترح هذا الفقير من المسائل على الوزير لو كان قال له إني نحوي أو فلكي أو مؤرخ أو نساب أو موسيقي أو جغرافي أو مفسر أو راو للحديث أو غير ذلك ولنرجع إلى ما كنا فيه من إشتقاق جميع الأقلام من القلم البربائي ونبين كيف وصلت هذه الأقلام إلينا وإلى غيرنا من باقي الأمم على إختلاف أنواعهم وتباين أوضاع خطوطهم فنقول

قال بعض علماء الآثار إن المصريين هم أول من خط بالقلم وكانت خطوطهم في أول أمرهم عبارة عن صور الأشياء نفسها مجردة عن الأحرف وكان كل إنسان ينطق بها حسب ما يريد كما أننا لو أردنا أن نبين للناس أن جنديًا يشرب خمرًا ففي هذه الحالة يلزمنا أن نرسم رجلًا يحمل سلاحًا وبيده كاس وأمامه زجاجة فكل من رأى ذلك علم بداهة أنه جندي يشرب خمرًا

[1] قوله تضرب واحدًا في مساحة العطوف أي تأخذ متوسط العطوف أي تحوّلها إلى خطوط مستقيمة وكأن الأصوب أن يقول له تقسمها إلى أشكال هندسية وتمسح كل شكل على حدته ثم تجمعها على بعضها فيكون الناتج عبارة عن مساحة الأرض.

ويمكنه أن يعبر عن هذا المعنى بأي عبارة أراد كأن يقول هذا جندي يشرب خمرًا أو هذا مقاتل يجتلي بنت الكرم أو بنت العنب أو هذا عسكري يتعاطى الراح أو هذا مجاهد يرتشف الصهباء أو هذا حربي يحسو القرقف أو الخندريس أو غير ذلك مع أن الرسم واحد لم يتغير وهذا يقرب مما هو مستعمل الآن في بلادنا فإننا نرى على أبواب بعض المنازل صورة مساجد ورجال وخيل وإبل منها ما على ظهره ذخائر ومنها ما على ظهره هوادج أو صورة المحمل الشريف أو الوابور وخلفه العربات أو البحار وفيها السفن أو صورة وحوش وكل ذلك إشارة إلى أن صاحب هذا المنزل قد حج كأنه يقول إني خرجت من بلدي مع قافلة الحجاج وذهبت بالوابور أو بالسفينة في البحر وقطعت فيافي وجبالًا بها وحوش ووصلت إلى مكة وطفت بالبيت الحرام ومن المعلوم أن كل من رأى هذا الرسم يعلم أن صاحب هذا المنزل قد حج ويمكنه أن يعبر عن ذلك بأي عبارة أراد كأن يقول إن صاحب هذا المنزل قد حج إلى بيت الله الحرام أو يقول إن رب هذه الدار قد قضى الفريضة أو يقول إن الساكن في هذا البيت قد وجه إلى مكة المكرمة وأدى ما عليه أو يقول غير ذلك وفي القرن السابع عشر من الميلاد وجد بعض الناس في خان بمدينة باريس قرطاسًا من الورق به صورة منزل قد رسم على جداره صورة تركي له لحية كثة حمراء طويلة وبازائه رجلان أحدهما راكب والآخر راجل وكأن الشمس قد أثرت في لحاهما وكل ذلك إشارة إلى أن هذا المنزل عبارة عن خان ينزله الأغراب والمسافرون.

وهذا يقرب من كتابة المتوحشين من قدماء أمريكا فإنها كانت رسومًا خالية عن الحروف فكانوا يرسمون ما يتعلق بشأن أهل الجبال باللون الأحمر وما يتعلق بسكان الحضر باللون الأبيض وكانوا إذا أرادوا الأخبار عن رحيل قوم من مكان إلى آخر رسموا على الأحجار صور رجال وكأن معهم خيامهم وركائبهم وإذا كان مبدأ الإرتحال من شاطئ بحيرة أو بركة مثلًا رسموها ورسموا بجانبها أقدام المرتحلين وحوافر ركائبهم وخيامهم فكل من رأى هذه الصور علم أنه كان في هذا المكان قوم وإرتحلوا بخيامهم وركائبهم ويمكن أن يؤدي هذا المعنى بأي عبارة أراد ولا شك أن هذه الطريقة كانت مبدأ إختراع الكتابة عند المصريين مع أننا لم نقف على شيء من ذلك ثم بتمادي الأيام إختصروا تلك الصور بعد ما إستبدلوها بشيء آخر وهو أنهم أخذوا أول أحرف الأسماء ورسموا صورة مسمياتها كحرف الراء مثلًا فإنهم رسموه على شكل فم الإنسان لأن الفم عندهم ينطق رف فأخذوا صورة الفم وجعلوه حرف الراء وكحرف القاف فإنه على شكل رضفة الركبة وإسمها قنى فرسموا الرضفة وجعلوا هذا الرسم علمًا على حرف القاف وكالهمزة فقد أخذوها من

أول إسم النسر وجعلوه أي النسر دلالة عليها وقس على ذلك وكانوا تارة يكتبون من اليسار إلى اليمين وتارة من اليمين إلى اليسار وتارة من أعلى إلى أسفل وتكون الأسطر في هذه الحالة محصورة بين خطوط رأسية ولأجل القراءة ننظر إلى صور الكتابة فإذا رأينا جميع رؤسها متجهة إلى جهة اليسار علمنا أن الكاتب إبتدأ من جهة اليسار فلنقرأها من اليسار إلى اليمين وإذا كانت متجهة إلى اليمين علمنا أن الكاتب إبتدأ من جهة اليمين فلنقرأها من هذه الجهة أما في الكتابة فلك الخيار أما من اليمين أو من اليسار وهاك جدول حروفها الأبجدية وما إشتق منه «بالشكل طيه».

«ملحوظة» كان الكنعانيون وقدماء اليونان يكتبون من اليمين إلى اليسار وما أتينا هذا الجدول إلا لندفع تردد بعض الناس في صحة توليد هذه الحروف من بعضها وكان إبتداء قلم المصريين من قبل بناء أول هرم في الديار المصرية وإنتهاؤه في زمن الرومان.

ولنتكلم الآن على الأحرف البربائية كل واحد على حدته وكيفية النطق به وما إعتراه من التغيير عند كل قوم بوجه الإجمال فنقول

«الحرف الأول الفتحة المصرية والعربية»

وهي أول الأحرف الإفرنكية قاطبة «a» وقد إتخذوا هذا الحرف من هيئة نسر واقف قد ضم جناحيه وما صدّروا حروفهم به إلا لأنهم كانوا يقولون إن النسر هو ملك الطير قاطبة فكانوا يرسمونه أول أحرفهم كأنه ملك جعل جيشه صفوفًا ثم وقف أمامهم كالقائد لهم فإعتراه بعض تغيير ونقص حتى صار على ما تراه في العمود الثاني ثم إعتراه بعض تغيير فصار على ما تراه في العمود الثالث ثم إعتراه بعض تغيير فصار على ما تراه في العمود الرابع ثم الخامس ثم السادس أما الفتحة العربية فعبارة عن ظهره فقط.

«الثاني حرف الألف المصرية والعربية»

وهو عبارة عن مدية أي سكون كما تراه في الجدول وهو ساقط من اللغة الإفرنكية للإستغناء عنه بالحرف السالف ذكره أما في العربية فقد تغير جملة مرات حتى صار على ما هو الآن.

«الثالث حرف الباء»

هذا الحرف له شكلان أحدهما على شكل قدم إنسان بساقه ومنه إشتق حرف الباء العربية بعد حذف ساقه ثم إعتراه بعض تغيير وحذف حتى صار على ما هو عليه الآن.

والثاني على هيئة طائر قائم قد ضم جناحيه وفي حوصلته ريش منتشر كما في حوصلة الديك الرومي ولا يعلم نوع هذا الطير وكانوا يجعلونه رمزًا على الروح ومن هذا الطائر إشتق حرف الباء الإفرنجية بعد ما إعترى الأصل جولة تغييرات.

«**الرابع حرف الجيم أو الكاف**»

وهو على شكل إجانة أي إناء بأذن صغيرة ونطق به المصريون كافًا أما الكنعانيون فنطقوا به جيمًا وكان السميتيون ينطقون به تارة جيمًا وتارة كافًا ثم إعتراه تغيير عند كل قوم حتى وصل إلى الإفرنج وله شكل مخصوص وهو المعروف عندهم بحرف «G»» أما العرب فيظهر أنهم غيروا فيه تغيرًا بينا حتى صار كما تراه في الجدول.

«**الخامس حرف الدال**»

وهو على شكل إصبع السبابة ممتدًا على حدود مع الإبهام حالة فتحهما فتحًا خفيفًا وقد إتفقت جميع الأمم على النطق به دالًا بعد أن غيروا شكله بالتدرج كما تراه في الجدول أما العرب فقد أبقوه على حاله إلى الآن أنظر دال القام الكوفي.

«**السادس حرف الهاء**»

وهو على شكل حصير الجبن مطوية نصف طية وهو باق في القلم الكوفي على حالته الأولية

لم يعتره إلا تغيير خفيف أما باقي الأمم فقد حرفوه شكلًا ولفظًا وهو المعروف عند الإفرنج الآن بحرف «E» وكان المصريون ينطقون به كهاء خفيفة تخرج من أقصى الحلق أما الكنعانيون فنطقوا به كهمزة مفتوحة تخرج من وسط الحلق.

«**السابع حرف الواو العربية والفاء الإفرنجية**»

أما حرف الواو العربية فمأخوذ من شكل حبل معقود من وسطه وأحد طرفيه مرسل بإنحناء وهذا الحرف لم تستعمله باقي الأمم في كتابتهم لعدم إحتياجهم إليه وأما حرف الفاء الإفريقية فمأخوذ من صورة زاحفة على وجه الأرض ولها قرنان في رأسها وقد إتفق القدماء على النطق به كفاء عربية وربما كان حرف الواو العربي مأخوذًا من حرف الفاء المصرية لأن شكله يقرب جدًا من شكله سيما وأن قدماء المصريين كانوا ينطقون أحيانًا بهذا الحرف كفاء مائلة إلى الواو والله أعلم بالحقيقة.

«الثامن حرف الزاي»

هذا الحرف على شكل طائر صغير لاصق بالأرض وناشر جناحيه يلوح عليه أنه عاجز عن الطيران وينطق به زاي عند جميع الأمم القديمة أما شكله فإعتراه تغيير حتى كاد أن يخرج عن أصله بالكلية سيما عند العرب.

«التاسع حرف الخاء»

لهذا الحرف شكل على هيئة خرزة بئر وكان النطق به عند المصريين يشبه دوي ريح أو نفخة أو دوي ضربة سيف في الهواء وإستعمله الكنعانيون رسمًا ونطقًا كأصله أما اليونان فغيروا صورته وتعذر النطق به عليهم فنطقوا به كهمزة مفتوحة ولما سرى إلى اللاطينيين حرفوا شكله وغلطوا في نطقه فصار كهاء خفيفة فرجع بذلك إلى حالة قريبة من نطقه الأول وهو المعروف الآن بحرف «h» أما العرب فنطقوا به حاء عربية بعد ما حرفوا شكله جملة مرات.

«العاشر حرف التاء المصرية أو الطاء العربية»

هذا الحرف له مشابهة قوية بماشة أو ملقاط وفي رأس كل شعبة منه نحو أكرة صغيرة وعلى الشعبة العليا عمود صغير والنطق بهذا الحرف عند المصريين كتاء عربية تقرب من التاء ومن هذا الحرف أتت الطاء العربية أما اليونان والكنعانيون فنطقوا به تاء كأصله ولم يستعمل اللاطينيون لعدم إحتياجهم إليه وإستغنائهم بغيره.

«الحادي عشر حرف الخفضة النائبة عن الياء العربية»

هذا الحرف مركب من شرطتين متوازيتين مائلتين جهة اليسار قليلًا يدلان على خفض الحرف الذي قبلهما ولا خلاف في النطق به بين الجمهور وهو المعروف عند الإفريج بحرف «i» وكان للمصريين حرف آخر ينطق ياء عربية وهو مركب من سكينين قائمتين بجوار بعضهما ولا أدري من أي شكل من هذين النوعين أتى حرف الياء العربية ولعلها أتت من الخفضة لأنها أقرب إنظر الياء المرجع.

«الثاني عشر حرف الكاف أو الجيم»

وهو على شكل سلة مقوّسة القاعدة منفرجة ضيقة من أعلاها مغطاة الفم داخلها شيء هرمي الشكل والنطق بهذا الحرف عند المصريين يخرج من بين الكاف والجيم وأما اليونان فنطقوا

به كافًا خالصة ووافقهم كل من الرومان والعرب على ذلك وهو حرف الكاف الإفرنجية «k»

«الثالث عشر حرف اللام»

هذا الحرف على شكل أسد رابض ومن المستغرب أن لفظة أسد في أغلب اللغات يدخل في أولها حرف اللام كقولهم في العربية ليث ولبوة وأدخله الكنعانيون في كتابتهم بعد ما حرفوا صورته وإستعمله اليونانيون ثم اللاطينيون برسم خط الكنعانيين تقريبًا أما العرب فقلبوا وضعه ولا خلاف بين جميع الناس في النطق به ومن ذا يدري أن أصل هذه اللام أسد رابض.

«الرابع عشر حرف الميم»

هذا الحرف على شكل بومة ضمت جناحيها وهي التي يتشاءم منها سكان المشرق ويقولون إنها نذير الموت أو الخراب وتنطق ميمًا عند الكنعانيين واليونانيين واللاطينيين والعرب لكنهم إختلفوا في رسمها أما العرب فلم يحدثوا بها شيء غير حذف رجليها مع بقائها على حالها ومن ذا الذي يهجس بخاطره أن هذا الحرف مأخوذ من صورة طائر شنيع المنظر محزن.

«الخامس عشر حرف النون»

وهو على شكل خط الماء أو على هيئة أمواج متتالية ناشئة عن حركة سفينة في اليم والنطق به متفق عليه عند جميع الأمم وأما أصله فقد تحرف عند الكنعانيين واليونان وبعض أصله باق إلى الآن عند اللاطينيين.

«السادس عشر حرف السين»

وهو شكل متراس أو ترباس للأبواب والنطق به كالسين العربية لكن يمتاز بتعطيشه وقد تغير هذا النطق عند الكنعانيين واليونان فنطقوا به إكس «x» بهمزة مكسورة خفيفة ثم كاف ساكنة خفيفة ثم سين ساكنة أيضًا أما السين الإفرنكية المعروفة بحرف «s» فمنقولة من حرف كان عند المصريين على هيئة حديقة ذات نخل صغير وكبير وهو حرف الشين عندهم وأما السميتيون فكانوا ينطقون به تارة كحرف سين وتارة كرف شين أما العرب فلم يحدثوا في هذا الترباس شيء ونطقوا به كأصله.

«السابع عشر حرف العين»

وله عند قدماء المصريين صورتان إحداهما على هيئة ذراع إنسان ممدود مفتوح الراحة كأنه

يطلب شيء والآخر على هيئة حربة أو رمح والنطق بكلتا الصورتين عندهم كعين خفيفة وهذا النطق يكاد أن يكون متعذرًا عند إفرفج زماننا وقد غير شكله الكنعانيون بشكل بيضاوي ووافقهم باقي الملل عليه ولما تعذر عليهم النطق به حسب أصله نطقوا به كصوت ساذج مائل إلى القمة وهو المعروف عند إفرنج زماننا بحرف «o» نقلوه من اللاطينيين برمته أما العرب فأخذت راحة كف الذراع وأحدثت به تغييرًا خفيفًا ونطقت به عينًا عربية بعد ما فخمت نطقه عن أصله.

«الثامن عشر حرف الياء الفارسية أو الفاء العربية»

هو في الأصل على شكل شباك مربع الأضلاع وقد غير شكله الكنعانيون واليونان بشكل آخر مع إتفاقهم على النطق به كباء فارسية وبقي شيء منه في الباء اللاطينية وهي حرف «p» الإفرنكية أما العرب فتعذر عليهم النطق به لعدم وجوده في لغتهم فقلبوه إلى الفاء ونطقوا به فاء عربية بعد ما صغروه وجعلوه رأسًا لهذا الحرف.

«التاسع عشر حرف الذال أو الصاد العربية»

وهو على شكل ثعبان له ذنب طويل وكان النطق به عندهم يخرج من بين التاء والزاي وكان مستعملًا عند الكنعانيين واليونان وساقط عند اللاطينيين للإستغناء عنه أما العرب فحرّفوا شكله وفخموا نطقه ونطقوا به صادًا عربية.

«العشرون حرف القاف»

وهو على شكل مثلث قائم الزاوية وينطق به عند المصريين قافًا خفيفة وإستعاره الكنعانيون فغيروا شكله ورققوا نطقه ثم إستعاره الأقوام الأخرون فغيروا نطقه مع بقاء شكله ونطقوا به كافًا صريحة كما تراه في عمود الأحرف أما العرب فلم يحدثوا في شكله شيء «وهو عبارة عن رأس القاف عندنا» وفخموا نطقه حسب ما تقتضيه اللغة العربية.

«الحادي والعشرون حرف الراء»

هذا الحرف على هيئة فم إنسان باسم الثغر وكانوا يستعملونه بهذه الصورة في كتابة البرابي أما في كتابة الأوراق فرسموه على هيئة شدق إنسان به أخدود وقد تغيرت صورته عند كل قوم مع المحافظة على النطق به أما العرب فلم تحدث به شيء غير قطع الشفة العليا منه.

«الثاني والعشرون حرف الشين»

وهو على شكل حديقة ذات نخل صغير وكبير منبق أي مصفوف على خمسة صفوف وأما النطق به فشين عربية وقد بيناه في حرف السين فراجعه أما العرب فأخذت هذا الشكل وقطعت من نخله صفين وتركت الباقي وهو عبارة عن أسنان هذا الحرف ونطقوا به كأصله.

«الثالث والعشرون حرف التاء أو الثاء العربية»

وبه تمت الحروف الهجائية عند المصريين وهو على شكل نقطة سائلة ممتدة طولًا وإستعمله الكنعانيون في الرسم على شكل صليب ثم تناوله اليونان واللاطينيون بهذه الصورة تقريبًا بعد أن غيروا نطقه الأصلي بتاء عربية وهو المعروف الآن بحرف «t» أما العرب فأخذوا حرف تائهم من حرف التاء المصرية الذي هو على هيئة نصف دائرة بقطرها ثم حذفوا منها جزأ يسيرًا وأبقوا الباقي على حاله أما حرف الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين المعروفة بالروادف فهي من إختراع العرب وقد مر ذلك.

ومن تأمل في الأحرف المصرية والكنعانية واليونانية واللاطينية والإفرنجية والأحرف العربية بجميع أنواعها ما عدا الروادف وحدها مطابقة لبعضها مطابقة تامة في النطق والترتيب وقد علمنا أن الجميع إشتق من القلم المصري بدليل المشابهة الواقعة بينها كما هو مبين في الدول فهل بعد ذلك يقال إن أبجد وهوز وحطي إلخ هم الواضعون للأحرف العربية فإذا سلمنا بأنهم هم الواضعون لها فمن الذي رتب أحرف باقي الأقلام على ترتيب أحرف أبجد وهوز وبذلك لا نسلم لعمر بن شبة فيما إدعاه إلا إذا كانت الأحرف العربية هي أصل جميع الأقلام بما فيها قلم المصريين وهو محال سيما وقد إختلفت الروايات ما بين عمر المذكور وصاحب القاموس فقال الأول إن أبجد وهوز إلخ كانوا نزولًا مع عدنان بن أدد وهم من طسم وجديس والذي نعمله أن هاتين القبيلتين كانتا من قوم عاد ومساكنهم الأحقاف فيما بين عمان وحضرموت من أرض اليمن وقال الثاني أنهم ملوك مدين وكلمن رئيسهم فكيف يكونون ملوكًا ويحكمون مع بعضهم على قرية صغيرة وأين مدين من عمان وحضرموت فإن الأولى ببلاد العرب والثانية بأقصى بلاد اليمن مما يلي خليج عمان والله أعلم بحقيقة الحال.

الفصل الخامس والثلاثون

الرحلة العلمية في الدير البحري

ثم نتجه إلى الغرب قاصدين معبد الدير البحري الواقع في نهاية هذا الوادي فنرى على يميننا بالقرب من الطريق مقبرة كان بها رئيس كهنة أمون وجملة كهنة مصرية معها كتب قديمة ونحو خمسين تمثالًا من تماثيل أوزيرس وكثير من الصناديق المثلثة «أي ثلاثة صناديق داخلة في بعضها» وكلها في غاية الزخرفة وهي من العائلة الحادية والعشرين والذي إكتشفها هو المعلم جريبو مدير المتحف المصري سابقًا وكان ذلك في ١٣ فبراير سنة ١٨٩١ ولما توجهت لرؤية هذا المكان في يوم ٢٨ يوليو سنة ٩٤ رأيت بئرًا بلغ عمقها ١٥ مترًا يتصل بها سرداب يتجه إلى الجنوب فحررت قياسه فبلغ ثمانين مترًا ثم ينتهي برواق منحوت في الحجر وهو الذي كان به هؤلاء الكهنة.

فإذا إتجهنا إلى الغرب رأينا فى آخر الوادي على اليسار أعني في جنوب الدير البحري وهدة بسيف الجبل كالدرجة مبسوطة كان بها ذلك الكنز الثمين الذي عثر عليه مُحَمَّد احمد عبدالرسول أحد أهالي القرنة ولشهرة هذا الكنز في كتب الإفرنج آثرنا تلخيص خبره إقتطفناه من كتاب المعلم والس الإنكليزي ومن أفواه بعض الثقاة وهاك بعض ما قاله المعلم المذكور إن مُحَمَّد احمد عبدالرسول أحد أهالي القرنة كان إكتشف على خبيئة كبيرة بها توابيت فرعونية كثيرة على أغلبها خانات ملوكية تدل على أسماء الملوك أصحابها وإن هذا الرجل السعيد الذي لعب زهر بخته في طالع الإقبال كان ماهرًا في صيد الأنتيكات وإقتناصها من كناسها ولما أشرقت له شمس هذا الكنز الثمين كاد أن يطير فرحًا لكن لم تمض عليه برهة زمانية إلا وإنقلب سروره حزنًا لأنه أيقن بعجزه عن نقل هذه التوابيت الملوكية المجسمة فعمى مكانها وعاد إلى منزله وصار يضرب أخماسًا لأسداس وأسلمته الوساوس إلى سلطانها والهواجس إلى شيطانها وأخذت الحيرة تحوك في صدره ثم فاءله عقله فأطلع إخوته وإبنه على جلية أمره فإنطلقوا ليلًا إلى الكنز وكشفوا عن المكان ونزلوا فيه بعد ما أوقدوا مصابيحهم وسلبوا منه ما أرادوا ثم خرجوا منه وعموا مكانه ثانيًا وصاروا يترددون إليه في كل حين ويختلسون ذخائر الملوك والأواني المقدسة وأدراج البردي

والفصوص وكل طرفة فريدة في بابها وكل غالي القيمة خفيف الحمل يخفونه في عيابهم وتحت ثيابهم فكانوا كما قال الشاعر

يمرون بالدهـــنا خفافًا عيابهم ويرجعن من دارين بجر الحقائب

وبقوا على ذلك دهرًا طويلًا يتممون خراب هذا الكنز ويسلبون ذخائر الملوك إلى أن فشا أمرهم بإنتشار تلك النفائس في أوربا حيث دوت شهرتها وتداولتها الأيدي وتنبه لها علماء الآثار في كل مملكة لأنهم كانوا أيقنوا أن مثل هذه الأشياء الملوكية يعز وجودها ويندر العثور على مثلها وكان المعلم كمبيل الضابط الإنكليزي تحصل كغيره على كتاب من كتب ذلك الكنز فبادر بتقديمه إلى المعلم مسبرو مدير مصلحة الآثار المصرية ليطلعه عليه وكان وقتئذ في أوربا فأول ما وقع نظره عليه أكبره وعلم أن مثله لا يكون إلا في مقابر الملوك فأسرع الكرة إلى مصر ليستطلع الخبر ويستقصي الأثر وبمجرد ما وصل إليها وجه نحو الصعيد حتى أتى الأقصر وأخذ يستنشق الأخبار ويستلفت الأنظار حتى أخبره أحد سائحي الإفرنج أنه إشترى من عائلة مُحَمَّد أحمد عبدالرسول بعض أشياء ملوكية فبادر بإخبار مديرية قنا وصار القبض على المذكورين وإيداعهم السجن وجرى التحقيق نحو الشهرين لقوا فيهما شدة و بأسا لكنهم تجلدوا وصبروا على ما أصابهم وجحدوا بالكلية أمر هذه اللقية وتبرؤا من جميع ما نسب إليهم فأجرت المديرية كل ما قدرت عليه من التهديد والإرهاب وكل ذلك لم يجد ثمرة فأطلقت سراحهم بعد معاناة الإبن على يد المرحوم داود باشا المدير ثم وقع فشل وشقاق بين الإخوة وتأجج وهج الشر بسبب هذه اللقية ونفخ المفسدون في نار الفتنة حتى كاد أن يقع بينهم ما لا تحمد عقباه فخاف مُحَمَّد أحمد عبدالرسول على نفسه إذ كان في زمن الإستبداد وعلم أنه غير ممكنه التصرف في شيء بعد الذي حصل له من الحكومة ومن إخوته وإحتال عليه بعض الناس وإستمال عقله فجنح إلى فض المشكل وقطع الألسنة فأرسل إلى المديرية ونظارة الأشغال تلغرافًا أخبرهما بصريح الحالة وأرسلت المديرية تلغرافًا إلى مصلحة الآثار تخبرها بذلك فعينت من طرفها إميل بك بروكش وأحمد بك كمال وغيرهما فسافر الجميع من مصر في أول شهر يوليه سنة ١٨٨١ إفرنكية وتزلوا بالأقصر وأحضروا مُحَمَّد أحمد عبدالرسول فأحضر لهم بعض الأوراق البردية والأنتيكات التي كانت بمنزله بعد ما أطلع المديرية على الكنز ولما فتحوه وجدوه عبارة عن حفرة يبلغ عمقها أربعين قدمًا تفضي إلى دهليز غير منتظم يبلغ طوله مائتين وعشرين قدمًا ينتهي برواق مربع طول كل ضلع منه خمسة وعشرون قدمًا مترعًا أي مملوأ بأكفان الموتى وأجسامهم المحنطة المودوعة في التوابيت

بعضها كان مطليًا بالذهب وكشطت طليته ووجدوا كثيرًا من الأواني الصينية والخشبية وأوعية من الصفر أو التوج المعروف الآن بإسم البرونز ثم قدور الكانوب «التي كانوا يضعون فيها أحشاء الموتى» وكاسات من الفرفورى وخيمة مصنوعة من جلد الغزال وغير ذلك من الأشياء الملوكية وأنعمت عليه حكومتنا السنية بمبلغ خمسمائة جنيه إنكليزي ذهبًا وباشرت رجال المصلحة إخراج هذه الأشياء ونقلها إلى النيل وشحنها في السفن إلى قرية الأقصر وبين العمل على ذلك مدة أسبوعين ثم شحنوها في سفينة بخارية إلى المتحف المصري وكان وقتها في بولاق وبالتحري علم أن أيدي اللصوص سطت على أمتعة الملك طوطوميس الثالث كما سطت على أمتعة غيره من الملوك.

وقال مسپرو إن الذي وضع هؤلاء الملوك وما معهم من التحف في هذا المكان ونقلهم من مقابرهم الكائنة في بيبان الملوك وغيره هو «أ أيوث» إبن الملك شيشاق الذي كان قبل الميلاد بنحو ٩٦٦ سنة لما خشي عليهم من سطوة اللصوص الذين قوي حزبهم في ذلك العصر حتى كان يمكنهم مقاومة الحكومة.

وقال المعلم والس في كتابه والأسف كل الأسف من أن هذا الكنز لم يقع إلا في يد أجهل الرعاع الذين تاجروا فيه غنيمة باردة ويا حبذا لو كان إكتشافه على يد بعض الناس المتنوّرين الذين يعرفون قيمته حتى كانوا لا يتصرفون في شيء منه أقول نعم إن مُحَمَّد احمد عبدالرسول قد أساء في العمل حيث فتح بعض التوابيت وأخذ ما بها من الأشياء الثمينة وكان الأحرى له أن يسلمها إلى مصلحة الآثار وهي تكافئه بأضعاف ما أخذ منها وله جزيل المنة أو يبيعه لها فتشتريه منه بكل ممنونية لكن لا أدري ما معنى تأسف حضرة المعلم والس لعله أسف على إكتشافه بمعرفة الوطنيين ولعله كان يودّ أن يكون ذلك على يد الأجانب المتنورين حتى كانوا يستخلصونه لأنفسهم وينقلونه إلى بلادهم أو يبيعونه إلى الحكومة المصرية بالأثمان الطائلة وهيهات إن فعلوا أما أنا فآسف على الأشياء التي تبددت وتفرقت في كل مملكة من بلاد الإفرنج وكنت أود لو بقي هذا الكنز وغيره مستورًا في مكانه إلى أبد الآبدين.

ودهر الداهرين لا يراه الجهلة ولا المتنورون حتى يبلى في مكانه وهاك جدول توابيت الملوك التي وردت في المتحف المصري بعد السرقة والتبديد.

«العائلة السابعة عشرة»

تابوت وجسم الملك سوكن إن رع

«مرضعة الملكة نفرت آرى رع وكان فيه مومية ملكة تدعى أن حابي.

«العائلة الثامنة عشرة»

تابوت وجثة الملك أحميس الأول

« « الملكة أحميس نفرت أرى

« « الملك أمنحتب الأول

« « الأمير سأأمن

« « الأميرة سأأمن

« « الكاتب سانو رئيس الخاصة بمنزل الملكة نفرت أرى

جثة زوجة الملك ساث قامس

تابوت وجثة بنت الملك مشنت تم هو

«أم الملك أعق حتب

«الملك طوطوميس الأول الذي إغتصبه بيناتم

«وجثة الملك طوطوميس الثاني

« « « « الثالث

« « شخص مجهول الإسم

«العائلة التاسعة عشرة»

جزء من تابوت الملك رمسيس الأول

تابوت وجثة الملك سيتي الأول

« « « رمسيس الثاني

«العائلة العشرون»

جثة الملك رمسيس الثالث في تابوت نفرت أرى.

(العائلة الحادية والعشرون)

أم الملك المسماة ناتامت

تابوت وثة مزااهيرنا رئيس كهنة أمون

« « باناتم الثالث رئيس كهنة أمون

« « تات فتاح عنخ قسيس أمون

« « الكاتب نب زاني

« « الملكة مات قرع

« « الأميرة أوستم شبك والأميرة نازي خنسو

وكلها نقلت الى المتحف المصري وفي سنة ١٨٨٣ مسيحية ظهرت رائحة كريهة في تابوت الملكة مشنت تم هو فدفنت وفي سنة ١٨٨٥ ظهرت رائحة كريهة في تابوت الملكة أحميس نفرت أرى فدفنت أيضا ومثل ذلك حصل في جثة الملك سوكن إن رع وبهذا الإكتشاف المهم ظهر إلى العيان جسم رمسيس الثاني أي الأكبر الذي بقي محجوبًا لا تراه العيون نحو ثلاثة آلاف ومائتي سنة كباقي كبار الملوك الفاتحين مثل طوطوميس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثالث وغيرهم من فراعنة مصر.

وفي ٢٨ من شهر يوليه سنة ٩٤ توجهت إلى الأقصر وأحضرت مُحَمَّد أحمد عبد الرسول المذكور وتلوت عليه جميع ما كتبته في هذا الكتاب من خبر اللقية وسألته عما إذا كان هناك شيء يخالف الحقيقة فأجابني أن جميع ما هو مذكور صحيح لا مرية فيه ثم توجهنا سوية إلى قرية القرنة وأطلعني على مكان اللقية فإذا هو في بقعة لا يتصور العقل أن يكون بها شيء.

أما الدير البحري فهو من بناء الملكة حتزو المعروفة على الآثار باسم (حعت شبسو من العائلة الثامنة عشرة) جعلته مرتكزًا على شاهق من الجبل قائم كالجدار تقريبًا

وفي ناحيته الشرقية طريق مساوك صعب الارتقاء يفضي إلى الوادي المعروف باسم بيبان الملوك وسيأتي الكلام عليه في الفصل التاسع عشر و بالتأمل في جميع جدر المعبد نجد عليه . خراطيش أي خانات ملوكية متنوعة توجب حيرة المتأمل لأن كل من رآها ظنها أسماء لملوك كثيرة

مع أن الأمر بالعكس إذ جميعها أسماء وألقاب لهذه الملكة التي تلقبت بجملة ألقاب مدة حياتها حيث إشتركت في الحكم مع أخيها طوطوميس الثاني وصارت من بعده وصية على أخيها القاصر طرطوطوميس الثالث فكانت تحكم باسمه ولما بلغ أشده أشركته في الحكم مدة حياتها فكانت تغير ألقابها حسب الأحوال والظروف فلذا صار لها جملة عناوين وأسماء ملوكية.

أما وضع هذا المكان فغريب جدًا حتى أن كل من رآه لم يظنه معبدًا لمخالفته للأصول التي إتبعها القوم في بناء معابدهم وكان أمامه صفان من أصنام أبي الهول قد درست الأيام هجمعالمها ثم مسلتان لم يبق منهما غير جلسة صارت جذاذًا.

وهذا المعبد عبارة عن جملة حيشان كل واحد يعلو عن الذي قبله بينها مجازات منحدرة إلى الشرق وآخرها متصل بالجبل و بناؤها بالحجر الأبيض الجيري ولم يبق منها الآن إلا بعض جدر والسبب في ذلك هو أن الحجارة والجيارة تعودوا من قديم الزمان على أخذ أحجارهم من مباني العصاصيف أو العساسيف لقربها منهم فإن لم يجدوا مطلوبهم بها تحولوا إلى معبد الدير البحري فكان ذلك سببًا في بقاء تلك الأطلال إلى الان ويقال أن الذي هندس بناءه وزينه بالرخام والمرمر كان رجلًا معماريًا ماهرًا يدعى سنموت فأحبته الملكة لنشاطه وصارت ترقيه إلى أن جعلته رئيس كتاب أشغالها ويظهر أن هذا المعبد بقي بعد صاحبته مهجورًا

إلى أيام العائلة الثانية والعشرين ومن ثم إتخذوه مدفنًا لموتاهم فقد وجد في أحد أروقته المرسوم به صورة هاتورفي هيئة بقرة ترضع الملكة المذكورة) أجسام محنطة موضوعة فوق بعضها إلى السقف والطبقة الأخيرة أي العليا كانت من زمن اليونان والتي قبلها أي التي أسفل منها أقدم منها وهكذا أما الطبقة الأولى فمن مدة العائلة السادسة والعشرين فإذا أتى الإنسان من الشرق أعني من الجهة المنخفضة للمعبد رآى كثيرًا من اللوحات الحربية متفرقة على تلك الجدر المتهدمة فلذا يعسر علينا أن نجزم بأن لهذه اللوحات رابطة ببعضها لم ااعتراها من التلف والدمار ففي أحدها أي في الرواق الشرقي صورة الجنود المصرية وهي سائرة تحمل سلاحها يتقدمها النفير والضباط و بيدهم أغصان الأشجار والبيارق والأعلام التى أياديها خرطوش الملكة حتزو ولاريب في أن ذلك عبارة عن عودة العساكر المصرية إلى الأوطان بعد نصرتهم في غزواتهم وعلى بعد نحو مائة متر من هذا المكان إلى الغرب نجد فسحة مستطيلة مرتفعة عن مستوى الأرض بها أحد وعشرون عمودًا منهدمة ما عدا البحري منها يظهر من حالها أنها كانت إيوانًا و بجدارها الغربي و

الجنوبي صورة البحر و به السمك ظاهر والعساكر صفوف على شاطئه (لعله البحر الأحمر) و كأن أهالى بون تركت منازلها ذوات القباب البيضاء وأتت بمحصول أرضها وصنائعها فترى بعضهم يكون البخور ويجعله أكمات كصبرة الحنطة وبعضهم يحمل أشجارًا بصلايتها وبجلودهم وسلاحهم وثيابهم منظر جدير بالنظر إليه وكأن الأسطول المصري رسى على تلك السواحل ثم ترى كيفية شحن السفن وترتيب طرود البضائع والخوابي والجرار والحيوانات كل نوعٍ في مكانه ثم سير السفن مع بعضها بالأشرعة والمجاذيف ثم تراها كأنها وصلت إلى مدينة طيبة وصار إحصاء جميع ما بها وهنالد ترى سير القردة المعروفة باسم سينوسيفال والنمور والزرافات والثيران ذوات القرون القصيرة وجميعها يمشي واحدًا واحدًا ثم السلاسل الذهبية والعقود والأساور والخناجر والبلط والمعبود أمون حاضر يشاهد ذلك ويهني الملكة بما فعلته وتراها جالسة على كرسيها ولها لحية مرسلة كالرجال إشارة إلى أنه كان لها عزم الرجال أرباب الصولة وقال بعضهم كانت الديانة عندهم تحرم رسم الملكات الحاكمات إلا باللحاء.

وفي أحد الأروقة جهة الجنوب صورة سفن مصرية تجري في النيل وتشق عبابه وفي أسفل اللوحة جنود مصرية تسير لكن لا نعلم هل كان جميع ما ذكرناه إرسالية واحدة أم جملة إرساليات كما أسلفنا وبالقرب من هذا المكان أنقاض كثيرة خلفها باب يفضي إلى رواق به رسم له لون زاه نضر يسر الناظرين وعلى كل جانب من الرواق أو المجاز الذي في آخر الهيكل صورة الملكة حتزو ترضع ثدي المعبودة هاتور المصورة في هيئة بقرة حسنة الشكل كأحسن بقرة أخرجها قلم الرسم المصري.

وترى في آخر المعبد تقريبًا أعني خلف الباب المعقود بحجر الجرانيت لوحة ثانية أوضح بيانًا من الأولى لكن لم يبق بها غير آخرها من أسفل يعلم منها أن الملكة حتزو أرسلت جندها إلى بلاد بون (بلاد اليمن والحجاز) الشهيرة بالعطر و الأشجار ذوات الرائحة الزكية والذهب وخشب الأبنوس والمحصولات المشغولة لتستولي على أموال تلك البلاد كي تقدمها هدية إلى معبد طيبة ويظهر أن هذه التجريدة الصغيرة لم تصادف في سيرها مشقة ولا عناء لأن سكان تلك البلاد أتت طوعًا أو كرهًا صحبة الأسطول المصري كي تقدم إلى هذه الملكة خالص عبوديتها.

وفي أوائل سنة ١٨٩٤ مسيحية أجرى المعلم نافيل الحفر في الدير البحري (وهو أحد

علماء الآثار المرسلين إلى مصر من طرف جمعية الآثار المصرية التي ببلاد الإنكليز) فانكشف أماكن أثرية مهمة في الجهة الشمالية من المعبد ولما توجهت لزيارتها في ٢٨ يولية سنة ٩٤ وعزمت على أخذ وصف ما بها ودرجة في هذا الكتاب أخبرني حسن أفندي حسني مفتش آثار الأقصر والقرنة أن مصلحة حفظ الآثار أعلنته بأنه لا يمكن أحدًا من كتابة أو ترجمة شيء منها إلا من بعد نقل ورسم ما بها بمعرفة المعلم المذكور إذ هو المكتشف لها فلذا إكتفيت بذكر وصفها العام بدون تعرض لذكر ما بها.

أما وصفها العام فهو أولها رحبة واسعة بها بواكي من الجهة الشمالية والغربية فقط محمولة على عمد جيعها من الحجر الجيري و لعرشها كرانيش بارزة لطيفة وعدد العمد التي في الشمال خمسة عشر عمودًا خالية من الكتابة وعدد العمد التي جهة الغرب اثنا عشر عمودًا لها شكل كثير السطوح تحمل سقفًا ملونًا بالأزرق به صورة النجوم بلون أصفر وجميع نقوش الجدار الغربي بديعة اللون والصنعة وهي صورة المعبودات وما يهدى إليهم من القرابين وفي الجنوب من هذا المكان إيوان به إثنان وعشرون عموداً مربعًا كانت تحمل سقفًا مثل الذي قبله عليها نقوش دينية وعلى الجدار الغربي تصاوير وأشكال تخبرنا بكيفية حمل وولادة وتربية الملكة حتزو صاحبة هذا المكان وأن المعبودات كانت بشرت أمها بها وغير ذلك فعلى هذا تنقسم نقوش الدير البحري إلى قسمين قسم تاريخي وقسم ديني والله أعلم وإلى هنا إنتهى وصف هذا المعبد بوجه الاختصار.

الفصل السادس والثلاثون

في الأحرف الأبجدية والمقاطع وبعض نصوص بربائية والخانات الملوكية

كانت العرب في صدر الإسلام يزعمون أن الخط البربائي ألغاز لا يمكن حلها لانقراض أهلها وقال غيرهم أنه طلاسم وأرصاد على مطالب وقال آخرون أنه رموز على أسرار خفية وتوهم المولعون بعلم جابر بن حيان أنه رموز على عمل الذهب والفضة وتركيب العقاقير وكيفية التكليس والتصعيد وقال غيرهم أنه رموز كهنوتية أو نصوص كفرية وذهب بعض الإفرنج أنه التوراة والمزامير وبالجملة فقد تشعبت المشاعب واختلفت المذاهب وتفرقت الأقوال واقتدى بالعرب غيرهم فكانوا يخبطون في قولهم خبط عشواء ومنهم من كان يدعي معرفته من نصارى الصعيد فكان إذا كلفوه بترجمة شيء منه أمعن أولًا فيه نظره ثم خبط فيه بما جادت به قريحته من الإفك والبهتان بما يناسب حال الوقت أو ملك العصر من ذلك أن أحد المزارعين بالصعيد وجد ورقة من البردي مكتوبة بهذا القلم فعرضها على رجل من النصارى كان يدعي معرفته وترجاه أن يوقفه على ما بها فتناولها منه وبعد أن قلب نظره فيها مدة قال له أعلم أن صاحب هذه الورقة كان مزارعًا وأنه يوصي بعدم الكثرة من زراعة الكتان والحث على الكثرة من زراعة الشعير حيث يقول فيها (يازارع الكتان يكفيك فدان ويا زارع الشعير إزرع كثيرًا الخ) فصدقه هذا الجاهل وفرح بما سمع وظن أنها من الحكمة التي هي ضالة المؤمن وغير ذلك كثير مما لا نتعرض لذكره هنا ويوجد الآن بمصر وغيرها جماعة يزعمون أن هذا القلم لم يزل مجهولًا وبابه مغلوقًا وأن جميع ما ألفه علماء الآثار وكل ما استنبطوه منه تاريخًا كان أو غيره ليس إلا أكاذيب حكوها وترهات حاكوها وأنها ليست من الحقيقة في شيء مهما أقمت لهم الأدلة على صحة ذلك القلم وذكر مارييت باشا في أحد مؤلفاته ما ملخصة لم نزل نرى كل يوم جماعة من الإفرنج يزعمون بقلبهم السليم أن هذا القلم ليس إلا ألغازًا عرضها أصحابها على من يأتي بعدهم لتكون سببًا في إعجازهم عن حلها ليظهر فضلهم وما قالوا ذلك إلا ليقلدوا قدماء اليونان والرومان أصحاب الأقلام المعدودين في حلبة ميادين الإنشاء فإن ديودور الصقلي ذكر أن اليد اليمنى المبسوطة الأصابع تدل في كتابة المصريين على الطلب والإحتياج أما اليد اليسرى المطبوقة فتدل على

الحفظ والإعتناء والوقاية وقال بلوتاركه كانت صورة السمك عندهم تدل على البغض والحقد و أنهم رسموا في حائط هيكل صان الحجر المرصد على آلهة الحكمة صورة طفل وشيخ فانٍ وعقاب وسمكة وفرس البحر وجميع ذلك أشكال رمزية وترجمتها يا من يأتي إلى الدنيا ويا من هو على وشك الخروج منها الله يبغض الوقاحة لأن صورة الطفل عندهم علامة على إبتداء الوجود وصورة الشيخ علامة على الفناء وصورة الرخ أو العقاب معناها الله وصورة السمك معناها الكراهة لأنه يسكن البحر وفرس البحر معناها الوقاحة وقال غيره كان العقاب أو الرخ يدل على الطبيعة لأنه أنثى بلا ذكر و كانت النحلة رمزًا على الملك أو السلطان لأنه هو الشغال المتفقد أحوال الرعية فهو يسوسهم بالحلاوة أو بالشوكة أي تارة بلطفه وتارة بعنفه وعلى كل فإذا ملنا إلى قول بلوتاركه وسلمنا له فيما دعاه لا نسلم له في أنه

كان ألغازًا وأننا لا نجري مع هؤلاء القوم في ميادين هذه السفسطة مهما أثبتوا ومهما زعموا لأنه إنكشف لنا والحمدلله الغطاء عن الحقيقة وحصلنا الحق كالشمس في رابعة النهار ولا ينكرها إلا كل مكابر أو جاهل ومن ذا الذي يتصور أو يجول بخلده أن الألغاز تكون قاعدة لكتابة مملكة بأسرها قوية الشوكة مدة خمسة آلاف سنة كما أنه لا يهجس بخاطري أن هؤلاء الأفاضل كانوا يجهلون أن القلم البربائي يتركب من أحرف أبجدية وأن تلك الصور التي ذكروها هي مقاطع صوتية أو صورًا شارية لا صور رمزية غير أنهم قصدوا تخليد هذا التخريج ليروي عنهم ضمن تواريخهم اهـ.

ومازالت هذه الروايات وأشباهها يتناقلها الخلف عن السلف من الإفرنج و يتلقونها قضية مسلمة إلى أن ظهر شمبليون الشاب فأماط القناع وأبان الخفاء وإنفك المشكل وقال الباشا المشار إليه ليس بهذا القلم أشكال ولا الغاز ولا رموز لأنه كباقي الخطوط يقرأ ويكتب ويلفظ به وأن هذه الصور هي أحرف هجائية أو مقطعية ولا أدري ما الداعي للحكم عليها بأنها ألغاز حيث كانوا يجهلون حقيقتها ومتى عرف الإنسان أن صورة النسر هي الفتحة وصورة قدم الإنسان بساقه هى حرف الباء وصورة البومة هي حرف الميم وذراع الإنسان الممدودة وحرف العين الخ أمكنه أن يقرأه بكل سهولة أما اللغة فهي أصل اللغة القبطية المعروفة إلا أن المتداولة في كتب القبط مكتوبة بقلم غير قلمها الأصلى اهـ.

وأظن أن الذي أخر استكشافه إلى زمن شمبليون الشاب هو أنه كان من عادة المصريين أن

يكثروا في كتابتهم من استعمال صور المقاطع الصوتية فاشتبه الأمر على من شمر لإكتشافه ساعد الجد فخار عزمه وفترت همته لما وقع في حيص بيص فتنصل منه ولم ينل خفي حنين قائلًا مالي وما ألغز به كهنة مصر لإخفاء أسرار علومهم وديانتهم صيانة لها عن سفلة قومهم وضنا بها على من يأتي بعدهم لكي لا يكون عليهم مغمز ولا مطعن ولا إنكار على ما اقترفوه في دينهم أو دنياهم أو غير ذلك مع أنه من البديهي أن هذا القلم ما كتبوه إلا ليقرأه غيرهم وأن من عرف شيئًا هان عليه فك معضلاته وقد رأيت بعض الإفرنج يقرأه كما يقرأ أحدنا في الكتب العربية بلا توقف أو تلعثم ورأيت من يترجمه بمجرد نظره إليه ولم يقرأ منه حرفًا واحدًا كما لو كان مكتوبًا بتلك اللغة التي كان يترجم بها وبعضهم يعرف عمر الكتابة وفي أي زمن كانت وفي مدة أي ملك وما ذلك إلا لشدة تضلعهم من معرفتها وكثرة إشتغالهم بها حتى صار فى حكم لغتهم الأصلية وألفوا لها القواميس ووضعوا لها الأجروميات وضبطوا قواعدها وبينوا تركيبها فصارت كباقي اللغات القديمة أي اللاطينية واليونانية القديمة وها هي كتبها تطبع الآن وتباع في بلاد أوربا بأبخس الأثمان وها هي جمهورية فرنسا ترسل إلى مصر حينًا بعد حين طلبة من شبانها ليتعلموها وتنفق عليهم ما يحتاجونه حتى مصاريف سياحتهم بالصعيد وقد نبغ منهم علماء أفاضل كما نبغ من باقى ممالك أوروبا كبلاد الإنكليز وألمانيا والنمسا وغيرهم حتى صارت شائعة بين علماء الآثار بعد أن كان يشار لمن يعرفها بأطراف البنان وتعقد له الخناصر وتحنى له الرؤوس عند سماع اسمه وها هو عددهم كل يوم يزيد ومن ذا الذي كان يمر بفكره أن إسم بطليموس وكليوباطره يكون مفتاحًا لتواريخ وعلوم قديمة ويزيل خرافات وأوهام كانت ضاربة أطنابها مدة ألف وخمسمائة سنة على عقول الناس قاطبة وسببًا لشهرة الملوك المصرية الذين كانوا مجهولين الى زمن شمبليون المذكور أعي إلى سنة ١٨٢٦.

وكيفية اكتشافه هو أن المسيو بوسار والضابط الطوبجي الفرنساوى كان يحفر خندقًا بالقرب من ثغر رشيد سنة ١٧٩٧ ليتحصن به من عدوه مع بعض عساكر الحملة الفرنساوية فوجد به حجرًا موجودًا إلا أن ببلاد الإنكليز مكتوبا بثلاثة أقلام وهي القلم البربائى و الديموطبقي أي القلم المختصر الدارج المصري واليوناني ونصها واحد وهو حكم أصدرته كهنة منفيس في حفلة عامة ضمنته تعظيم بطليموس ابيفانوس (أي الماجد) وكان القلم البربائى لذلك العهد مستورًا بالحجاب ومختومًا عليه بخاتم القدرة فحاول جماعة ممن يعرف اليونانية فك معماه لكنهم انقلبوا بلا ثمرة بعد العناء والتعب مع أن بعضهم حام حول حماه وكاد أن يجتلي محياه ثم جاء شمبليون

الفرنساوي وأخذ يمعن النظر فيه ويقدح زند فكره فلاح له أن اسم بطليموس وكليوباطره المكتوبين باليونانية في خانة ملوكية موجودان أيضًا بالبربائية والديموطيقية فعلم أن نص الثلاثة أقلام واحد وأخذ يقارن أول حرف من اسم الملك المكتوب باليونانية من المكتوب باليربائية والثاني بالثاني والثالث الثالث وهكذا حتى عرف جميع أحرف الملك والملكة ثم أخذ يقارن بين الأحرف وبعضها حتى تثبت من معرفتها جيدا ثم صار يراجع اليونانية مرة والبربائية أخرى فكان يستدل بالمعلوم على المجهول ونحا هذا النحو فأصاب المرمى ولم يمض عليه زمن كبير حتى كملت له الأحرف الهجائية المصرية فقال في نفسه ما فائدة الكتابة إن لم أعرف اللغة نفسها ولذا انكب على المطالعة والتفرس في الأشكال والإشارات ومدلولاتها فكان تارة يصيب وتارة يخطئ إلى أن صار عنده إلمام بما تيسر منها وطالع اللغة القبطية وقارن الأسماء بعضها الى أن انفتح له مغلق الباب فكتب كراسة أودعها الأحرف الأبجدية وبعض الصور المقطعية وعرضها على علماء أوربا فأكبروه وكانوا ما بين مصدق ومكذب ومازال هو يبذل الجهد و يطالع أسماء الملوك الخفيفة التي على آثار الصعيد ويقيد كل شاردة وكان له في كل يوم فائدة جديدة فانتقل إلى ترجمة الجبل وغاص بعقله في تركيب اللغة وكلما كانت تزداد معارفه فيها كلما كانت تزداد أخصامه فحقد عليه العلماء بأوربا ممن كان يزعم معرفة اللغة القبطية حتى إن بعضهم ما سمحت نفسه أن ينظر فيما كتبه والذي تطر فيه شمر لتكذيبه ساعد جده وبقي الأمر على ذلك إلى أن مات سنة ١٨٣٢ مسيحية فأكثروا فيه من الوقيعة ولم يشف الموت غليل صدورهم منه وكان الف أجرومية ومختصر تاريخ مصر ورتب الأحرف الأبجدية والصور المقطعية والإشارية فقام من بعده جماعة من العلماء في ممالك مختلفة وبذلوا ما في وسعهم للوقوف على حقيقة ما ألفه ثم أخذوا يتممون مشروعه وأتوا مصر وجالوا في البرابي ونقلوا وترجموا وفتشوا ونقبوا وضبطوا وقيدوا ودونوا وبوبوا ورتبوا وصنفوا وألفوا ورسموا فلاحت لهم شمس المعارف واجتنوا باكورة أثمار تعبهم فرسموا خريطة مصر بأسمائها القديمة ثم قام غيرهم من بعدهم وألفوا المؤلفات الضخمة بعدما رتبوا أسماء الملوك فتألفت الجمعيات في أغلب ممالك أوربا ودرت عليها الأرزاق والأموال وها هي رسلهم في كل سنة تراوحنا وتغادينا حتى ملئوا دار تحفهم ودار كتبهم بما تحصلوا عليه من مصر وربما استخرجوه واستنبطوه من البرابي وغيرها.

ورب معترض يقول كيف تيسر لشمبليون المذكور فك معاه مع جهله بمباديه واللغة القبطية معا وكيف أمكنه ترجمته فضلًا عن قراءته حتى قدر على تأليف ما ألفه فيها إن هذا لشيء

عجاب والجواب عن ذلك أقول ليس هذا بغريب فإن العرب سبقت شمبليون المذكور في فك المعمي من ذلك أن الخليل واضع علم العروض أتاه ذات يوم كتاب مكتوب

باليونانية فخلا به شهرًا ثم فهمه ولما سئل في ذلك قال علمت أنه لابد أن يكون مفتتحًا باسم الله تعالى فبنيت على ذلك وقست وجعلته أصلاً فتيسر لى فك معماه وكان الجاحظ يقول ليس المعمي بشيء قد كان كيسان (إسم رجل) يسمع خلاف ما يقال ويكتب خلاف ما يسمع ويقرأ خلاف ما يكتب وكان أعلم الناس باستخراج المعمي.

أما الأحرف الأبجدية فقد سبقت في الجدول ولم يسقط منها غير حرف الضمة الذي على شكل فرخ الدجاج لكنك تراه مكتوبًا في شكل يهودا ملك فراجعه في صحيفة(١٥١).

أما المقاطع التي نوهنا بذكرها وتعرف بالعلامات المقطعية فهي أشكال مأخوذة من صور الأشياء المشاهدة والطيور والحيوانات وأعضاء الإنسان.

لكننا نقول بالإختصار هنا أنها تتركب من حرفين أو أكثر أو تكون عبارة عن حرف واحد مثل أم قم نفر خبر س سا نن الخ وربما نطق جملة منها بنطق واحد كمقطع قا مثلاً فإنه يؤدى إما بصورة ثور وإما بصورة رجل رافع ذراعيه وإما بذراعين مرفوعين وتارة يكون للصورة الواحدة جملة مقاطع صوتية متغايرة كصورة المحراث مثلاً فإنها تنطق مر ومعناها المحراث وتارة تنطق ما أو م و بالتعود يعرف الإنسان جميع ذلك ولأجل السهولة لفهم المعنى اتخذوا صوراً أخرى تسمى بالصور الشخصية

أو العينية أو النفسية كتبوها خلف الأسماء والأفعال لتوضحها وتزيل الإلتباس عنها و بذلك حصلت سهولة في معرفة اللغة المذكورة وكيفية ذلك أنهم إذا أرادوا أن يكتبوا اسم الماء (مو) كتبوا ميما ثم ضمة بعدها وإلا كتبوا صورة مقطعية تؤدي هذا النطق بعينه ثم أتبعوها بالصورة العينية وهي صورة نفس الماء كيلا يلتبس المعنى على القارئ بمسمى آخر يكون مشتركاً في هذا اللفظ وإلا كتبوا صورة الماء وحده فكل من رآه نطق به مو وإلا كتبوا ميمًا ثم ضمة وأتبعوهما بصورة الماء فهذه أربع طرق كانت مستعملة عندهم لتأدية النطق والمعنى معاً وهي إما كتابة الأحرف الهجائية وحدها وإما مقطع يقوم مقامها في النطق مطبوعاً بصورة الماء وأما الأحرف الهجائية متبوعة بصورة الماء وأما صورة الماء فقط وجميعها ينطق مو فضلاً عن قرائن الأحوال الدالة على المعنى فعلى ذلك تنقسم الصور إلى قسمين أحدهما ينطق والآخر لا ينطق فصورة

الماء بعد الأحرف الهجائية أو المقطعية لا تنطق وتسمى حينئذ صورة نفسية أي نفس الماء أما إذا كتبت وحدها نطقت مو وصارت مقطعاً معنوياً وقس على ذلك أغلب الصور النفسية أو العينية وعلى ذلك كانوا يرسمون صورة سبع دلالة على هذا الحيوان بعد كتابة إسمه إما بالأحرف أو بالمقاطع وصورة الجبل دلالة عليه وصورة المدينة دلالة عليها بعد كتابة إسمها وكلها صور نفسية أو عينية وهكذا وشذ عن ذلك بعض صور كالعقاب أو الرخ فإن معناه الأم والبطة أو الأوزة ومعناها الإبن والنحلة ومعناها ملك الوجه البحري وهذه الإشارات قليلة العدد جداً وتسمى صورة معنوية وهنالك صور أخرى لا تنطق أصلاً بل فائدتها تعيين المعنى للقارئ منها أنهم كانوا يرسمون صورة جلد بذنب للدلالة على جميع الحيوانات من ذوات الأربع وصورة رجل وضع يده على فمه للدلالة على الفكر والتأمل أو الكلام أو العشق أو شيء آخر مما يتعلق بحركة النفس وقواها ومنها صورة كتاب مطوي للدلالة على العلوم أو الأشياء المعنوية ومنها صورة رجل جاثٍ على ركبتيه ورافع يده للدلالة على أسماء الأعلام فصورة الجلد والرجل الواضع يده على فمه والكتاب والرجل الجاثي تسمى بالصور الإشارية أي التي تشير إلى الغرض المطلوب.

والنتيجة أن هذا القلم عبارة عن أحرف أبجدية وصور وهي أربعة أقسام قسمان ينطقان وهما المقطعية والمعنوية وقسمان لا ينطقان وهما العينية كصورة الماء بعد كتابة إسمه والإشارية وقد عرفت الجميع بيد أن الإنسان إذا نظر لهذه الأشكال والصور

يجدها من أول وهلة كأنها عقدة يصعب أو يعسر حلها لكن بإمعان النظر وتكراره ومساعدة العلامات الإشارية والمعنوية والدينية أو النفسية يجدها سهلة ويهون عليه فك معناها شيئًا فشيئًا سيما من كان يعرف الصور المقطعية معرفةً جيدةً وله دراية باللغة القبطية التي هي فرعها ومتى وصل الإنسان إلى هذه الدرجة جزم يقينه أنها ليست بطلسم و لا بسحر كما توهمه الكثير من الناس.

ملحوظة – إذا كان عندهم إسم له جملة معان كلفظة العين عندنا فإنها تدل على الباصرة والينبوع والذهب والجاسوس ففي هذه الحالة كانوا يرسمون العين الباصرة بعد الإسم إذا أرادوا هذا المعنى وإلا فصورة الماء إذا كان ذلك هو مرادهم وإلا فالذهب أو الجاسوس إذا أرادوا واحدا منهما وهاك عبارة صغيرة مركبة من جملتين بهما أحرف أبجدية ومقاطع صوتية وصور نفسية وصور إشارية نقلناها من كتاب المعلم مسپرو وهي من قصيدة

طويلة مقولة عن لسان معبود طيبة أمون رع يخاطب بها طوطوميس الثالث أحد ملوك العائلة الثامنة عشرة وجدت مكتوبة على حجر جرانيتي أسود جهة الكرنك ونقل إلى المتحف المصري وقد حذفنا صدرها وأتينا بالمنظوم منها وأوله

[illegible]	الأول: مقطع صوتي وهو عبارة عن سكين بقدمين ينطق أي وهى: دلالة على الحركة والثاني والثالث حرفان أبجديان والرابع صورة المعبود أمون رع وهو عبارة عن المتكلم وحده الواقع فاعلا وينطق أ فيكون نطق الجميع (أي أنا) والأول والثاني معناهما الذهاب والنون علامة الماضي والأخير علامة مقطعية ونفسية معًا والمعنى ذهبت.
[illegible]	الأول: مثلث متساوي الساقين داخله هرمة وهو مقطع صوتي ينطق (دو) ومعناه الإعطاء مضافًا إلى المتكلم المفرد وهو المعبود وتقدم نطقه والمعنى أعطى أنا.
[illegible]	جميع هذه الأحرف أبجدية ما عدا الخامس فإنه علامة إشارية تشير إلى الضرب ولا ينطق بها وتدل على القوة والقهر والغلبة لأنها صورة ذراع إنسان قابض على قضيب أو سوط ونطق الجميع تاتاك والكاف ضمير المخاطب ومعناها تضرب أنت.



كل واحد من هذه الطيور الصغيرة مقطع صوتي ينطق (أور) وتكررت لأجل الجمع وعلامته الضمة فتكون (أورو) ومعناها أكابر أو عظماء وهم مفعول للضرب.	
الأول صورة مقطعة صوتية تنطق (تسا) والثانية الفتحة ثم الهاء كما علمت ثم صورة نفسية لا تنطق لأنها صورة الجبل فيعلم من ذلك أن لفظة تساه علم على بلاد جبال وهي سواحل أرض كنعان مضافة إلى الأكابر.	

وإلى هنا صارت الجملة الأولى تامة لأنها تركبت من فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه فتكون الترجمة أنا أثبتت أمنحك أو أعطيك تضرب أكابر تساهى.

الأول والثاني حرفان أبجديان وهما السين والشين ثم علامة القوة وتقدمت ثم المعبود الفاعل وتقدم أيضًا أما صورة الصليب فللوزن فقط ونطق الجميع سشا ومعناه أنا أرمي لأن بها علامة القوة.	
السين والتاء أبجديان وهما ضمير جمع الغائبين يعود على الكبراء أي أرميهم أنا.	

	الأول مقطع صوتي ينطق (خر) والثاني حرف الراء وهو أبجدي وأتى به لعدم الإلتباس في المعنى ومعناه تحت أو أسفل.
	الأول والثاني عبارة عن مقطع صوتي واحد وهما رجلان مقطوعان من فخذيهما وينطقان (ت) ومعناه رجلان والكاف ضمير المخاطب وتقدمت والمعنى رجلاك.
	الأول فرع شجرة وهو مقطع صوتي ينطق خت وزيد عليه خاء وتاء لعدم الإلتباس في المعنى ثم قدمان في حركة المشي للدلالة على الحركة و معنى خت عقب أو بعد وتأتي بمعني مع.
	كل واحدة من هؤلاء الثلاثة علامة مقطعية تنطق (ست) أي جبل وتكررت لأجل الجمع وعلامته الضمة فتكون (ستو) أي جبال أو أرض جبلية.
	السين والنون أبجديان وهما ضميرًا لغائبين يعود على الأكابر أي جبالهم والثلاثة خطوط بعدهما علامة على الجمع ولا تنطق.

وإلى هنا تمت الجملة الثانية بجميع أجزائها والمعنى أرميهم أي الكبراء تحت قدميك عقب بلادهم أي عقب ما أرمى بلادهم الجبلية تحت قدميك أو أرميهم مع بلادهم الجبلية تحت قدميك يا طوطوميس و بإضافة الجملة الثانية إلى الأولى تكون العبارة أنا أتيت لامنحك تضرب أكابر أو رؤساء بلاد تساهي وأرميهم مع بلادهم تحت قدميك أما النطق بها فهو أي أن أ دو أ تتاك أورو تساهي سشاست خر رت ك خت ستوسن و بالتأمل في هذه العبارة نجد أن صورة كل

من الأرجل والمعبود والقوة والجمال ساعدت على فهم المعنى وعينت المراد منها وبها استقام الكلام وتمت الفائدة.

وهاهي ترجمة القصيدة بعد حذف صدرها

١ أنت ومنحتك تضرب أكابر بلاد تساهى (سواحل كنعان) ورميتهم تحت قدميك مع بلادهم وأريتهم جنابك كسيد الأنوار تضيء على رؤوسهم مثلي .

٢ أنت ومنحتك تضرب سكان آسيا فأسرت أمراء قبائل الروتنو (تقدم ذكر موضعهم) وأريتهم جنابك وأنت متمنطق شاكى السلاح تقاتلهم على عربتك.

٣ أتيت ومنحتك تضرب بلاد المشرق حتى وصلت إلى مدن الأرض المقدسة (بيت المقدس) وأريتهم جنابك مثل كوكب سشت (لعله الثريا) إذ يقذف النار ويجود بالندى.

٤ أتيت ومنحتك تضرب بلاد المغرب حتى صار جميع بلاد كيفا وأسى في وجل منك وأريتهم جنابك في صورة ثور شاب شديد مزين بالقرون لا يثبت أمامه أحد.

٥ أتيت ومنحتك تضرب كل البقاع فصارت بلاد ماتان ترجف فزعًا من حضرتك وأريتهم جنابك مثل تمساح مهول ساد على البحار لا يدنو منه أحد.

٦ أتيت ومنحتك نضرب سكان الجزائر فصار جمع أهل البحار فى فزع من صوت حربك وأريتهم جنابك كنتقم وقف على ظهر فريسته.

٧ أتيت ومنحتك تضرب قبائل التاهنو فاستولت على جميع جزائرهم وأريتهم جنابك كأسد ضارٍ مهيبٍ رابضٍ على رمم موتاهم بوسط أوديتهم.

٨ أتيت ومنحتك تضرب أقاليم المياه حتى صار جميع من حول البحر الأعظم مكتوفًا بين يديك وأريتهم جنابك مثل ملك الطير اذ يحوم و ينقض فيأخذ ما يشتهي.

٩ أتيت ومنحتك تضرب الذين هم في (وهنا كسر بالحجر) حتى أن أمة الهيروشا (بلاد البشارية) صارت طوع يمينك وأريتهم جنابك مثل ابن آوى في الجنوب الخفيف السير الذي يقطع الممالك ولايشعر به أحد.

١٠ أتيت ومنحتك تضرب أمم بلاد أنو (بلاد النوبة) فصارت أمة الرمنم في قبضتك وأريتهم جنابك في صورة أخوين لك وذراعًا همايحيطان بك اه.

وإذا تأملت لهذه القصيدة ومعانيها الفريدة علمت قوة مصر في ذلك العصر وأيقنت أن الحال قد إنقلب والدهر أبو العجب وقلت هيهات هيهات لتلك الاوقات تلك أمة قد مضت وأيامها انقضت ولله من قال:

إذاوضع الزمان على أناس *كلاكله أناخ بآخرين

وهذه القصيدة الفرعونية المعنى ضرب من الأشعار العربية التي كانت مستعملة عند العرب منها قول المهلهل يرد على الحارث بن عباد وكان المهلهل قتل ابنه بجيرا فقال:

قربا مربط المشهر مني * لكليب الذي أشاب قذالي

قربا مربط المشهر مني * لاعتناق الكماة والأبطال

قربا مربط المشهر مني * إن تلاقت رجالهم ورجالي

قربا مربط المشهر منى * لقتيل سفته ريح الشمال

وهي طويلة والمشهر إسم فرسه.

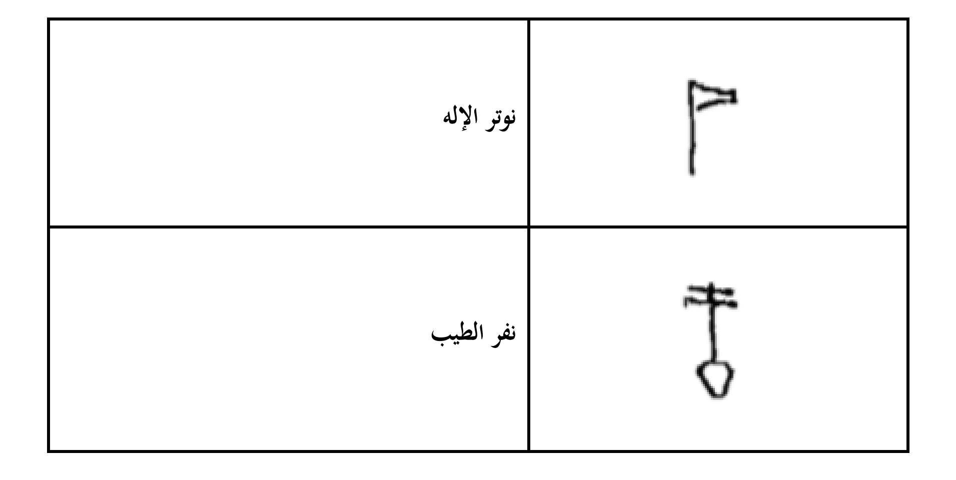
ولا يخفى ما في هذه القصيدة المصرية من الفوائد التاريخية التي افتخرت الأيام بمثلها ولعمري كم يكون الأسف على ضياع أمثالها أو تحويل أحجارها الى جير أو بيعها للأجانب أو تكسيرها و بناء المنازل بأحجارها.

أما الخانات الملوكية المعروفة عند علماء الآثار باسم الخراطيش جمع خرطوش فهي على شكل قطع ناقص تقريبًا ذى قاعدة وهي كثيرة الوجود على المعابد والأحجار والجعل أو الجعران وهذه الخانات قاصرة على كتابة أسماء الملوك والملكات فتارة تكون مزدوجة وتارة مفردة فإذا كانت مزدوجة كتبوا في الأولى لقبه وفوقه نحلة وحجنة وتنطق سوتن سخت ومعناهما ملك الصعيد والبحيرة وكتبوا في الثانية إسمه وفوقها أوزة وصورة الشمس وينطقان سا رع أي ابن الشمس وربما كتبوا فوق اللقب شيئًا من العناوين الملوكية نحو سلطان البرين أو صاحب الأرضين أو صاحب التاجين المتوج تا ج العقاب والثعبان وغير ذلك وعادة يكونان قائمين بجوار بعضها على قاعدتيهما وتارة يكونان أفقيين فوق بعضهما ولهؤلاء الخانات فائدة جليلة وهي معرفة عمر الأثر الذي هي به وبضياعها تصير الحادثة مجهولة الفاعل والتاريخ معًا إن لم يكن هناك قرائن أحوال أخرى تدل عليها ولهذه الخانات فائدة أخرى وهي أنه بمجرد نظر الإنسان إليها ومعرفة

صاحبها يتذكر من أول لمحة تاريخ صاحبها وحالة مصر في أيامه وما حصل بها من خيرٍ أو شرٍ وبذلك يكون دائما مسستحضرًا على تاريخها القديم حافظًا له وهناك صورة العناوين الملوكية التي كانت تكتب عادة على الخانات الملوكية أو بجوارها.

(صورة العناوين الملوكية الكثيرة الإستعمال على الاثار و الورق البردي)

سخت ملك البحيرة سوتن ملك الصعيد وتكتب على العنوان الملوكي	
س رع ابن الشمس وتكتب على الاسم الملوكي	
موت نب صاحب العقاب بفتح العين عرع نب صاحب الثعبان	
تب تاوى صاحب الأرضين وهما الصعيد والبحيرة	



	نوتر الإله
	نفر الطيب

	من		مس
	نفر		هور المعبود هورس
	رع		حب
	خع		سر
	قا		عا
	أوسر		مر
	دد		سو

معت آله العدل		أن	
ست معبود		حع	
سا		خبر	
سوتب		نب	
رع الشمس أمون		بح	
المعبـــود فتـــاح المعبود		أحع	
		نحـوتي أوتـوت إلـه العلوم	
عنخ		با	
نخت		حوتب	
روت		م	
ب		حق	
منخ		أن إســم مدينـــة المطرية	
فوع		تا	
سن		نوتر	

	أست		زتا
	خو		خو
	سا		سب
	نيـــت أو نـــت معبودة		نوب
	وح		ما
	أب		سبك
	قا		حم

ملحوظات

١ تبتدئ الخانات الملوكية أو الخراطيش من اليسار إلى اليمين.

٢ الخانات القريبة من بعضها تدل على إسم الملك ولقبه أو ألقابه.

٣ الأرقام الموضوعة فوق الخانات يدل الأول منها على ترتيب إسم الملك والثاني على ترتيب العائلات نحو رمسيس ٢–٩ أي رمسيس الثاني من العائلة التاسعة عشرة.

٤ قال حضرة أحمد بك كمال أن رمسيس الحادي عشر هو رمسيس الثاني وعلى ذلك يكون عدد الرمامسة أحد عشر هذا ما ظهر من الإكتشافات الجديدة.

الفصل السابع والثلاثون

في الرحلة العلمية في بيان الملوك

فإذا عرفنا ما تقدم إنتقلنا إلي ببيان الملوك أو باب الملوك وهو وادٍ في الجبل الغربي به بعض مقابر لملوك العائلة التاسعة عشرة والعائلة العشرين وكلها منحوتة في الجبل غائرة فيه وأقرب طريق له هو أن يمر الإنسان بمعبد القرنة ويتجه إلى الشمال الغربي ويمر بوسط وادٍ أغبر أقفر ليس به عود أخضر قد تعرج بين جبال قاتمة المنظر محزنة الهيئة من رآها ظن أن نارًا أصابتها فإحترقت وإسودت صخورها وهذا الوادي واقع على بعد ست كيلومترات من النيل وهناك يرى طريقه تشعب إلى طريقين ينتهي أحدهما بوادٍ صغير جهة الغرب به مقابر لبعض الملوك التي حكمت مصر في آخر عهد العائلة الثامنة عشرة وليس في رؤيته فائدة للزائرين ولذا صار متروكًا لا يقصده أحد أما الطريق الأصلي فيميل إلى الجنوب الغربي وينتهي بالمقابر التي نحن بصددها وجميعها دهاليز منحدرة تغوص في الجبل إلى أغوار مختلفة البعد ظلامها حالك لا يمكن رؤية ما بها إلا بواسطة المصابيح والشمع أو السلك المغنيسي وكان من عادتهم أنهم متى وضعوا جثة الملك في مقبرته بها سدوا عليها الباب وساووا الأرض بعضها و بالغوا في طمس معالمها وتعمية مسالكها ولكي لا يصل إليها أحد بنوا لكل ملك عمارة بعيدة عن قبره جعلوها لإجتماع أهله وأحبابه وأعيان دولته وكانوا يأتون إليها في أعيادهم ومواسمهم وقد أتت الأيام على تلك العمائر فأبلتها ودرست معالمها ولم تترك منها إلا ما كان ضخم البناء متينه (راجع ما قلناه في معبد القرية والمسيوم).

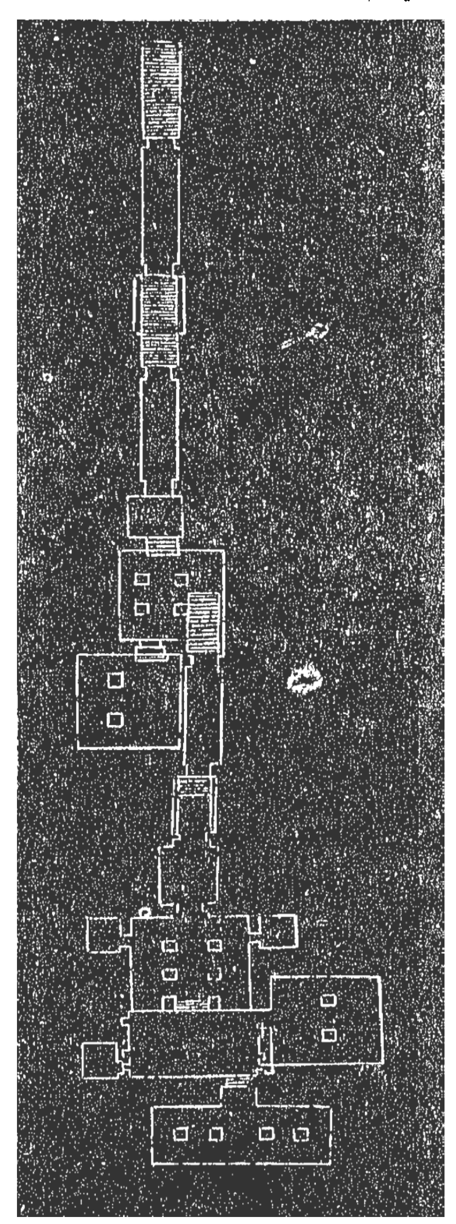
وما كان يعلم من المقابر المذكورة لغاية سنة ١٨٣٥ مسيحية إلا نحو أحد وعشرين قبرًا وإكتشف قبرًا وإكتشف مارييت باشا بعد ذلك بمدة أربعة مقابر وليس جميع ما هنالك مقابر ملوكية بل بعضها لأكابر رجال الدولة ووجوههم وقال إسترابون الجغرافي إنه يوجد فيما يلي معبد ممنونيوم أي معبد الرمسيوم نحو أربعين قبرًا منحوتة في الجبل كالمغارات جليلة الصنعة جديرة بالفرجة اهـ ولا يلزم لغير علماء الآثار إلا رؤية أعظمها وهي.

أولها وأحسنها مقبرة سيتي الأول أبي رمسيس الثاني أو الأكبر وتعرف بنمرة ١٧ وتسمى

بإسم قبر بلزوني لأنه أول من إكتشفها وتمتاز عن غيرها بالكبر والزينة وحسن المنظر ولما إكتشفها المذكور في أوائل هذا القرن وجدها مفتوحة وكانت جميع نقوشها تامة وألوانها زاهية كأنما نقشت ليومها لكن أهل القرنة والزائرون من الأفرنج تسلطوا عليها بالتلف والعوار فشوهوا محاسنها وألبسوها ثوب البلى وحفر المتفرجون أسماءهم المتوغلة في باب النكرة خلال تلك النقوش النضرة فعبس لها وجه تلك المناظر الباسمة وشق ذلك على علماء الآثار وأوجست المصلحة خيفة من أن يتم دمارها فجعلت لها ولغيرها أبوابًا من الحديد ورتبت لها الخفراء وقال ماربيت باشا ما ملخصه أن التلف الذي حصل في هذا المكان وهو من أعز الآثار المصرية منسوب بلا ريب إلى تجار الأنتيكة والسائحين الذين لم يكترثوا بالعلم ولا بأهله فيشتري هذا السائح الجاهل من ذلك البائع الخائن لوطنه تلك النفائس التي إقتلعها وأتلف مكانها فيدفع له فيها ثقلها ذهبًا عينًا ومهما أولنا أفعال هؤلاء المدمرين لم نجد لها تخريجًا غير الضرر بالعلم وليس لما فعلوه دواء اهـ.

ومتى وضع السائح قدمه في هذا القبر وجد أولًا إحدى وثلاثين درجة قائمة أي منحدرة ثم يمر في مزلقان بالجبل وعلى نحو العشرين مترًا بابًا آخر خلفه مزلقان ثانٍ ويتوغل في ذلك الظلام الحالك حتى يتخيل أنه دخل في عالم جديد فيوقد الشمع والمصابيح وينحدر في تلك الدهاليز الطويلة وينظر يمينًا ويسارًا فلم يجد أثرًا لتلك اللوحات المفرحة التي إعتاد على رؤيتها في مقابر سقارة وبني حسن وغيرها ولم يشاهد صورة المقبور جالسًا بين عائلته حسب العادة ولم ير أمتعة منزلية ولا سفنًا تجارية ولا زراعة وطنية ولا سوائم تسعى ولا غزالًا يعرى ولا عذارى ترقص ولا صيادًا يقنص ولا شيأ مفرحًا مما كانوا يرسمونه في مقابرهم حسب العادة التي كانت جارية عندهم بل يرى منظرًا هائلًا وهميًا تخيليًا يقشعر منه البدن ويقف عنده شعر الرأس حيث يرى صورة المعبودات في مناظرها الغريبة وهيآتها المختلفة وأشكالها المتباينة وصورة حيات وآفاعي هائلة مرهبة تزحف في كل مكان قد وثبت على أبواب الغرف والمقاصير المنحوتة هناك وهي فاغرة فاها تنفث السم ثم صورة المذنبين وهم منكبون على وجوههم في السجن والمعبودة بشت (رأس الأسد) تقطع رؤوسهم بسيفها أمام معبودهم أمون وبالجملة يرى الإنسان هناك صورة الحشر والنشر والبعث والحساب والعذاب ويرى الأرواح وهي تعض بنانها حسرة وندامة على ما إقترفته في دنياها ولات حين مناص ثم الفتانات وكلاب جهنم وكل ما يحدث يوم الفزع الأكبر من الأهوال والمخاوف التي تخفق لها القلوب وترجف منها الأفئدة (صورة مقبرة سيتي الأول) هنالك

يعتري الزائرين وجل وتنقبض نفوسهم مالم يتثبتوا ويعلموا أنها إعتقادات دينية رسمها القوم في هذا القبر الملوكي زجرًا للنفس كي تتم لها السعادة الأبدية بعد معاناة المحنة الدنيوية.



صورة مقبرة سيتي الأول

وجميع الرسم الموجود في هذا القبر من بابه إلى قاعة يدور على هذا المعنى لأنهم كانوا يعتقدون أنه لا محيص للروح من الحساب والعذاب ومعاناة الشدائد وقطع العقبات إلى أن تتطهر من كل رجس أصابها في حياتها أما المقاصير فهي المنازل أو العقبات السماوية والحيات الزاحفة على أبوابها هي الحفظة أو الخفراء الموكلون بحفظها وإن الروح لا يمكنها أن ترقى من منزلة إلى أخرى إلا إذا برهنت على براءتها مما يدنسها وإنها كانت بارة حفية تقية نقية أما النصوص المنقوشة هناك فقصائد ومدائح للمعبودات تنشدها الروح متى مثلت بين يديهم لإمتحانها ومتى ظهرت براءتها أمامهم صارت في حياة أبدية وإنتهت كل محنة وألحقت بالآلهة وطافت الملكوت و العوالم العلوية حيث الكوكب والنجوم وبالإختصار نقول أن كل ما هو منقوش على هذا القبر عبارة عن سفر الروح وما تقاسيه من الشدة إلى أن تصل للنعيم المقيم فترى الرسم يتدرج به من إبتداء مفارقة الروح جسمها ويترقى شيئًا فشيئًا في كل جهة فما يصل إلى الفسحة الأخيرة ذات الأربعة عمد إلا وصارت الروح في الحياة الأبدية خالدة لا تموت مرة ثانية.

ولما إكتشف العلم (بلزوني) هذا القبر كان به تابوت نفيس من المرمر موضوع في الفسحة الأخيرة من القبر فأخذه الإنكليز ونقلوه إلى متحفهم وهو الآن ضمن مجموعة الآثار المنسوبة إلى المعلم (سلوان) ويرى فيها أي في الفسحة سرداب غائر في الجبل وليس به شيء يعتد به وعمق هذا القبر مائة وخمسون قدمًا وطوله خمسمائة قدم وهو منحوت في الجبل بالميل كالمزلقان به مقاصير صغيرة.

ويرى في أحد الأروقة على اليمين كيفية مبادئ الرسم وهو تحديده أولًا بالخطوط ثم تلوينه بعد ذلك بالألوان ويظهر أن هذا القبر ما كان تم عمله.

أما جثة الملك صاحبه وهو سيتي الأول فقد وجدت مع جثث الملوك التي عثر عليها مُحَمَّد أحمد عبد الرسول في الدير البحري وقد سبق ذكر ذلك في هذه الرحلة.

(ثانيها نمرة ١١) وهي مقبرة رمسيس الثالث ويعرف عند الأفرنج بإسم قبر بروس **(Brues)** وهو سائح أتى إلى مصر في هذا القرن وتفرج على آثار تلك الجهة وهو أول من رأى من الأجانب هذه المقبرة وأذاع صيتها بين الناس في أوربا فنسبوه إليه كما يسمونه بقبر الآلاتية وعلى قدر ما يوجد بقبر سيتي الأول من الدقة في الرسم والإتقان ولطافة الصنعة على قدر خمول رسم هذا المكان مع أن صاحبه رمسيس الثالث كان من أشهر الملوك أرباب الغزو الذين أرهبوا

الأمم بحربهم وقد يوجد في دهليزه مقاصير أو حجرات تستحق الفرجة لأن بها مناظر متنوعة جدًا وسفنًا ومنقولات منزلية وأواني وخودًا ومغافر وقسى ونشابًا وحرابًا وفي بعض مقاصيره صورة الآلاتية تضرب على الجنك فلذا سمي بقبر الآلاتية ومتى دخل المرء ومشى فيه قليلًا علم أن في مبدأ تصميمه عيبًا ظاهرًا لأن دهليزه ينعطف إلى اليمين بدل أن يستقيم في سيره فيعلم من ذلك خطأ المهندس المعماري الذي كلفه الملك بنجاز عمله لأنه بعدما نحت به مسافة بدا له قبر آخر بجواره فحاد عنه إلى اليمين وإستنكف أن يتركه ويصنع غيره فبقي مزورًا (أي منحرفًا) على ما تراه وكان في رواقه الأصلي تابوت من الجرانيت الوردي مصنوع على هيئة الخرطوش أخذه المعلم سلت وهو الآن بمتحف لوفر بفرنسا أما غطاؤه فنقل إلى متحف كمبريدج **(Cambridge)** ببلاد الإنكليز.

وبهذا القبر خطوط يونانية قديمة ليس لها علاقة به لكنها دلت على إنه كان مفتوحًا أيام دولة البطالمة وإن الناس كانت تأتي للفرجة عليه ويكتبون أسماءهم به أما جثة الملك صاحبه فوجدت في الدير البحري مع الملوك التي عثر عليها مُحَمَّد أحمد عبد الرسول وهي الآن بالمتحف المصري وطول هذا القبر يبلغ أربعمائة قدم.

(ثالثها نمرة ٢) وهي مقبرة رمسيس الرابع وتختلف عن باقي المقابر الملوكية بإتساعها وإرتفاع سقفها وقلة ميل دهليزها حتى أن الإنسان يتيسر له رؤية جميع ما بها وهو راكب على ظهر جواده وتابوتها الجسيم باقٍ إلى الآن في آخرها متخذ من الجرانيت وليس بهذه المقبرة شيء غريب يستحق ما يستحقه قبر سيتي الأول من النظر والتفكر وبه كثير من خطوط قدماء اليونان دلت على أنها كانت مفتوحة أيضًا أيام دولة البطالمة.

(رابعها نمرة ٩) وهي مقبرة رمسيس السادس وكانت تعرف عند اليونان بإسم ممنون بدليل كتابتهم الموجودة الآن به ولا نعلم السبب لهذه التسمية وهي مشهورة بمناظرها الفلكية المرسومة على سقفها ويوجد في آخرها تابوت الملك وهو متخذ من حجر الجرانيت ضخم جدًا غير إنه مفتوح.

أما نقوش هذه المقبرة فدينية تحدثنا بإعتقادهم فيما تعانيه الروح في الدار الآخرة ويبتدئ الرسم من باب القبر من الجهة اليسرى ويدور فيه على جدره و ينتهي بالباب من الجهة اليمنى أعني على يمين الداخل حيث يرى على يساره بالقرب من الباب صورة الأرواح مكتوفة الأيدي

في حالة يرثى لها يسوقها أحد المعبودات بعصاه إلى الحساب والعقاب وقد وقع أمامه كل مجرمة أثقلتها ذنوبها ثم صفوفًا من المعبودات لها مناظر مختلفة وهيئات متباينة ويأخذ الرسم في التدريج على حسب ما تكابده الروح إلى أن تقف في الموقف الأكبر بين أيدي الآلهة ويرى في الفجوة التي في نهاية القبر على اليسار رؤسًا بلا أبدان وأبدانًا بلا رؤس وكلها في السجن والمعبودة بشت (رأس الأسد) تشد الوثاق من كل مجرمة والجلاد بيده السيف يرمي به الرؤس وكأن لسان حاله يقول.:

أضـــاعوا العمـــر في طلـــب المعاصـــي فويـــــل يـــــوم يؤخـــــذ بالنواصـــــي

وبالجملة يرى الإنسان صورة الأرواح وهي في الطامة الكبرى والصاخة العظمى ما بين قائمة على قدميها ومنكبة على وجهها وراقدة على جنبها ومنكسة بلا رأس أو بها والمعلقة من يديها ورأسها مائلة إلى خلفها لها منظر تخفق منه القلوب والمعلقة بإحدى رجليها بعد ما قطعت رأسها لتشوى في نار جهنم وتصلى شواظها وفي السقف صورة المعبودة نوت (أي السماء) لها شكل مزدوج قد تحلقت بالملكوت والآلهة صفوف في هيآتهم المتنوعة التي تقشعر منها الأبدان منهم من له رأس أسد ومن له رأس طائر ومن له شكل ثعبان جاف وغير ذلك مما هو مشاهد هناك فإذا دار الإنسان مع الرسم وتحول إلى الجهة اليمنى من المقبرة رأى فجوة مثل الفجوة الأولى مقابلة لها بها صورة الأرواح منها المقرنة في الأصفاد لتصلى العذاب ومنها المعلقة والمقطوعة الرأس والجاثية على ركبتيها بلا رأس مكتوفة الأيدي من خلفها وترى الروح إلتصقت بالجعل (الجعران المدعو خبر) يشيرون بذلك إلى أنها على وشك العودة إلى الحياة ثم تراها تحولت إلى صورة طائر وقد مد له سبب أي حبل فتمسكت به أمام سفينة المعبودات أو الشمس ثم صورة وقوفها وهي ضاوية ضئيلة لدى الثعبان خفير أحد المنازل السماوية ثم الجعل وقد خرج من الشمس إشارة إلى تجديد الحياة وغير ذلك مما يطول ذكره وكلها يدل على ما يؤل إليه أمر الأرواح الطاهرة التي دخلت أصحابها في قول الشاعر:

قـــــوم فعلـــــوا خـــــيرًا فعلـــــوا وعلـــــى الـــــدرج العليـــــا درجـــــوا

ويظهر أنهم جعلوا في الفجوة التي جهة اليسار صورة الحكم والتنفيذ وجعلوا في التي على اليمين صورة العذاب ثم إنتقال الروح من حالة إلى أخرى فإذا إتبعنا هذا الجدار وسرنا نحو الباب رأينا تقلب الأرواح في جملة أحوال وصورة المعبودات إلى أن نرى بالقرب من الباب هيئة الأرواح الخبيثة قد طردت من الرحمة فخرجت وهي مكتوفة بلا رأس ولسان حالها يقول:

إعمـــــل لمعـــــادك يا رجـــــل فالنـــــاس لـــــدنياهم عملـــــوا
وإدخـــــر لمســـــيرك زاد تقـــــى فـــــالقوم بـــــلا زاد رحلـــــوا

وبالجملة فهذا القبر يقرب برسمه ومناظره من قبر سيتي نمرة ١٧ والله أعلم.

(خامسها نمرة ١) وهي مقبرة رمسيس التاسع ويظهر من حالتها أن العمال الذين كانوا يباشرون نقشها وزينتها صرفوا فيها أيامًا طويلة لأن نقشها دقيق جدًا غير أن جميع ما بها من تلك النقوش والزينة ديني إذ هو عبارة عما يعتري الروح بعد الموت وما آل إليه حالها بعد مفارقتها جسم صاحبها حسب إعتقادهم وإن أبديتها موعود بها.

وأقدم جميع هذه المقابر هو قبر رمسيس الأول أبي سيتي الأول وكان إكتشفه المعلم (بلزونى) مع باقي المقابر التي تيسر له فتحها والي هنا إنتهى وصف أهم المقابر الملوكية التي في بيبان الملوك فإذا أردنا العودة من هذا المكان إلى الأقصر فلنا ثلاثة طرق أقر بها وأسهلها هو أن نعود من حيث أتينا وإلا إتبعنا سبيل الجبل وصعدنا فوقه وهناك نرى طريقين أحدهما يتجه إلى الشرق والثاني إلى الجنوب غير أن الصعود على الجبل والنزول منه صعب جدًا لشدة الإنحدار ولا يقدر الإنسان على الركوب فيهما فيتجشم المشاق والطريق الذي يتجه إلى الشرق يصل إلى الدير البحري ثم العصاصيف أو العساسيف والطريق الذي يتجه إلى الجنوب يسلك في الجبل وينعطف طويلًا ثم يصل أخيرًا إلى ما خلف مدينة أبو غير أن هذا الطريق الأخير يسمح للزائرين أن يروا مرة ثانية معبد الرمسيوم ومعبد القرنة.

ملحوظة—قدرت عادة السائحين أنهم متى وصلوا إلى الأقصر صرفوا فيه يومًا لرؤية معبده وباقي معابد الكرنك وفي اليوم الثاني يقطعون النيل ويقصدون زيارة معبد القرنة ثم بيبان الملوك ويصعدون الجبل ويسلكون طريق الدير البحري ثم يعودون إلى الأقصر وفي اليوم الثالث يعودون لرؤية صنمي ممنون ومعبدي الرمسيوم وأمونوف وباقي الآثار التي هناك ثم معبد رمسيس الثالث بمدينة أبو ويعودون قبيل المساء وهذا هو أحسن طريق لرؤية الآثار الواقعة على الشاطئ الغربي للنيل.

وهنا آنست من نفسي الملل فأمسكت عن وصف باقي الطلل وإنتهى التحرير وجف المداد وخلع القلم ثوب السواد وإنبرى إلى الراحة وغادر البنان والراحة.

مجمل

حكاية رمسيس الحادي عشر أو الثاني عشر أو الثاني وزوجته شمس البهاء بنت أمير بختن وأختها المسماة بنت رش أو بنت نترش أو بنت رشتي التي أصابها مس من الجني وجدت مكتوبة على حجر بمعبد خنسو بالقرنة فأخذه أحد الفرنسيس وجعله في دار كتبهم بمدينة باريس.

المقدمة

(١) هوروس الثور القوي مشيد وموطد الممالك مثل المعبود توم هوروس الذهب القاهر بسيفه الغالب على الأمم التسعة (أصحاب القوس والنشاب) ملاك الوجهين ورب الأرضين (أوس مارع إستبن رع) إبن الشمس من أحشائها (أمن مررع مسس) «أى رمسيس ميامون». (٢) سيد تخوت القطرين وطائفة القدسين قاطبة المولى المحسن محب أمون رع وإبن هوروس وسلالة هرماخيس الشهر الجليل السيد المطلق ملك مصر وحاكم فنقيا. (٣) المولى القابض على التسعة أقوام أصحاب القوس والنشاب من وقت ظهوره إلى الدنيا حليف النصر القوي الجأش المقدام الثور الملك المقدس الشمس المشرقة صاحب القوة العبود (منتو) شديد البطش مثل أبيه المعبود (نوت).

الحكاية

(٤) لما كان سعادته في أرض نهر (وهي أرض الجزيرة أو بلاد الموصل أي بلاد الكردستان) كعادته السنوية أتت إليه أمراء البلاد الأجنبية خاضعين له عن طيب خاطر يحملون إليها الجزية من البلاد القاصية من ذهب ولازورد وحجر دهنج. (٥) وخشب زكي

(ملحوظات)

الأولى–جرى أغلب علماء الآثار الآن على أن هذا الملك هو رمسيس الثاني.

الثانية–مدينة بختن المذكورة في هذه الحكاية قال بعضهم هي في بلاد باغستان وقال بروكس باشا إنها مدينة بكثر يان أي همذان ثم قال في موضع آخر أن مكانها مجهول الآن وقال بعضهم غير ذلك وأقول قد ظهر لي أنها مدينة بغداد لأن مكانها كان يعرف قديمًا بإسم بغدان (راجع القاموس وشرح المقالة الثالثة عشرة البغدادية من مقامات الحريري للشريشي) كما أن لفظه به إسم لصنم وهو متفق عليه عند العرب وفي اللغة القديمة سيما وأن الواقعة كانت بالقرب من هذه

المدينة.

الثالثة–الأرقام الموضوعة تدل على عدد الأسطر البربائية التي في الأصل.

الرائحة جميعه من بلاد الحجاز وكانوا يحملون جزيتم على ظهرهم وكل واحد كان يجتهد أن يسبق رفيقه ليقدم جزيته للملك فجاء أمير بختن وأعطى جزيته وجعل بنته الكبيرة في مقدمتها. (٦) وكانت نادرة في الجمال فوقعت محبتها في قلب الملك ولقبها الست الملوكية وسماها (رع نفرو) أي شمس البهاء ولما عاد إلى مصر صنع لها من الإحتفال ما يليق بأمثالها الملكات وفي الثاني والعشرين من شهر أبيب سنة ١٥ من حكمه توجه إلى مدينة طيبة عاصمة البلاد. (٧) وبينما هو مشتغل في طيبة الجنوبية بتلاوة التمجيد في العيد الجليل للأب أمون سيد تخوت الملك إذ أتوا إليه وأخبروه أن نجابًا أتى من طرف أمير بختن بهدايا كثيرة. (٨) إلى الملكة فأمر بإحضاره ولما تمثل بين يديه قال بخشوع السناء لك يا شمس التسعة أم أصحاب القوس والنشاب أعطني الحياة عندك ثم سجد على الأرض وقال أتيتك أيها الملك العظيم يا مولاي بخصوص (بنت نترش) أختك للملكة شمس البهاء (أي سلفتك). (٩) حيث أصابها الضر ودخل في أعضائها فلتأمر سعادتك بعالم روحاني ينظرها وفي الحال أمر سعادته بإحضار علماء الأسرار من مدرسة القسس الملوكية. (١٠) فأتوا إليه على الفور فقال سعادته أتدرون لماذا أحضرتكم إنما أحضرتكم هنا لتسمعوا وتعوا إئتوني من جمعيتكم هذه بعالم فقيه يكتب بأصابعه فأحضروا له الكاتب الملوكي. (١١) المدعو (تحوت أم حب) فأمر سعادته أن يتوجه صحبة النجاب إلى مدينة بختن فلما وصل إليها وجد (بنت رشتي) في حالة من أصابه مس من الجن ووجد نفسه. (١٢) عاجزًا عن مطاردته فعند ذلك أرسل أمير بختن إلى ملك مصر نجابًا ثانيًا يترجاه أن يرسل المعبود خنسو ليرى (بنت رش). (١٣) فوصل الخبر في غرة بؤنه سنة ٢٦ من حكم الملك الموافق موسم أمون وكان الملك في طيبة فأعاد النجاب على سعادته القول في شأن خنسو طيبة الجليل المتين قائلًا أيها السيد المحسن أنا أكرر أمامك بخصوص بنت أمير بختن. (١٤) فمضى إلى خنسو الجليل المتين لأجل خنسو النصوح الكبير المقدس طارد الضرر وقال سعادته أمام خنسو طيبة الجليل المتين أيها السيد المحسن لو أمرت خنسو. (١٥) النصوح المقدس الكبير طارد الضرر أن يمشي إلى بختن ليزيل الضرر في هذه الدفعة الثانية ثم قال سعادته وأن تجعل بركتك معه (فقال خنسو طيبة) أنا أرضى بسفر حضرته إلى بختن ليخلص بنت بختن. (١٦) ويسكن الضرر مرة ثانية ثم حف خنسو النصوح بالبركة أربع مرات وأمر سعادته أن خنسو النصوح يسافر في سفينة كبيرة

وخمس سفائن صغيرة وأن يأخذ معه عربة. (١٧) وخيلًا كثيرة تمشي من الغرب والشرق (أقول أن النتيجة من هذه العبارة الطويلة التي أولها السطر الثالث عشر وآخرها نهاية السطر السابع عشر هي أن أمير بختن أرسل النجاب إلى ملك مصر فطلب منه أن يرسل معه المعبود فتوجه الملك إلى خنسو معبود طيبة وترجاه أن يرسل الصنم خنسو إلى بلاد بختن فرضى المعبود بذلك وحفه ببركته ثم سافر هو والكاهن والنجاب في سفينة كبيرة إلخ) فلما وصل خنسو (أي الصنم والكاهن) إلى المدينة التي فيها (ينت رش) بعد سنة وخمسة شهور حضر أمير بتجن ومن معه لإستقباله وسجد. (١٨) على الأرض وقال له قد إبتهجنا بنجاز أمر رمسيس ميامون ثم أحضروا خنسو إلى المكان الذي فيه (بنت رش) وكتب خنسو (أي كاهن الصنم) الطلاسم فشفيت البنت. (١٩) لوقتها ونطق الجني عليها أمامه قائلًا مرحبًا بالمعبود الكبير طارد. (٢٠) الضرر أعلم أن بلاد بختن لك وسكانها عبيدك وأنا أيضًا عبدك وها أنا أذهب. (٢١) إلى حيث جئت لينشرح صدرك بنجاز المقصود الذي أتيت من أجله فقال خنسو (أي الكاهن عن لسان حال الصنم) ليصنع أمير بختن قربانًا عظيمًا أمام هذا الجني ووقتما كان خنسو يتلو العزائم على الجني كان أمير بختن وعساكره في رعب شديد. (٢٢) ثم صنع قربانًا عظيمًا أمام خنسو والجني لإشهار يوم مهرجان لهما ثم ذهب الجني إلى حيث أراد حسب أمر خنسو النصوح. (٢٣) وفرح أمير بختن وكل الناس في بختن فرحًا شديدًا ثم أن أمير بختن وسوس له قلبه قائلًا إذا كان هذا المعبود هدية إلى بلاد بختن فلا أتركه يرجع. (٢٤) وبذلك مكث في بلاد بختن ثلاث سنين وتسعة أشهر وبينما أمير بختن نائم على سريره إذ رأى في منامه أن المعبود خرج من مقصورته وإنقلب باشقًا من ذهب ونشر جناحيه وطار إلى مصر. (٢٥) فإنتبه من نومه ووجد نفسه مريضًا فقال لكاهن خنسو أن المعبود يريد فراقنا وأمر أمير بختن بعودته إلى مصر وأعطاه هدايا كثيرة فلما وصل بالسلامة إلى طيبة (٢٧) توجه إلى معبد خنسو ووضع أمامه الهدايا العظيمة التي أهداها إليه أمير بختن فلم يأخذ منها شيأ وبعد ذلك عاد خنسو النصوح (٢٨) إلى معبده في اليوم الثالث عشر من أمشير سنة ٣٣ من حكم الملك رمسيس ميامون معطي الحياة ومخلد الذكر اهـ.

الفصل الثامن والثلاثون

في الرحلة العلمية من الأقصر إلى جبل السلسلة

كيلومتر

١٤ من الأقصر إلى أرمنت

٤٢ من أرمنت إلى إسنا

٧٥٦ من بولاق إلى إسنا

ثم نغادر الأقصر ونتجه إلى الجنوب وبعد ما نقطع ستة وخمسين كيلومترًا نصل إلى بندراسنا وبها من الآثار القديمة معبد مطمور بالأتربة واقع في أصقع جهاتها عليه جملة دور ومنازل للأهالي لم ير منه غير إيوان الأعمدة المقابل للباب العام فينزل له الإنسان بجملة درجات ووجهته وأساطينه من بناء الرومان حيث يرى عليها إسم كل من الإمبراطور (قلوديوس) و(دومسيانوس) و(قومودوس) و(سبتيم سواريوس) و(كراكلا) و(جاتا) أما داخل الإيوان فجني من زمن اليونان أي أيام دولة البطالسة وقد حقق بعضهم أن بطليموس (فيلوماطور) أي محب أمه (سمي بهذا الإسم لتهكم والسخرية لبغضه إياها) بني جانبًا منه وجميع كتابة هذا الإيوان قبيحة وإنشاؤها رديء يتخللها ألفاظ قد تلاعب الكاتب بمعانيها وإستعملها في غير ما وضعت له ثم جناسات دخلها لغرابة والتعقيد ثم أحرف مقطعية قد زاغت معانيها عن الحقيقة وكل ذلك يوجب حيرة القارئ ولا يقوى على حل معانيها إلا فحول العلماء ومن له قدم راسخ في علم الآثار لأن المعاني مختفية تحت هذا التنافر وركاكة الإختراع وعلى الحيطان والعمد صورة بعض المعبودات ونوع السمك المعروف الآن بإسم لاطس اللذيذ اللحم ولعله كان مقدسًا في ذلك الإقليم بدليل أنه وجد في هذه السنين الأخيرة على نحو الساعتين من بلدة إسنا فساقي مملوءة برمم السمك المحنط وإذا تأملنا إلى السقف رأيناه وتيجان الأساطين الحاملة له محجوبًا بالعثان (الهباب الأسود) لكن نلمح من خلال ذلك السواد صنعة دقيقة متقنة النقش وسخاوة ظاهرة في الرسم تكاد أن تكون معدومة في مباني ذلك العصر وذلك أن النقش والحفر لم يكونا فنًا كالعمارة المصرية التي إضمحلت بمصر مدة اليونان والرومان وللأساطين المذكورة منظر بديع لأنها قائمة بالهندام فوقها تيجان تجمل ذلك السقف وكلها من الحجر الجافي والمسافة التي بين العمد ضيقة وتيجانها في

غاية البهجة مصنوعة على هيئة باقة من البشنين (الإقحوان الذابل) ولعل الرومان إتخذت هذه الهيئة من معبد جزيرة فليا الذي صنع اليونان أساطينه على شاكلة أساطين معبد مدينة أبو ومعبد الكرنك ويظهر أن هذا إلا نموذج القديم أحيته اليونان بعد مواته وإندراس إستعماله وذكر بعض علماء الآثار أن شمبليون الشاب نظر إلى داخل المعبد المردوم فرأى محله الأقدس وقرأ عليه إسم الملك طوطوميس الثالث وقال ماريبت باشا أن هذه الرواية تحتاج إلى الإثبات والتحقيق إذ لا يمكننا الآن أن ندخلها في دائرة العلم بأن نعزي بناء المردوم منه إلى الملك المذكور لأنه من المستحيل الآن أن يرى الإنسان شيأ منه غير الرحبة العظيمة الداخلة وكلها مطمورة بالأتربة اهـ.

وفي سنة ١٨٩٢ أخبرني بعض الأهالي أن كثيرًا من المنازل والدور مبني فوق المعبد المردوم ثم أشار إلى منزل منها وقال لي كان لصاحبه جاموسة فدخلت في بعض الأيام مساء إلى مكانها حسب عادتها فإنشقت الأرض وغارت فيها إلى أسفل المعبد وما قدر أحد على إخراجها فماتت تحت الأرض وهي باقية إلى الآن وكان ذلك من نحو أربع سنين ثم أن الرجل أخذني إلى حارة ضيقة فوجدت بعض جدرها مبنيًا بالحجر النحت المكتوب بالقلم القديم وفتح لي بعض الحوانيت وأطلعني على بعض الجدر المكتوبة ورأيت بالمنازل مباني قديمة تشهد أنها من المعبد فعلمت صحة قوله وأن المعبد كان كبيرًا ثم خابرت مصلحة الآثار أن تشتري جميع المنازل التي فوقه وتزيلها لتظهره لكنها لم تفعل بعد.

كيلومتر

٢٨ من إسنا إلى الكاب

٢٢ من الكاب إلى إدفو

٨٠٦ من بولاق إلى إدفو

ثم نسير إلى الجنوب فإذا قطعنا ثمانية وعشرين كيلومترًا بلغنا قرية الكتاب الواقعة على الضفة الشرقية للنيل وهي مشهورة بمغاراتها وهيكلها الصغير المبني في زمن العائلة الثامنة عشرة الواقع على نحو أربع كيلومترات من النيل وكانت هذه القرية من قديم الزمان معسكرًا حربيًا لمنع إغارة أمة الهيروشا المعروفة الآن بإسم أمة البشارية وقد دلت الكتابة المنقوشة هناك على أن هذه الأمة كانت تهدد مصر في كل حين بالإغارة وتتوعدها بالقدوم ويرى بهذا المكان الآن أثر قلعة حربية قديمة وسورها مبني باللبن (الطوب النيء) وربما كان بناؤها مدة الطبقة الأولى المصرية وقد

رأيت عرضه يزيد عن ثلاثة أمتار ورأيت بالقرب من جبلها معبدًا صغيرًا مهدومًا لأحد البطالسة وفي هذه السنين الأخيرة أجرت مصلحة الآثار الحفر بالقرب من هذه القلعة فوجدت صنمًا هائلًا مكسورًا مصنوعًا من الحجر الجيري يظهر من حالته أنه من عمل دولة العمالقة فإذا تحقق ذلك كانت فائدة تاريخية مهمة وهي إمتداد حكم العمالقة إلى الصعيد الأقصى لكن ذلك لم يتحقق بعد.

ورأيت في الجبل الغربي أمام قرية البصيلية مغارات وكهوفًا بعضها مكتوب وبعضها غفل وبلغني أنه يوجد في الجبل على بعد ساعة جهة الشمال الغربي من هذه المغارات عين ماء يقصدها المرضى ليغتسلوا ويشربوا منها فقصدتها وقت الظهر وكان الحر يشوي الوجوه فإذا هي حفرة صغيرة طبيعية بوسط الجبل وحولها أواني من الفخار لأخذ الماء بها وهو لا يكاد يبلغ الثلاث قرب يمكن الإنسان أن يشرب منه بيديه لقربه فأمرت من كان معي من الخفراء بنزحها ففعلوا ونظرت إلى قاعها فرأيت سلسالًا من الماء الصافي الضعيف ينجبس من الصخر فإنتظرته ريثما جم وإجتمع فشربت منه فإذا هو معدني بارد له طعم الماء المعروف بماء فيشي المستعمل في الطب فأكثرت من شربه لأقف على مفعوله وغسلت وجهي منه فإستشعرت بألم في عيني و إسهال خفيف وإدرار البول ولما عدت إلى السفينة أمرت أحد الناس فملأ لي منها قدرًا كبيرًا وجعلته في زجاجات وكنت آخذ منه كل يوم مع الأكل فكان يحدث معي ما ذكر ويساعد على الهضم غير أنه بعد ثلاثة أيام تغير طعمه وصار آسنًا فأهملته ولا أدري إن كان له فائدة طبية غير ما ذكر ولعل حكومتنا السنية وأطباءنا يكشفون لنا عن فائدة هذا الماء وقال لي بعض الأهالي أنه يوجد بقرية الكاب أي في الجانب الشرقي للنيل عين أخرى على سمت هذه يأخذ منها الأهالي للطبخ والعجن.

فإذا يمنا الجنوب وصلنا بعد ساعتين تقريبًا إلى معبد إدفو ذي الأبراج الشاهقة التي يراها السائح من بعد كالقلاع أو الجبال الشاهقة إذ ليس لعلوها مثيل في جميع أبراج المعابد المصرية لأنها تبلغ ٣٥.١٠ مترًا وبها مائتان وستة وأربعون درجة ولوضع المعبد مشابهة معبد دندره الذي سبق ذكره ورسمه في هذا الكتاب وهو محاط من جهته الغربية والجنوبية بتلال من الأتربة تحاكي آكام الجبال وقال ماربيت باشا أن معبد إدفو كان مطمورًا بالأتربة وما فيها حتى تساوى بما حوله من الآكام فتطرقت الناس إليه بالبناء وجعلوا فوق صحنه المردوم بالتراب وعلى سطحه منازل وغرفًا ودورًا وإسطبلات للماشية ومخازن (يعني كمعبد إسنا الآن) فإهتمت الحكومة بشأنه وأزالت

جميع ما عليه وما به والفضل في ذلك لوالي مصر أعني (حضرة إسماعيل باشا) ومن دخل فيه الآن وعلى أنه كان مدفونًا تحت التراب علم مقدار ما قاسته الناس في كشفه وتالله إنها لخدمة جليلة للعلم وذويه اهـ. وفي سنة ٩٢ رأيت حوله الأتربة التي كانت به مكومة كالجبال ورأيت الجدار الغربي من حوش البواكي قد مال إلى الشرق قليلًا وأمال معه العمد وباكيتها فتشوه منظر الحوش وأخبرني مفتش المعبد أنهم لما أجروا تنظيفه لم يفتكروا أن يرفعوا الأتربة التي حوله من الخارج حتى كانت تحصل الموازنة فتدافعت الأتربة من الجهة الغربية فإختل مركز ثقل الجدار فمال وأمال معه الباكية والعمد إلى الجهة الشرقية كما ذكر.

أما بناء المعبد فمن زمن بطليموس الرابع المسمى فيلوباطور (أي محب أبيه) (تسمى بذلك تهكمًا وسخرية لأنه كان يبغضه) وهو الذي بنى محله الأقدس وجميع الأروقة التي حوله كما بنى جميع أماكنه المهمة ولبطليموس السادس المدعو فيلوماطور (أي محب أمه) زينة ونقوش في بعض فسحاته أما الحوش أو رحبة البواكي التي خلف الأبراج فمن بناء بطليموس التاسع المدعو أو يرجيطه الثاني أي الرحيم (تسمي بذلك تهكمًا أيضًا لقساوته) ويرى على أحد جانبي الدهليز الخارج إسم بطليموس أو يرجيطه المذكور وعلى الجانب الآخر إسم بطليموس الحادي عشر المدعو إسكندر أما الأبراج فقد زينها بطليموس الثالث عشر المدعو ديونيزوس أي النباذ أو الخمار (سمي بهذا الإسم لتولعه بشرب الخمر) وكتابة النقوش العجيبة الموجودة على جلسة جدر المعبد من الخارج تستحق التأمل وعلى كل رواق إسمه (أي إسم الرواق) بحيث إنه يمكن الآن بكل سهولة رسم هذا المعبد وبيان جميع أماكنه باللغة البربائية حسب ما هو مبين به ومن العجب أنه مبين بكل رواق مقدار طوله وعرضه بالأذرع المعمارية القديمة مع كسورها فإذا مسحنا أحد هذه الأروقة وعرفنا مقدار ذرعه أمكننا إستخراج مقدار الذراع المعماري الذي كان مستعملًا بمصر في زمن دولة البطالسة وقد علمنا من النصوص التي عليه أن بناءه ابتدئ في زمن بطليموس فيلوباطور (محب أبيه) وإنتهى في زمن بطليموس أو يرجيطه الثاني (الرحيم) وهذه المدة عبارة عن نحو خمس وتسعين سنة والسبب في عدم نجاز بنائه في زمن قريب هو كثرة الحروب والفتن الداخلية والخارجية التي كانت تقع بين ملوك البطالسة وبعضها أو بينها وبين ملوك الشام فإذا أضفنا إلى ذلك مدة زينته التي إنتهت في زمن بطليموس الخمار آخر ملوك البطالسة لكان جميع مدة عمارته وزينته مائة وسبعين سنة تقريبًا ويرى في أحد أركان فسحاته ناووس أو محراب قطعة واحدة من حجر الجرانيت الرمادي الأرقط (المنقط) يجذب النظر إليه لدقة صنعته عليه كتابة تخبر

عن أصله وتاريخه يعلم منها أنه من عمل نقطنبو الأول (من العائلة الثلاثين) جعله ناووسًا لمعبد آخر كان محل هذا المعبد قبل بنائه وكان معدًا لحفظ الرمز السري الذي هو تمثال المعبد.

وعرض جميع هذا المعبد بعد طرح سمك سوره وأبراجه ٤. مترًا وطوله ٧١.٨٥ مترًا فإذا أضفنا إليه الأبراج بلغ عرض الوجهة ٧٥ مترًا وطوله ١٣٧.٦٠ متر.

ومن زار معبدي إدفو ودندره علم أنهما أخوان توأمان لأن أصل تصميمهما والغرض منهما واحد بدليل الكتابة المنقوشة على معبد إدفو وأن القسس كانت تجتمع في كلا المعبدين بالرحبة الثانية أو الحوش الثاني وتجهز الزفاف السنوي في المقصورة المعدة لذلك وتجعل القرابين في أروقتها الخاصة لها أما الأبراج فلم يعلم أنها كانت مختصة بشيء ديني وقد سبق القول عند ذكر معبد الأقصر أن فائدتها إشهار المعبد كالمئذنة وأبراج الكنيسة إذ لا دخل لها في الديانة.

وعلى ظاهر أبراج هذا المعبد أخاديد رأسية داخلة في الحائط منشورية الشكل كانت القسس تثبت فيها يوم أعيادهم صواري من الخشب الطويل جدًا يعلوها بيارق وأعلام تخفق فوق الأبراج وقد علم أن طول هؤلاء الصواري ما كان ينقص عن خمسة وأربعين مترًا فكانت تثبت في الأبراج بواسطة كلاليب تنفذ من الشباك المربعة التي ترى من الخارج مصنوعة في طول تلك الأخاديد ثم تتصل تلك الكلاليب بجهاز مثبت في الأروقة التي بها تلك الشبابيك.

كيلومتر

٤٢ من إدفو إلى جبل السلسلة

٨٤٨ من بولاق إلى جبل السلسلة

ثم تتحول من بندر إدفو إلى الجنوب وبعد أن نقطع إثنين وأربعين كيلومترًا نصل إلى جبل السلسلة الشهير بحجره الرملي العجيب الذي بنيت منه أغلب المعابد وكانت مقاطعه أهم جميع المقاطع المصرية لأسباب منها صلابة معدن حجره وقربه من النيل وسهولة المرسى بالسفن وحجر الجبل الشرقي أهم وأعظم من حجر الجبل الغربي وكان أغلب مقاطعهما مكشوفة بعضها في شاهق منه على حافة النيل يبلغ إرتفاعه من خمسة عشر مترًا إلى عشرين مترًا وبعضها على هيئة مدرج عظيم فيرى الزائر هناك الطريقة التي كان يستعملها القوم في قطع تلك الأحجار من مقالعها والإعتناء الذي كانوا يحرصون عليه في العمل حيث كانوا يجعلونها أقسامًا كبيرة منتظمة كنجار ماهر نشر كتلة من خشب ذي قيمة جعلها ألواحًا متساوية الأطراف منتظمة الطول

والعرض ولا ندري بأي آلة كانوا يباشرون هذا العمل ويتحصلون على ذلك الغرض سيما وأن هذا الحجر يبري الحديد ويأكله لحراشة ملمسه ومشابهته لحجر المسن وقد دققت البحث في تلك المقالع وغيرها فلم أر أدنى أثر للبارود واللغم المستعمل الآن في هذا العصر عند جميع الأمم ومقاطع الجبل الغربي صعبة الإرتقاء وليست ممتدة كمقاطع الجبل الشرقي غير أن به كثيرًا من المغارات والكهوف الصناعية مكتوبة وخالية بعضها مقابر للأموات وسبب إتخاذ هذه المغارات في تلك الجهة هو أنهم كانوا يعتقدون قداسة النيل وألوهيته ولما كان هذان الجبلان مطلين عليه وحاصرانه بينهما إعتقدوا طهارتهما للمجاورة فصنع بعض الملوك وغيرهم في الجبل الغربي تلك المغارات ونقشوا إسمهم فيها تبركًا أو تذكارًا على أنهم مروا به أو قطعوا منه أحجارًا لمعابدهم كما أنهم كانوا يكتبون أسماءهم على بعض الصخور والجبال التي كانوا يمرون عليها في غزواتهم وهي التي أنارت مصباح تاريخهم.

وقد يوجد على بعض صخور هذا الجبل قصائد في مدح النيل المبارك أما المغارات الموجودة هناك فأهمها ما يعرف بإسم إسطبل عنتر وتعرف عند علماء الآثار بإسم إسبيو **(Spéos)** منحوتة على هيئة إسطبل خيل طويل يمتد بابه من أوله إلى آخره تقريبًا وبه أربعة عمد ضخمة تحمل الجبل من فوقها كل من رآها من بعد ظنها خمسة حوانيت بالجبل وتعزى بداءة عمل هذا المكان إلى فرعون هوروس أو (هور محب) آخر فراعنة العائلة الثامنة عشرة وقد تقدم ذكره غير مرة في هذا الكتاب ولبعض اللواء والأمراء زيادة فيه بدليل وجود أسمائهم على جدره وكله مزين بالنقوش الملونة وبصور المعبودات وإذا أردنا وصفه طال بنا المقال وأهم ما به لوحتان مرسومتان في زاويته الجنوبية الغربية إذ يشاهد في الجهة الجنوبية صورة معبودة تحمل في حجرها الملك هوروس المذكور وهو طفل وترضعه ثديها ونقش هذا المكان من أجل النقوشات الفاخرة التي تبتهج النفوس عند رؤيتها وتنشرح الخواطر لمشاهدتها لأنها جمعت بين اللطافة والدقة والحسن أما اللوحة الثانية المرسومة على منعطف جدار الجانب الغربي فتعرف عند علماء الآثار بإسم نصرة هوروس إذ تراه جالسًا على تختة فوق محمله يحمله إثنا عشر ضابطًا من رجال جيشه ثم ضابطان آخران يحملان فوق رأسه مظلتين لهما أيادي طويلة وأمام الموكب عساكر مصرية عابسة الوجوه يلوح عليهم الغضب والحماس تمشي حاملة سلاحها تسوق أسارى أتت بهم من بلاد السودان فيعلم من ذلك أن هذا الموكب إنعقد للملك المذكور لما عاد إلى مصر سالمًا من غزوة غزاها لأمة الكوش ببلاد السودان ولكل أيام دولة ورجال أنظر موكب هذا الملك في الباب الرابع عشر من

هذا الكتاب فإنه يقرب جدًا مما ذكرناه ورأيت في سنة ٩٢ على الجبل الشرقي صخرة منفصلة عنه منحوتة على هيئة برج المعبد مكتوبة بالقلم القديم ولها شكل ظريف للغاية وهي شكل هرم ناقص مربع القاعدة والأضلاع ينتهي كل سطح منه بإفريز لطيف وفوقه رفرف يعلوه رفرف آخر وكلها في غاية الحسن عليها إسم الملك أمنحتب الثالث (من العائلة الثامنة عشرة) فأخذت قياسه وكعبته فعلت أن ثقله لا يتجاوز المائة قنطار فأرسلت إلى المصلحة بنقله إلى المتحف المصري لكنها لم تفعل ويغلب على ظني أنه لم يصل أحد من الأفرنج إلى هذا المكان ولا يعرف ذلك الأثر لأن مسلكه وعر بعيد عن الأماكن التي إعتاد السائحون زيارتها سيما وأنه مختلف خلف منعطف لوهدة من الجبل وعلى بعد نحو المائتي متر منه إلى الجنوب مقصورة أو خزانة صغيرة منفصلة عن الحبل كأنها مقصورة الديده بان (خفير العسكر) التي تكون في كل نقطة عسكرية ليأوي إليها الديده بان وقت المطر وغيره وعلى نحو مائتي متر حائط منفصل عن الجبل أيضًا قائم كالجدار عليه كتابة مصرية وإسم الملك صاحبه ولم أتذكر الآن إسمه.

ورأيت على الشاطئ الغربي للنيل على بعد ثلاث ساعات من جبل السلسلة جهة الشمال وادٍ بين جبلين يعرف عنها سكان تلك الجهة بإسم وادي الحمام يتجه إلى الغرب فسلكت فيه وشاهدت على حائط منحوت في الجبل صورة أحد الملوك وخلفه زوجته وأمامه أولاده فتركته وداومت على السير في الوادي فلاحت لي فجوة على اليسار فدخلتها فرأيت لوحة مربعة منحوتة في الجبل بهندام لطيف عليها إسم الملك طوطوميس الثالث وأخته الملكة حتزو وكتابة بربائية فتركتها وإتبعت الوادي حتى أتيت على آخره فرأيته ينتهي بطريق قديم يبلغ إتساعه نحو الثلاثة أمتار ليس به حجر ولا مدر محفوف بالحجارة والصوان فخامر عقلي أنه طريق للعربات الحربية صنعته الفراعنة في هذه الجهة ثم رأيت على اليمين واليسار حجارة عليها إسم هذا الملك فأيقنت أنه هو الذي صنعه وسير فيه جيوشه ليستولي على بلاد ليبيا وأخبرني الدليل أنه يصل إلى ألواح ويمر بمقابر قديمة ومباني فرعونية وأن أناسًا أرادوا الحفر فيها فهبت عليهم ريح عاصف فخافوا وعادوا وظنوا أنها أرض مسكونة ولما كذبته فيما إدعاه قال لي إنه كان من جملتهم وعاد خائبًا ثم سألته عن طول الطريق فقال نحو ثلاثة أيام للراكب المجد ولما سمعت منه ذلك عدت بعد أن مشيت فيه وفي الوادي نحو الساعتين وربع فكان جملة ما مشيته على قدمي في ذلك اليوم نحو أربع ساعات ونصف.

الفصل التاسع والثلاثون

في معبودات المصرين ووظيفة كل واحد منها

(إقتطفناها من كتاب المعلم بيديكر النمساوي وهي هدية للمترجمين وتحفة للمخبرين وكل من يصحب السائحين)

كنت عزمت على أن أثره كتابي من دنس ذكر هؤلاء الأرجاس وأكتفى بما فاح من نشر طيبة بين الناس لكن إلتمس من أهل الصعيد القريب منهم والبعيد أن أختم هذا الكتاب ببيان تلك الأرباب وقالوا إنها لكثرتها وعظيم شهرتها جديرة بأن تكون لدروسك أساسًا ولتاجها نبراسًا فأجبتهم بلا وتلوت لا حول ولا فقالوا إنها بيت قصيد الآثار وواسطة عقد الأخبار ولولاها ما تأسست تلك المعابد ولا كان بها ناسك ولا عابد فقلت لهم سماعك بالمعيدي كما أن غسلت من دناسة ذكرهم الأيدي ثم توجهت بعد هذا اللجاج إلى الأقصر أبي الحجاج وتقابلت مع الخبراء والمترجمين ومن يصعب السائحين فطلبوا مني أسماء المعبودات وما لكل واحد من الصفات وقالوا قد إشتبهت علينا أشكالها وإستفحل أمر إشكالها فإصنع معنا الجميل يا صاحب كتاب الأثر الجليل وأوضح لنا جميع معماها وأطلعنا على شكلها ومسماها وبينما أنا كاره للأخبار إذ قال أحد خبراء الآثار كان العلامة فلان هنا وسألته عن معبود لا هناك ولا هنا فرأيته أزور ووجهه أغبر وأظهر لي الأنفه ولم يفدني ببنت شفه غير أنه همهم ودمدم وتمتم وبرطم فتغافلت عن هذه الأفعال وأعدت عليه نفس السؤال فقام وقعد وبرق ورعد وكشر عن أنيابه الصفر وحملق لي عيونه الخضر وأسمعني الملامة وقال أغرب ولا كرامة فندمت في الحال على خيبة الآمال وإنقبضت من ألفاظه الشنيعة وتلوت قول كليب بن ربيعة

خلالــــك الجـــو فبيضـــي وأصـــفري ونقـــري مـــا شـــئت أن تنقـــري

فلما سمعت من الخبير هذه القصة هاجت بي لواعج الغصة فبريت الأقلام وإنبريت أبث الكلام وشرعت في التعريب وتأهيل كل غريب بعد أن لعنت أوزيريس وجنود إبليس وقلت اللهم إنك غوث كل غائث وإني أعوذ بك من الخبث والخبائث وها هي بذاتها وسافل صفاتها.

(أولها) المعبود فتاح وهو أقدم جميع المعبودات وكان يعبد بمدينة منفيس وما حولها من البلاد

ويعتقدون أنه هو الذي أعطى المعبود (رع) عناصر إيجاد الخلقة والواضع لقوانين الولادة وأحكامها فلذا كانوا يسمونه رب الحقيقة ويرسمونه على هيئة إنسان محنط مقمط ويقولون أن يديه تتحركان كيف يشاء وهو قابض بهما على ثلاث علامات وهي الحياة والأزلية وقضيب الملك وكلها مشبوكة في بعضها كما تراها في شكله وفي قفاه زينة مدلاة بين كتفيه وعلى رأسه قلنسوة وأحيانًا كانوا يجعلون رأسه على هيئة المعبود (خبر) أي الجعل أو الجعران ويسمونه (فتاح سكر أوزيرس) وذلك متى قصدوا معنى الأزلية أو الدار الآخرة لأن هذا المعبود الأخير رمز على غروب الشمس وشروقها اللذين هما عبارة عن الموت والحياة مرة ثانية وربما رسموا بجواره المعبودة (سخت) وابنه (إم حوتب).

وله من الحيوانات المقدسة العجل أبيس وكانوا يعرفونه بالعلامات الآتية وهي أن يكون جلده أسود وفي جبهته غرة أو صوانة بيضاء مثلثة الشكل وعلى ظهره بقعة أو لطخة بيضاء تماثل هيئة النسر وتحت لسانه نتو بارز كالجعل و يشترط أن تكون أمه بيضاء لا شيبة فيها وأن تكون حملت به من شعاع القمر ومتى نفق بالموت حطوه وقمطوه ووضعوه في تابوته ودفنوه في المكان الذي أعدوه له وكانوا يرمزون به على القدرة الإلهية الأزلية الفاعلة في الأشياء ويقولون أن له علاقة بالقمر ومدة الدور القمري المنسوب لهذا العجل ثلاثمائة وتسعة إجتماعات قمرية أو خمس وعشرون سنة قبطية.

(ثانيها) المعبود رع (الشمس) وكان يعبد في مدينة (آن) المطرية ويزعمون أنه ملك المعبودات والناس معًا وله الرتبة الثانية في الربوبية وأن الدنيا تضيء من نور عينه وهو الحامل للضوء والباعث على الحياة ومتي أشرق سناه على السكون أطلقوا عليه اسم الشاب (هرماخيس) أي الشمس المشرقة ثم (رع) أي شمس الضحى ثم (توم) أي شمس الطفل أو الغروب وزعموا أن هذا الأخير مع شيخوخته وهرمه يهزم أعداء رع الذين يقفون له بالمرصاد ليأخذوا عليه الطريق ويعوقونه عن السير تحت الأرض بعد الغروب ومتى سلك في طريقه الأسفل كان له جسم إنسان برأس كبش يعرف عندهم بإسم خنوم وهو الواسطة بين توم وهرماخيس أي بين المساء والصباح ولما كان الإنسان لابد له من الموت ثم الحساب وقطع العقبات ومعاناة الشدائد كذلك الشمس لابد لها على زعمهم من الموت عند الغروب ثم تركب سفينتها وتقطع دورتها السفلية وتقاسي الشدائد وتجاهد الأعداء وهي سابحة يتقدمها الثعبان أبيب ليدفع عنها جميع المهالك وبالجملة متى ظهر رع في الأفق جهة المشرق صار مولودًا جديدًا وطفلًا ومتي سار

في المغرب صار هرمًا ومات فهو يموت كل يوم ويولد ثانيًا بعد ما يتربى في بطن الطبيعة وكأن بعض الأعراب إطلع على إعتقادهم في الشمس فقال فيها من قصيدة مطولة

فأفنــت قــرونًا وهــي إذ ذاك لم تــزل تمــوت وتحيــا كــل يــوم وتنشــر

وقالوا أن المعبودة هاتور هي الكافلة لتربيته السفلية وكانوا يصورونها على هيئة بقرة أو إمرأة لها رأس بقرة فتربي ذلك المولود بلبنها وكانوا يرسمون أحيانًا إثني عشر إنسانًا وعلى رؤوسهم قرص الشمس أو صورة كوكب آخر دلالة على عدد ساعات النهار أو الليل.

وكانوا يقدسون لمعبودهم (رع) النسر أو الباشق ثم الثور (منيفى) بكسر الميم والنون الذي صار فيما بعد خاصًا بالمعبود (أمون رع) وقد جعلوا تمثال هذا النور على هيئة أسد ونصبوه في معبد الشمس بمدينة عين شمس أو المطرية ورمز وإله بطير الفنكس المدعو عندهم (نو) بفتح الموحدة وتشديد النون (لعله طير السمندل) وقد زعموا أنه متى إعتراه الكبر أتى بالخشب الزكي الرائحة وأضرم فيه النار وإصطلاها فيحترق ويصير رمادًا فيخرج من ذلك الرماد طير صغير ولا يأتي طير الفنكس إلى المعبد المذكور إلا مرة واحدة كل خمسمائة سنة وكانوا يزعمون أنه روح أوزيرس.

ومتى أرادوا رسم المعبود (رع) صوروه على شكل إنسان له رأس باشق أو نسر ورسموا في إحدى يديه صورة الحياة وفي الأخرى قضيب الملك وجعلوا على رأسه صورة قرص الشمس وثعبان قد إلتف به وكان الخواص من كبار الكهنة يشيرون بهذا الإسم إلى الله الخالق لكل شيء ويصونون مكنون معناه عن جميع الناس وهو المعروف عند اليهود بإسم (أدوناى) بهمزة مفتوحة ثم دال مضمومة ثم نون مفتوحة ثم ياء ساكنة وقد سبق ذكر ذلك في الرحلة بتل العمارنة أما باقي المعبودات فكانت عندهم عبارة عن التجليات الخاصة بالذات العلية وهو غير مذهب العوام.

(ثالثها) المعبود توم بضم فسكون وهو أحد تجليات الذات العلية أو (رع عند العامة) وكان يعبد في أقاليم الوجه البحري ثم خصصوا عبادته بمدينة الشمس (المطرية) ولهذا المعبود بنيت مدينة (باتوم) أي أرض المعبود توم وقد بناها العبرانيون وذكرت في التوراة بإسم بيتوم ومكانها الآن تل المسخوطة ثم عبده أهل الصعيد وهو أحد المعبودات القديمة وكانت العامة تزعم أنه الشمس عند الغروب وبظهوره جهة الغرب تبتدئ الرطوبة في الجو ويتلطف الهواء ثم تتلاشى

الحرارة فلذا نسبوا إليه ريح الشمال المحبوب وزعموا أنه يقاتل عسكر الظلام التي تتعرض لسفينة الشمس كي تعوقها وقد مر ذكر ذلك وكانوا يصورونه على شكل إنسان له لحية مرسلة وفوق رأسه تاجا الصعيد والبحيرة داخلان في بعضهما أو قرص الشمس وهو قابض بإحدى يديه على الحياة والأخرى على قضيب الملك وإلا رسموا رأسه على هيئة المعبود (خبر) أي الجعل أو الجعران متى عنوا به صفة الخالق أو جعلوا إله رأس أسد متى عنوا به المعبود (نفرتوم) أو جعلوا له رأس باشق متوج بزهر البشنين يقبض بيده على صورة عين إنسان وكلها إشارة إلى نزول الشمس تحت الأفق وملاحظة حركة سيرها أما الباشق فرمز على أحياء الشمس أو ولادتها بعد الموت مرة ثانية.

(رابعها) المعبود خنوم بسكون وضم وسكون وهو من أقدم معبودات مصر ويعرف بالعلامات الخاصة به منها أنهم كانوا يرسمونه باللون الأخضر على شكل إنسان له رأس كبش وبيده قضيب الملك الخاص بالمعبود (رع) لأنهم كانوا يزعمون أنه يجلس مكانه وقت سيره ليلًا تحت الأرض فتارة يرسمونه جالسًا على تخت ملكه وتارة قائمًا وعلى رأسه تاج خاص به وربما جعلوه قابضًا على علامة الحياة وبالأخرى على قضيب الملك وبوسطه نحو زنار ينزل من خلفه إلى عقبيه كالذيل وكأنه ملتف بمحزم أو ثوب ينزل إلى ركبتيه أو إلى سيقانه وكانوا يعبدونه جهة الغرب أي في واحة سيوى بصحراء ليبيا أو برقة بدعوى أن حكمه يبتدئ من غروب الشمس ويبقى إلى شروقها كما كانوا يعبدونه في جزيرة أسوان لداعي أنه هو الواسطة بين الرطوبة والحرارة أي بين ندى الليل ويبوسة النهار ولا يخفي أن جزيرة أسوان هي الحد الوسط الواقع بين سهول السودان وفيافيها القحلة وبين أرض مصر اليانعة الخضرة لأن من هذه الجزيرة يبتدئ توزيع مياه النيل الحاملة للرطوبة والخصوبة بمصر كما لا يخفى.

(خامسها) المعبودة ما وكانوا يزعمون أنها ربة العدل والحق وهي أخت (رع) وتعرف بعلامتها الخاصة وهي ريشة نعامة مغروسة فوق تاجها وبإحدى يديها علامة الحياة وبالأخرى قضيب من الأزهار.

(سادسها) ثالوث (أوزيرس) وزوجته (إيزس) وإبنهما (هوروس) أما أوزيرس وإيزس فهما أولاد نوت (أي السماء) ويسب (أي الأرض) وكانوا يرمزون بهما على التجديد والبقاء أي على الزمن وتعاقب الأيام وعدم إنقضائها وقالوا إنهما متى كانا في بطن أمهما غشيا

بعضهما فحملت إيزس من أخيها أوزيرس بإبنها هوروس كما أن «تيفون» وزوجته «نفتيس» هما أيضًا أبناء نوت وسب.

وكان أوزيرس وإيزس يحكمان معًا جميع مصر وقاما بسياسة الملك أحسن قيام وأغدقا عليه الخيرات والبركات وبالجملة كانت أيامهما أسعد الأيام وأهناها فشق ذلك على تيفون أخيهما لما عاين من حسن عدلهما فأضمر لأوزيرس السوء ونصب له فخ الحيلة والهلاك فدعاه ذات يوم إلى منزله وأجلسه فوق صندوق ثم إحتال عليه حتى أدخله فيه وساعده رفقاؤه الإثنان وسبعون وبعد أن أحكم غلقه عليه ألقاه في النيل فجره الماء معه حتى أدخله في القرع التانيتكي «راجع مكانه في الدرس الأول من هذا الكتاب» فسار فيه حتى وصل إلى البحر الملح وحملته المياه معها جهة الشرق إلى أن أتى على بلاد فنقيا وألقاه اليم بالساحل بالقرب من مدينة ببلوس «بكسر وسكون فضم وسكون» وكان أوزيرس قد مات في صندوقه أما زوجته إيزس فإنها إنتظرت عودته حسب عادته فلم يعد إليها وهنالك إستولى عليها القلق وجزعت عليه فخرجت هائمة تبحث عنه في جميع أرجاء المملكة بلا فائدة ثم سافرت إلى جهة فنقيا وإنتهى أمرها بأن عثرت على الصندوق ففتحته وعرفت جثة أخيها فأخذتها الصندوق وقصدت إبنها هورس الذي كان بمدينة «بوتو» من أرض مصر وقبل أن تصل إليه وارت الجثة في غابة منقطعة عن الناس ولما وصلت إلى إبنها وأعلنته بالخبر خرجا في طلب الجثة أما تيفون فإنه خرج ذات يوم إلى القنص ودخل تلك الغابة فرأى جثة خصمه فقطعها أربع عشرة قطعة وفرقها في وادي مصر وذهب لشأنه ولما عادت إيزس لأخذ جثة زوجها أو أخيها لم تجدها فبحثت عنها فوجدت بعض أعضائه متفرقة فعلمت بما جرى عليها وإهتمت بدفن تلك الأعضاء فكانت كلما تجد عضوًا تدفنه حيث هو من ثم صار لأوزيرس جملة مقابر بمصر غير أن أوزيرس لم يمت في الحقيقة بل عاد حيًا وسكن الدار الأخرة وتسلطن بها وحكم فيها وقالوا إنه بعد ما دفن عاد إلى إبنه هوروس وعلمه الرماية ودرّبه على الحرب والكفاح وجهزه بكل ما يلزم له ثم إختبره وبعد أن رضى بخبرته غادره إلى محل حكمه فقام إبنه المذكور لأخذ الثأر من تيفون القاتل لأبيه وساجله الحرب وإلتحم معه في القتال فإنتصر عليه وحصره حصارًا وقّيا لكن لم يتمكن من قتله وكانت تزعم الناس أن أوزيرس هو عنصر النور أو الخير و تيفون عنصر الظلام أو الشر فيتغلب على النور في هذه الحياة الدنيا ثم يتغلب في الدار الأخرة و يسود النور على الظلام وهذا هو مذهب المانوية وهم طائفة من المجرس كانوا يقولون بإله النور وإله الظلمة أي الخير والشر وربما إنتحلوا مذهبهم من هذا الإعتقاد الذي

كان بمصر وقال الشاعر في تكذيبهم

زار الحبيـــــــــــب بليلــــــــــــة　　　وأزال عنـــــــا كـــــــل بــــــوس
وبـــــــدأ الصـــــــباح فراعنـــــــا　　　لا شـــــك في كــــذب المجــــوس

أما كهنة مصر فكانوا يرمزون بأوزيرس إلى رطوبة النيل «هابي» أي إلى ري الأرض ويرمزون بتيفون ورفقائه الإثنين وسبعين إلى أيام القيظ أو إلى الصحراء وقحولتها أو إلى مدة تحريق النيل حيث لا يكون بمصر العليا عود أخضر وذلك أنهم شبهوا ماء النيل المخصب وجريانه من الجنوب إلى الشمال بجثة أوزيرس التي عامت فيه من الجنوب إلى الشمال وشبهوا أرض مصر الخصبة وإشتياقها لماء النيل المنتج بزوجته إيزس التي كانت تبحث عنه بعد موته وشبهوا هوروس إبنه وحربه مع تيفون ونصرته عليه بالخصوبة التي تحدث من الأرض والنيل فإنها تغلب على القحولة وتطردها من أرض مصر البراري والقفار بمعنى أنها تنحصر في مدة معينة ثم تعود ثانيًا.

وبالجملة فأوزيرس عبارة عن الخصوبة والحياة وإيزس موضع لذلك أو هي الطبيعة المنتجة وتيفون هو الموت أو العدم وهوروس الحياة ثانيًا أما عبارة الآثار فتفيد أن أوزيرس الملقب «أون نفر» بضم الهمزة وسكون النون ثم فتح و كسر وسكون معناه الوجود الكامل أو الجودة المتضمنة معنى الإتقان والحسن أما تيفون فمعناه ضد ذلك أي عبارة عن عدم الوجود أو عدم الإستحسان أو عدم الموافقة والألفة في هذه الحياة الدنيا وإن كل كائن ما وجد إلا ليترقى في معارج الكمال ويلبس ثوب الألفة وتتوفر فيه حسن الصفات ومتى إنعدم ذلك الكائن عبرت نفسه إلى الدار الأخرة بواسطة هوروس وزعموا أن أوزيرس هو حاكم تلك الدار وسلطانها ورئيس قضاة الأرواح وإن كل نفس ظاهرة لابد من إمتزاجها به فتصير أزلية نورانية وقد سبق هذا الكلام غير مرة في هذا الكتاب.

«سابعها» أوزيرس وكانوا يصورونه على شكل جثة ملك محنط وهو قائم أو جالس على عرش ملكه وفي إحدى يديه درة «بكسر الدال وتشديد الراء وهي سوط له يد و به جملة سيور من جلد» وفي يده الأخرى صولجان برأس منحني كالمحجن وعلى رأسه تاج الصعيد مزين من كلتا ناحيتيه بريش النعام وهو رمز على العدل وكانوا في أول أمرهم يرسمونه بجواره قضيبًا أو حربة بنصاب على هيئة ساق شجر الكرم وعليه جلد نمر فلذا كان جلد النمر من شعار كبار كهنته يتوشحون به عند أداء وظائفهم الدينية ولما رأى اليونان ذلك سموه «ديونيزوس» أي باكوس الذي هو عندهم علم على إله الخمر أو السكر.

«ثامنها وتاسعها» تيفون ونفتيس أما تيفون فإسم يوناني جعلوه علمًا على إله الشر المعروف عند المصريين بإسم «ست» بفتح السين وسكون الثاء أو «سوتح» وكانوا يصورونه على شكل حيوان خرافي وربما إكتفوا برسم رأسه فقط أو بصورة حمار كانوا يقدسونه له وربما إقتصروا على رأس ذلك الحمار وكان إسم هذا المعبود شائعًا في أعصرهم الأولية والظاهر أنهم إتخذوه في مبدأ أمرهم رمزًا على إله الحرب أو على معبود البلاد الأجنبية وكانوا يسمونه أخا هوروس أو التوأم المتعادي وكثيرًا ما أدخلوا إسمه في تركيب ألقاب فراعنتهم وكتبوه في خاناتهم الملوكية ضمن أسماء ملوكهم وقد سبق الكلام عليه بما فيه الكفاية أما «نفتيس» أو «نبت ها» فهي زوجة تيفون أو «ست» السالف ذكره ويسميها قدماء اليونان «أفروديت» أي المنصورة لأنها زوجة إله الحرب كما سلف ومملكتها في الدار الأخرة وكانوا يرسمونها على هيئة مرضعة هوروس الشاب ويدخلونها في رسم أدعية جنائزهم ويصورونها مع إيزس بجوار جثة أوزيرس المحنطة لأنهم زعموا أنها كانت تحبه حتى إنه كان يختلي بها في الظلام بدل إيزس زوجته فتوافيه في هيئة أم « أنوبيس» النائحة التي كانت تنوح وتضرب جبهتها بيدها وكانت نفتيس المذكورة تدخل أحيانًا في تربيع الثلاثة معبودات السالف ذكرها أي أوزيرس وإيزس وهوروس وهي تمتاز بتاجها الخاص الذي ينطق «نبت ها» وهو إسمها أيضًا عندهم وكانت تجعل تحت ذلك التاج عصابة من ريش النسر وفي إحدى يديها قضيب من الأزهار وفي الأخرى علامة الحياة.

«عاشرها» المعبود «أنوبيس» بفتح الهمزة وتشديد النون وكسر الموحدة وسكون السين وكانوا يزعمون أنه خفير الأموات ودليلهم في الدار الآخرة ومدير الدفن وحارس مملكة الغرب وكانوا يرسمونه على هيئة إنسان له رأس إبن آوى.

«الحادي عشر» هوروس «راجع شكله في ثالوت أوزيرس» وكانوا يجعلونه في هيات مختلفة أعمها ما هو مرسوم هنا وسبب ذلك كثرة الصفات التي جعلوها ملازمة له أو المعاني التي نسبوها إليه كقولهم إنه كناية عن الجهة المشرقة بالأنوار والولادة ثانيًا أو الحياة بعد الموت أو تغلب الخير على الشر أو الحياة على الموت أو النور على الظلام أو الحق على الباطل وكثيرًا ما كانوا يطلقون عليه إسم المنتقم لأبيه وقد يوجد الآن بعض لوحات من عهد البطالمة تشتمل على وقائعه الحربية حيث تراه فيها مرسومًا على هيئة قرص الشمس وقد نشرت جناحيها لقتال تيفون وحولها ثعبانان يساعدانها على حربه.

ومن أمعن النظر والفكر أيقن أن «هرماخيس» أي الشمس المشرقة صباحًا ليس شيء آخر غير هوروس يسير في السماء في زي المعبود رع «شمس الضحى» ويعبرون به عن حياة النور أو تجليه ثانيًا أو خروجه من الظلام وتارة كانوا يصورونه بشكل غلام صغير عاري الجسد لشعر رأسه حلقات تزينه وربما إكتفوا برسم زهر البشنين وهو رمز عندهم على ما ذكر أو رسموه على شكل نسر قد نشر جناحيه وتحلق في الجو و يعرف عندهم باسم «هورهويت» وكأنه رمى على الأرض تيفون مع جميع رفقائه إنتقاما للمعبود «رع هرماخيس» الحامل للنور صاحب اليد البيضاء الذي يعرف عند اليونان بإسم هليوس أما هوروس وهورهويت فيعرف عندهم بإسم «أپولو» وكثيرًا ما كانت الكهنة تصوره في شكل باشق قد ضم جناحيه وفي ظهره درة بكسر الدال وتشديد الراء «أنظر شكله مع المعبود توت» ويقدسون له طير الباشق ومتى نفق بالموت حنطوه ودفنوه مع من مات قبله من البواشق ويوجد إلى الآن بالصعيد كثير من هذا الطير محنطًا في مقابرهم.

«الثاني عشر» «توت» المعروف عندهم بإسم تحوتي وعند اليونان بإسم هرمس وكان عندهم أي المصريين رمزًا على القمر ولما كان حسابهم في غير ما يخص الزراعة تابعًا لأوجهه أي أوجه القمر جعلوه قياسًا للزمن وإعتبروا ذلك أول المقاييس عندهم.

وإتخذوه سيدًا لجميع القواعد الحسابية وبناء على ذلك إتخذوا توت المذكور أصلًا لجميع العلوم وقالوا إنه كان واسطة لترقي النوع البشري إلى درجة الذكاء والفهم وهو رب الكتابة والإنشاء والقوانين وكل المعارف التي تتشرف بها حياة الإنسان وهو الموكل بقيد وزن قلب المرء بعد الموت كما أنه يقدم تقارير أعماله إلى قضاة الأموات ويرشد الأرواح إلى العودة في العالم النوراني وهو الواضح لعلم المنطق المسمى بعلم الميزان أو علم الفلسفة وهو الذي ألهم الناس القوة العقلية المنتجة والذكاء النوراني وكانوا يرسمونه بجوار أوزيرس أو منفردًا على شكل الطائر «إبيس» بكسر الهمزة والموحدة وسكون السين وهو واقف على نحو بيرق والغالب أنهم كانوا يرسمونه على شكل إنسان له رأس الطائر المذكور حاملًا فوق رأسه صورة قرص القمر وريشة نعامة دلالة على العدل ومن علاماته الخاصة به أن يكون في يمينه القلم وفي الأخرى لوحة الكتابة أو لوحة بها ألوان الرسم وربما رسموا على رأسه التاج وفي يده قضيب الملك لكنهم لم يصوروه قط برأس إنسان ومن حيواناته المقدسة الطير إبيس «ويعرف في بلاد النوبة بإسم أبي خنجر» وحيوان السينوسيفال «أنظر شكله» راجع ما قلناه في هرمس وتوت.

«الثالث عشر» المعبودة سفخ بفتح السين وكسر الفاء وضم الحاء أو الكاف وهي ترى مرسومة بجوار معبودهم توت وإسمها الأصلي مجهول إلى الآن أما لفظة سفخ فلقب لها ويشاهد على رأسها قرنان قد إلتويا فوق جبهتها ووظيفتها أنها أمينة على الكتب والأوراق والخطوط المقدسة والرسم والتواريخ وبيدها اليسرى بجريدة نخل بها سعف كثير يدل على عدد السنين أو الأحقاب التي مضت و بيدها اليمني قلم تكتب به في ثمرة أو في ورق الشجر المعروف بإسم شجر الأبوكاتو كأنها تقيد فيه الأسماء الخالدة الذكر «هذا الشجر يوجد الآن بجزائر أنتيله بأمريكا وثمرة مثل الكمثرى لذيذ الطعم ولعله كان موجودًا بمصر في ذلك الزمن».

«الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر » موت وايزس وهاتور وهؤلاء الثلاث معبودات يمتزن عن بعضهنّ بعلامتهنّ الخاصة بكل واحدة منهنّ أما المعبودة «موت» ومعناها عندهم الأم فلها شكل باشق أو صورة إنسان برأس باشق وهي الأم الولادة ومن وظائفها نشر جناحيها لتظليل أوزيرس أو فراعنة مصر في سيرهم ثم خفارة مهد النيل الذي إحتاط بينبوعه تنين عظيم أي ثعبان هائل ليكلأه ويحرسه كما هو مبين في الرسم أما إيزس فهي المنتجة لكل ما على وجه الأرض من خير وبر ولطف وتمتاز بعصابتها المصنوعة من ريش النسور وبقرنيها المحصور بينهما قرص القمر أو الشمس أو كرسي الملك وقد أكثروا من ألقابها حسب المعاني التي أضافوها لها منها «إيزس سلك» وكانوا يرسمونها على شكل إمرأة تحمل فوق رأسها عقربًا ومنها «إيزس نيت» وتحمل فوق رأسها مكوك الحياكة وينطق نيت «أنظر صورته في المقاطع الصوتية المذكورة في أسماء الفراعنة» ومنها «إيزس سوتيس» ولها صورة إمرأة جالسة في سفينة وهي رمز على كوكب الشعرى اليمانية وربما رسموها في شكل شابة وفي حجرها إبنها هوروس في هيئة طفل ترضعه ومن حيواناتها المقدسة البقر لأنهم كانوا يرمزون به على إيزس هاتور وأصل لفظة هاتور «هات هور» ومعناها عندهم بيت هور أي هوروس لأنه لما رضع ثديها تجددت حياته وعلى كل حال فهي إلهة الحب والعشق والأم الكبرى وهي المدافعة عن الوالدات الصارفة عنهنّ السوء المحامية عن الرقص والغناء وكل سرور مادي وأدبي حتى السكر وشرب الخمر وقد إعتبرها أهل القرون الأخيرة من المصريين بالدرجة التي إعتبر بها قدماء اليونان بنات الشعر عندهم [1] حتى إنهم كانوا يرسمونها أحيانًا و بيدها دف وحبل إشارة إلى أنها هي الرابطة للحب أو العشق والسرور

[1] كان قدماء اليونان يعتقدون أن بنات الشعر تسع من الحور العين يمارسن جميع المعارف والصنائع المسلية للخاطر مثل الموسيقى وفن الرسم وقرض الشعر وتفردن بجميعها ولهم أخبار فيهن تطول حذفناها هنا.

أو الحظ وربما رسموها في هيئة شابة كاعب برأس بقرة وقرص الشمس بين قرنيها وكانوا يسمونها أحيانًا «مرسخت» بفتح الميم وسكون المهملة وفتح السين وكسر الخاء وسكون التاء ومعناها هاتور الحاكمة في الدار الآخرة.

«السابع عشر» المعبودة «سخت» بفتح وكسر فسكون وكانوا يصورونها على شكل إمرأة برأس لبوة أو برأس هرة تحمل قرص الشمس وعليه ثعبان ليمثلوها بالنار المحرقة الموجودة في جرم الشمس وكانوا يطلقون عليها جملة أسماء منها پشت و بست ويزعمون أنها أخت المعبود «رع» وزوجة «فتاح» وقد كانوا يرسمونها في هيئة نار مضرمة لمن حق عليهم العذاب وكانوا يزعمون أنها تقاتل في الدار الآخرة الثعبان أيبب وأنها يوم الحساب تظهر للمجرمين في هيئة إنسان الرأس لبوة وتقطعهم إربًا وكانوا يرسمونها بهذه الهيئة متى كان المقام مقام وعيد وتهديد ومتى كان مقام وداعة وملاطفة رسموها برأس هرة وسموها بست ومن هذا العنوان أتى إسم تل بسطة الذي هو علم على الأطلال الواقعة بجوار بندر الزقازيق لأنهم كانوا يعبدون فيه الهرة وإسم سخت يوجد بكثرة في جزيرة فليا «جزيرة أنس الوجود» وكانوا يقدمون لهذه المعبودة الهرة ومتى نفقت بالموت حنطت ودفنت في مقابر القطاط.

«الثامن عشر» المعبود سبك بفتح السين والموحدة وسكون الكاف وكانوا يرسمونه على شكل إنسان برأس تمساح وهو عندهم رمز على ألوهية النيل و كانوا يعبدونه جهة الشلال وجبل السلسلة وكوم أمبو والفيوم وبعض جهات أخرى وكان في كوم أمبو يدخل في تثليث المعبودين الآتيين وهما هاتور وخنسو ويجعلون في تاجه ريشتين بينهما قرص الشمس يحيط بهما ثعبانان يحملان قرص الشمس أيضًا وكانوا يرسمون هذا المعبود باللون الأخضر و يجعلون في إحدى يديه علامة الحياة وفي الأخرى قضيب الملك ويقدسون له التمساح بعد صيده من النيل يربونه في بركة ماؤها رائق وقد عدوا هذا المعبود ضمن آلهة الشر كتيفون وكثيرًا ما كان يدخل شكله في شكل المعبود «رع» فيصيران واحدًا يسمى سبك رع وقد سبق الكلام على التمساح بما فيه الكفاية.

«التاسع عشر» المعبود «أمون رع» وكانت عبادته شائعة بأرض مصر مدة ملوك الطبقة الثالثة التاريخية ودخلت عبادته في عبادة أوزيرس وغيره من المعبودات ويستفاد من كتابة الأعصر الأخيرة أنه ملك الآلهة وقال بعضهم إنه إبن المعبود «فتاح» وله أن يحكم في الأرض متى كان المعبود رع مشتغلًا بالحكم في عالم الأرواح ومعنى أمون عندهم المكنون أو الخفي أو الباطن ولم

يكن هذا المعبود في مبدأ الأمر بالمتداول العظيم الشأن ثم أخذت عبادته في الظهور حتى ملأت حافتي النيل وسبب ذلك أنه كان معبودًا عند أهل طيبة خاصة ولما تيسر لهم إجلاء العمالقة أو الرعاة عن مصر تيمنوا به ولما حكمت ملوك هذه المدينة على ما سواها من المدن كمنفيس وجميع الوجه البحري أدخلوا عبادته في جميع أنحاء المملكة وما كفاهم ذلك حتى جعلوه ملكًا على معبودات البلاد وأقاموا له الهياكل وكتبوا إسمه في أغلب معابدهم القديمة ومن ثم صارت عبادته عامة عندهم ومنه إشتق المعبود «أمون قم» بفتح القاف وسكون الميم وكانوا يرسمونه على شكل إنسان محنط قائم على قدميه بإحليل منعظ ممتد أمامه ومدلوله عندهم القوة الكامنة في عنصر الماء وشخصوا تلك القوة المنتجة بإحليله القائم وهو كثير الوجود في المعابد المصرية بمدينة طيبة وغيرها وقال بعضهم إن إحليله المنتصب رمز على أيام الربيع حيث تكون الأرض في شدة خصوبتها والأزهار يانعة والفرق بين القولين ضعيف «أنظر شكله».

ومن وظائف أمون المذكور أنه يتلقى كل إنسان تمت خلقته على يد «توم» ويودع فيه بسره الخفي من اللطف والوداعة ودماثة الطباع وحسن الخلق والخلق ما يجعله وجيهًا طلق المحيا مقبولًا عند الناس مبجلًا لديهم معظمًا في أعينهم وإلا جعله قبيحًا مذمومًا مشؤم الظلعة منحوس الطالع مشوّه الوجه عابسه مبغوضًا لدى الناس ثم يقدر درجته في الهيئة الإجتماعية و يعين كل ما يلاقيه من خير أو شر وهو الذي يجازي كل إمرئ ما كسبت يداه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ولما كان هذا شأنه في العالم خضعت له جباه باقي المعبودات كما أن كل معبود منها إتصف بصفة من صفاته بحيث أن مجموعها صار عبارة عن صفات الذات العلية تعالى الله عما يشركون وكانوا متى أرادوا إظهار جميع صفاته رسموا بجواره باقي المعبودات وصورته شائعة في أغلب المعابد كما قدمنا وكانوا يرسمونه باللون الأزرق أو الأسود إما جالسًا على تخت عرشه أو قائمًا على قدميه وفوق رأسه تاج عليه أربع ريش طوال وربما جعلوا بدل هذا التاج تاج الصعيد فقط أو تاج المعبد والبحيرة داخلين في بعضهما أو جعلوا على رأسه مغفرًا أو قلنسوة أو تاجًا آخر حسب المعاني والصفات التي كانوا يريدون أن ينعتوه بها ويجعلون في يده الدرة بكسر الدال وتشديد الراء أو القضيب أو الصولجان الأعوج الرأس أي المحجن أو علامة الحياة أو كل هذه العلامات أو بعضها حسب ما يقتضيه المقام وربما رسموه برأس كبش ويعرف عندهم بإسم «أمون خنوم» وهو الذي تسميه اليونان «خنوفيس» وهذا المعبود أي أمون رأس مالوث مدينة طيبة أي أول ثلاثة معبودات يتركب منهم ثالوث هذه المدينة وهم أمون وموت أي الأم الولادة وخنسو أي تجلي

الروح المدنية وكانوا يقولون إن له القدرة على إعدام جميع الأعداء وإنه يهلكهم عن بكرة أبيهم متى شاء وهو الذي أعطى كل إنسان الصبر على مقاومة غصص الأيام ومكابدة مرها وهو الشافي للأمراض بأنواعها

ملحوظة — قد نرى أن بعض هؤلاء المعبودات إتصف بصفات وأفعال غيره والجواب عن ذلك هو إنه لما كان لكل قسم من أقسام مصر معبودات وكهنة خاصة به تغالي كل فريق في أوصاف معبوداته حتى نسب إليها بعض ما نسبة الآخر لمعبوداته فمن ذلك حصل الإشتراك في الصفات والأفعال وقد سبق ذكر هذا فراجعه متى شئت في هذا الكتاب.

«أسماء المعبودات المصرية مرتبة على الأحرف الأبجدية»

إبيس	خنس أو خنسو
أبيس	سفك أو سفخ
أبيب «الثعبان»	سات
أم حوتب	سب
أمون	سبك
أوزيرس	ست أو تيفون
إيزس	سخم نفر
« نيت	سخت
« سلك	سكر أوزيرس
« سوتيس	ما — معت
بست أو بشت	مرسخت
توت	موت
توم	نبت ها — أو نفتيس
تيفون	نفرتوم
خبر الجعران	توت
خنويس أو كنوفيس أو خنوم	

الفصل الأربعون

في الرحلة العلمية من جبل السلسلة إلى جزيرة أنس الوجود وهو آخر الفصول

كيلو متر

٢٤ من جبل السلسلة إلى كوم أمبو

٤٤ من كوم أمبو إلى أسوان

٩١٦ من بولاق إلى أسوان

ثم نحو الجنوب إلى أسوان ونشاهد في طريقنا معبد أمبوس المعروف بإسم كوم أمبو الواقع على ضفة النيل الشرقية في شمال قرية دراو وقد تسلطت عليه جيوش النيل في كل سنة فهزمت جموع محاسنه وشتتت رونق لطائفه وأبادت بهجة مناظره ولم يبق منه إلا بعض

جدر قد إنحنت أمام سلطان فيضه وهو من بناء دولة البطالمة كمعبد إدفو ودندرة وغيرهما ويرى عليه إسم كل من بطليموس فيلو ماطور «محب أمه» وبطليموس أويرجيطه الثاني «الرحيم» وبطليموس ديونيزوس «الخمار» وهو مركب من معبدين مرصدين على معبودين متضادين على طرفي نقيض وهما هوروس إله النور والخير وسبك بفتح السين والباء وسكون الكاف أي التمساح إله الظلمة والشر ولعمده هيئة يونانية مصرية تخالف طريقة العمد الفرعونية وكان له إيوان وحوش جار عليهما سلطان النيل ولم يبق لهما الآن أثر ولا عين ولبعض أحجار سقفه شكل خاص على هيئة متوازي المستطيلات وكلها جافية الحجم منها ما يبلغ طوله نحو الأربعة أمتار وفي سنة ١٨٩٣ إهتمت مصلحة الآثار في بناء رصيف له لبقى ما بقى منه من عائلة النيل ورممت شعث ما كان منه على وشك السقوط وأزالت منه بعض الأتربة وصرفت على ذلك المبالغ الباهظة وهي لم تزل إلى الآن مصرة على تجاز ما شرعت فيه.

وفي سنة ٩٢ أخبرني بعض أهالي تلك الجهة أن بقرية الكيبانية الواقعة في سفح الجبل الغربي رجلًا يعرف معبدًا عظيمًا لم يطلع عليه أحد فتوجهت إلى القرية المذكورة وأحضرت ذلك الرجل فإذا هو شيخ فانٍ فسألته عن صحة هذا الخبر فقال لي أعلم أني كنت في مدة نزيل الجنان محمد

علي باشا شابًا في شرخ الشباب وعنفوان الصبا وكان لي أخ أصغر مني فخرجت عليه قرعة العسكرية ففررت معه إلى الجبال خوفًا عليه وهمنا في أوديتها وكنا نقطع المهامه ونعتسف السير ونجوب السبسب والصحصح ومازلنا كذلك طول يومنا حتى أتينا قبيل المساء عمارة واسعة رحبة الأرجاء على بابها عمودان من حجر الصوان و بجوار كل واحد أسد رابض من الحجر الأسود فدخلنا فيها فرأينا أماكن وأروقة ومباني شتى مكتوبة بالقلم القديم وألوانها نضرة ليس بها مكان مهدوم ولا متخرب وأرضها مبلطة بالحجر فطاب لنا المقام فيها مدة ثلاثة أيام حتى فرغ ماؤنا فأحوجتنا الضرورة إلى الخروج والعودة إلى قريتنا فدخلناها ليلًا وقضينا ما نحتاج إليه من ماء وزاد وعدنا بالثاني فلم نهتد إليها ثم بعد ذلك بعدة أعوام خرجنا في طلبه و بذلنا الجهد في البحث ولم نعرفه وعدنا بالخيبة وكنت من وقت إلى آخر أذهب إلى الجبال وأستأنف البحث ولم أجد ثمرة وذهبت أتعابي طيّ الرياح وقبل الآن بثلاثة أعوام حل بقريتنا رجل إفرنكي من تجار الأنتيكة وكان بلغه الخبر فأحضر الزاد والراحلة وخرجنا في أهبة عظيمة وطفنا الجبال وتوغلنا في معاميها وقطعنا قاصيها ودانيها و بقينا على ذلك مدة ثمانية أيام فما بلغنا الآمال ولا رأينا لطيفه خيال ثم عدنا بصفقة المغبون بعد أن كاد يتربص بنا ريب المنون فلما سمعت منه هذا الكلام هزتني أريحة البطل المقدام وعزمت على أن أدلي دلوي لعلي أبلغ بلة أو أشفي غلة وأنال المرام وأقول يا بشرى هذا غلام لكن الحرّ كان يشوي الجلود ويذيب الجلود فأخذت على نفسي العهود بأني أعود وأفرغ في البحث المجهود وقلت لعل الزمان يجود ويثمر لي العود وأكون أنا الموعود ثم إنطلقت إلى أسوان ولم أدر أن الزمان قدمان إذ رأيت بها رقعة تقول لي الرجعة الرجعة ثم السرعة السرعة فعدت وما قضيت وطرًا ولا حققت خيرًا لكن العود أحمد وصاحب الجدّ يحمد وفي الصباح يحمد القوم السرى «رجع» فإذا إتجهنا إلى الجنوب ودنونا من بندر أسوان رأينا على يميننا أكمة عالية جدًا متصلة بالجبل الغربي تعرف عند سكان تلك الجهة بقبة الهواء لوجود قبة عليها وطريقها صعب الإرتقاء لإنحداره وكثرة الرمل الثائر به فيقطعه الإنسان في نحو الأربع عشرة دقيقة و بها نحو ٣٦ قبرًا وأول من إكتشفها هو مصطفى أفندي شاكر وكيل أشغال دولة بريطانيا العظمى في بندر أسوان ففتح بعضها في سنة ١٨٨٥ وسنة ١٨٨٦ ثم جاء من بعده السير غرانفيل رئيس الجنود المصرية بالحدود وفتح باقيها إذ سلط عليها العساكر المصرية فكشفوها في أمد يسير فصارت مفتوحة معلقة بوسط الجبل كل من رآها من بعد ظنها مزاغل في طوابي أو قلاعًا حربية أو حوانيت بالجبل خلت من سكانها وإن شئت قلت يظنها أفواها مفتوحة تستغيث إلى ربها

وتطلب الرحمة لساكنيها وتقذف لعنًا على من يمدّ إليها يد الدمار.

وأول ما يدنو إليها الإنسان بسفينة يرى على النيل بقايا رصيف قديم كان مبنيًا بالحجر يصعد منه سلم منحوت بالجبل يبلغ طوله نحو ٤٨ مترًا يحيط به جداران أحدث عهدًا منه وهو يتشعب إلى ثلاثة مسالك تفضي إلى بعض تلك المقابر والظاهر أنهم جعلوا تلك المسالك مجازات لمرور نواويس موتاهم إليها وفي نهاية السلم وعن يمينه ويساره قبور لبعض رجال العائلة السادسة والعائلة الثانية عشرة المصرية وبها بعض نصوص بربائية إعتنى بترجمتها كثير من علماء الآثار وذكروها في مؤلفاتهم. ومن أشهرها باب القبر نمرة ٢٦ الذي يرى الإنسان في نحو ثلثه بابًا آخر وهو لأحد الأعيان المدعو سابن بفتح السين وكسر الموحدة وسكون النون وكان في أيام الملك «نفر قازع بي الثاني» أحد ملوك العائلة السادسة لأنه باشر تشيد هرم هذا الملك الذي سبق ذكره بسفارة أما القبر فيشتمل على رحبة يبلغ طولها ٢١ مترًا وعرضها ٨ متر بها أربعة عشر عمودًا مربعة الأضلاع مخلقة من الجبل يعني أنها والسقف والأرض قطعة واحدة وعلى أول عمود منها جهة اليمين صورة سابن المذكور مرسومة بلون أحمر وله شعر أسود وعلى الجدار المقابل لهذا العمود تراه مرسومًا واقفًا في سفينة يصطاد سمكًا وبجواره خادم أو رفيق له يقنص طيرًا جاثمًا أي واقفًا على نبات البردي النابت بوسط الماء وعلى اليسار مسلك يفضي إلى سرداب متعرج كان في نهايته جثة صاحب القبر المذكور وعلى يسار هذا القبر قبر آخر متصل به بلا فاصل يعرف بنمرة ٢٥ وهو لرجل يدعى «ميخو» بكسر الميم وضم الخاء أو ميكو و به ثمانية عشر عمودًا مرتبة على ثلاثة صفوف مخلقة من الجبل أيضًا لها مشابهة قوية العمد التي في قرية بني حسن وبين الصفين الأولين حجر مربع ظن علماء الآثار أنه كان محرابًا وعلى يمين الباب بعض نقوش لطيفة بها صورة ميخو المذكور مصور في هيئة رجل وسيم المحيا تلوح عليه وسمة الشهامة مع أنه سقيم أعرج بالرجل اليمنى يتوكأ على عصاه وله إبن يدعى ميخو أيضًا وزوجة تدعى أبا بفتح الهمزة والموحدة وكانت قسيسة للمعبودة هاتور ثم ترى صورة تقديم القرابين وصاحب القبر قائم يقطّع حيوانًا للقربان ثم تراه في جهة أخرى يحرث الأرض بنيرانه و يحصد القمح من غيطه وبازاء ذلك صورة حمر أي حمير مصفوفة لها شكل لطيف ولهذا القبر مجاز يفضي إلى سرداب ينتهي بمخدع أو مقصورة مربعة الأضلاع فإذا غادرنا هذا المكان وصعدنا قليلًا وملنا إلى جهة اليمين رأينا جملة مقابر أغلبها خال من النقش وأهمها قبر رجل يدعى «رع نب قو نخت» ويظهر من إسمه أنه كان من أعظم رجال الدولة الفرعونية أيام الملك أمنمحعت الثاني أحد ملوك العائلة الثانية عشرة

ويفهم من بعض نصوصه أنه كان رئيسًا على عساكر الإمدادية التي كانت على الحدود المصرية جهة الجنوب وفي هذا المكان طريق ضيق يتصل بفسحة بها ستة عمد مربعة الأضلاع مخلقة من الجبل ثم دهليز مستطيل في كل ناحية منه ثلاث مقاصير وفي الأولى جهة اليسار صورة المعبود أوزيرس وله لحية مرسلة ثم دهليز يفضي إلى فسحة صغيرة بها أربعة عمد وعلى اليمين مجاز يتصل بأربعة مدافن.

فإذا خرجنا من هذا المكان وعلونا الجبل قليلًا رأينا القبر نمرة ٣٢ و به بعض نقوش وكتابة قد أخنت عليها الأيام وهو لرجل يدعى «س رمپوت» وتراه جالسًا على كرسيه تلوح عليه الوجاهة وكان أيام الملك أوزرتس الأول آخر ملوك العائلة الحادية عشرة وفي الفسحة الأولى منه سبعة عمد مخلقة من الجبل على أحدها جهة اليمين صورة تجريدة مصرية كانت توجهت لقمع أمة «كات» التي كانت تمردت وشقت عصا الطاعة وفي مدخل المجاز الموصل للمدفن كتابة محتها الأيام أيضًا نلمح منها ما كان لصاحب هذا القبر من المراتب السامية وأنه ساق العساكر لفتح بلاد الكوش «بالسودان» وعلى اليسار صورة صيد السمك وقنص الطير ثم سرب من الثيران أما القبر فيشتمل على فسحة صغيرة بها أربعة عمد ثم مجاز يتصل بفسحة أخرى بها أربعة عمد أيضًا وكلها مخلقة من الجبل وإلى هذا القبر تنتهي فرجة السائحين من هذا المكان وبالجملة لا يتيسر للإنسان رؤية جميع ما بها إلا إذا كان معه ما يستصبح به أهـ ثم ننحدر من هذه الربوة ونركب الزورق وننحوا لجنوب فنرى جزيرة خضراء نضرة يحيط بها النيل وتحيط به الجبال من الجنوب والغرب عليها صخور قد شمخت بأنفها إلى السماء كأنها قلاع أو معاقل لها منظر موحش قد شوتها الشمس بحرارتها حتى صورتها داكنة اللون وكلها من الحجر الجرانيت الصلب فإذا نظرنا إلى الجنوب رأينا النيل كأنه إنتهى هناك لأنه يزوغ فجأة خلف تعاريج تلك الجبال الصخرية أما الجزيرة فكانت تعرف قديمًا بإسم جزيرة الفنتينه وتسمى الآن جزيرة أسوان وأغلب سكانها برابرة في غاية الفقر والمسكنة لعدم توفر وسائل المعيشة عندهم وكل من دخل فيها ظن نفسه في بلاد النوبة لأنه لا يسمع غير رطانهم وبربرتهم السودانية وكان بها معبدان قد هدم الشمالي منهما ولم يبق به إلا نحو نصفه وصار كخرابة ليس به فائدة تاريخية أما الجنوبي فتخرب أيضًا لكن عليه إسم الملك أمونوفيس الثالث «أمنحتب الثالث من العائلة الثامنة عشرة» وكان هذا المعبد جميل المنظر و متناسب الأجزاء و بابه الباقي إلى الآن معقود من حجر الجرانيت عليه إسم إسكندر الثاني وله رصيف لطيف مشيد على النيل لمنع تعدي مياهه عليه وقت الفيض وهو

من بناء الرومان بنوه بأنقاض المباني القديمة الفرعونية و بوسط المنازل هناك تمثال للمعبود أوزيريس يبلغ طوله نحو المترين قد لعبت به الأيام ومحت محاسنه عليه إسم الملك منفطه «من العائلة العشرين»، لكن لا يقرأ إلا بغاية المشقة لزوال بعض أحرفه ولا شك أنه كان له نظير إغتالته يد الضياع كانوا نصبوهما أمام وجهة معبد الملك أمونوفيس المذكور أما سبب خراب هذين المعبدين فهو أنه في سنة ١٨٢٢ مسيحية قامت الحكومة المصرية والناس فهدموا منهما ما شاء الله وأخذوا حجارتهما المكتوبة حولوا بعضها إلى جير وبنوا بالباقي ما أرادوا بناءه.

وكانت هذه الجزيرة دار إقامة لبعض ملوك العائلة السادسة ثم صارت معسكرًا حربيًا لردّ مهاجمة أهل إثيوبيا عن مصر وبنى بها بعض الفراعنة مقياسًا للنيل كانت أخفته الأيام عن العيون جملة أحقاب وقرون إلى أن إكتشفه الفرنسيس مدة الحملة الفرنساوية بمصر وذلك في نحو سنة ١٨٠١ مسيحية لكن صار بعد ذلك مهجورًا إلى أن حدده خديو مصر إسماعيل باشا على يد المرحوم محمود باشا الفلكي ومن وقتها صار مستعملًا في حساب زيادة النيل كمقياس الروضة بمصر والإنكليز به الآن تحسينات مهمة وعلى الشاطئ الشرقي للنيل قبالة تلك الجزيرة بندر أسوان وسكانه إخلاط من الناس ما بين مصري وتركي وإفرنجي وبربري و بشاري وفلاح وعربي بحيث إن الزائر الغريب يتعجب من كثرة هؤلاء الأجناس وإختلاف لغتهم وتبلبل ألسنتهم فيتذكر من هذه الهيئة وذلك الإجتماع أيام النمرود وبناء صرح بابل و تبلبل الألسنة ويرى عرب البشارية حفاة الأقدام عراة الأجسام لهم شعر مرسل على أكتافهم كأنه فروة كبش قد تلبد صوفها بعد ما طال أو كجلد عنز جعلوه على رؤسهم فصار لهم هيئة خاصة ولجسمهم لمعة من الدهان لكن وجوههم سمحة لطيفة جدًا وتقاطيع سيمة بعضهم في أعلى جاذبية الحسن فيهم عنف وشهامة عربية لا تكاد توجد في غيرهم فهم كما قال الشاعر

جمـــال الوجـــه مـــع قـــبح النفـــوس   كقنـــــديل علـــــى قـــــبر المجـــــوس

وهذه المدينة صارت الآن من أعظم المدن المصرية التي بالصعيد وإنتظم بعض منازلها وبنيت بها الخانات والفنادق وجعلت فيها الميادين والطرق الواسعة سيما الجهة الغربية منها المطلة على النيل وهي الآن عامرة آهلة بالتجارة والتجار ومن ضمن متجرها الفاخورة اللطيفة التي تضارع فاخورة أسيوط ثم البلط والحراب والدرق والكرابيج وجلود الحيوانات المفترسة وغير ذلك من وارد السودان ولم يظهر بأسوان لغاية الآن آثار تاريخية تستحق الذكر في هذا الكتاب غير معبد صغير في جهتها الجنوبية وهو الآن محاط بالأتربة والقاذورات غير معتني بشأنه لقلة أهميته

وبناؤه كان في مدة البطالسة.

وعلى بعد كيلومتر منه إلى الجنوب مسلة عظيمة جدًا خالية من الكتابة متخذة من حجر الجرانيت الصلب الأرقط الذي لا يؤثر فيه الحديد إلا في الزمن المديد وهي منحوتة ومصقولة من ثلاث جهاتها أما الجهة الرابعة فمتصلة بالجبل لم تفصل منه ولضخامتها وهندامها صارت أعجوبة لمن رآها تفصح بلسان حالها عن قوة القوم وعدم إكتراثهم بصعاب الأمور ويرى فيها وفي غيرها من الأحجار التي بجوارها أثر الأسافين والآلات التي كانوا يستعملونها لتفصيل وقطع تلك الأحجار الصلبة وهذه المسلة راقدة في مقطعها الممتد نحو مسافة نصف ساعة إلى الجنوب ويقال أنه كان بالقرب من قرية أسوان القديمة بئر يرى فيها قرص الشمس وقت الزوال متى حلت الشمس في مدار السرطان ولا يعلم الآن مكان هذه البئر.

كيلومتر

٨ من أسوان إلى جزيرة فليا المعروفة عند العوام بإسم جزيرة أنس الوجود

٩٢٤ من بولاق إلى جزيرة فليا

ثم نركب وابور البر ونقصد الجنوب ونسير في صحارى قفراء وجبال غبراء وآكام من الجرانيت يضل فيها الخبير الخريت وبعد أن نقطع ثمانية كيلومترات نصل إلى ورشة الوابورات التي أمام تلك الجزيرة فنركب الزوارق ونقطع فرع النيل الشرقي فنصل إليها وكانت تعرف عند قدماء اليونان بإسم جزيرة فليا وتسمى الآن جزيرة أنس الوجود وهي تسمية على غير أساس لأن الإنسان لا يرى وهو بها غير ماء يحسبه راكدًا كالبحيرة مع أنه جار بطيء تكتنفه جبال جرانيتية داكنة اللون تميل إلى الحمرة قد شوتها الشمس بلهيب أشعتها وللجزيرة والنيل والجبال منظر موحش جدًا وهيئة فريدة في بابها سيما رؤية الجبال وما عليها من الصخور التي ألقتها يد القدرة على بعضها بلا ترتيب لا يسمع بها همس حيوان ولا صوت إنسان فيتخيل الزائر أنه في مساكن الجان أو إستهوته يد الشيطان ويرى الجبال حفت الماء من كل مكان حتى صار شبه ببركة صغيرة وكأن الجبال إتصلت ببعضها لأن النيل يزوغ من عين الرائي خلف تلك الجبال المتعرجة وقد يعجز القسم عن بيان جميع ما يعتري الإنسان من الوحشة والغرابة التي ما رأى مثلها في حياته سيما إذا كان منفردًا ولم تسبق له رؤية هذه المناظر.

ومن تتبع الصخور المتفرقة ما بين أسوان وهذه الجزيرة رأي عليها أسماء كثير من الفراعنة

وأمراء العسكر وقواد الجيش ووجوه الناس كتبوها لتكون تذكارًا لخدمتهم الوطنية ورحلتهم إلى بلاد السودان ووقائعهم الحربية وتسخيرهم لأعدائهم وعلى بعضها صورة المسافرين وقيامهم بعبادة إله الشلال وصيغة الدعوات التي كانوا يتلونها قبل سيرهم وبذلك صار لهذه الصخور أهمية كبرى عند علماء التاريخ والآثار إذ يستفاد منها كثير من الفوائد التاريخية التي منها توالى التجريدات المصرية والفتوحات الأهلية ومنها أن جميع تلك الأقاليم كانت خاضعة لدولة مصر من قديم ومنها ما كان للسودان من القوة والأنفة حيث كانت تخلع أطواق الطاعة وتكافح سيدتها التي تضطر بأن ترسل إليها البعوث وتعبي لها الجنود في كل زمان ومنها إشتباك الطرفين في الحروب المستمرة ومنها ما كان لمصر من القوة وعظيم البأس وأن أخبارها حملتها الصخور على العين والرأس.

وبإزاء هذه الجزيرة جزيرة أخرى تعرف بإسم جزيرة الساحل بها كثير من تلك الصخور العلمية لكنها قفراء.

وأعظم آثار جزيرة فليا هو المعبد الكبير الشهير بقصر أنس الوجود وهو من بناء بطليموس (فيلودلفيس) أي محب أخيه (سمي بذلك للسخرية لأنه أتهم بقتل أخيه بالسم وهذا الملك هو بطليموس العالم الفلكي صاحب كتاب المجسطى المشهور) وعلى المعبد أسماء كثير من البطالسة والرومان يستفاد منها أن لهم به مباني وتجديدات مهمة وأن الناس كانت تؤمه للزيارة والفرجة.

ومتى دنا الإنسان منه رأى رحبة واسعة بها أساطين تحمل البواكي حوله ثم برجين شاهقين يبلغ إرتفاعهما نحو ٢٢ مترًا لهما مشابهة بأبراج معبد إدفو غير أنهما أقل إرتفاعًا منها وبوسطهما باب يفضي إلى إيوان به أساطين كانت تحمل العرش ولتيجانها منظر بهيج وعلى بسيطها نقوش دينية ثم يرى داخله جملة أبواب تفضي إلى غرف ومقاصير أغلبها ظلام دامس لقله منافذ الضوء بها ويرى في ضوء المصابيح نقوشها الزاهية البديعة ثم أسماء الملوك من البطالسة والمعبودات وإذا صعد الإنسان على السطح رأى نفسه على طودة حولها أطواد من الصخور الوحشية المنظر ويسمع على بعد عندما يسكن هيجان الريح هدير الشلال يدوي في الجبال فيعتري الإنسان وحشة الغربة.

وبجوار هذا المعبد معابد أخرى صغيرة قد أتت عليها الأيام حتى كادت تؤدى بها إلى العدم وكلها من عمل دولة البطالسة.

ومن أقدم مباني هذه الجزيرة الباب الكبير الواقع بين الأبراج العظيمة التي هناك ثم المعبد العتيق الكائن في نهاية الجزيرة من جهة الجنوب الغربي وكلاهما من بناء فرعون المدعو (نقطنبو الثاني) لأن عليهما إسمه وهذا الملك المنكود البخت هو آخر من حكم مصر من أهلها ولم يقم لمصر من بعده تخت أهلي إلى الآن كما أنه آخر ملوك العائلة المتممة للثلاثين وهذا المعبد لم يبق به الآن غير إثنى عشر عمودًا وبعض جدر قد تطوحت بها الأيام.

أما تاريخ هذه الجزيرة فمختصر جدًا لأنه يؤخذ من عمر أقدم مبانيها أنها لم تعتبر قداستها إلا أيام الملك نقطنبو المذكور أعني قبل إغارة الإسكندر الرومي ببضع سنين ثم إعتمد اليونان والرومان صحة قداستها فبنوا بها تلك المعابد وزخرفوها بقدر طاقتهم وبالغوا في إحترامها وجعلوا لها الكهنة والقسس وتمسك أهل تلك الجهة بحبل إحترامها حتى أن أوامر القيصر (تيودوز) أو (تيودوسيس) القاضية بأبطال دين الجاهلية من مصر لم تؤثر على أهلها حيث أصروا على إقامة شعائرهم الدينية وإظهار عقائدهم الوثنية ومكثوا على نحو ستين سنة وهم يعبدون أوزيريس وزوجته إيزيس حتى بعد برهة من إستيلاء القيصر (مرسيانوس) سنة **٤٥٣** بعد ميلاد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

وليعلم القارئ أن هذه الجزيرة هي آخر شوط جوادي ونهاية مضمار إجتهادي وما بقي علينا الآن إلا العودة إلى الأوطان بعدما نرى الشلال وما حوله من الجبال.

ولأجل ذلك نركب الزورق ونعطي ظهرنا إلى الجزيرة وننحدر مع النيل فنمر بين جبال متنوعة المناظر تركبت من صخور جرانيتية محزنة الهيئة قد تكومت على بعضها بلا نظام فوقع شطر منها في الماء وعلى ساحليه فصارت تحاكي منازل خلوية مشوهة البناء حالكة اللون وتراها على بعد قد أخرجت قمتها السوداء من الماء كأنها رؤس الشياطين أو جنود إبليس أجمعين وكأنها والنيل ثعبان أرقط قد سار ذات اليمين وذات اليسار أو سوار به رقط كالنمش قد إحتاط بمعصم الحبش وللساحل أشكال مالها مثال فتراه تكيف بالكاف والنون حتى صار كالعرجون أو الحاجب المقرون ثم إنقبض على نفسه وإنبسط ورسم شيئًا ونقط ومتى جن الليل وسجى وطارد البدر جيش الدجي صار للنيل شكل ناب فيل طار عليه بعض المداد فنمقه بالسواد أو سيف مسلول بحده فلول أو بساط من لجين مفروش قد دب عليه سود الوحوش.

وكلما تقدم الإنسان إلى جهة الشلال ظن نفسه أنه في بركة راكدة ليس لها مصدر حصرتها

الجبال من كل ناحية فإذا سار إلى الأمام رآها إنفرجت له عن بركة ثانية ويزيد دوي الشلال وهدير الماء فترعد الجبال من صداه وتردده حتى يصير صوته يصم السمع ويسمع الصمم ومتى دنونا منه خرجنا من الزورق إلى الساحل فنرى النيل قد تشعب هناك إلى نحو سبع مجار يفصلها عن بعضها جزائر صغيرة جرانيتية وأعظم تلك المجاري ما كان موازيًا للجبل حيث فيه تتسابق كتائب الماء وتنقض هاجمة على جند الجنادل بالشلال فتقرعه بشدة بأسها ثم تفر مهزومة منه إلى جهة الغرب والشمال وتسكب من فيض دمعها المدرار ما تفيض به الترع والأنهار.

ولأهالي قرية الشلال عادة وهي أنهم متى رأوا الزائرين وصلوا إلى هذا المكان أتوا مسرعين حفاة عراة وينقضون في الماء من أعالي القيوف وشواهق الجروف وإرتفاعها نحو الثلاثة أمتار ونصف فيغوصون في الماء ويجذبهم عاتي تياره ويجرهم معه ثم يلفظهم على الساحل فيعودون وينقضون ثانيًا وهكذا غير أن كل من يراهم يحسبهم لسواد أجسامهم وسرعة حركتهم أنهم تماسيح أو درافيل تتقلب في ذلك الماء الهادر وتسبح فيه ثم يخرجون ويتكففون الصدقات بإلحاح وإلحاف وهذه المناظر الغريبة لا تحدث بالشلال إلا وقت تحريق النيل أما زمن الفيض فتعم المياه جميع تلك الجزائر وتصير نهرًا واحدًا قليل اللغط.

ومتى إنقضت الفرجة وأردنا العودة فلنا ثلاثة طرق أقربها وأحسنها هو أن نعود إلى جزيرة أنس الوجود ثم نركب الوابور ونحن في أمان إلى بلدة أسوان الطريقة الثانية هي أن نركب الحمير ونسير الطريقة الثالثة وهي أصعبها هي أن نكتري زورقًا بنحو المائة قرش وننحدر به مع التيار ونمر بين تلك الجنادل والأحجار حتى نصل أسوان بعد ما نقاسي المخاوف والأشجان.

إكتشافات أثرية مصرية (في سنتي ١٨٩٣ و١٨٩٤ و١٨٩٥)

(قرية صا الحجر)

قد توجهت في أول شهر أغسطس من سنة **٩٣** إلى قرية صا الحجر التابعة لمديرية الغربية وأجريت بها الحفر في جملة مواضع فعثرت على كثير من التماثيل المتخذة من الصفر (البرونز) النادرة الوجود منها تمثال على صورة المعبودة پست في هيئة هرة جالسة على كاهل رجل قائم وهي فريدة بالمتحف المصرى وتبلغ قيمة جمع ما أتيت به نحو المائة وثلاثين جنيهًا مصريًا مع أني لم أنفق غير ستة عشر جنيهًا ونصف.

(قرية أبي رواش)

أظهر الحفر في هذه القرية مغارة واسعة جدًا تحت الأرض ولغاية الآن لا يعلم الغرض منها ووجد بها عدد وافر من التماثيل المصنوعة من الصفر منها ما هو على صورة النمس الذي كانوا يقدسونه إلى المعبود (نفرتوم).

(قرية أبي صير)

قد فتحت المصلحة أحد أهرامها ولما وجدت مدخله متهدمًا كفت عن العمل ثم كشفت مسطبة (فتاح شپسس) المشهورة بمناظرها الحسناء وفي بعض نقوشها ما يدل على كيفية نقل التماثيل الجافية كما إشتهرت بأعمدتها التي على شكل أزهار البشنين ولم يوجد إلى الآن عمد غيرها بهذه الهيئة من عصر الطبقة الأولى المصرية وكانت هذه المسطبة واسعة لكن الأيام تطوحت بها.

(مىت رهينة)

إكتشفت المصلحة في أطلال المعبد الكبير الذي في خرابها تمثالين هائلين للمعبود فتاح وسفينة مقدسة من حجر الجرانيتي وسفينة أخرى مصمتة من الحجر الجيري وبها مقصورة لتمثال المعبود خنوم (رأس الكبش) وكلها بالمتحف المصرى الآن ثم وجدت في أحد كيمانها معملًا كان معًدا للنقش زمن البطالسة حيث وجدت به كثيرًا من القوالب والأنموذجات القديمة.

(سقارة)

أعظم الإكتشافات التي حصلت في مقابرها هي أولًا إكتشاف مسطبة (مروقا) ويعرف بإسم (ميرا) وهي أكبر المساطب التي ظهرت إلى الآن وتتركب من ٣١ رواقًا ثلاثة منها مزينة بالعضادات أي المساند وفي أكبر أروقتها تمثال الميت صاحب المكان وهو من الحجر الجيري المنقوش يبلغ طوله ٢.٣٠م وأمامه مائدة من المرمر كانت معدة لتقديم القربان.

وفي باقي أروقتها الكبيرة أربع لوحات عليها إسم صاحب القبر وإسم إبنه وزوجته وفي جهة الغرب منها مقاصير أو مخازن كانوا يضعون فيها القرابين والصدقات التي كانت تقدم للميت وفيها قبر زوجته المسماة (سخسخت) وبالجملة جميع النقوش الموجودة في هذه المسطبة جميلة إلى الغاية وحالتها جيدة ومناظرها متنوعة جدًا والسبب في حفظها إلى الآن هو إنه كان يمر من فوقها طريق محاط بصفين من أصنام أبي الهول يصل إلى سرابيوم أي مدفن العجول وتقدم ذكره والدليل على ذلك أنك متى أمعنت النظر شرق هذه المسطبة وغربها رأيت أثر تبليطة هذا الطريق.

ثانيها–مسطبة قابين وهي بجوار المسطبة السالفة الذكر وقد لعبت بها أيدي التلف بحيث لم يبق منها غير خمسة أروقة أما النقوش الموجودة بها في غاية الإتقان وهذه المسطبة والتي قبلها من أيام العائلة السادسة الفرعونية.

ثالثها–جثة كاتب مجهول الإسم وتمثاله وجدا في مقصوتين في سمك حائط من مسطبة حقيرة مبنية باللبن (الطوب الني) مدة العائلة الخامسة وهذا التمثال من أعظم التماثيل المصرية التي وجدت مدة الطبقة الأولى الفرعونية لما به من دقائق الصنعة حتى إن كل من إستعرضه ظنه ناطقًا وليس له في حسنه مشارك غير شيخ البلد (تمثال بهذا الإسم) وتمثال الكاتب المصرى الموجود الآن في متحف (لوفر) بفرنسا.

رابعها–قد أظهرت عملية الحفر في غرب هرم (أوناس) سورًا حول أرض يبلغ طولها ٦٥٥ م وعرضها ٤٠٠ م بمعنى أن مسطحها يبلغ ٢٦٢٠ م وهذه الأسوار من أكبر المباني التي صنعت في أقدم الأزمان وربما كان بناؤها معاصرًا لبناء الهرم المدرج الذي هو أقدم جميع الأهرام (راجع صحيفة ٤.) وقد يغلب على الظن أن هذه الأرض كانت مقدسة ولعل المستقبل يكشف لنا عن حقيقة أمرها بوجود مقبرة أو مغارة لأحد المشاهير وكل هذه الإكتشافات كانت في سنة ٩٣ أما

ما وجد في سنة ٩٤ فهو.

(دهشور)

قد وجد المعلم مرجان مدير المتحف المصري في جبل هذه القرية تلك اللقية الثمينة وهي العقود والخواتم والفصوص والمجوهرات النفيسة التي قومت بثلاثة ملايين من الفرنكات وليس هنا محل لتفصيل هذه الأشياء وقد نشرنا ذكرها في أغلب الجرائد الوطنية في وقتها.

وفي ٢٩ من شهر يناير سنة ٩٥ توجهت إلى جبل هذه الجهة فرأيت العمال فتحوا هرمًا ثانيًا وهو خالٍ من كل شيء وأحجاره الجافية غفل وتابوت الملك مكسور أربع قطع وغطاؤه كذلك وكشفوا بجواره جملة مساطب مشيدة باللبن وطولها كبير جًدا وهي خالية من الكتابة ما عدا إثنتين منها فإن نقشها يذهل العقل ويخرس اللبيب اللسن وعليها خانات ملوكية بها إسم الملك (سنفرو) (أحد ملوك العائلة الثالثة) وفي إحداهما حجر عليه إسم الكاتب الملوكي المدعو (عاحوتب) الذي كان كاتبًا للملك المذكور فن ثم ظهر لنا مبحثان علميان. أحدهما هل هذا الهرم المحفوف بتلك المساطب هو لهذا الملك وهذا المبحث لم يزل بابه مغلقًا لخلو الهرم عن ذكر إسم صاحبه. ثانيهما أجمع المؤرخون على أن مصر كانت في ذلك العهد في زمن الطفولية والتفريخ وكنا سلمنا لهم هذه الدعوى غير أننا الآن لا نسلم أن حسن الخط وإتقان التصوير ونحت تلك الأحجار الجافية ونقلها من مقاطعها البعيدة وأواني الفخار التي وجدت بتلك المساطب ومحاكاتها للصيني أو الفرفوري ونقش بعضها بأغرب ما يكون وتشييد هذا الهرم وتلك المساطب وتفصيل أروقتها وبياضها بالجير يدل على زمن الطفولية والتفريخ. فهلا أيها المؤرخون وأنظروا لتلك الصناعة الدقيقة وإعلموا أن زمن التفريخ كان متقدمًا جدًا عن عصر العائلة الثالثة والثانية والأولى أما عدم وجود آثار لملوكها فلا يدل على نفي أو إثبات إذ من المعلوم أن الأيام أتت على ما كان لهم من الآثار والله أعلم.

كشف إجمالي عن بيان المجوهرات والحلى

.... التي وجدها المعلم (دي مرجان) مدير المتحف المصري في السرداب الذي بجوار الهرم المشيد بالطوب التي بجبل دهشور وذلك في يومي٧ و٨ من شهر مارث سنة ٤ ١٨٩٤ وكلها من أيام العائلة الثانية عشرة الفرعونية المصرية.

بيان ما إشتمل عليه الركاز الأول (اللقية) الذي إنكشف في ٧ مارس من سنة ١٨٩٤ بجوار قبر الأميرة (هاتهورست) أي الست هاتورز.

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
		جرام	طول	عرض
2	زينة صدرية مصنوعة من الذهب الصب وفي وسطها خرطوش به اسم الملاك أوزرتسن الثاني وينتهي طرفاها بشكل باشقين من ذهب متوجين بتاجي الصعيد والبحيرة وأحرف الخرطوش مصنوعة من العقيق واللازورد أو الياقوت الأزرق والفيروزج وكلها مثبتة في بعضها بالذهب وهي أقدم حلية وجدت في جمع الدنيا لأن تاريخ أيامها يصعد إلى ما قيل الآن بنحو ٥٠٠٠ سنة.	٣٧	٠.٠٤٨	٠.٠٥٧
٣	سبع تفاسير أو سمالك من ذهب على شكل قوقع كانت في عقد أو قلادة وصياغتها دقيقة جداً.	٥٥.٥	٠.٠٣٧	٠٠
٤	محارة من ذهب ذات فلقتين	٣٩	٠.٠٦١	٠.٠٥٧
٥	سبع عشرة محارة من ذهب		\\	
٦	تسع محارات من ذهب			
	قفل عقد مركب من زهرتين من البشنين	١٥.٣		٠.٠١٤

	ملتفتين	٨.٧٥	٠.٠١٧ ٠.٠١٠	٠.٠١٤
	على بعضهما ومرصعتان بالفيروزج واللازوردو	جرام	طول	عرض
	العقيق..	٤.٧	٠٠	٠٠
٧	قفل من ذهب على شكل قلب الإنسان (وهي علامة بربائية معناها الراحة والإطمئنان)....	١.٤	٠.٠١٤	٠.٠١١
٨	ظفران من مخلب نمر مصنوعات من ذهب وفي كل واحدة حلقة من ذهب	٧	٠٠	٠٠
٩	ستة سباع من ذهب لها مخالب بارزة	٢٠.٥٥	٠.٠١٨قطر	٠٠
١٠	زوج أساور من ذهب...........................	٥٠	٠.٠٤٨	٠.٠٤٥
١١	« « مرصع بالأحجار الكريمة وأحجار العقيق الصغيرة	١٠	٠٠طول	٠٠
١٢	سبع صفاشع من ذهب كانت تبطن الأساور السالفة الذكر	٢٠.٢		٠٠
	ثلاثة أقفال من ذهب للأساور.			
١٣	جعران من الياقوت الخمري مبطن بصفائح الذهب وعليه خرطوش به اسم الملك أوزرتسن الثالث.	٦.٥	٠.٠٤٠	٠٠
١٤	جعرانان من الياقوت الخمري. جعران من الزمرد.		٠٠	
١٥	جعران من زجاج عليه اسم الأميرة (هاتهورست). مرآة من الذهب والفضة			

١٦	....			
	حلية المرأة المذكورة مصوغة من ذهب ثقلها			٠٠
١٧	جرامان	٩		
١٨	وثلاثة أعشار......................		٠٠	٠٠
١٩		٢.٣		
			٠٠	

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
٢٠	خمس إشارات هيروجليفية أي برباعية أو أحرف معان مصوغة من الفضة يغلب على الظن أنها كانت حلية للسلة أو العلبة التي كانت بها هذه الجواهر	٠٠	٠٠	٠٠
٢١	ثلاث حليات من ذهب لها شكل عقدة حبل وفي إحداها هيئة البشنين مرصعة بالأحجار الكريمة.	٣.١	٠٠	٠٠
	سبعة أقفال صغيرة على شكل عقدة حبل.			
٢٢	ثلاثة شماريخ من ذهب.........................	٤.٣	٠.٠١٠	٠٠
٢٣	ثمانية شماريخ من ذهب طول كل واحد احد وعشرون ميللميتر....................	٤.٨	٠.٠١٩	٠٠
٢٤	شمروخ من الذهب المجدول أو المضفور...... احد عشر شمروخاً من الزمرد.........	٤.٦	٠.٠٢١	٠٠
٢٥	شمروخ من اللازورد المركب على ذهب.... سبعة شماريخ من اللازورد..........	١.٤	٠.٠٣٥	٠٠

	تسعة شماريخ من العقيق............			
٢٦	تسعة وعشرون حبة من ذهب......	٠٠	٠.٠١٨	٠٠
	خمس عشرة حبة من ذهب متضاعفة ثقلها ثمانية			
٢٧	جرامات وأربعة أعشار الجرام	٠٠	٠.٠٣٥	٠٠
	أربع حبات من ذهب مفلطحة ثقلها ثمانية أعشار	٠٠	٠.٠١٨	٠٠
٢٨	الجرام.			
		٠٠	٠.٠١٨	٠٠
٢٩		٦.١	٠٠	٠٠
٣٠				
٣١		٨.٤	٠٠	٠٠
		٠.٨	٠٠	٠٠
٣٢				

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
٣٣	مائتان وأربعون حبة من الياقوت الخمري لونها أحمر داكن.			
	ثمان عشرة حبة من الزمرد مفلطحة.			
٣٤	عشر حبات من الزمرد.			
	ثلاث عشرة حبة من اللازورد مفلطحة.			
٣٥	سبع حبات من اللازورد.			

٣٦	ست حبات من العقيق مفلطحة.			
	سبع حبات من العقيق.			
٣٧	حبتان من خرز أخضر مذهب.			
٣٨	سبع حبات من حجارة أجناس منها واحدة من الخرز.			
٣٩	حب وشماريخ كثيرة مصوغة من الذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة.			
٤٠	ثمانية أوان صغيرة من المرمر.			
	رأسا دبوس من الفضة.			
٤١				
٤٢				
٤٣				
٤٤				

بيان الركاز الثاني (اللقية) الذي إنكشف في مارس سنة ١٨٩٤ بجوار قبر الأميرة (سنت سمبتس).

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
١	زينة صدر عظيمة على شكل الناووس متخذة من الذهب الصب المندمج مرصعة بالأحجار الكريمة ذات الألوان المختلفة ثم عقاب أو باشق ناشر جناحيه كأنه محلق على خرطوش اسم الملك أوزرتسن الثالث وعلى يمينه ويساره تمثالا أبي الهول ورأسهما رأس عقاب وفوقهما تاج المعبود أمون وهو يطأ بقدميه أسيرازنجيا وبازائه أسير آخر من أهل آسيا رافع إليه يدي الضراعة والإبتهال...			
٢	زينة صدر عظيمة من الذهب الصب المندمج مرصعة بالأحجار الكريمة وبها عقاب أو باشق ناشر جناحيه وقابض في أحد مخلبيه علامة الحياة الأبدية وبالآخر علامة الثبات وهو محلق على صورتي الملك الآتي ذكره بعد المصور في شكل مقاتل وكل صورة من هاتين الصورتين قابضة بإحدى يديها على شعر أسير من أهل آسيا وقابضة بالأخرى على مقمعة ومتهيئة لأن تضربه بها لتقتله وبين هاتين الصورتين خرطوش مزدوج مكتوب به اسم ولقب الملك أمنمحتت الثالث (بفتح الهمزة وكسر الميم والنون وسكون الميم الثانية وفتح الحاء والعين وسكون	٦٣	٠.٠٦	٠.٠٥

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
	التاء) وبجوار ذلك كتابة مذكور بها أنه المولى المحسن رب الأرضين القامع لأمة (منتي) وأمة (ساتي) أي سكان جبل الطور وبلاد العرب وعلى اليمين واليسار ذراعان دلالة على الحياة الأبدية قابضان على مروحتين.........	١٣٥	٠.١٠٤	٠.٠٨٨
٣	قوقعة أو محارة من الذهب مرصعة بالأحجار الكريمة ذات الألوان المختلفة يحدث منها شكل على هيئة أزهار.			
	البشنين وصياغتها دقيقة جداً............		٠.٠٤٦	
	قوقعة كبيرة من الذهب الصب.............	١٤.٣٢		٠.٠٤٤
٤	حلية عقد على هيئة رؤس أربعة سباع مجتمعة		٠.٠٧٥	
	مع بعضها.	٦٥		٠.٠٧٥
٥	» » » » »		٠.٠٥٢	
	» » » » »	٢٠		٠.٠٣٢
٦	» » » » »		٠٠	
	» » » » وهي	٢٠.٥	٠٠	٠٠

	قفل للعقد المذكور………	١٨.١		٠٠
٧	حلية أخرى على هيئة رؤس أربعة سباع مجتمعة مع بعضها.	١٩.٣	٠٠	
٨	« « حجمها كالسالفة………..			٠٠
٩		٤٠	٠٠	٠٠
١٠		٢٠	٠٠	٠٠
١١		١٩.٧	٠٠	٠٠

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
١٢	« « « « ………..	٢٢.٢	٠٠	٠٠
١٣	تفسيرة أو سملك من ذهب صب على هيئة القوقع لقلادة جسيمة.	٢٩.٣	٠.٠٥٨	٠.٠٣٤
١٤	« « تنتهي بقفل وحجمها كالسالفة. « « وحجمها كالسالفة.	٤٨.٥	٠.٠٥٨	٠.٠٣٤
١٥	« « « « ………	٣١	٠.٠٥٨	٠.٠٣٤
١٦	« « « « ……..	٣٠.٥	٠.٠٥٨	٠.٠٣٤
١٧	« « « « …….	٣٢	٠.٠٥٨	٠.٠٣٤

	» » » »	٣١	٠.٠٥٨	٠.٠٣٤
١٨	....	٣٠	٠.٠٥٨	٠.٠٣٤
١٩	» » » »	٢٩.٧	٠.٠٥٨	٠.٠٣٤
٢٠	تفسيرة أوسملك من ذهب صب على هيئة القوقع كانت في قلادة أخرى			
٢١	شرح ما قبله وبها القفل...............	٢٨	٠.٠٥	٠.٠٢٨
٢٢	سلسلة من ذهب بها ثلاث وأربعون حبة مستطيلة على شكل اللوز وثمان وتسعون حبة مستديرة وطولها تسعة وثمانون سنتيا.................	٣٨	٠٠	٠٠
٢٣	مكحلة صغيرة على شكل قلم الرصاص وعليها نقش منعرج مصنوع من حب الذهب الصغير الملتصق والمفترق وفي صنعتها ما يدهش العقل وكلها من الذهب الصب المندمج.	٥١	٠.٠٨٩	٠٠
٢٤		٩	٠.٠٥٣	٠٠

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
٢٥	سوار بسيط من الذهب قطره خمسة سنتيات	١٥	٠.٠٥قطر	٠.٠١٤

	جزء من مرآة من الذهب الصب............			
٣٥	« « « على شكل رأس أسد...	١٣.٥	٠.٠٩٩	٠.٠٢٥
٣٦	« « « والفضة على شكل رأس المعبودة.	١٣	٠.٠٣٢	٠.٠٣٤
٣٧	هاتور وكانت عيناها من الجواهر .... طرف يد مرآة على شكل أزهار البشنين من الذهب الصب.	٣٧.٥	٠.٠٢٥	٠.٠٥٠
٣٨	» » » » علامة بربائية تنطق (تب) وعليها عقدتان اشاريتان	١١	٠.٠٣	٠.٠٢١
٣٩	يحيطان بعلامة الحياة الأبدية وكلها مرصعة بالأحجار الكريمة ذات الألوان	٣	٠.٠٢٣	٠.٠٢
٤٠	المختلفة............. جعران من اللازورد مركب على خاتم من ذهب عليه اسم ولقب الملك أمنحتت الثالث........... قطعة من ذهب كانت في حلية...............	٣	٠.٠١٧	٠.٠٢
٤١	» » » » .... جعران من الياقوت الحمري مركب على	٠٠	٠٠	٠٠
٤٢	صفيحة من ذهب خالية من الكتابة .... باشق ناشر جناحيه	١.٨	٠.٠٢٩	٠٠
٤٣	قابض بمخلبه على حلقة رمزوا بها للأزلية وهي مصوغة من ذهب عليها أحجار	١.٨	٠.٠٢٩	٠٠
٤٤		٣	٠.٠١٥	٠٠

٤٥				

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
	كريمة مختلفة اللون......................	٣.٥	٠.٠٣٤	٠.٠٢
٤٦	مربع مركب من علامتين بربائيتين كل واحدة منهما تنطق (نوتر) ومعناها الله وبوسطهما علامة أخرى بربابة تنطق (حتى) أي القلب وكلها من الذهب والأحجار الكريمة المختلفة اللون.......			
٤٧	علامة أخرى بربائية تنطق (فو) تحيط بعلامة القلب وكلها من الذهب والاحجار الكريمة المختلفة اللون...	٢	٠.٠١٧	٠.٠١٥
٤٨	علامة أخرى بربائية تنطق (فو) تحيط بعلامة القلب وكلها من الذهب والأحجار الكريمة المختلفة اللون...	٣.٨	٠.٠١٨	٠.٠١٧
٤٩	علامة الأزلية من الذهب والأحجار الكريمة....	٣.٣	٠.٠١٧	٠.٠١٧
٥٠	علامة برباعية تنطق (فو) تحيط بعلامة القلب وكلها من الذهب والأحجار المختلفة.........	٢.٥	٠.٠١٣	٠.٠١٣
٥١	جعران من الزمرد مركب على خاتم ذهب منقوش على بطنه اسم	٣.٥	٠.٠٣٢	٠.٠٢١

٥٢	الملك أمنحتب الثالث. قلادة بها ثمان عشرة حلية كالشماريخ منها خمسة من العقيق وخمسة من اللازورد أي الياقوت الأزرق وثمانية من الزمرد..................	١٤.٥	٠٠	٠٠

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
٥٣	خاتم من ذهب عليه شكل يعرف في علم الهندسة باسم الشكل المعين وبه حب من ذهب.........	٣.٨	٠٠	٠٠
٥٤	جعران من الياقوت الخمري مركب على خاتم من ذهب عليه اسم ولقب الملكة (سنت سميتس)..	١.٨	٠٠	٠٠
٩١	آنية من العقيق الأزلندى بدون غطاء وفي أعلاها وأسفلها دائرتان من الذهب.......		٠.٠٤٥	٠٠
٩٢: ٩٨	سبعة أوان من المرمر مختلفة الحجم............	٤٩		
٩٩	سلسلة مركبة من ستة وأربعين حبة على شكل اللوز وكلها من الياقوت الخمري والعقيق........		٠٠	٠٠
١٠٠	مرآة من الفضة عليها حلية من الذهب يبلغ قطرها احد عشرسنتياً...........	١٧	٠.١٠	٠٠
١٠١	مرآة من الفضة عليها حلية من الذهب يبلغ قطرها أحد عشرسنتيا...........	٠٠	٠.١٢	٠٠

١٠٢	قلادة بها حب على شكل اللوز سبعة منها من الزمرد واثنان من الياقوت الخمري وتسعة من اللازورد وخمسة صغيرة من الزمرد في طرفيها.	٠٠		
١٠٣	جزء من مرآة على شكل رأس سبع مصنوعة من الذهب الصب........................		٠.٠٢٥	٠.٠٢٦
١٠٤	حب كثير من الذهب واللازورد والزمرد والعتيق كان مركباً في عقد وأساور ومتوسط سمك الحبة نحو مللي واحد من المتر.	٥		

مباحث علمية ونتائج تاريخية

وبإمعان النظر في هذه الجواهر يظهرلنا بداهة جملة فوائد علمية تاريخية.

أولها أن جميع ملوك هذه العائلة أي الثانية عشرة كانت من عائلة واحدة مرتبطة بعلاقة القرابة ولولا ذلك لما كانت نساؤهم تدفن مع بعضها في مكان واحد راجع نمرة ١ و٢ من الركاز الثاني حيث ترى بهما اسم الملك أوزرتسن الثالث والملك أمنحتب الثالث.

ثانيها أقدمية هذه الجواهر لأن تاريخ عملها يصعد إلى نحو خمسة آلاف سنة قبل الآن أعني إلى ما قبل دخول إبراهيم الخليل عليه السلام أرض مصر ولم يوجد إلى الآن على وجه الأرض حلي لنساء تلك الأزمان ولا لمن أتى بعدهن بألف سنة (راجع مدة حكم هذه العائلة في الباب الرابع من هذا الكاب).

ثالثها وفرة الذهب والفضة والأحجار الكريمة بأرض مصر ولا ينشأ هذا إلا من الثروة والغناء ولما كانت جبال مصر خالية من أغلب هذه المعادن وهذه الأحجار نتج عن هذا ثلاث مسائل وهي: أولًا هل كانت مصر واضعة يدها على أغلب الممالك المجاورة لها والتي بها تلك المعادن وتلك الأحجار بحيث كانت تقبضها منها برسم الجزية السنوية.

ثانياً هل كانت مسالمة لجميع العالم وكانت تجارتها وبضاعتها رائجة في جميع أسواق تلك الممالك.

ثالثاً هل كانت واضعة يدها عليها وتجارتها رائجة بين جميع الناس ولعل هذا القول الأخير هو الراجح.

رابعها يستفاد من دقة حسن هذه الصناعة خلو بال الأمة من كل ما يكدر صفو الراحة وتوطيد أساس العدل ولولا ذلك لما بلغت صنائع هذه الأمة تلك الدرجة السامية وتفنن أصحابها في الإختراع كتركيب المينة على المعادن ومزج الألوان التي لا تتأتى إلا من معرفة علم الكيمياء النباتية والمعدنية ثم تفصيل الأحجار الصلبة وجلاؤها وتركيبها في الفضة والذهب.

خامسها مغايرة هيئة لحلى نساء جميع العالم الآن فإن أغلب حليهن كان على هيئة أشكال المعبودات المصرية وعلى هيئة أحرف أو مقاطع بربائية ذات معان تدل على طلب الرحمة في

الدار الآخرة أو حصول البركة في هذه الحياة الدنيا ومن هذا ينتج فائدة.

وهي شدة تدين قدماء المصريين وأنهم كانوا يوقنون بالحشر والنشر والحساب والعذاب وأن نساءهم كانت كنساء هذه الأيام يستعملن الكحل بدليل وجود هذه المكاحل المذكورة في نمرة ٢۴ و ٨١ ولعل هذه العادة سرت منهن إلى نساء أهل المشرق وبقيت مستعملة عندهن إلى الآن.

سادسها يظهر من حلى نمرة ٩ من الركاز الأول ونمرة ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ و ٣۶ و ۶٠ و۶١ و ۶٢ و ۶٣ و ۶۴ من الركاز الثاني أن الأسد أو السباع كانت كثيرة جداً بأرض مصر في تلك الأيام ولولا ذلك لما كانوا إهتموا بها وجعلوا صورها من ضمن حلى نسائهم ومما يؤيد ذلك ما وجد مذكوراً على أحد الجعارين أن الملك أمونوفيس الرابع (أحد ملوك العائلة الثامنة عشرة) قتل من إبتداء السنة الأولى من حكمه إلى السنة العاشرة منها مائة أسد وعشرة وبهذا القول (أي كثرة الأسد جداً بمصر) قال بروكش باشا والظاهر أن هذا الحيوان إنقطع من أرض مصر أيام العائلة المتممة للعشرين والله أعلم بحقيقة الحال.

سابعها تأكد عندنا أن أهرام دهشور أو أغلبها كان لهذه العائلة الذي كان مركز تختها بمدينة طيبة بمديرية قنا بالصعيد وجزم بعضهم أن أهرام الفيوم لبعض ملوكها أيضاً.

ثامنها أفادتنا زينة نمرة ١ من الركاز الثاني أن مصر كانت حاكمة في مدة الملك أوزرتسن الثالث على بلاد السودان وآسيا بدليل صورة الأسيرين المرسومين عليها كما أفادتنا زينة نمرة ٢ أن بلاد العطور والعرب كانت خاضعة لمصر أيضاً مدة حكم الملك أمنحتب الثالث وأنها أي مصر كانت متوحدة الكلمة بدليل قوله (المولى الحسن رب الأرضين) وهما الصعيد والبحيرة فضلًا عما فهمناه من أنهما كانا ملكين مغازين منصورين في غزواتهما وبذلك نعتبر هذه الزينة أثراً تاريخياً نفيساً فضلًا عن أنها من أهم الحلي المصري القديم.

تاسعها إستفدنا أن نساء ملوك مصر كن يدفن بمصاغهن وحليهن وعصيهن راجع نمرة ٨٤ من الركاز الثاني وأنهن كن يكتبن أسماء الملوك أزواجهن على هذا المصاغ ولكن من الاسف أن لصوص الفراعنة لم تترك لنا تلك الآثارالنفيسة حتى كنا نزداد معرفة من أحوال تلك الأيام القديمة المصرية.

عاشرها علمنا أن ملوك هذه العائلة كانت تدفن في الأهرام ونساءهم كن يدفن في سراديب

بجوارهم وهاك وصفاً إجمالياً لكل من الهرم المبني بالطوب الني والسرداب الذي بجواره وهو الذي كان به هذا الركاز.

(في وصف السرداب أو النفق)

هذا السرداب واقع في الجهة الشمالية الشرقية للهرم المشيد بالطوب الني وليس له باب بل بئر عمقها تسعة أمتار ينزلها الإنسان بواسطة الحبال والأقلاس ومتى وصل إلى قاعها وجد بها سردابين مصنوعين في أرض طفلية أحدهما أسفل والثاني أعلى وهذا الأخير يسلك إلى الجهة الغربية نحو مائة متر وينتهي ببئر كالأولى وعرض هذا السرداب أو النفق نحو متر ونصف وإرتفاعه نحو مترين أو أقل وبه خمس فجوات متوزعة في الجهة اليمنى منه لكل واحدة جملة درج صعبة النزول لإنخفاض ما بينها وأغلبها ينتهي بسراديب ثم بأروقة تخرج منها سراديب أخرى تنتهي بأروقة يكون بها توابيت الموتى ومن هذه السراديب واحد يفضي إلى السرداب الأسفل الواصل إلى فوهة البئر.

ولما كشف المعلم دي مرجان عن هذا البئر وفتح السردابين وباقي السراديب التي بهما وجد جميع التوابيت مفتوحة أو مكسورة وعظام من كان بها نخرة مهشومة فيها هنالك علم أن ذلك ناشيء عن فعل لصوص الفراعنة.

أماهذه الجواهر والحلي المذكورة بالكشف السابق ذكره فكانت مدفونة في الحجر ومردومة بفتاته أمام بعض تلك التوابيت ولولا ذلك ما كانت تخلصت من يد اللصوص ولما إستخرجها المعلم المذكور سمعته يقول أن قدماء المصريين كانوا من أخبث خلق الله ونحن الآن أخبث منهم لأنهم بالغوا في إخفاء مدخراتهم ونحن أخرجناها من بعدهم وقد خفيت عن عين لصوصهم.

أما الهرم المذكور فكان حاول فتحه العلامة مسبرو مدير المتحف المصري سابقاً ولكن يتيسر له ذلك وفي سنة ١٨٩٤ جاء المعلم دي مرجان مديره الحالي وقطع سرداباً من بئر سرداب الركاز وإتجه به إلى الجنوب الغربي صوب مركزالهرم لكنه لم يجد في ذلك فائدة ثم حفر أرض البئر وقطع سرداباً ثانيا أسفل من الأول وموازياً له فعثرعلى دهليز ضيق يفضي إلى الهرم وكان ذلك في شهر دسمبر من السنة المذكورة فدخلته معه وبيدنا المصابيح وكنا نمر تارة حبواً وتارة سحباً على البطون حتى وصلنا دهليز الطيفا بوسط الهرم يخرج منه دهليز آخر به بعض المقاصير وكلها مبيضة بالجير السلطاني ورأينا تابوت الملك تحت الردم وأبواب المقاصير هدومة بعد أن

كانت مبنية فعلمنا بأول نظرة أن اللصوص عاثت في ربوع هذا المكان ولما كشفناه لم نجد عليه كتابة بل زينة وحلية لطيفة تدل على براعة القوم في فن الحفر وقطع الأحجار وهو متخذ من الحجر الجرانيتي المنقط فجاءت العمال وكشفت الغطاء قليلًا ونزل فيه المعلم المذكور فلم ير به شيأ قط فعندها قال لي واخيبة المسعى كأن اللصوص الذين سبقونا لسرقة جثة الملك غسلوا لنا تابوته بالصابون ولم يتركوا أقل شيء نعرف منه اسم الملك صاحبه وبعد ذلك أخذنا نبحث على مكان دخول اللصوص فلم نهتد إليه لأن سقف الأروقة والمقاصير والدهاليز مصنوع من صخرة واحدة من حجر الجرانيت أو من صخرتين مرتكزتين على بعضهما ومتعشقتين وعليها وعلى الجدر طبقة من الجير الأبيض الناصع وبينما أنا أسرح طرفي عائب هذا الأثر وأحكام غلقه إذ رأيت في أحد الجدر نقباً صغيراً وعلى حافته العليا سواد العثان (الهباب) فعلمت أن هذا أثر فعل اللصوص ليعرفوا ما خلف الجدار وهذا العثان من مصابيحهم ولما رأيت ضخامة التابوت وعظم حجمه مع ضيق المسارب والسراديب وقعت من الحيرة في حيص بيص وقلت في نفسي من أية الطرق أدخلوا هذا التابوت الجسيم في هذا الهرم الحرج المسالك فكنت تارة أصوب نظري إلى السقف فأجد الصخور محكمة وتارة أرمق الجدر فأجدها مصمتة لا تزحزحها الجبال وتارة إلى الأرض فأجدها صخرية وبعد أن أعملت فكري أيقنت بإستحالة دخول التابوت من أي جهة منه ثم جال بخلدي أنهم وضعوا التابوت في هذا المكان قبل بناء الهرم ولما تم تشييده ومات الملك وضعوه فيه لكن كنت أراجع نفسي وأقول إذا سلمنا بهذا القول وفرضنا صحته من أين أتوا بجثته إليه ومن أين أتت اللصوص ثم خرجت وأنا متعجب وأخذ المعلم دي مرجان في تنظيفه ليقف على حقيقة أمره وعلى طريق اللصوص.

وفي شهر فبراير سنة ٩٥ بلغني أن المعلم المذكور إكتشف على بئر في نهاية أحد السراديب التي بداخل الهرم ولعله متصل بسرداب يفضي إلى بئر آخر خارجة فإن صح ذلك كان هذا هو طريق اللصوص لا طريق التابوت والله أعلم بما هنالك.

كشف إجمالي بيان الركاز الثاني

..... الذي إكتشفه المعلم دي مرجان في يومي ١٥ و١٦ من شهر فبراير سنة ١٨٥٩ في مقبرتي الأميرة (إنا) والأميرة (خنوميت) من العائلة الثانية عشرة مدة الملك أمنحتب الثاني.

وهاك ما قاله المعلم المذكور:

لما أجرات الحفر بجبل دهشور غرب بالهرم المنسوب للملك أمنحتب الثاني عثرت على مقبرتي الأميرة (إنا) والأميرة (خنوميت) وكانتا مغلقتين بصخور من الحجر الجيري المستخرج من جبل طره ولما فتحتهما وجدت غطاء تابوتيمها ورواق تقديم القربان على حالتهما الأصلية كيوم دفنهما بهما فعندما أيقنت أن لصوص الفراعنة لم تمتد إلى هذا المكان وهاك ما وجدته بهما.

ركاز الأميرة (إنا) المكتشف في يوم ١٥ فبراير سنة ١٨٩٥.

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
		جرام	طول	عرض
١	خنجر بنصل من الصفر (البرونز) بمقبض من ذهب مرصع بالعقيق واللازورد والزمرد المصري ينتهي برمانة من حجر واحد من اللازورد وطول جميع الخنجر سبعة وعشرون سنتياً وثقله مائة وستة وسبعون جراماً ثم ثلاث قطع من قراب الخنجر المذكور كانت موضوعة في نهايته منها قطعتان من الذهب والثالثة من اللازورد ونقل الجميع خمسة عشر جراماً ونصف.	١٧٦	٠.٢٧	٠٠
	سوار من ذهب أملس سادة................ « « صب................	١٥.٥	٠٠	٠٠
٢	ست عشرة دمة من ذهب كانت مركبة في السوار	١٩	٠٠	٠٠

٣		٣٤.٥	٠٠	٠٠
٤				
		جرام	طول	عرض
	وكل إثنين منها ملحومتان في بعضهما.......	٧١.٥	٠٠	٠٠
٥	قفلان من ذهب ثقله ستة جرامات ونصف....			
	قفلان من ذهب مرصنعان بالعقيق واللازورد والزمرد	٦.٥	٠٠	٠٠
٦	المصري وهما على شكل علامة بربائية تنطق (دد) أي الثبات...............................			
	سبعة عشر قطعة من فضة كانت مركبة في أساور..	٢٢.٥	٠٠	٠٠
٧	صفيحتان من الفضة كانتا في قلادة لها شكل نصف دائرة.	٣٤.٥	٠٠	٠٠
٨	« « مربعتان			
	تسعة وعشرون قطعة يتركب منها شكل درة (بكسر الدال وتشديد الراء وهي جملة سيور مجتمعة مع	٣٧	٠٠	٠٠
٩	بعضها تكون مع الملوك والأمراء يجلدون بها المجرمين			
	أه مؤلف) لها قبضة من الفضة على شكل نصف	٤٤	٠٠	٠٠
١٠	دائرة أما التسعة وعشرون قطعة فبعضها على شكل مخروط ناقص وبعضها على شكل النواقيس وكلها من العقيق والخزف المنقوش بالمينة.			
	عينان من نقاب غشاء الكفن مصنوعتان من حجر الكورتس مركبتان على فضة.			
	باشق جاثم أي لابد على الأرض متخذ من العقيق.			
	شبيكة من حب العقيق والخرز.			

١١				
		٥.٨٥		
			٠٠	٠٠
١٢				
١٣				

ركاز الأميرة (خنوميت) الذي ظهر في ١٦ فبراير سنة ٩٥

بيان ما وجد معها في تابوتها وهو.

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
١٤ ١٥ ١	**عقود من العقيق والخرز.** **رأس مسوقة من الحجر.** **رأسي باشق من الذهب كانتا مشابك للعقود مرصعتان باللازورد والعقيق والزمرذ المصري وعيناهما بحجر سيلان أحمر كحب الرمان.** **مائة وثلاث قطع على شكل علامات بربائية وهي علامة الحياة (عنخ) والنبات (دد) والأزلية (زت)**	٥٩	٠٠	٠٠

٢	وكلها من الذهب المرصع بالعقيق والزمرذ المصري			
	منقوشة بالحفر على ظهرها يختلف طولها من			
	٠,٠١٤٥ إلى ٠,٠٢١٧٥	٦٦		
	تسعة عشر شموخاً من ذهب مرصعة بالرمزذ كانت		٠٠	٠٠
	منضدة في عقد وثقل الجميع ثمانية جرامات وربع			
٣	جرام.	٨.٢٥		
	مائة وأربعة وعشرون حبة من العقيق والزمرد المصري		٠٠	٠٠
	واللازورد وكلها على شكل علامتين بربائيتين وهما			
٤	حرف الألف ومقطع شن....	١٠.٥		
	قفل من ذهب على شكل شبه المنحرف وثقلهما		٠٠	٠٠
	جرامان ونصف.........	٢.٥		
٥	ست أساور من ذهب على شكل صفيحة أو نصل		٠٠	٠٠
	سيف..	٨.٥		
٦	قفلان لسوار من ذهب يحيطان بعلامة بربائية تنطق		٠٠	٠٠
٧				
		جرام	طول	عرض
	(س) مرصعان بالعقيق واللازورد والزمرد المصري			
	يعلوهما رأس لبوة من ذهب عليها خطوط بالحفر من			
	الظاهر والباطن.......	٢٣	٠٠	٠٠
٨	ستة أقفال أساور من ذهب....			
	قفلا أساور من ذهب.......	٥٢.	٠.٠٤	٠٠
٩	سبعة وستون قطعة أو بقايا اساور من ذهب.....	٥	٥	٠٠
	ظفرا مخلب نمر من ذهب مرصعان بالعقيق واللازورد	١١	٠.٠٥	
١٠	والزمرد المصري وعلى باطنهما حفريقة نقش دقيق.		٣	٠٠
	عينان من غشاء الكفن مصنوعتان من حجر الكورتس	١١		
١١	وملبسان بالفضة.	٤.٥	٠٠	٠٠
	ألفان وتسعة عشر حبة من ذهب كانت منضدة في			

١٢	أسماط عقود وقلائد تبلغ نحو الخمسة وعشرين قلادة.		٠٠	
	خمسمائة وخمسة وثلاثون حجر من اللازورد كانت	٦		
١٣	منضدة في ثمانية أسماط.			
	ستمائة سبعة وسبعون حجر زمرذ كانت منظومة في			٠٠
	عشر عقود			
	ألف وخمسمائة وثلاثة حجر عقيق منظومة في عشرين	٦٦	٠٠	
١٤	عقداً.	٥		
	رأس مسوقة من حجر الكورتس اللبني.			
١٥	« « من الحجر الجبري.			
١٦				
١٧				
١٨				
١٩	ثلاثة أسماط أ أفرع من الذهب واللازورد والزمرد المصري كانت مرصعة في أساور.			

أما ما وجد بالسرداب للأميرة المذكورة هو

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
		جرام	طول	عرض
١	تاج مضفور من سلك الذهب به حلية على شكل الزهر المعروف بنبات أذن الفار ومرصع بالزمرد المصري والعتيق وعلى التاج حلية منقسمة إلى ستة أقسام يفصلها عن بعضها ورد من زهر البشنين وتلك الوردات مرصعة بالعقيق والزمرذ المصري وهذه الحلية منضدة بأحجار صغيرة من اللازورد وقطر التاج سبعة			

	عشر سنتياً ونصف وإرتفاعه سنتيان..........			
٢	تاج آخر من الذهب مرصع بالعقيق واللازورد والزمرد المصري مركب من وردات ومن أشكال على هيئة العود (آلة الطرب) يعلوه ثمان زهرات وقطر التاج أحد وعشرون سنتياً وإرتفاعه أربع سنتيات......	٣٦	٠٠	٠٠
٣	هلال من ذهب على شكل نباتة بورقتها مصنوع من ذهب وأزهارها كعناقيد مركبة من حبوب صغيرة من	١٠٨	٠٠	٠٠

نمرة متسلسلة	أسماء الأصناف	وزن الجميع	كل قطعة	
	الذهب وبها الزمرد المصري والعقيق واللازورد وساق هذه النباتة الذهبية مثبتة في لسان التابع المذكور....	٢٠	٠٠	٠٠
٤	تلبيسة من ذهب مركبة من ثلاث قطع مثبتة في التاج مثل الهلال السالف ذكره تحمل ريشاً كالمروحة.	٢٧.٨	٠٠	٠٠
٥	تلبيستي أهلة من الذهب يتركب كل منهما من أنبوبتين بدخلان في بعضهما ومرتكزان في التاج.			
٦	تلبيستي أهلة من الذهب يتركب كل منهما من أنبوبتين يدخلان في بعضهما ومرتكزان في التاج وطول إحداهما ٠,٠٣٧٥ وطول الأخرى ٠,٠٤٦ حلقة من ذهب قطرها٠,٠٢٣٥	١٣	٠.٠٦٣	٠٠
		٩.٥	٠٠	٠٠
٧	« « « ٠,٠٢١	١٤	٠٠	٠٠
٨	باشق من ذهب عليه نقش بالحفر من أغرب ما يرى وهو ناشر جناحيه وقابض في كل مخلب على خاتم من العقيق المطعم وعيناه من حجر سيلان أحمر كحب الرمان وطوله من رأسه غلى ذيله ٠,٠٣١	٢٥.٥	٠٠	٠٠

٩	وعرضه من طرف الجناح إلى الآخر ٠,٠٩٥			
	أربعة وعشرون قطعة من ذهب مرصعة بالعقيق واللازورد والزمرد المصري وكلها منقوشة بالحفر من باطنها ربما كانت أسماطاً من قلادة وهاك وصفها	٩.٢	٠٠	٠٠
١٠				
		جرام	طول	عرض
	(أ) رأسا باشق...............			
	(ب) باشقان على ظهرهما دره (بالكسر) وكل وكل واحد جاثم على علامة بربائية تنطق (نب) ومعناها السيد..	٢.٥	٠٠	٠٠
	(ج) ثعبانان فوق علامة (نب)	٢.١	٠٠	٠٠
	(د) نحلتان...................			
	(هـ) علامة الحياة (عنخ) وثقلها ثمانية أعشار الجرام.	١.٤	٠٠	٠٠
	(و) علامتا الثبات (دد) وثقلهما ثلاثة أربا ع الجرام.	١.٥	٠٠	٠٠
	(ز) علامتا القدرة (أوزر)................	٠.٨	٠٠	٠٠
	(ح) علامتها آلة طرب لهما رأس المعبودة هاتور.	٠.٧٥	٠٠	٠٠
	(ط) علامتا الإجتماع (سم)			
	(ر) انيتان على شكل علامة بربائية تنطق خنوم وهو اسم المنوفية...............		٠٠	٠٠

	(ك) علامتان ينطقان (أوجا)............	٠.٧		
	(ل) علامه تنطق (حتب) أي الراحة يعلوها علامة الحياة (عنخ).....................	٥	٠٠	٠٠
	(م) قطعة مركبة من علامتين كل واحدة منهما تنطق (مر) أي الحب يحيط بهما باشقان متقابلان	١.٢	٠٠	٠٠
		١.١	٠٠	٠٠
		١	٠٠	٠٠
		١.٥	٠٠	٠٠
		٠.٦		
		جرام	طول	عرض
١١	بالوجوه وقائمان على علامتين بربائيتين (تب).. سبعة أقفال من ذهب لقلائد وكلها مرصعة بالعقيق والزمرد المصري واللازورد ومنقوشة من باطنها بالحفر و بيانها كالآتي	٤.٢	٠٠	٠٠
	(أ)علامة بربائية تنطق (مس) اي الولادة أو الأنتاج.			
	(ب)مجموعة مركبة من علامتي (فو) و (أب)..	٣.٥	٠.٠٣٤	٠٠
	(ج) عقدة لزهرتي بشنين بينهما خاتم......			
	(د) خاتم.........................	٢.٢	٠.٠٢	٠٠
	(هـ) خاتم عقيق من حجر واحد مركب على ذهب..	٢.١	٠٠	٠.٠١٧
	(و) مجموعة مركبة من علامة (س) و (عنخ) و (ها) و (تب) وكلها دلالة على الحماية في الدار الآخرة.			

	(ز) شرح ماقبله	٤	٠٠	٠.٠١٨
	تسعة وخمسنون شمروخاً من ذهب على شكل دموع			
	مرصعة باللازورد والزمرد المصري والعقيق.......	١٠	٠٠	٠.٠١
	تسعة وخسون شمروخاً شرح ماقبله			
	مائة وخمسون حبة من ذهب مابين مستدير ويضاوي			
	وغير ذلك وكلها ما يين سادة ومخلطة وجميعها كانت			
١٢	منضدة في قلادتين....	٣.٤	٠٠	
	مائة ثمانية وعشرون حبة ذهب ولازورد وعقيق وزمرد	١.٤	٠٠	٠.٠١٦
١٣				٠.٠١٥
١٤		٢٣.٨	٠.٠١	
		٢١.٦	٠٠	٠٠
				٠٠
١٥				
		٣٦.٨	٠٠	
				٠٠
	مصري وخرز وكلها منظومة في قلادتين.			
١٦	ستون حبة ما بين عقيق وزمرد مصري ولازورد وكل			
	واحدة منها مفصلة بهيئة الشكل المعين (أحد أشكال			
	الهندسة العادية).			
١٧	تسعة وخسون حبة من العقيق بأشكال مختلفة.			
	أربعة وعشرون طيراً صغيراً من الذهب ناشرة			
	أجنحتها.			
١٨				
	أربعة مشابك من ذهب على شكل نعل الفرس.....	٥.٥	٠٠	٠٠
١٩	إسطوانتان من ذهب.	١٣.٢	٠.٠٢٣	٠٠
	سلسلة صغيرة من ذهب مضفورة على أربعة وبها اثنى			

	عشر شمروخاً من ذهب على هيئة قلب الإنسان....			
٢٠	سلسلة صغيرة من ذهب بضفيرة منفردة مصنوعة	٣	٠.٠٢٠	٠٠
٢١	اسورةمعلق بها عشرة محارات من ذهب ونجمتان بكل واحدة خمسة أشعة مشغولة بالجفت(الجفتشي)..	٨.٢	٠.٢٧٨	٠٠
٢٢	ميدالية من ذهب على شكل قشرة من حجر نجوم الكوارتس) بها زواق على شكل ثور رابض وفي الجهة السفلى معلق ثلاثة نجوم بكل واحدة ثمانية أشعة من ذهب مشغولة بالجفت (الجفتشي) وفي الجهة العليا سلسلتان صغيرتان مرتبطتان في وردتين من ذهب	٥	٠.١٥٣	٠٠
٢٣	شغل الجفت............	٥.٩	٠٠	٠٠

		جرام	طول	عرض
٢٤	قفل له شكل فراش (أبو دقيق) من ذهب شغل الجفت معلق في سلسلة من ذهب........	٢.٥	٠٠	٠٠
٢٥	قفلان من ذهب على شكل عقدة حبل.........			
٢٦	ناقوسان من ذهب.....	٢.٢	٠٠	٠٠
	ثعبان من ذهب كأنه يزحف على ساق نباتة من البشنين وثقله خس الجرام.......	٠.٨	٠٠	٠٠
٢٧	ثعبان من زمرد مصري كأنه يزحف على علامة (نب)..	٠.٢	٠.٠١٨	٠٠
٢٨	حجر لازورد له شكل ترباس باب......			

٢٩	رأس ضفدعة من اللازورد وعيناها من حجر سيلان أحمر كحب الرمان وهما والخياشم مركبة على قفص من ذهب.	٠.٠٥	٠.٠٠٦	٠٠
٣٠	شمروخ من خرز على شكل الكمثرى مركب على ذهب...	٥.٥	٠.٠٥٧	٠٠
	قشرة عقيق بيضاوية الشكل.................	٢.٥	٠.٠١٨	٠.٠١٢٥
٣١	عينا طير اللقلق من حجر الكورتس مركب على نحاس..	١	٠.٠١٤	٠٠
٣٢		٠.٧	٠.٠١٨	٠٠
٣٣		٠٠	٠.٠١٥	٠٠

الفهرس

خطبة الكتاب ٥
المقدمة ٧
الفصل الأول
ملحوظات عامة على النيل ومصر وأصل سكانها........ ١١
الفصل الثاني
في الرحلة ما بين الجيزة وقرية سقارة........ ١٦
الفصل الثالث
في فضائل مصر ونيلها المبارك........ ٢٠
الفصل الرابع
رحلة علمية من سفارة إلى قرية بني حسن ٢٧
الفصل الخامس
ملحوظات عامة على تاريخ مصر القديم والحديث........ ٣٣
الفصل السادس
في الرحلة العلمية ما بين بني حسن وأسيوط ٣٩
الفصل السابع
في تخت مصر أيام كل دولة ومدة حكمها إلى الآن ٤٣
الفصل الثامن
في الرجلة من أسيوط إلى العربية المدفونة........ ٥٢
الفصل التاسع
في أهم آثار مصر الوسطى والصعيد ٥٧
الفصل العاشر
في الرحلة العملية ما بين البلينا وقنا ٦٣

الفصل الحادي عشر
في الغرض من بناء الأهرام واختلاف وضع المقابر القديمة............................ ٦٥
الفصل الثاني عشر
في الرحلة العلمية من قنا إلى الأقصر أبي الحاج.. ٧٥
الفصل الثالث عشر
في تدميرالآثارعلى يد أهل مصر وما ينجم عن ذلك من المضار مادياً وأدبياً............ ٧٩
الفصل الرابع عشر
في الرحلة العلمية وتاريخ مدينة طيبة ٨٧
الفصل الخامس عشر
في الأدوار الأثرية واتقان الصناعة المصرية ٩٢
الفصل السادس عشر
في الرحلة العملية وبيان ما إشتمل عليه معبد الأقصر ٩٧
الفصل السابع عشر
في فائدة الآثار والحرص على المنع من العبث بها ١٠٣
الفصل الثامن عشر
في الرحلة العلمية بالأقصر.. ١٠٩
الفصل التاسع عشر
في العلوم المصرية والقوانين المدنية ١١٣
الفصل العشرون
باقي الرحلة العلمية في معبد الأقصر.. ١٢١
الفصل الحادي والعشرون
في دين قدماء المصريين وما إشتملت عليه المعابد من مباني ورسومات................ ١٢٧
الفصل الثاني والعشرون
الرحلة العلمية في آثار الكرنك من مدينة طيبة ١٣٤
الفصل الثالث والعشرون
فما قالوه في الروح بعد الموت وسب إعتنائهم بتحنيط الأموات وإعتقادهم في الجعل (الجعران) ١٤٠

الفصل الثالث والعشرون
باقي الرحلة العلمية في معبد الكرنك... ١٥١
الفصل الرابع والعشرون
في خرافات الأمم القديمة وذكر شئ من اعتقاداتهم ١٥٥
الفصل الخامس والعشرون
الرحلة العلمية في باقي وصف معبد الكرنك...................................... ١٦٥
الفصل السادس والعشرون
في بعض عوائد قدماء المصريين والإلماع بشيء من ترتيباتهم العسكرية ١٧٠
الفصل السابع والعشرون
لمحة على أطلال معبد الكرنك وما حوله من الخراب ١٨٢
الفصل الثامن والعشرون
في الصناعة المصرية والدرجة المدنية... ١٨٥
الفصل التاسع والعشرون
في الرحلة العلمية جهة القرنه وما حولها.. ١٩٨
الفصل الثلاثون
في تربية الدواب ونبات البردي وعمل الورق منه ٢٠٤
الفصل الحادي والثلاثون
الرحلة العلمية في معبد رمسيس الثالث ٢١٣
الفصل الثاني والثلاثون
في إعتقاد المصريين في منشأ العلوم وذكر هرمس والتنجيم وكتاب الموتى والسحر والطلاسم والحواة .. ٢١٧
الفصل الثالث والثلاثون
تتمة الرحلة العلمية في باقي معبد رمسيس الثالث ٢٢٥
الفصل الرابع والثلاثون
في أقدمية القلم المصري وإشتقاق جميع الأقلام منه وتاريخ الخط العربي وفائدته وترتيب الدواوين
.... ٢٣٣

الفصل الخامس والثلاثون

الرحلة العلمية في الدير البحري ٢٥٠

الفصل السادس والثلاثون

في الأحرف الأبجدية والمقاطع وبعض نصوص بربائية والخانات الملوكية ٢٥٨

الفصل السابع والثلاثون

في الرحلة العلمية في بيان الملوك.. ٢٧٣

الفصل الثامن والثلاثون

في الرحلة العلمية من الأقصر إلى جبل السلسلة ٢٨٣

الفصل التاسع والثلاثون

في معبودات المصرين ووظيفة كل واحد منها ٢٩٠

الفصل الأربعون

في الرحلة العلمية من جبل السلسلة إلى جزيرة أنس الوجود وهو آخر الفصول ٣٠٢

إكتشافات أثرية مصرية (في سنتي ١٨٩٣ و١٨٩٤ و١٨٩٥) ٣١١

مباحث علمية ونتائج تاريخية ٣٢٧